باربرا فيكتور

الحرب الصليبية الأخيرة



باربارا فيكتور

الحرب الصليبية الأخيرة

باربارا فيكتور

الحرب الصليبية الأخيرة

ترجمة: حسين عمر


المركز الثقافي العربي

العنوان الأصلي:
The Last crusade
(St Martins Press, New York)
Barbara Victor, 2004

الكتاب

الحرب الصليبية الأخيرة

تأليف

باربارا فيكتور

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى، 2006

عدد الصفحات: 320

القياس: 17,5 × 24

الترقيم الدولي:

ISBN 9953-68-168-6

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@ wanadoo.net.ma

بيروت ــ لبنان

ص.ب.: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

Email: cca_casa_bey@ yahoo.com

إهـــداء

إلى روح والدي الغالي،

الذي رحل عنّا

وأنا أعمل على ترجمة هذا العمل

حسين

المقدّمة

مسألةُ الله مسألةٌ حسّاسة ولكلٍّ رأيه فيها. وهي، إلى ذلك، مسألة يكون الناس مستعدّين لأن يموتوا ويقتلوا أقرانهم من بني البشر في سبيلها. ووراءنا تاريخٌ يمتدّ لقرون من سفك الدماء والنزاعات في سبيل الله والدين.

شاهد البعض معجزات، تماثيلٌ تبكي أو تقطر دماً، وأردية بيضاء مع رسم الربّ. وادّعى لفيفٌ من الناس امتلاك الدليل على وجود كائنٍ كلّي القدرة. وأخيراً، كان الكائن الأسمى قد اختار، مراراً، أن يتجلّى في مجموعة من النُخب المختارة بدقّة.

مع ذلك، ورغم كلّ هذا الهياج، فإنّ الحقيقة حول الله فاطر الكون وخالقه وسيّده لم توضّح أبداً.

في الواقع، وجد الإنسان نفسه منذ الأزل يواجه معضلة: كيف يمكن لإله المحبّة والرحمة أن يكون هو نفسه من يجيز البؤس والعذاب الإنسانيين، ويرضى، في غالب الأحيان أن يكون اسمه مصدراً لأعمال العنف والحروب؟

يُضاف إلى هذه المفارقة، واقع أنّ الجدل حول الإله لطالما جرى على خلفية الصراع بين الخير والشرّ. وإذا كان حتى غير المؤمنين يقرّون بوجوب إزالة الشرّ عن عالمنا، فإنّ لا أحد، في الواقع، يقدّم تعريفاً عالمياً حقيقياً يرضي البشر أجمعين.

اليوم، ونحن في القرن الواحد والعشرين، نشاهد بأنّ النزاع حول الله يشبه إلى حدٍّ كبير ذلك الذي كان يجري في إسبانيا، في القرن الخامس عشر إبّان محاكم التفتيش.

بالتأكيد، لا تُرغِم الكنيسة الكاثوليكية اليهودَ والمسلمين والسَحَرة المزعومين ورجال العلم الذين لهم رؤى مغايرة حول خلق الكون، على الإقرار بهرطقتهم

والوشاية بأئمّتهم تحت طائلة التعذيب أو إبادتهم على المحرقة، ولكن يبقى أنّ حرباً لا تزال مشتعلة، رهانها ليس معرفة ما إذا كان الله موجودٌ بقدر ما هو تحديد أيّ الله وأيّ دينٍ يجسّدان الخير كلّه أو الشرّ كلّه.

في عراق القرن الواحد والعشرين، يُعدُّ ضرب أعناق المسيحيين واليهود من قبل فرقة من المسلمين أمراً مألوفاً الآن. وبفضل التلفزيون والانترنت، لا يُخفى عنّا أيُّ تفصيلٍ مهما صغُر. وإذا كانت الأساليب المستخدَمة في الإرهاب والتخويف أكثر تهذيباً بكثير من تلك التي كانت للقرن الخامس عشر، فإنّ تبريرات القتل البربري، لمَن يُفتَرض أنّهم كفرة، باسم الله والدين لم تتغيّر منذ محاكم التفتيش الإسبانية.

إنّ أولئك الذين يعملون السيف في العراق، لهم تعريفهم الخاصّ للشرّ؛ رأيٌ مبيّنٌ بعباراتٍ مرعبة في بيانٍ لجماعةٍ إسلامية: «نحن نقتل الكفَرَة، أتباع الصليب لأنّهم تجسيدٌ للشرِّ المطلق».

في الجانب المعاكس، عذّب جنودٌ أمريكيون سجناء عراقيين وأهانوهم، وأرعبت صورُ انتهاكاتهم العالم.

حتى وإن كان مرتكبو هذه الفظائع لا يمثّلون الجيش الأمريكي، كما يُزعَم، فإنّ هذه الصور توحي بالاضطراب الذي أصاب عقول هذه البلاد.

منذ أيامنا في أمريكا، كان اللّه مسألة خلقت انقساماً عميقاً في المجتمع، شرخاً تجاوز السياسة والأحزاب في آنٍ واحدٍ. والولايات المتحدة المؤسّسة على مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة، منقسمة الآن بين أولئك الذين يدّعون بأنّهم مسيحيون إنجيليون ويزعمون بأنّهم يحيون «ولادة ثانية» هم الـ (Born Again Christians)[1] بعد لقاءهم مع يسوع المسيح وأولئك الذين ليست لديهم تلك التجربة وإن كانوا مؤمنين. حينما تخيّلتُ مشروع كتابة كتاب عن المسيحيّين الإنجيليين في الولايات المتّحدة، كانت خطّتي هي السعي إلى إدراك كيف

(1) سنعتمد تعبير «المسيحيون الخلاصيون» ترجمة لهذه العبارة – المترجم.

استطاع هؤلاء، في أقلَّ من ثلاثين سنة أن يغيّروا الوضع مثل هذا التغيير الجذري. فبينما لم يكن لهم عند انطلاقهم سوى نفوذٍ هامشيٍّ على المشهد الداخلي الأمريكي، ها هم يمارسون الآن تأثيراً حاسماً على السياسة الخارجية للبلاد، وخاصّة في الشرق الأوسط، وعلى نحو أخصّ في النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني. خلال الجزء الأكبر من مهنتي، قمتُ بتغطية هذا الصراع الذي لا نهاية له، وتحدّثت أو كتبتُ عن الطريقة التي يرى بها كلُّ طرفٍ الوضع. وأيّاً كانت التحليلات والبلاغة التي نسمعها في أركان العالم الأربعة، فإنّ أمراً واحداً كان واضحاً: كان الأمر يتعلّق بصراعٍ يواجه شعبين يطالبان بنفس رقعة الأرض، ومستعدّين للموتِ، كلٌّ في سبيل قضيته. في الواقع، كنتُ مخطئة، لأنّ منذ الآن فصاعداً، تشتمل هذه المعادلة على حدٍّ ثالثٍ - المسيحيون الإنجيليّون الذين يبرزون بدورهم حقوقهم على قطعة الأرض الصغيرة هذه، المتنازع عليها نزاعاً شديداً، والذين غيّروا دائماً توازن القوى في هذه المنطقة من العالم.

هل اختار المسيحيون الإنجيليون بعزمٍ أن يركّزوا جهودهم على السياسة الخارجية لمعرفتهم بأنّه لم يكن بمقدورهم أن يقرّوا قوانين مؤسّسة على الوصايا العشر، ومطابقة للأوامر الدينية والأخلاقية الناجمة عن معتقداتهم؟ يمكننا أن نطرح السؤال على أنفسنا.

مع ذلك، هناك أمرٌ مؤكّد: بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، عرف العالم تحوّلاً عميقاً.

وفي المحصلة، تغيّرت أولويات اليمين المسيحي بدورها، مثلما هي أولويات المجتمع الأمريكي، ومن ثمّ البلاد بأسرها.

كان اللّه دائماً مقترناً عن كثب بكل أوجه الحياة الأمريكية. ولكن هناك حدثان أساسيان من تاريخنا الحديث، لم يغيّرا النسيج الداخلي للبلاد فحسب، بل وضاءلت كثيراً فرص اتفاقٍ حول النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني.

أوّل الحدثين، حدث عام 1979، حينما أخذ مقاتلون إيرانيون بعض الأمريكيين رهائن في طهران. والثاني، في عام 2001، حينما اقترف إرهابيون

إسلاميّون هجمات نيويورك وواشنطن. في الحالتين، كان الجناة غرباء، الأمر الذي أيقظ وطنية اليمين المسيحي والبلاد بأسرها. يضاف إلى هذا، أن الإرهابيين كانوا مسلمين، الأمر الذي عزّز القناعة الإنجيلية بأنّ المسلمين كانوا وسوف يظلّوا العدو الطبيعي للقيم اليهودية - المسيحية، وهي تضمّ العلمانيين إلى المعركة ضد الشرّ الجديد والتهديد الذي يشكّله على أسس الديمقراطية. أمّا الجالية اليهودية الأمريكية، فقد اعتبرت أنّ الإرهاب الإسلامي على الأرض الأمريكية لم يكن سوى الامتداد للمعركة التي تخوضها إسرائيل منذ عقودٍ من الزمن.

أتاحت قضية رهائن 1979 لليمين المسيحي الفرصة ليختاروا مرشحهم المفضّل رونالد ريغان للمنصب الأرفع في البلاد. هذا الانتصار المحرَز، بدوره، لم يقُد الرئيس الجديد وإدارته إلى دعم العديد من القضايا التي كان يدافع عنها على الصعيد الداخلي فحسب، بل وإلى تغيير اتجاه السياسة الخارجية المرتبطة مباشرة بالنزاع الإسرائيلي - الفلسطيني. في عام 2000، كان لابدّ لنفس ذلك اليمين المسيحي أن يدعم ترشيح جورج دبليو بوش في الانتخابات الرئاسية. وسمح له هذا الانتصار الأخير بوضع «أحد أتباعه» في البيت الأبيض. ومع ذلك، فإن مأساة الحادي عشر من أيلول هي التي عمّقت تأثيره على الرئيس وعلى البلاد، لأنّه أدرك بأنّ الأمّة، تحت تأثير الخوف أو الدين، كانت، فجأةً، تتّحد أكثر من أيّ وقت. في كلتا الحالتين، تماهى الخير مع كلّ البلاد أو كلّ شخصٍ ملتزم بالقيم المسيحية، بينما بات الإسلام التجسيد المطلق للشرّ.

من وجهة نظر المسيحيين الخلاصيين الأمريكيين، كان الترياق الوحيد ضدّ الشيوعية الكافرة إيماناً قوياً باللّه. اليوم، يرى الأمريكيون أن العلاجين الوحيدين ضد الإسلام هما القيم اليهودية - المسيحية والقوة العسكرية.

في البداية، كنت أعتقد بأنّ موضوع عملي الحالي سيكون تأثير الإنجيليين على النسيج الأخلاقي والاجتماعي والثقافي للولايات المتّحدة. ولكن كلّما تقدّمت، أدركتُ أنّه كان من المتعذّر مقاربة الظاهرة من دون إدراك تأثيرهم الحاسم والكبير على السياسة الشرق أوسطية لأمريكا. وما اكتشفته أيضاً من خلال تجوالي في الولايات المتّحدة لمتابعة أبحاثي ومقابلة كل من كان يريد أن يفتح

قلبه لي، هو أنّ بلدي قد أصبح فريسة للتطرّف واللاعقلانية. حتى خصوم البرنامج الديني والعسكري لجورج دبليو بوش، مثل مايكل مور، ليسوا حياديّين في طرح أفكارهم ويحلّلون الوجه الأخر من اللوحة بدوغمائية واستخفاف شبيهين بتلك التي تستخدمها الإدارة الحالية لإثارة الخوف في قلوب الأمريكيين بأسرهم.

طيلة مهنتي كصحفية، كنتُ دائماً مقتنعة بأن إسرائيل يجب أن تبقى، ولكن، لكي تبقى وكأمّة ديمقراطية، يتحتّم عليها أن تجري انسحاباً أحادي الجانب من الأراضي المحتلة ومن قطاع غزّة. حينها فقط، سيعتبر العالم، وقد توقّف عن إلقاء العار على الدولة اليهودية، أن على الدول العربية أيضاً واجباً اتجاه الفلسطينيين.

وكأمريكية، لطالما كنتُ فخورة ببلدي بسبب كلّ الحريات التي يقرّها لمواطنيه، وبسبب الرخاء والرفاهية اللذين يحظى بهما الشعب الأمريكي مقارنة بالشعوب الأخرى، وأخيراً، بسبب المناخ العام لهذه البلاد، حيثُ يُكافأُ المرءُ على جهده، ويستطيع الفرد النجاح في فعل كلّ شيء، أيّاً كان وضعه الاقتصادي والاجتماعي في بداية انطلاقته.

لقد تغيّرت الأزمان.

الدرس المحزن الذي ينبغي علينا استخلاصه اليوم هو أنّ التطرّف بكلّ أشكاله عدو لدود للسلام والازدهار. إذا أصرّت الولايات المتحدة على قيادة الحرب وحيدة لاستئصال الإرهاب الإسلامي، أخشى كثيراً من ألاّ نشاهد في الحقيقة الحرب الصليبية الأخيرة التي يخوضها بلدي والعالم.

1

امرأة تحت التأثير

تبلغ جوليا بندغراست الستين من العمر، وهي تسكن منزلاً من طابقين في ضاحية راقية من كنساس سيتي في ميسوري. إنّها امرأة بيضاء وجامعية؛ لطيفة المعشر، تتكلّم بصوتٍ متقطّعٍ وتبدو مستعدّة لدحض أدنى شكٍّ أو أدنى استفهامٍ يُثار حول حكايتها الغريبة. امرأة مكتنزة، ذات يدَين وقدمَين كيدي وقدمي طفلٍ، ووجهٍ لطيفٍ بملامح متناسقة، وشعرٍ داكنٍ ممشّطٍ بفرشاة. للوهلة الأولى، قد تبدو ضعيفة هشّة، ولكن يكفي قضاء بضعة دقائق معها وسماعها وهي تتحدّث عن وظيفتها، للتأكّد من أنّها تملك طاقة لا حدود لها. حتى وهي جالسة، تكون في حركة دائمة، تهزّ كتفيها ورأسها بحماسةٍ تنمُّ عن حيوية فائقة.

حينما تتحدّث عن حياتها الزوجية مع طبيب تخدير شهير، يصبحُ جليّاً بأنّها عضوة محترَمة في جماعتها وتُدركُ واجباتها الأخلاقية والاجتماعية تجاه المعوزين.

ومع أنّها قلّما تهتمّ بالسياسة، فهي مدركة بوضوح للقضايا الداخلية والعالمية التي يتأثّر بها، اليوم، جميع الأمريكيين على نحو مباشرٍ. وهكذا، تتصدّى بدرايةٍ وبثقةٍ بالنفس للاقتصاد والبورصة والانحراف والعولمة وحاجة كلٍّ فرد إلى الاقتناع بأنّ تهديد الإرهاب دائمٌ في العالم أجمع، وأنّ أولى أهدافه هم الأمريكيون. وبالفطرة ذاتها، تصرّح بأنّ هجمات 11 أيلول 2001 كانت غايتها «إخراج الأمّة الأمريكية من غفوتها» وتتابع:

«لقد غدت الماديّة صنم أمريكا، ولذا سمح اللّه بتلك الهجمات، لتسفر عن شيءٍ خيّرٍ. أراد أن يقودنا إلى طريق الروحانية، تماماً مثلما سمح بالهولوكوست ليجعل قيام دولة إسرائيل ممكناً».

بالنسبة لجوليا بندغراست ومسيحيين إنجيليين آخرين من مناصريها، أهمية إسرائيل مطلقة ولا تتردّد هي نفسها وآخرون، في بعض الحالات، في إعادة كتابة التاريخ حتى تبدو محبّتهم للدولة اليهودية مقنِعة على نحو أكثر.

وهكذا، تذكر بندغراست، نموذجاً، حاييم وايزمان الرئيس الأوّل لإسرائيل، والكيميائي في مهنته، وتدّعي بأنّه قدّم للمملكة المتّحدة السلاح الذي كان ينقصها لإخراج القوات المتحالفة من براثن أدولف هتلر. تشرح بندغراست: «انظروا، لقد كانت انكلترا محرومة من الإنتاج الكيميائي الضروري لصناعة الذخائر والعتاد، حينها، اخترع وايزمان بديلاً. ولمكافأته على إنقاذه العالم من براثن هتلر، سأله القادة البريطانيون ما كان يمكنهم أن يفعلوه له. فأجاب وايزمان بأنّه يريد أرضاً للشعب اليهودي».

تتابع بندغراست، بهدوء ومنهجية، اندفاعها: تدّعي بأنّ قيام دولة إسرائيل يجسّد قدوم «مملكة يسوع المسيح، المخلّص، التي على وشك البدء». تقول: «انظروا، حينما يتم الوصول إلى عام 6000 وفق التقويم اليهودي، سيجري الشروع باليوم السابع من التوراة الذي هو علامة وصول المخلّص. الخلق الذي استغرق سبعة أيام يمثّل سبعة آلاف سنة، بما أنّ كل يوم يُعادل في الواقع ألف سنة». تصمتُ بُرهةً، ثم تتمتمُ بصوتٍ بالكاد يُسمَع: «ولأنّ اللّه قد بلّغني بأنّني لن أموت أبداً، سأكون حاضرة لحضور عودته إلى الأرض».

لا تبدو بندغراست متضايقة على الإطلاق من الحديث على التأكيد بأنّ اللّه قد بلّغها بأنها لن تموت أبداً. حينما سألتها إن كانت قد أبلغت أشخاصاً آخرين بذلك فيما مضى، نظرت إليّ نظرة عطفٍ، وكأنني كنتُ، إن صحّ القول، في منتهى الجهل لأفهم بأنّ معتقداتها ليست في الواقع على شيءٍ من الندرة أو على ما هو غير اعتياديٍّ بالنسبة لمن يشاطرونها عقيدتها. ولتبرهن لي بأنّها ليست امرأة تروي كلاماً لا معنى له، أخبرتني، بأنّها، قبل زواجها، كانت تعمل ممرّضة في قسم جراحي، وبأنّها عرفت زوجها في غرفة العمليات. أكّدت بندغراست بأنّها، وإنْ كانت تصلّي دائماً من أجل الشفاء لمرضاها، لم تشكَّ قط بأنّ التقنيات الطبية والطب الحديث كانت، في جزءٍ كبيرٍ منها، كفيلة بشفائهم. «طبعاً، كنتُ

أحافظ على البروتوكول الطبي مع مرضاي ولكني كنتُ أحدّثهم على الدوام عن يسوع على أمل أن يرضوا به مخلّصاً». هزّت كتفيها: «كيف يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك» كأنّني بهذا كنتُ أتصرّف بالدواء المضاد للسرطان، وأرفض اقتسامه مع بقية النّاس».

للسيدة بندغراست ولدان بالغان ناجحان في الحياة، ولهما بدورهما أولاد ظُرفاء. تحدّثت عن واحدةٍ من حفيداتها البالغة ست سنوات من العمر، وتدّعي بأنّها «متأثّرة بالربّ» تماماً. ومن البديهي أنّها تشعر بأنّها الأقرب إليها، فتقول عنها: «إنّها طفلةٌ مولعةٌ جداً بما هو روحي، وقد تلقّت هبةً من اللّه». ثم أخرجت صورة لصبيّةٍ بشعرٍ مصفرٍّ وابتسامةٍ روحية، تحيط بيديها فراشة بنفسجية. «لقد التقت بالربّ، وهو قال لها بأنّ يديها موهوبتان في الشفاء».

تبدو بندغراست، لمن يراقبها ظاهرياً، واقعيّة، وهي صريحةً جداً وعفيفة تماماً عندما تجيب على الأسئلة المتعلّقة بعقيدتها الخاصّة. تتكلّم عن اللّه وعن حضور جلالته في حياتها كصديقٍ وكسيّدٍ روحيٍّ، وتذكر بنفس اليقين المعجزات التي اجترحها إكراماً لها. مسيرتها الدينية تماثل مسيرة أغلبية الخلاصيين المسيحيين الإنجيليين. مع أنّها معمدانية المولد، إلاّ أنّها، في الواقع، لم تعرف يسوع مخلّصها إلاّ في الثالثة عشرة من عمرها، حينما قابلته للمرّة الأولى. تقول ببساطة: «كان ذلك أثناء الحفلة التي كانت تُقام بمناسبة ربيعي الثالث عشر. تجلّى لي يسوع في حمّامات النساء. قال لي بأنّني كنتُ في العمر الذي يجعلني أتبنّى خياراتي الخاصّة، وفي تلك اللحظة، اخترت أن أكرّس حياتي له، له وللخالق». حينما دخلت الجامعة، كان بمقدورها الصلاة «بالألسن» الأمر الذي وحدهم المسيحيّون العَنْصَريون[1] يجيدون القيام به.

ولأنّ المسيحيين العَنْصريين مقتنعون بأنّ الروح القدس قد نزلت عليهم،

---

(1) نسبة إلى عيد العَنْصَرة ـ المترجم.

مثلما نزلت على الحَواريين يوم عيد الحِصاد اليهودي، فهم يبعثون أصوات غريبة ويتكلّمون بلسانٍ غير مفهومٍ حينما يصلّون للربّ لكي «يخدع الشيطان الذي يتسكّع في الطبقة الثانية من السموات» . تشرح بندغراست «بفضل هذه الهبة التي أنعم اللّه بها عليّ، صعدت صلواتي مباشرة حتى الطبقة الثالثة، حيث يتربّع يسوع هناك إلى يمين الربّ».

وإذا كانت قد انتقلت من المعمدانية إلى المسيحية الإنجيلية، مع ميلٍ كاريزماتي[1] أو عَنْصَريٍّ ، فهذا ليس بفضل الهبة التي منحها يسوع فحسب، بل وكذلك بفضل أمّها التي، وهي الضليعة جدّاً في الأناجيل، كانت تملك رؤى تسمح لها بقراءة المستقبل. حسب بندغراست، أمّها هي أوّل من «فتَحَ» عيونها على الأهمية التبجيلية لإسرائيل وللشعب اليهودي. رَوَتْ : «منذ طفولتي، علّمتني أمّي أنّه كان يجب أن نحبّ اليهود لأنّه الشعب المختار الذي عقد اللّه معه، بوساطة إبراهيم، تحالفاً تعود بموجبه أرض إسرائيل كاملة إلى ملكيتهم».

ولإثبات أقوالها، ذكرتْ إثباتاً «تاريخياً» آخرَ عن هذا الواقع : «أحد الأسباب التي من أجلها عذّب الآباء الحُجّاج في إنكلترا، والسبب الذي من أجله جاؤوا إلى هنا بحثاً عن الحرية الدينية، هو أنّهم كانوا يؤمنون بأنّ اللّه قد وهب إسرائيل للشعب اليهودي. ولـمّا لم تقرُّ كنيسة إنكلترا معتقداتهم بشأن إسرائيل، حاولت إرغامهم على التخلّي عنها، الأمر الذي رفضوا القيام به، ولذا فرّ الحُجّاج إلى أمريكا».

حسب بندغراست، كان والدها أقلّ تصوّفاً من والدتها، ولكنّه كان في الوقت ذاته متديّناً بعمق، وموهوباً بحسٍّ حادٍّ «برسالته حيال سيّدنا يسوع المسيح»، وساعدها، في نهاية حياته، على تحقيق ما تسمّيه «إرادة اللّه» .

وباعترافها هي، لم تفكّر بندغراست أبداً بأنّها لم تكن تستطيع الحديث مباشرة إلى اللّه، وسماع ردّ جلالته. فتشرح : «حينما نتكلّم إلى العلّي القدير،

---

(1) charismatique.

إلى الخالق، يستجيب لنا، ولطالما ردّ عليَّ عبر الأناجيل. ولاحقاً شرع يحدّثني بصوتٍ جهير». فعلياً، تتذكّر بندغراست أنّ ابنها البكر الذي كان يبلغ، حينها، من العمر حوالي ست سنوات، حينما سمعها تتكلّم وحيدةً في المطبخ، ذُهِلَ عندما عَلِمَ بأنّها كانت تتوجّه للربِّ. «سألني لماذا لم يكن يسمع صوت الرّبّ. شرحتُ له، بأنّه ما لم يدخل الرّبّ إلى روحه، في نفس اللحظة التي يدخل فيها إلى روحي، لا يمكنه سماع حديثنا».

تؤكّد بندغراست بأنّ مهمّتها في خدمة الرّبّ، بدأت في العام 1979، أثناء واحدةٍ من الزيارات المنتظمة التي كان يزورها يسوع-المسيح. حينها أعلمها بأنّه كان لديه أمرٌ «عظيمٌ» ليقدّمه لها، ليمنح معنىً لحياتها.

تتذكّر التاريخ بشكلٍ دقيق، لأنّه كان يوم احتلّ طلبةٌ إيرانيون السفارة الأمريكية في طهران وأخذوا أمريكيين رهائن. تشرح بندغراست : «كنتُ، حينها، في بيتي في الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر، أعترفُ وأتناول، وكنتُ أصلّي من أجل تحرير الرهائن، حينما تجلّى لي، أثناء صلاتي، وأخبرني بأنّه، في الخريف، ستكون هناك في خَوْرنيّتي (رعيّتي)، سهرةُ صلاةٍ محتشمةٍ للنساء. كانت الوقت قد حان لتعبئة المسيحيين ليقفوا ضدّ آفة الإسلام. كنتُ أظنُّ أنّه كان يلمّحُ إلى خريف 1980. ولكن ما أن أقبل الخريف ولم يحدث أيُّ شيء، طلبتُ إلى الرّب أن يُرسل لي علامةً، أيَّة علامة، ليعلمني بأن السنوات قد اختلطت عليَّ».

ومضى عامٌ دون أدنى كلمة من الرّبّ.

عام 1981، كُشفَ عن إصابة والدي بندغراست بسرطانٍ معمّم، وبينما كانت تعتني بهما وتصلّي لراحةِ نفسيهما، تلقّت، أخيراً، أخباراً من الرَّبّ تخصّ مهمّتها التي أوكلها جلاله لها. قال يسوع لبندغراست بأنّ كان قد «انشغل عنها بالاهتمام بالسياسة وبعملية تحرير الرهائن». ولكن الآن قد حان «دورها». وكانت ستلعبُ واحداً من «الأدوار الأولى» في حدثٍ مهمٍّ.

وتتابع: «في الواقع، أطلعني عبر الأناجيل على 11- 9 التاريخ الذي كان

عليه أن يقع في الشهر الحادي عشر. حينها، قال جلاله،كان عليَّ أن أتنبّأ بدعوة رسمية». في نهاية الأمر، أدركت بندغراست أن اللّه كان يشاء بأن تقيم ليلة كاملة من الصلوات تمهيداً لخدمتها الكهنوتية الخاصّة. «ولكنني كنتُ لا أزال حائرة، لأنني كنتُ أعلم بأنّه لا يمكن لليلة من الصلوات أن تُقام في يوم سبتٍ، إذ على المشاركين فيها أن يستيقظوا صباح الأحد، ليذهب كلٌّ إلى كنيسته، و، حُكماً، لا يمكن كذلك أن يكون المقصود ليلةً من الأسبوع. فمنطقياً، لم يكن يبقى سوى الجمعة. صلّيتُ بكل ما أوتيتِ من القوّة، وقلتُ للرّبِّ : «يا ربّ، لا أدري إن كانت فكرة جلالك حاضرة أم لا، ولكن الخريف قد أقبل، وسلك الأطفال من جديد درب المدرسةِ، أتضرّع إلى جلالك أن تبعث إلي بإثباتٍ للتاري» أغلقت بندغراست عينها لبرهةٍ قبل أن تتابع : «كنتُ غارقة في قراءة الأناجيل، كانت روحي متوقّفة عند آيّة خاصّة، حينما، أصبح، فجأةً، كلُّ شيءٍ واضحاً، وسمعتُ بوضوحٍ تامٍّ الرّبّ الذي كان يطلب منّي أن أُقيم دعوة رسمية لليلة الجمعة 11 أيلول 1982».

تماماً كاليوم الذي أخذ فيه طلبةٌ إيرانيون موظّفين في السفارة الأمريكية رهائن، أصبح الحادي عشر من أيلول مرتكزاً أساسياً لعقيدة المسيحيّين الإنجيليين ولقناعاتهم السياسية.

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، توصّلت بندغراست إلى قناعة بأنّ اختيار هذا التاريخ من قبل الربّ لسهرتها للصلاة، لم يكن من قبيل الصدفة. ومع ذلك لم تكن تعرف حينها ما المغزى من ذلك، ولكنّها كانت على قناعة من أنّ الرّب، مع مرور الزمن، سيظهر لها ذلك. قالت: «لم أُفاجَأ حينما وقعت الهجمات في ذلك اليوم، كنتُ مصدومةً؟ مذعورةً؟ نعم! ولكن لم أُفاجَأ أبداً».

بالنسبة للمسيحيّين الإنجيليين، يتعلّق الأمر هنا، من الآن فصاعداً، بتاريخ مقدّسٍ، لأنّ اللّه شاء أن يُعلِم العالم، في وضع نسي فيه البعض أو هانوا كثيراً في يقظتهم منذ المأساة الإيرانية للرهائن عام 1979، بأنّ حرباً مقدّسةً كانت مندلعة بين الإسلام والعالم اليهودي ـ المسيحي.

ككلّ المسيحيّين الإنجيليّين الآخرين الذين يعيشون الآن في أمريكا ويصوّتون

فيها، جوليا بندغراست تقيّة متزهّدة، تتلقّى بطيبة خاطر زيارة يسوع - المسيح أثناء الأحلام وأثناء قراءة التوراة، أو في كلّ الأمكنة التي يطمح الناس إلى لقاء جلاله فيها.

ككلّ المسيحيين الخلاصيين العَنْصَريين الذين «يتكلّمون بالألسن» أو الذين يعتقدون بكل بساطة بأنّ الله أوكل إليهم «رسالة إلهية» تبدي بندغراست براغماتيةً ورشاداً حينما يتعلّق الأمر بتناول كلام الرّب واستخلاص تطبيقات ملموسة ومحسوسة منه. تقول: «بفضل الخالق، كنتُ أعرف ما علي فعله، حتى يتحقّق مشروع جلاله المتعلّق بي».

كانت الأمور تسير في نصابها، كان يسوع قد أطلعها على تاريخ، بل ومكان ليلة صلواتها. بل كان قد تدخّل حتى لدى الرعية التي تنتمي إليها حتى تتمكّن من التصرّف بصالةٍ مساء يوم الجمعة الذي نحن بصدده. في اليوم المحدّد، 11 أيلول 1982، حضرت ستون امرأة مهيّأة للصلاة حتى الفجر. قالت بندغراست: «حوالي منتصف الليل، أقبلت نحوي امرأة أخرى، كانت قد ساعدتني في تنظيم كلّ شيء، وقالت لي: «جوليا، شيءٌ ما يحدثُ هنا»، وأتذكّر أنني أجبتها بأنني كنتُ أعلم. كان الرب يهب للتوّ ولادةً لخدمة كهنوتية. في تلك الليلة، ظهر لي جلاله من جديد، في المنام، وقال لي أن أُسمّي خدمتي الكهنوتية بـ «كلام الرّبّ» .

كانت بندغراست مستعدّة للامتثال لأوامر الربّ الخاصّة بحياتها. ولكنها كانت تعلم أيضاً بأنّه حتى «تولَد» خدمتها الكهنوتية، كان يلزمها الكثير من المال. وبصفاء وهدوء، ذكرت «الدروب المسدودة» للرّبّ الذي ساعدها، على ما تؤكّد، في تسديد كلّ ما يترتّب على مهمّتها. «تدبّر الرّب كل الأمور، لأنّ جلاله كان يعلم بأنّ خدمتي الكهنوتية سترى النور فقط بعد ممات والدي. بعباراتٍ أخرى، لو كنتُ أُحسنُ تدبير الوضع، لاستطعتُ التصرّف بالمال الضروري لإقامتها».

بعد شهرين من ليلة الصلوات، ماتت والدة بندغراست. بعد تلك الوفاة، حثّها الرّب على أن تقول لوالدها ما كان جلاله ينتظره منها قبل أن يغادر، هو نفسه، هذه الدنيا. وشرحت : «لم نكن سوى اثنين مع أخي، كان مدركاً لكلام الرّب، ولكنه لم يكن متزهّداً مثلي». بيد أنّها نجحت في إقناع والدها بأن يهبها

خمسمائة ألف دولار، وهو كامل ميراثها وميراث أخيها، في سبيل «ولادة» خدمتها الكهنوتية. «قلتُ لأبي بأنني كنتُ أريدُ بَرَكتهن وحدّثته أيضاً عن غرض صلواتي ومحادثاتي مع الرّب طيلة السنوات الماضية. سألني والدي إن كنتُ قد تكلّمتُ مع أمي عن ذلك قبل وفاتها، وقلتُ له بأنّها كانت موافقة على أن آخذ المال. كان والدي يريدُ أن أتكلّم مع تيلما، شقيقة ماما، التي كانت هي الأخرى مولعة جداً بالروحانية والصوفية. كنتُ قد رويت لتيلما كلّ أحاديثي مع يسوع، بحيث، حينما استشارها والدي، قالت له بأنّه ينبغي عليه أن يعطيني المال، وأن يدرك أخي بأنّ الأمر هنا كان يتعلّق بإرادة الرّب». الشخص الوحيد الذي لم ينبس ببنت شفة عن رسالتها الإلهية كان شقيقها. سيعلم بذلك لاحقاً، أي بعد أقوال بندغراست، «عندما سيخبرني اللّه بأن الوقت قد حان لإعلامه بذلك».

تقرّ بندغراست بأنّه لم يكن لديها أيّ فكرة عن العواقب القانونية لذلك التدخّل الإلهي الذي كان قد جعلها المستفيدة الوحيدة من التركة الأبوية. ولكنّها كانت محظوظة: كانت خالتها تيلما تعرف خبيراً في المحاسبة، نصحها بالإمضاء على كلِّ شيءٍ بأسرع ما يمكن. «خالتي ومحاسبها دفعاني إلى تسوية كلّ شي قبل موت بابا، وإلاّ سيكون علي أن أدفع رسوم الأيلولة المرتفعة جدّاً. قالا لي بأنّه لو دفع لي بابا هبةً قبل رحيله، سوف لن يكون هناك أيّ شيءٍ ينبغي دفعه للدولةِ أو للحكومة الاتحادية. وشرح لي محاسبي بأنّه لو أعطاني والدي المال في حياته، سوف لن يعود لأخي سوى أن يعترض».

حقّاً أنّ دروب الرّبّ لا تَنْفُذ. بمجرّد أن وُقِّع كلُّ شيء، تصرّف بحيث يتمكّن والد بندغراست من أن يزور للمرّة الأخيرة إنديانا لرؤية ابنه وأحفاده. «كان أخي متحمّساً لفكرة أن يريد والدي رؤيتهم. في الأساس، كان الأمر يتعلّق بزيارة لأسبوعٍ واحدٍ، ولكن، بعد التفكير، استغرقت ثلاثة أسابيع. حتى في هذا، أدركتُ تأثير الرّب. كان الجميع في منتهى السعادة بتلك اللقاءات، سيما وأنّهم كانوا يعرفون بأنّه سيكون حتماً اللقاء الأخير. أضف إلى ذلك، أن بقاء والدي عند أخي لما يقارب الشهر، منحني متّسعاً من الوقت، بمساعدة المحاسب وخالتي وشخصٍ مدهشٍ من خَوْرَنيتي لتسوية كلّ شيء بما في ذلك جملة القضايا القانونية».

واغرورقت عينا بندغراست بالدموع. «بفضل الرّب، كان والدي قد وقّع على كلِّ شيء قبل مغادرته إلى إنديانا. بعد يومين من عودته، غادرنا، وحينها أيضاً شاهدتُ بصمة الرّب – قالت بهدوء - كانت اللحظة المختارة لوفاته علامة. كان أخي مسيحياً صالحاً، وبالتالي كنتُ واثقة من أنّه كان سيوافق على دروب الرّب والخطط التي حدّدها جلاله لي».

بعد الجنازة مباشرة، أخبرت بندغراست شقيقها بما كان اللّه قد أوصاها أن تفعل بأموال والدها. وحسب ما قالت، فإنّ شقيقها صُدِم لذلك،واستشاط غضباً. ولم يتكلّما مع بعضهما منذ ذلك الحين.

قالت بهدوء: «سينتهي إلى العودة إلى رشده لأنّ اللّه سيريه صواب أفعالي. أنا راضية وأُصلّي لصلاحه». تصلّي بندغراست كذلك لأن يمتنّ الربّ لوالديها، حينما يلاقيهما في السماء، على ما أنجزته، لأن مالهم هو الذي أتاح كلَّ ذلك .وتبادر مضيفة: «لم تكن تلك فكرتي. الرّبّ هو الذي وضع تلك الصلوات في قلبي، لأنّ جلاله كان يعرف مسبقاً بأنّ والدتي كانت ستموت في 1981، وأنّ والدي كان سينضمّ إليها بعد مدّة قصيرة، بالكاد قبل أن تصبح خدمتي الكهنوتية واقعاً».

اليوم، الخدمات الكهنوتية لكلام الرّب منظمة تضمُّ أكثر من خمسة وسبعين ألف مسيحية ينتشرن في عموم الولايات المتّحدة. لهنّ هدفان رئيسيان. الأوّل هو جباية الأموال لتمويل حملات المرشحين الإنجيليين الذين يكافحون في سبيل دعم قضايا وطنية عزيزة على قلوب اليمين الأمريكي مثل «إنقاذ الأطفال قبل الولادة» وتشجيع الصلاة في المدرسة، وإدانة «فساد المثلية الجنسية» ، ودعم الحرب في العراق.

المهمّة الثانية تشتمل على ممارسة الضغط على المسئولين السياسيين ليحكموا لصالح الحلّ القائم على الدولة الوحيدة في النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني.

ولتحقيق أغراض خدمتها الكهنوتية، تحشد بندغراست الموالين لها وتجنّد عضواتٍ جديدات سيكون عليهنَّ زيارة إسرائيل مرّاتٍ عديدة كلَّ عام، أو

سيكرّسن وقتهنّ وأموالهنّ لإقامة وتحديث المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزّة. النساء العضوات في المنظّمة يقمن بالتبشير في بعض المناطق الأكثر تنازعاً عليها من الأراضي المحتلة أو يعطين الدروس حول يسوع المسيح المخلّص في بعض مناطق الأرثوذكسية المتطرّفة في إسرائيل. في غضون سنة 2002 وحدها، قمن بجباية أكثر من 35 مليون دولار، وقدّمنها هبة لمختلف المشاريع المدنية والاجتماعية في القدس وحيفا ويافا، كما في تجمّعاتٍ استيطانية يهودية مُقامةٌ بالقرب من رام اللّه والخليل. كانت مسيرة بندغراست مع يسوع، كشراكة، تبدو مستحيلة على كلّ الصُعُد. ومع ذلك، في النتيجة، تحقّقَ كلّ شيء لأنّه حينما يتعلّق الأمر بدروب الرّب - تقول - يكون كلّ شيء مسألة توقيت.

«كان الخالق شريكي، فكيف أفشل؟»

2

قال لي يسوع

باسم اللّه، تُرتَكب في العالم أعمال دنيئة أكثر بكثير ممّا فعلت تلك المرأة التي، وهي مقتنعة بأنّها تلقّت أوامر إلهية، نزعت عن أخيها تركة والده. على مرّ التاريخ، شُنّتْ حروب، وأحرِقَ بِذْعيّون بالمحرقة، واغتيل قادةٌ سياسيون، وأُسقِطَت حكومات، وارتكِبَتْ، باسم الدين، فظائعٌ لا تُعدّ ولا تُحصى. وإذا كانت الأعمال الإرهابية، خلال الربع الأخير من القرن، قد أُرتكِبَتْ في ظلّ الإسلام، فعلى مرِّ تاريخ الولايات المتحدة، شنّت مجموعات يمينية متطرفة مقاتلة هجمات، بعنف في منتهى الدموية، ضد أمريكيين باسم اللّه والوطنية. مثل تفجير مبنى آلفريد ب. موراه في أوكلاهوما سيتي، في 19 نيسان 1995.

مرتَكِب هذه الجريمة هو تيموتي ماكڤايغ، رجلٌ في السابعة والعشرين، كان يعتقد بأنّه يتصرّف للدفاع عن «اللّه والدستور» . كان ماكڤايغ عضواً في جماعة مسلّحة أمريكية جذّرت إلى حدّ التطرّف «التعديل الثاني» الذي يكفل حق حمل الأسلحة، مستندة على نزعة وطنية بوحي إلهيٍّ. كان ذلك الهجوم تسبّب بمقتل 168 شخصاً من بينهم 19 طفلاً. يوم انقضّ على هدفه بشاحنة محمّلة بالمتفجرات، كان ماكڤايغ يرتدي سترة كُتبتْ عليه عبارة: «لابدّ، من حينٍ إلى آخر، من إحياء شجرة الحرية والإيمان بدماء وطنيين وطغاة وقديسين».

عملٌ إرهابي آخر، قلّما يُذكر بصدده الإقرار الإلهي، ألا وهو اغتيال ابراهام لينكولن على يد جون ويلكز بوت، الممثّل الفاشل، والوطني المشوّش الذي استند إلى الدين والتمييز لتبرير فعلته الدموية.

طيلة حياته، روى بوت لكل من كان يريد سماعه، بأن أمّه، في ليلة ولادته، كانت قد «صلّت للّه بأن يلهمها، بعلامة، ما يخبئه المستقبل لابنها». حسب بوت، كانت أمّه قد أكّدت على الدوام، بأنّ ألسنةَ لهبٍ كانت قد ظهرت في المدفأة، استجابةً لتلك الصلاة، وهي ترسم الكلمتين «اللّه والوطن» . كانت تدّعي، حتى النهاية، بأنّ مصير ابنها كان «أن يكابد نار الاضطهاد، قبل أن يظهر في العمل الأخير كقدّيسٍ ووطني». طيلة تاريخ الولايات المتحدة، خلط رجال السياسة، باستمرار، بين الدين وقضايا الحياة الكبرى للبلاد: العبودية أولاً، ومن ثمّ الحقوق المدنية وحقوق الإنسان، حرب ڤيتنام، البيئة، التطوّر وروح الإبداع، حقوق المثليين والنساء، تقييد حمل السلاح، عقوبة الموت، وطبعاً الإجهاض. فيما يخصُّ السياسة الخارجية، كان الدين والإيمان، على الدوام، مصدراً لرفع معنويات الشعب الأمريكي أثناء الشدائد والملمّات.

أثناء الحرب العالمية الأولى، أكّد ويدرو ويلسون بأنّ هذا الصراع «كان يُظهِرُ بأنّ أمريكا ترتقي نحو القمم حيث لاشيء آخر سوى الألق الصافي للعدالة الإلهية، أمريكا التي تعكس الضوء الخافت الذي ارتفع أثناء الصَلْب، ولادة العالم تلك مع العصر المسيحي».

أثناء الحرب الباردة، وصف الرئيس هاري س. ترومان، مرّات كثيرة، الشيوعية بـ «الكافرة» بحيث انتهت العبارتان إلى أن تكونا مقترنتين ببعضهما على الدوام، مشكّلة كليشه جديدة.

قبل نحو ثلاثين عاماً، أظهر آلڤان توفلر في كتابه «صِدام المستقبَل» كيف أنّ «إيقاع المجتمع الحديث وهجرته لا تضلّل فحسب، بل وتنفّر الفرد الذي يسعى، بعد الآن، عبر الهياكل الجديدة كالدين والمشاركة في أنشطة الكنيسة، إلى استعادة هويته المفقودة» .

خلال الربع الأخير من القرن، تفاقمت الأعراض التي وصفها توفلر مع الخوف من المجهول واللا استقرار العام للمجتمع المُثار عبر التهديد بالهجمات الإرهابية العمياء. كذلك كان الأمريكيون في بحثٍ عن معالم جديدة، الأمر الذي حضّهم على نحو متزايد على انتخاب رجال سياسة، أو أتباع زعماء دينيين،

يجعلون من الإيمان بالكتاب المقدّس والثقة بالكلام الإلهي سوراً ضدّ الشر. حتى وإن كان ليس جميعهم يؤمنون باللّه، فإنّ الأمريكيين يجدون بديلاً في بعض الرجال السياسيين الذين يدّعون بأنّهم كانوا الغرض من «تدخّلٍ إلهيّ» أو يستفيدون من معرفتهم بالكتاب المقدّس كوسيلة لحماية كلّ الناخبين من الشر، بمن فيهم أولئك «الكافرين» .

منذ سقوط الإمبراطورية السوفياتية، تغيّرت ذهنية الأمريكيين تغيّراً قوياً؛ فقد أصبح الإسلام المتشدّد، بدلاً عن الشيوعية، هو الشر الأقصى. وفي النتيجة، صار اليمين الديني، وحتى أغلبية الأمريكيين العلمانيين مستعدين للتضحية بحقوق البعض في سبيل ضمان الأمن للجميع.

حالياً، لم يوسّع اليمين المسيحي - الخلاصيّون أو المسيحيون الإنجيليون - تأثيرهم في البلاد برمّتها فحسب، بل وحازوا على النفوذ الكافي لتعديل اتجاه السياسة الخارجية، ولاسيما فيما يخصّ الشرق الأوسط، والنزاعِ الإسرائيلي - الفلسطيني على نحوٍ خاصٍّ.

السبب الآخر المهمّ لتأثيرهم في هذا المجال، هو العلاقة الغامضة بعض الشيء التي أقامها الإنجيليون مع الجالية اليهودية الأمريكية والمجتمع الإسرائيلي.

منذ قيام دولة إسرائيل، التي يتخذها الإنجيليون كدليلٍ على أنّ العالم يقترب من المجيء الثاني للمسيح المبشّر به في العهد الجديد، لم تبلغ الحماسة الرسولية عند الأصوليين المسيحيين مثل هذه الذُرى، خاصّة بشأن إسرائيل. وفق استطلاع لمؤسسة غالوب، أُجري في كانون الأول 2003، قُدِّر عدد أعضاء منظمة المسيحيين الخلاصيين، في الولايات المتحدة، بثمانين مليون شخص، يُبدون في هذه البلاد دعماً غير منقوصٍ بسبب العديد من الأحداث السلمية المعيّنة التي أصبحت من المعالم الأساسية لتاريخهم المشترك. في البدء، كانت المحرقة، ومن ثمّ أصبحت قيام دولة إسرائيل. ربّما صدم هذا الحدث الثاني المجتمع المسيحي على نحو أكبر، رد الفعل الأكثر شيوعاً لهذا الجانب، حيال آلام اليهود، كان أنّ الأمر يتعلّق هنا بالنتيجة المنطقية لرفضهم ليسوع المسيح ولصلبه. كانت الحجّة بسيطة: رفض اليهود المسيح يسوع، ثمّ بدوره رفضهم اللّه، واستدار، بوضعه

نهاية لـ «ميثاقه» معهم، نحو الكنيسة.

في الخمسينات من القرن العشرين، بعد الحرب مباشرةً، كانت الحركة الإنجيلية قد انتعشت في الولايات المتحدة بإقامة الدولة اليهودية، التي اعتبر أعضاءها أنّ الأمر كان يتعلّق هنا بتحقيق واحدة من نبوءات الكتاب المقدّس. ظاهرياً، ادّعى المسيحيون الإنجيليون باستمرار أن حبّهم لإسرائيل واليهود ناجمٌ فقط من انضمامهم إلى الميثاق الإبراهيمي في سفر التكوين حيثُ قيل بأنّ اللّه ورّث الأحفاد العبريين لإبراهيم الأرض القديمة لإسرائيل، وهذه نقطة أساسية في عقيدة الإنجيليين. في الرسالة التَقَوية إلى الرومانيين، أعلن القديس بولص بأنّ هذا الجدل يجازف بأن يستغرق إلى حين قيام الساعة. ينبغي أن يجري بوعي وذكاءٍ واحترام ومحبّة. قد يكون عظيماً الشعور بالخجل، وقويّاً إغراءُ الصمت، ولكن ليس للأبناء الأوفياء لرب إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويسوع الحقُّ في أن يتوقّفوا عن ذلك قبل أن يحين الوقت المناسب. ويضيف بأنّه لا يمكننا، ببساطة، أن نتّفق على خلافنا، لأننا في استكشاف اتّفاقنا وخلافنا نكون الأكثر ارتباطاً بعضنا ببعض.

واقعيّاً، هذا يعني بأنّ ليس من حقِّ أحدٍ، ولا حتّى سياسي إسرائيلي أو زعيمٍ أوروبي أو أمريكي أو عربي أن يناقش حدود إسرائيل مثلما ثُبِّتت بالنصّ التوراتي المعصوم. «لا تعلو كلمة الإنسان «لا» على كلمة اللّه «نعم»». هذا أحد الشعارات المفضّلة للمسحيين الإنجيليين.

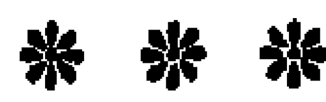
غير أنّ الإنجيليين، من وراء هذه المظاهر، سعوا على الدوام إلى هداية اليهود وليس إلى نيل عطفهم. أو اعتبروهم كممثلين قاصرين على مسرح مسيحيين حيث يفترض بهم الاعتراف بيسوع حتى يُمكن تحقيق نبوءة الكتب المقدّسة التي تقول بأنّ المسيح سيعود إلى الأرض مخلّصاً ومنقذاً للبشرية جمعاء. في عام 1963، أثناء المجمَع الفاتيكاني الثاني - Nostra Aetate- أعلن البابا يوحنا الثالث والعشرون أنّه لا ينبغي بعد الآن اعتبار اليهود مذنبين في موت المسيح. غير أنّ، ورغم هذا الإيعاز الصادر من أعلى السلطات في الكنيسة الكاثوليكية، لا تزال هناك في العالم آثارٌ راسخة جداً لمعاداة السامية تظهر بين الحين والآخر

إلى السطح. المثال الأحدث على ذلك هو فيلم ميل غيبسون «آلام المسيح» الذي يشوّه رواية الكتاب المقدّس لصلب المسيح بإصراره غير المعقول على الخطأ الذي ارتكبوه. حتى وإن لم يكن للمسيحيين الإنجيليين وزناً كهذا في عموم البلاد، وحتى وإن لم يكن كاتب ومخرج ومنتج هذا الفيلم، ميل غيبسون ينتمي لفرعٍ كاثوليكيٍّ من الخلاصيين يرفض قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني، فإن هذا الفيلم، مع ذلك، وبسبب حملة دعائية صاخبة واسعة وبسبب محتواه المثير، قد فتح من جديد الجراح القديمة لمعاداة الساميّة التي كادت أن تكون قد اندملت منذ أربعين سنة.

خلال الربع الأخير من القرن، ورغم بعض الحوادث العرضية المنعزلة الناجمة عن الحقد والأحكام المسبقة، فقد شوهِدت في العالم أجمع إقامة تفاهم روحي وثقافي وسياسيٍّ على نحوٍ خاص بين المسيحيين الإنجيليين واليهود. بالنسبة للمسيحيين، انطلاقاً من تحالفٍ مشبعٍ تماماً بالقصّة المروية في الكتاب المقدّس؛ أمّا بالنسبة لليهود، فالأمر يتعلّق بردِّ فعلٍ مؤسّسٍ على غريزة البقاء تُثار في لحظة تجد إسرائيل فيها نفسها تواجه أزمة اقتصادية ومعزولة على المسرح الدولي. وكان هذا التحالف بين اليهود والمسحيين قد تعزّز من جراء عمليتين إرهابيتين متميّزتين، ارتُكبتا من قبل تماميّين إسلاميين، وصدمتا أمريكا. حصلت الأولى في 14 تشرين الثاني 1979 بأخذ سبعين أمريكياً في سفارة الولايات المتحدة في طهران كرهائن، والثانية في 11 أيلول 2001، حينما انقضّ تماميّون آخرون بأربع طائرات مدنية على أهدافٍ أمريكية، وقتلوا أكثر من ثلاثة آلاف شخص. وفي كلٍّ مرّة، وكردٍّ فعل، عرفت الولايات المتحدة نهضة دينية أثّرت وسوف تؤثّر إلى الأبد على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للبلاد.

في كلتا الحالتين، في عام 1979 كما في عام 2001، شهدنا منعطفاً في تاريخ الولايات المتحدة، بموجبه تغيّرت نفسية السكان بشكلٍ نهائيٍّ. ولن يعود أيُّ شيءٍ كما كان من قبل. مثلما حدث في ردود الفعل المتسلسلة، أقنعت هذه الهجمات الإرهابية المتميّزة المسيحيين الإنجيليين ومن ثمّ الفئات العلمانية من السكان بأنّ الإسلام، الذي حلّ محل الشيوعية الكافرة، أصبح بدوره التهديد

الأكبر للسلام العالمي والديمقراطية والقيم الإنسانية وحقوق الإنسان، وهو على نحوٍ خاص التجسيد للشرِّ المولع بتدمير العالم اليهودي- المسيحي. في كلتا الحالتين، وبسبب مناخ الحُمّى الدينية والخوف العام السائد، دفع المسيحيون الإنجيليون هوامش السياسة الأمريكية نحو مركزها. وفي النتيجة، يبدو أنّهم ساهموا في انتخاب الرئيسين اللذين استفاد عملهما السياسي من الدعم الحيوي الذي جاء من التصويت الإنجيلي، أي رونالد ريغان وجورج دبليو بوش.



لعبت أزمة الرهائن الأمريكيين دوراً هامّاً في النهضة السياسية للحركة المسيحية الإنجيلية. بالنسبة لهذه الأخيرة، شكّل الهجوم المباشر من قبل أصوليين إسلاميين على ديمقراطية يهودية- مسيحية، أي أمريكا، فتيل حرب مقدّسة لا تزال تجيش حتى اليوم. كان 1979 تاريخاً مفصلياً بالنسبة لجميع الأمريكيين، الذي أدركوا على نحو مفاجئ بأنّهم لم يكونوا بمنجى عن العنف الذي كان ينتشر في العالم. غير أنّ الإنجيليين، وبسبب إيمانهم العميق بالكتب المقدّسة، أدركوا، أفضل من أيٍّ كان، الأهمية الرمزية للحدث والتأثير الذي لابدّ أن يكون له في المحصّلة على السياسة الخارجية للولايات المتّحدة. وهكذا حوّل الإنجيليون الطابع الأعمى الذي كان يُضفى على هذا الهجوم بالنسبة للسكان الذين كانوا في حالة صدمة، إلى نوعٍ من نذيرٍ بأحداثٍ مقبلة. فنجم عن ذلك أمران: أولاً، ذلّل الإنجيليون العقبات التي كانت بينهم وبين الشعب اليهودي، ثمّ أشاعوا فكرة أنّ العالم المسيحي، وتعميماً الولايات المتحدة، وجد نفسه مواجَهاً بحربٍ مقدّسة. وبدأت معتقداتهم، شيئاً فشيئاً، بممارسة تأثيرٍ متصاعدٍ على عددٍ لا يُستهان به من الأمريكيين. بلطف، وربّما حتى دون أن يشاءوا ذلك، أثاروا تقلّباً حاسماً وأساسياً في الرأي العام الأمريكي.



حالياً، بعيد مأساة الحادي عشر من أيلول، ادّعت الإدارة الحالية الحقّ في حلّ النزاعات

بطريقة تكاد تكون أُحادية الجانب. تبرّر أعمالها بذرائع تختلط فيها العقيدة الدينية التي لا تُدحَض والتقنية الدقيقة والقوة العسكرية، ثمّ تطمح، وقد أصبحت على الأرض، إلى نقل العدالة والقيم الأخلاقية إلى بقية الكوكب. وإن كان هذا الأخير قد أصبح أصغر - «قرية كونية» -فإنّ الخلافات بين أوروبا والولايات المتحدة أصبحت أكبر وأبرز. ففي حين تدافع أوروبا عن رؤية علمانية في العالم، تجازف الولايات المتحدة بأن تكون رهينة نزعة أخلاقية تقودها إلى أن تعتبر نفسها مؤتمنة على الخير ومقدّرة له، مهمّتها تقويض الشرّ .

بيد أنّه إذا كان الهجومان والدعم الإنجيلي المقدّم إلى ريغان وثمّ إلى بوش، يقدّمون أوجه شبهٍ، فإنّ الرجلين مختلفان جداً. فعوض أن يسعى، كما فعل ريغان، ليبدو «منقذاً» للبلاد في وجه الإرهابيين الإسلاميين، استغلّ بوش هجمات الحادي عشر من أيلول ليندفع إلى قمم جديدة من التديّن المفرط والشعبية في الاستطلاعات وليبدو على أنّه الزعيم الذي سيحمي كلَّ الأمريكيين (والعالم أجمع) من أيِّ تهديدٍ آخرٍ. في كلتا الحالتين، في عام 1979 كما في عام2001، استفادت الطائفة الإنجيلية من ذلك لتصبح في البلاد قوّة سياسية لا يُستهان بها، ومكوّناً أساسياً من نسيجها الثقافي والاجتماعي.

لعوامل مرتبطة بالدين والعقيدة، ولكنّها أيضاً النتيجة المباشرة لتلك العمليتين المتميّزتين للإرهاب الإسلامي، سُخِّر كلا الرئيسين، ريغان وبوش، من قبل اللّه لتوحيد الشعب الأمريكي في مواجهة تهديدٍ حقيقيٍّ ويتجاوز التقدير في آن. فكانت النتيجة هي أنّ العقيدة لم تعد شأناً خاصّاً بين المرشّح لمسؤولية سياسية واللّه. بل على العكس من ذلك، ظهرت إلى النور أثناء الحملات الانتخابية، كلٌّ يطمح لأن يبُلغ يقظته الدينية للشعب الأمريكي. وهذا ليس سوى تكتيكٍ لتبديد واحدة من أكبر مخاوف جميع المسيحيين الإنجيليين، ألا وهو غياب الروحانية والقيم العائلية الذي يجازف بالتسبّب في زوال ديمقراطية سليمة وتسريع تجليّ الإبليس في هيئة شخص. فيما يتعلّق بالقسم المعتدل من البلاد، أفاد التحالف بين الدين والسياسة في إراحة المواطن العادي بفكرة أنّ البلاد آمنة ليس بسبب الثراء والقوة فحسب، بل أيضاً لأنّ اللّه متحالفٌ معها.

التمييز دقيقٌ جداً بين المسيحيين الإنجيليين الذين ينضمون للشعب اليهودي بسبب الميثاق الإبراهيمي، وأولئك الذين يعتقدون بأنّ وحدهم الخلاصيين سيبقون إلى نهاية الأزمان وأنّ كلّ اليهود الرافضين للهداية سيُقتَلون. في الواقع، التمييز دقيقٌ جداً كذلك، بين أولئك الذين يعتقدون بأنّ وحدهم، الأفراد الذين التقوا يسوع شخصياً، يستحقّون التمتّع بمحبّته، والذين يستمرون في الاعتقاد بأنّ اليهود مسؤولون عن موت المسيح وبالتالي ملعونون إلى الأبد برمّتهم.

حينما يكون مسيحيون أو يهود ضحايا للإرهابيين الإسلاميين، يرى الإنجيليون في ذلك عملاً للشيطان. وبالسرعة نفسها يعتبرون بأنّ اليهود والمسيحيين الذين يرفضون أن يروا في يسوع المسيح منقذهم لا زالوا في ضلالٍ. وفق مفهوم منحرف للخير، يعتبرون بأنّ موت «غير المستنيرين» سوف لن يتوقّف مادام العالم لم يقبل «نور يسوع المسيح» ولم «يُنقَذ» .

أمّا المسيحيون الذين لهم صلة مباشرة باللّه، فإيمانهم ليس محض سلبي، وهم مستعدّون للتطوّع لقيادة الضّالين في دروب الرّب. وهم في الواقع مقتنعين بأنّ اللّه قد انتدبهم لنشر هدايته في العالم أجمع.

أثناء زيارة قمتُ بها إلى كنيسة معمدانية لمدينة صغيرة بالقرب من باريز في تكساس، كانت الحماسة التي استقبل بها المؤمنون «روحاً معصومة جديدة» ساحرةٌ ومرعبةٌ في آن. كان الأشخاص الثلاثة المكلّفين بـ «الاهتمام» بأمري، خلال الأيام الأربعة التي أمضيتها في مراكزهم وكنيستهم، منتعشين بابتهاج باطنيٍّ يصعب تحديده أو شرحه. ولكن حُكماً، كان الثلاثة و، حقيقة، المئات من الأعضاء في جمعيتهم يشعرّن تماماً بما يسمّونه «بريق يسوع الذي يسكن روحي» .

نلاحظ عند هؤلاء المسيحيين الخلاصيين الأمريكيين سمة مدهشة: جميعهم تقريباً يعتبرون أنّهم لم يكونوا مواطنين كاملين. وهناك أيضاً العديد ممّن يعترفون طواعية بأنّهم عاشوا في «الخطيئة والفجور» قبل أن «يجدوا الرّب» . نفس هؤلاء الناس قلّما يهتمّون بالسياسة ولا يعرفون شيئاً عمّا يحدث في العالم، ولكنّهم يصوّتون جميعاً لبرنامج اليمين المسيحيّ، وفق توجيهات زعمائهم الدينيين الذين يُعدُّ كلامهم مقدّساً كقراءة وتفسير الكتب المقدّسة .

الملاك الحارس، الأولى، خاصّتي، قرب باريز في تكساس، كانت راقصة تعرّي سابقة، اسمها مينا بلو التي كانت لا تزال تحتفظ بالإغراء الصارخ لراقصة استعراضٍ كابية. كانت تنتعل جزمة عالية الساق مزيّنة بشراباتٍ، وترتدي فستاناً أحمر فاقع اللون موشى بالحليّ. وكان شعرها الأشقر متموّجاً برّاقاً، وشفتاها مخضّبتان بشكلٍ مهينٍ. ومع ذلك، تقيم في بيتٍ صغير مزيّنٍ بأكمله برموزٍ دينية ولوحاتٍ وملصقاتٍ تصوّر يسوع المسيح. كانت ودودة وحميمية في علاقتها الخاصّة مع يسوع لا تشوبها أيّة عقدة، وتدّعي بأنّ أعظم سعادة لوجودها هو سرد «حكايتها المعيبة» على ما يمكن من الأتباع لكي تبرهن على أنّه، إذا كانت هي «قد استطاعت أن تعثر على اللّه بعد أن نامت مع نصف رجال ولاية تكساس، فإمكان أيٍّ كان أن يعثر على طريق قلبه» . لم تذكر مينا قط تاريخها دون أن تدسّ فيه نكهةً فكاهيةً.

الملاك الحارس الثانية خاصّتي كانت امرأة شابّة رقيقة ذكية ومهذّبة اسمها كارا. وهي سُحاقية سابقة، حسب أقوالها هي، «عاشرت لوطيي الحانات (gay bars) وتعاطت المخدّرات والكحول وخالفت كل الوصايا التي أملاها اللّه، دون الحديث عن أولئك الذين حتى لم يخطروا ببال جلاله» . كانت أقلّ بريقاً من مينا، ولكنها تبدي نفس صرامتها في التزامها اتجاه اللّه. حدثت نقطة الفصل بالنسبة لها، على ما تقول، حينما وجدت نفسها ذات صباح في موتيلٍ مع شجّةٍ بطول خمسة سنتيمترات في إحدى ذراعيها، وعارية تماماً. فاضطرّت لطلب الشرطة لأنّها كانت عارية وجريحة ليس بحوزتها لا أوراق ثبوتية ولا مال، وادّعت بأنّ في تلك اللحظة «تجلّى لها اللّه وأرغمها على الخيار بين حياةٍ فاجرةٍ أو سمة دخولٍ مجانية إلى ملكوت السماء» .

حالياً، لم تعد تقرب لا المخدّرات ولا الكحول ولا النساء، وتشغل وظيفة محترمة كأمينة صندوق في أحد المصارف. انشغالاتها الوحيدة هي الكنيسة والصلاة والدراسة المعمّقة للتوراة. كان رفيقها جون جاك قد أُدين باغتصاب الأطفال، وطيلة الفترة التي قضيناها سويةً، لم يكفّ جون وكارا عن المسك بأيدي بعضهما. حينما يتكلّم أحدهما يوافقه الآخر الرأي دائماً مُطْلِقاً في بعض الأحيان كلمة «آمين» .

كان جون جاك يرتدي بنطلوناً من الكاكي وقميصاً تزيّنه أشكال مربّعة كاملة، يحيط بعُرقوبه حلقٌ إلكترونيٌ يُستخدَم للإشارة إلى حركاته بعد إطلاقه المشروط من السجن، وكتب عليه التدوين التالي : «تحذير، هذا رجلٌ مدانٌ باغتصاب أطفال» .

حينما سألته عمّا يراه في أن جيرانه الذين طالبوا بوضع هذه الكتابة قبل أن يسمحوا له بالعيش بينهم، ردَّ: «إنّه الصليب الذي كان عليّ حمله، تماماً كما حمل يسوع صليبه إلى الجلجلة».

هكذا كان من استضافوني، أشخاصاً أثموا، ثم تابوا وعاشوا بلا عُقَدٍ في غبطة وسعادة مع يسوع كصديقٍ وفيٍّ ومعلّمٍ مخلّصٍ في كلّ لحظة، إنجيليين لأمريكا العميقة، أتباعاً نموذجيين للخلاصيين، وأعضاءً في طائفة قويّةٍ من ثمانين مليون من الأرواح التي لا تكفّ عن التنامي. نحن بعيدون عن تكلّف رجال السياسة أو الخداع بكلام هؤلاء المبشّرين الذين يقومون بمعجزاتٍ مع مهارات الشعوذة والذين تُعامَل تصريحاتهم عن المؤامرات السياسية كأقوال إنجيلية.

كذلك لا يتعلّق الأمر بنجمات السينما اللواتي يقلعن عن المخدّرات والكحول في مراكز باذخة للإقلاع عن الإدمان. مينا وكارا وجون جاك إنجيليون عاديون ومعتدلون، نواياهم سليمة، ويفيضون بإيمانٍ راسخٍ بيسوع وبجورج دبليو بوش .

وإذا كان هؤلاء الأشخاص الثلاثة «المقرّبين» من اللّه، عاجزين، ربّما، عن تحديد موقع إسرائيل وتسمية عاصمة ألمانيا أو فرنسا أو إيطاليا، فهم في المقابل، يعرفون تماماً بأنّ الرئيس جورج بوش، وبمعونةٍ من يسوع المسيح، يقود حرباً ضد الإرهاب وبأنّه يسهر على وجودهم، وبأنّ اليهود هم «شعب اللّه المختار» .

لا شكّ أن الأكثر إدهاشاً، أثناء دخولي العابر في حياة أولئك الأشخاص، كانت الزيارات الثلاث التي قمت بها بصحبتهم إلى الكنيسة، مرّتان في المساء ومرّة الأحد. هناك التقيت بمبشّرهم وبأكثر من مائتي رجل وامرأة ممن لهم سير

شخصية مختلفة في مجال الخطيئة والخلاص، والذين يتقاسمون نفس المعتقدات وعلى نفس الدرجة من الحماسة.

القس رون يقارب الأربعين من عمره، ممتلئ ذو سحنة أشبه بورقة ممضوغة وشعرٍ كثٍّ داكنٍ وشاربين غليظين، يرتدي بذلةً من الحرير اللامع رمادية اللون، وربطة عنقٍ بيضاء فوق قميصٍ أبيض وخفّين سوداوين. يُحسن التعبير عن رأيه؛ بإمكانه حينما يشاء أن يذرف الدمع. أخيراً، اُفتُتِنَ بفكرة الاشتراك في كتاب سيظهر فيه على أنّه «خادمٌ للّه يعرف بعمق يسوع ووُجِدَ على هذه الأرض لينقذ كلَّ الأرواح التي أرسلها له الرّب» . وطبعاً أنا واحدة من تلك الأرواح بالقوّة. هـل أنا مهيّأةٌ لاستقبال يسوع؟ لِمَ لا. ألم أُفكِّر قط بأن أودِع حياتي بين يديه؟ - كلاّ. هل قرأتُ الكتاب المقدّس؟ - قليلاً. هل أنا آثمة؟ - هذا وارد. هل أنا مؤمنة؟ - نعم. هل أنا مدركة لحقيقة أنّ اللّه لم يرسلني إلى هنا للشهادة مصادفة؟ - ربّما. الشهادة، وليس القيام بالتبشير، في العقيدة الإنجيلية، الفرق بينهما أساسيٌ. الشهادة هي الإقرار بأنّ يسوع حاضرٌ ويدخل الأرواح من رهبانيته، أما القيام بالتبشير فهو الهداية إلى عقيدة خاصّة بكلماتٍ أو بالإقناع أو بوسائلٍ أخرى لا تأتي مباشرةٍ من اللّه.

في الكنيسة، وقبل بدء القدّاس، كان القس رون موجوداً في الكَوْلَس في مكتبه الواسع. للمرّة الأخيرة، أصلح تسريحته وسوّى ربطة عنقه ذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، وشرب الماء بجرعاتٍ صغيرةٍ في كأسٍ من الورق المقوّى، وضّح صوته، ونغّم مثل مغنّي أوبرا، تحقّق في المرآة ليرى إن كان مساعده النشط قد مسح جيّداً العَرق عن جبينه. قبل بضعة دقائق من بدء احتفال القدّاس، وبناءً على طلبه، اعترضنا مساعده، وهو رجلٌ مفتول العضلات، بابتسامة عريضة، امرأتان كهلتان - واحدةٌ في بذلةٍ لأنّها هي التي طرّته بالمساحيق (قداديسه تنقل مباشرة على قناة التلفزة المحليّة) والأخرى قدّمت نفسها على أنّها مساعدته الخاصّة - وأخيراً أنا، ضممنا أيادينا وشكلنا معه حلقة صغيرة لنتلو صلاةٍ قصيرة. بدأ بالقول: «اقبل هذه المرأة [أي أنا] بيننا حتّى تتلقّى كلام وبَرَكة سيّدنا يسوع المسيح. دعها، أيّها الرّب، أن ترى النور، وأن تبتدئ وتكون مهيّأةً لتضع حياتها

بين يديك، حتّى تحيا في وفاقٍ هادئٍ وتستطيع أن تلقاك في السماء أيّام الحساب». بعد أن أحلّ يديه، وجّه الكاهن ابتسامة خفيفة إليَّ، ثمّ، وقبل أن يثب نحو المنبر ليعظ رعيّته، استدار وقال: «أصدقائي، سيبدأ المشهد، هيّا بنا! لقد حان الوقت لإنقاذ بعض الأرواح». فأجاب الحاضرون بصوتٍ واحدٍ : «آمين!»

جلستُ على كُرسيٍّ يُطوى بين مينا وكارا. كانت الصالة الفسيحة مزيّنة بزهورٍ بلاستيكية تجاور حبال كاميرا التلفاز. وترتعش في السقف مصابيحُ مثبّتةٌ في صفوف. ثم نرى تمثالاً للمسيح مبسوط اليدين مباركاً المحفَل. راقبت القس رون الذي كان ممسكاً بلاقط صوت وهو يسحب الحبل متنقلاً بخفّة من طرفٍ إلى آخرٍ من المنصّة. بعد بداية لطيفة، انخرط في تصعيدٍ مُصمٍّ للآذان، تكلّم عن معجزات اللّه وتضحية يسوع وعن آفة الإسلام وعن سعادة الإيمان وعن المسؤولية المفروضة على أمّتنا العظيمة لقيادة العالم نحو نور المسيحيّة، بينما ما يقارب المائتي شخص أمامه يموجون ويتمايلون ويرتعشون ويبدون الموافقة ويصرخون ويقفزون ويرفعون الأيادي في الهواء ويلوّحون بأصابعهم وهم يصرخون : «شكراً للّه!» كلّ دقيقتين، تربّت مينا عليّ ربتةً خفيفة وتسألني: «هل تشعرين بيسوع الآن؟» ولمّا كنتُ أنفي بإيماءةٍ من رأسي، تأتيني ربتةٌ أخرى منها. قالت بأنّها ستصلّي بالألسن لكي «يأتي بسرعةٍ ويسكن روحي» .

بعد ساعتين، أخبر القسُّ رون الحفل بأنّ هناك زائرٌ في الصالة، امرأةٌ (أنا) لم «تعثر على الرّب» بعد، ولكنّها اقتيدت «إلى حضنهم لتدوين كتابٍ عن يسوع» . طلب إليّ أن أنهض، وبعد بضعة ثوانٍ من الذهول، نفّذتُ ما وعدتُ به، دون أن أتأثر بوهم عاصفة الهتافات والتصفيق التي ستلي. وكما هو متّفقٌ عليه، طرح القس رون باسمي سؤالين على الرعيّة. «من هو الشيطان؟» كان الردُّ بالإجماع : «المسلمون، العرب، الإرهابيّون الذين يقتلون الأمريكيين».

«هل جورج دبليو بوش رئيسٌ صالح؟» من جديد، كان الردُّ بالإجماع : «نعم، إنّه مباركٌ من ربّنا!»

أخيراً، أنهى القسُّ رون القدّاس داعياً من يريدون أن يكونوا «مباركين» إلى

رفع اليد و«التعريف بأنفسهم بالترتيب» . انتصب رجلان قويّان - أحدهما كان مساعد القسّ - ومرّا بنظام من شخصٍ إلى آخر. اقترب القس رون من كلٍّ مؤمنٍ أو مؤمنة، يريد أو تريد المباركة، و«استقبال يسوع» ، ودفعه إلى الخلف صائحاً «أوجد الرّب» الأمر الذي يجعله يقع بين أذرع الرجلين المعضلين المتأهبين لتلقّفه. استمر ذلك لما يقارب الأربعين دقيقة، ثمّ انتهى القدّاس. في حين أنّ مفاعيل تلك الجلسة الثرّة بالانفعالات تعمّقت كثيراً بعد أن غادر القسُّ المنصّة. أقعت كارا، متشبّثة بكرسيّها، قفزت، ضحكت، بكتْ، بينما انخرطت امرأة أخرى، تهتزُّ اهتزازات لا تُضبط، في أصواتٍ لا يمكن وصفها. لهث رجلٌ ذو وجهٍ قرمزيّ اللون مترنّحاً إلى الأمام وإلى الخلف وتمتم : «شكراً للّه!» عبرت الصالة الفسيحة المحروسَة من قبل مينا (انشغل جون جاك بكارا التي فقدت رشدها بتأثير الهيجان). أكّدت لي بأنّ جميع هؤلاء الأشخاص «مستغرقون في النشوةِ» ولا يحتاجون إلى طبيب. بينما توجّهنا من جديد إلى الأقسام الخاصّة بالقسّ رون لكي أتمكّن من أخذ قسطٍ من الراحة وأشكره على سماحه لي بالمشاركة في التظاهرة الأكثر مثالية هذه، سألتني من جديد : «والآن، هل تشعرين بيسوع؟» قلت: «ليس بعد» . ابتسمت ثم استأنفت كلامها: «حسناً، أعلم أنّه معكِ، وأعلم بأنّكِ اُختُرتِ من قبله لأنّه يحبّكِ، ولديه خطّة واضحةٌ لحياتكِ» .

مضى أكثر من ثمانية أشهر، ويومياً، حينما أفتحُ بريدي الإلكتروني، هناك ما يقارب عشرين رسالة من مينا وكارا وجون جاك وعددٍ لا يُحصى من أتباعٍ آخرين للخلاصيين، الذين التقيتُ بهم أثناء أبحاثي لهذا العمل الحالي. الجميع يقول، كلٌّ بطريقته: «نعم، يسوع يحبّكِ ولديه خطّةٌ لحياتكِ» .

3

عندما تتعرقل العدالة

بكل منطق، لابدّ للشعب اليهودي أن يرتاب من الإيمان الإنجيلي في العهد الإبراهيمي: وفق هذه العقيدة، لن يعود يسوع إلى الأرض، في أورشليم، مملكته النهائية، مادامت البشرية جمعاء لا تقبل به مخلّصاً لها. إذا رفض اليهود - الذين يُعتبرون مهتدي المستقبل بناءً على الطبيعة «الناقصة» لدينهم - سيُذبَحون أثناء المواجهة الختامية بين اللّه والشيطان التي ستجري في مجدّو، شمال إسرائيل.

الوضع في الشرق الأوسط متفجّر، وبلغ الإرهاب الإسلامي العالم بأسره؛ وبالتالي، ليست القضية هي معرفة ما إذا كان الدعم المقدّم من قبل الإنجيليين لإسرائيل، وحبُّهم للشعب اليهودي صادقاً. كذلك لا يتعلّق الأمر بتحديد ما إذا كان اليمين المسيحيّ الأمريكي يستخدم بكلٍّ بساطة اليهود لتسريع إنجازه لحلمه الخلاصي الخاص، عودة المخلّص إلى الأرض. الخطر الحقيقي بالنسبة لكل من يؤمن ببقاء إسرائيل يأتي من أنّ الطائفة الإنجيلية أضافت بعداً إضافياً إلى النزاع عبر خطابٍ أرثوذكسيٍّ متطرفٍ مريعٍ تماماً كخطاب غيرها من المجموعات الدينية المتشدّدة التي تحيا وتموت في ذلك الجزء من العالم.

يجب ألا نندهش بأنْ قرّرت غالبية عظمى من الإسرائيليين والجالية اليهودية الأمريكية تبنّي و تقوية هذا الحبّ وهذه المساندة الإنجيليّيْن والعناية بهما، كون هؤلاء انطلقوا من تحالف سياسيّ وماليّ. من المؤكّد بأن الدولة اليهودية بحاجةٍ الآن إلى كل أشكال الدعم الممكنة؛ المساعدة المقدّمة من قبل المسيحيين الإنجيليين تهدف إلى حثّ الشعب اليهودي على عدم التخلّي عن شبرٍ واحدٍ من الأرض بغية ضمان أمن كلّ مواطني البلاد. مع ذلك، حتى وإن كان الخط

السياسي الإسرائيلي يسير في نفس الاتجاه، هناك ما يدعو للقلق من المصير النهائي لهؤلاء «الهراطقة» الذين لم يقبلوا بعد بالعقيدة الإنجيلية ولا اعترفوا بـ «الولادة الجديدة» ، بما أنّهم يشكلون من حيث المبدأ العقبة الوحيدة في طريق عودة يسوع إلى الأرض المقدّسة. هل على الشعب اليهودي الانضمام إلى موقف رئيس الوزراء الإسرائيلي آريل شارون الذي فصل في هذه الورطة الوثيقة الصلة بالموضوع؟ صرّح شارون، الذي اعتاد ألاّ ينخدع، مؤخّراً في مقابلة : «حينما يأتي المخلّص سنطرح عليه السؤال. سنسأله ان كانت هذه رحلته الأولى إلى الأرض المقدّسة، أم أنّه سبق وزار البلاد. في الأثناء، ليس لمصلحتنا رفض الأصدقاء الوحيدين والحلفاء المخلصين لنا، خصوصاً وأنّ لدينا عدوّاً مشتركاً : الإسلام».

ما يقودنا إلى مسألة أخرى تؤثّر على مجموع أصدقائنا و حلفائنا عبر العالم، لأنّها تلقي بثقلٍ كبير على السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية. وهم ينخرطون في هذه الحرب الصليبية الأخيرة في سبيل نقل الديمقراطية والقيم المسيحية إلى الكوكب بأسره. مَنْ الذي يعتبرهُ المسيحيون الإنجيليون العدو الأكبر؟ أَهم اليهود الذين قتلوا المسيح؟ أهم المسلمون الذين قتلوا «الهراطقة» باسم اللّه؟ أم هي البلدان الأوروبية التي رفضت أن تصطفّ إلى جانب أمريكا عسكرياً لتحرير العالم من تهديدٍ حقيقيٍّ ومنتشرٍ في آنٍ واحدٍ؟

كرئيسٍ للولايات المتحدة وكمسيحيٍّ خلاصي، يعتقد جورج دبليو بوش بأنّه يحكم البلاد لكي يفي ما عليه لا كولاية مؤقّتة منصوصٍ عليها في الدستور بل كمهمّة إلهية. وعندما يرفض حلفاء أمريكا المشاركة في عملٍ عسكريٍّ، لا يرى في ذلك مسألة خيارٍ سياسي، وإنّما اتّخاذ موقف أخلاقي وديني يخالف الحرب الصليبية التي تخوضها أمريكا في العراق وأفغانستان أو في أيّة بقعة أخرى من الكرة الأرضية. ولذا صرّح مراراً : «في حرب الخير ضد الشرّ التي نخوضها، إما أن تكونوا معنا، وإما أن تكونوا ضدّنا». كما أكّد أننا نحن (أمريكا): «سوف لن يمكننا الانتهاء من تلك الحرب مع الإرهابيين، ما لم تنشر هذه الأمّة المباركة الحرية التي أرادها اللّه في البلدان الأخرى، وبالقوة إن دعت الحاجة». فضلاً

عن ذلك، وبناءً على هذه القناعات الدينية، بوش واثقٌ من الدعم السياسي والمالي من أغلبية واسعة من ناخبيه، ومن أغلبية مؤثّرة من المشرّعين المقتنعين مثله بأنّ مصير البشرية جمعاء مسجّلٌ في الكتاب المقدّس.

عبر القرون الماضية، احتاج الأمر إلى القليل لإثارة مشاعر المعاداة للسامية في العالم، والنتيجة الأكثر جلاءً هي، بالطّبع، إبادة ستة ملايين يهودي أثناء المحرقة. حديثاً، وبسبب الهجمات الإرهابية التي تشنّها مجموعات إسلامية راديكالية، شنّ الأمريكيون حملة سياسية وعسكرية خلقت، على نحوٍ واسعٍ، مناخاً من الهلع من الإسلام عبر البلاد بأسرها. ولكن، في الوقت ذاته، أيقظت هذه الحملة المشاعر المعادية للساميّة الكامنة من قبل أقلية هامشية من السكان تحمّل إسرائيل مسؤولية الآلام المفروضة على بقية العالم من قبل أعدائها. هاتان المشكلتان والآراء العاطفية جداً التي تولّدانها أدّت في الواقع إلى خلق هوّة في أمريكا بين الذين يرون في يسوع الإله الوحيد وأولئك الذين لا يملكون هذه القناعة.

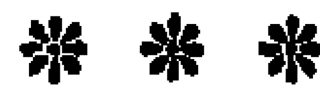
إذا كان تجلّي اللّه في نفسية فردٍ ليس خطراً في ذاته، فهو يصبح تهديداً ما أن يسعى الأمريكيون المحاربون إلى إنتاج الدين في السياسة، كما يستخدم الكتاب المقدّس، على سبيل المثال، كأساسٍ للسياسة الخارجية للبلاد. ولكن ما هو أكثر خطورة، هو أنّ بعض الأمريكيين الذين ليسوا من المسيحيين المقتنعين، يتبنّون، بطيبة خاطر، القول بأن تدخّل الكتاب المقدّس هذا في السياسة يسبب اللحظات المضطربة التي نعيشها فيسود العنف وعدم الاستقرار العالم.

حينما يتعلّق الأمر بمعرفة ما إذا كان يجب دعم أو تقبّل تأثير المسيحية الإنجيلية على السلطات العامّة، يستحضر الشعور العام المثل القديم عن حساء الدجاجة: «إن لم ينفع، فهو لا يُضرّ».

أولئك الذين يعتقدون بأنّه يمكن للدين أن يتدخّل في النسيج السياسي والثقافي لمجتمعٍ ما دون أن يكون لذلك مخاطر، يُظهرون سذاجة كبيرة، ففي الواقع، حينما ينتهي دينٌ ما إلى فرض معتقداته على مجتمع ما، فإنّه يخاطر بقوة في إذكاء الحقد ضد أقليّة من أتباع عقيدة أخرى. يتصرّف المسيحيون الإنجيليون

بسلطة خارقة بسبب مصادرهم المالية الواسعة، وثقلهم السياسي وبكل بساطة، عددهم، وتحوّلت السياسة الخارجية الأمريكية بحيث دمجت عدداً كبيراً من المسائل المدوّنة في برنامجهم.

في منصبٍ مفتاحيٍّ في الحكومة، نجد رجلاً يشارك الرئيس بوش قناعاته الدينية. توصّل النائب العام الحالي، بمفرده، كمسئول عن وزارة العدل، أو مع الدعم الذي يخصُّ بوش به جهازاً أساسياً من إدارته، ليس إلى تغيير المناخ القضائي فحسب، بل والمناخ الاجتماعي والثقافي السائد في البلاد بأسرها.



يُظهِر الثنائي الذي يشكّله جون وجانيت آشكروفت نفس الورع الذي لأيٍّ ثنائيٍّ آخر من الخلاصيين، الذين تنظّم معتقداتهم الدينية كل جانب من جوانب الوجود.

وعلى غرار عددٍ متنامٍ من الإنجيليين، يستحضر آل آشكروفت مناخ الخمسينات في الولايات المتحدة، عندما كانت الشيوعية الكافرة تُعتَبر كشرٍّ مطلقٍ، وعدوٍ لدودٍ للديمقراطية والمسيحية. يتصرّف آل آشكروفت باسم نفس القيم التي كانت تسود حينذاك، ولكنهم، متجاوزين رؤيتهم البسيطة عن نموذج العائلة الأمريكية المستقيمة، أدخلوا إلى الحياة السياسية صرامة أخلاقية نالت من الحقوق المدنية للذين لا ينتمون إلى العقيدة الإنجيلية. ففي سنوات الخمسينات كان أقلُّ من 10% من الأمريكيين يعتبرون بأنه بإمكان المرء أن يكون سعيداً بلا زواج. أمّا السيد والسيدة آشكروفت، فيعتبرون أنّ السعادة تكمن في بناء عائلة من أمٍّ متفرّغة بلا أعباء وظيفية، وأبناءٍ مطيعين، وأبٍ حاضرٍ وحيويٍّ، وبيتٍ من طابقين في ضاحية المدينة، وحبٍّ بلا حدود للّه والوطن. وإذا كان بالتأكيد هنالك فوارق بين عائلة الخمسينات وعائلة القرن الواحد والعشرين، أقلّها كون تقدّم العلم والطب أعطى لبعض المشاكل الأخلاقية شحنة عاطفية، أكثر قوّة ممّا كان هناك قبل نصف قرن، فإنّ الأكثر خطورة هو أنّ آشكروفت وجد نفسه وزيراً للعدل للولايات المتحدة: إنّه يشغل المنصب الأعلى في التراتبية القضائية للبلاد.

زوجته وهو، من المسيحيين العَنْصَريين، الطائفة التي تضمّ، حسب استطلاع حديث لمؤسسة غالوب، تسعين مليون من المسيحيين الإنجيليين الذين تمّ إحصاءهم هذه الأيام في الولايات المتحدة. يقيم أتباع المذهب العَنْصري شعائرهم في كنائس ضخمة تقع في محيط المدن أو في مصلّياتٍ صغيرة في قلب المدن.

وإذ ترفدهم الحركات المسيحية للسكان الأصليين في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، يشكّل المسيحيون العَنْصَريون والكاريزماتيون بضعة مئات من الملايين في العالم، الأمر الذي يجعل منهم الطائفة المسيحية الأكثر أهمية بعد الكاثوليكية، والأسرع توسّعاً.

نشأ المذهب العَنْصري في عام 1901 في توبيكا في كنساس، داخل مدرسة كتابية كان يديرها تشارلز فوكس بارهام، ولكنّه لم يفرض نفسه على المستوى الوطني إلاّ بعد خمس سنوات من ذلك التاريخ خلال احتفالٍ لإعادة إحيائه، اشتُهِر منذ ذلك الحين، وأداره الإنجيلي الأسود وليام ج . سايمور في مقر المرسلين لآزوزا ستريت في لوس أنجلس. كان سايمور، العبد السابق المحرّر بعد حرب الانفصال، يبحث عن عقيدة أخرى غير تلك التي تمثّلها تقليدياً المؤسّسة البيضاء البروتستانتية. مع ذلك، إذا كان الأمريكيون البيض قد افتتنوا في البداية بشعائر آزوزا ستريت بسبب الأسلوب المفرط في حيويته للأفارقة الذين كانوا قد اهتدوا عبر المبشّرين المسيحيين، فإنّ نفس هؤلاء العَنْصَريين قاوموا، في اللحظة المواتية، اندماجهم في المدارس والفنادق والمطاعم والحمّامات في الجنوب بأسره.

بدأ جون آشكروفت عمله السياسي كمأمور الحسابات لولاية ميسوري. ثمّ مرشّحاً لم يحالفه الحظ لانتخابات الكونغرس لعام 1972. أصبح النائب العام لولايته في عام 1976. في عام 1984، انتُخِبَ حاكماً ثم، بعد عشر سنوات في عام 1994، أصبح سيناتوراً. وكان أثناء ولايته نائباً عاماً لولاية ميسوري قد اعترض على إزالة التمييز العنصري من نظام المدارس العامّة للقديس لويس. في الردّ على منتقديه، أكّد آشكروفت، حسب أوامر وتعليمات مجالس كنيسة اللّه

التي ينتمي إليها، أنّ «مجالس اللّه لم تكن تعرف الاقتران ولا التّماهي بالأصوات المحاربة الراديكالية التي انتهكت المعايير الإلهية الأدبية والأخلاقية» . بعبارات أخرى، يبدو أن هذا يعني أنّ وحدها «الأصوات المحاربة الراديكالية» تكون لصالح المساواة بين الأعراق. في عام 1998، واحتراماً لاتخاذه مواقف متطرفة في نزعتها المحافظة، صنّفت John Birch Society ، صفوة منظمات اليمين، آشكروفت ثاني المشرّعين المبتدئين الواعدين للعام.

حتى وإن كان زعماءهم يشكلّون جزءً من حاشية الطبقة المتوسطة المتصاعدة، فإنّ العَنْصريين الأوائل غالباً ما كانوا بلا موارد وبعيدين عن بقية المجتمع. انضم الكثيرون إلى الحركة لأنّهم كانوا يعتقدون بأنّها كانت الوسيلة الفضلى لإقامة صلة مباشرة مع اللّه ولأنّ ذلك كان يمنحهم وضعاً معيناً. في الواقع، تعتبر الكنيسة العَنْصَرية أنّ كلّ واحدٍ من أعضائها هو كاهنٌ أو مبشّرٌ له مهمّة هداية أرواحٍ جديدة.

غير أنّ الأكثر إذهالاً هو التحوّل الفيزيكي الذي يطرأ عليهم إذ يعتقدون بأنّ الروح القُدُس ولج ذهنهم وأهّلهم لـ «التكلّم بالألسن» . تفيض شعائرهم الدينية أحاسيساً بدائية وحركاتٍ بهلوانية - من هنا جاء لقبهم السابق (Holy Rollers «المتشردون الإلهيّون») - وهراءً، وإذا ما ضمّت هذه الحركة غالباً أناساً على قدرٍ قليلٍ من التعليم وهامشييّن، ومنبوذين يبحثون بشكلٍ خاصٍّ عن مهربٍ من مصيرهم البائس، فهناك اليوم بين أعضائها بعض الشخصيات الأكثر نفوذاً والأكثر ثراءً والأكثر ثقافة في البلاد .

إذا صدقت الشهادات المباشرة للعَنصريين خلال قرون، فإن قابلية «الكلام والصلاة بالألسن» لم تكن شائعة ولا سهلة على الاستخدام بالنسبة للذين كانوا «مأخوذين بالعقل» . حقيقة، في البدايات، كان العديد من الأتباع يقلقون لعدم القدرة على بلوغ ذلك وكانوا يتألّمون من جراء ذلك. حسب مؤرّخ الحركة بارتون و. ستون «كان القلق الجسدي، الذي يقود الأفراد إلى التكلّم حقّاً بالألسن، يترافق بنوبات حادّة وصيحات ضيقٍ وسكونٍ أشبه بالموت، لأكثر من ساعة بطيبة خاطر. غالباً ما كان الرأس ينتفض إلى الأمام وإلى الخلف بينما كان الشخص

المغرَم يقع أرضاً وتتغيّر معالم قسمات وجهه» . ثمّ، من جديد، كان الأتباع «يصرخون أو يضحكون بصخبٍ أو يهربون مرعوبين أو يغنّون فرحين» .

في البداية، كان العَنْصريون يعتقدون بأنّ فعل «التكلّم بالألسن» سيسرّع المجيء الثاني للمسيح إلى الأرض، ولكن، وبغياب النتيجة، قرّروا في نهاية المطاف بأنّ هذه الممارسة كانت الوسيلة الأكثر مباشرة للوصول إلى اللّه عبر الصلاة. مثله مثل جوليا بندغراست، يعتقد وزير العدل جون آشكروفت بأنّ فعل «التكلّم بالألسن» هو وسيلةٌ للتخلّص من الشيطان الذي يجول في الطبقة الثانية من السماوات، مستعدّاً لتحويل اتّجاه صلوات المسيحيين الصالحين كي لا تبلغ أبداً اللّه الذي يقيم في الطبقة الثالثة. كما يؤمن آشكروفت ومشاركوه في الدين بالوعد التوراتي الذي يعتبر إسرائيل الأرض التي سيتّحد فيها اليهود والمسيحيون، والتي سيجري عليها في نهاية المطاف المجيء الثاني للمخلّص.

لاشكّ أنّ لآشكروفت، كما هو الحال في أيّ ديمقراطية، الحقّ في الإيمان بما يشاء. ولكن ثمّة خطرٌ حينما يؤكّد، بصفته، كنائبٍ عام وكداعية علماني وكخطيبٍ شعبي في المنتديات المسيحية، بأنّ الإيمان هو «بوصلته ومرشده» . علاوة على ذلك، حينما عوتِبَ على أنّه لا يطبّق إلاّ في حالات نادرة القانون المدني، ردَّ بمثابة دفاعٍ بأنّه لا يفعل سوى «ترجمة مشيئة اللّه» . «إنّنا، على ما يؤكّد، أمّةٌ مدعوّةٌ للدفاع عن الحرية، حريّةٌ ليست منحة من حكومة ولا من مستندٍ وإنّما هبة من اللّه».

التقى جون آشكروفت زوجة المستقبل خاصّته، جانيت رود، حينما كانا يدرسان معاً في كليّة القانون بجامعة شيكاغو. حسب جانيت، تصرّف جون بصراحة. «أقبل نحوي، كما تقول، وقدّم نفسه إليّ: «أنا جون آشكروفت. أتوافقين على الخروج معي في عطلة نهاية الأسبوع هذه؟»» وتسارع السيّدة آشكروفت إلى الإضافة : «طبعاً، رفضت»، ولكن بسبب «إلحاحه» انتهت إلى الموافقة موضّحة له في الوقت نفسه بأنّه لم يكن من عادتها «الخروج مع شخصٍ تجهله تماماً» . وهو ما ردّ عليه عاشقها الشابّ والمندفع بالمثل: «بالتأكيد، ولكن تأكّدي من أنني لم أعد بعد الآن ذلك المجهول تماماً».

حينما تزوّج جون وجانيت، إبّان سنوات الستينات الصاخبة، كنّا بعيدين عن الجو الغزلي للعقد الذي سبق. ففي الواقع، ابتداءً من أواسط الخمسينات، بدأ الناس بالسعي إلى التحرّر من أغلال التقاليد. فأخذ الفن مسالك الجَهَر، ونشر شعراء من أمثال روبرت لويل أفكارهم ومشاعرهم الأكثر حميمية، بينما كان الروائي ڤلاديمير نابوكوف يكتب «لوليتا» قصّة العاطفة الاستحواذيّة لرجلٍ بالغٍ تجاه حفيدته المراهقة. في عام 1960، ظهر في السوق القرص المانع للحمل، والذي فتح الطريق أمام الثورة الجنسية، وساوى بين المرأة والرجل بأن لم يعد عليها أن تدفع، بسبب شبقها، ثمن الحمل والعار. وكذلك في سنوات الستينات تركت الحرب الباردة الحرب غير الشعبية في ڤيتنام تمشي أمامها. وقد نجم عن ذلك شرخٌ إضافيٌّ داخل المجتمع، بين الجزء من السكان الذي كان يخشى اللّه ويحلّ الدين في الوطنية من جهة، وأولئك الذين كانوا، وبسبب معارضتهم لتورّط البلاد في ڤيتنام، يُعتَبرون ليس كمفتقرين للوطنية فحسب، بل وأيضاً كخُطاةٍ في نظر الرّب. كان هناك، على نحوٍ غريبٍ، العديد من أوجه الشبه بين راديكالية الستينات وورع عام 2000. ولكن، بينما كانت تهبّ على أمريكا في الستينات ريحٌ من الحريّة والتحرّر، كان هذا التغيير يُفهَم من قبل جون وجانيت آشكروفت كانحرافٍ خطير بالنسبة إلى توقّعات اللّه حينما خلق جلاله الرجل (والمرأة) على صورته. يمكن تصوّر الصدمة التي عانتها جانيت آشكروفت حينما وقعت بين براثن مغتَصبٍ في الفترة التي كان زوج المستقبل يتودّد إليها. وهذا أمرٌ قرّرت السيّدة آشكروفت أخيراً الحديث عنه إلى التلفاز في الوقت الذي اَسْتُمِعَ إلى زوجها من قبل لجنة من مجلس الشيوخ حين تسميته وزيراً للعدالة من قبل الرئيس جورج دبليو بوش. حسب مصادر مقرّبة من النائب العامّ المستقبلي، أرادت السيدة آشكروفت، من كشف هذه المسألة الأليمة التي تركت أثراً في حياتها، أن تظهر بأنّ زوجها، وعلى الرغم من آرائه المحافظة، كان في حياته الخاصّة شخصاً حنوناً. ولكن هذه هي الطريقة الأكثر بلاغة التي تحدّثت بها عن سلوك زوجها بعد الاغتصاب : أقرّت بأنّها «ذُهِلَتْ» من «التفهّم» الذي أبداه جون، وكأنّه كان عليه أن يكون رجلاً استثنائياً لكي يتوجّس من الصَلْب الذي كانت قد عانته زوجته المستقبلية.

يبدو جليّاً أنّهما، في عملية استعادة الماضي، لم يكونا يملكان أيّة فكرة عن طريقة التوجّه إلى الجمهور الأمريكي الواسع. في الواقع، وبسبب الثبات الذي يميّز قناعاتهما الدينية، لا يكونا في هناءٍ سوى عندما يتواصلا على المستوى الشخصي مع الطائفة الإنجيلية. ولمّا نعلم أنّ جون آشكروفت مقتنعٌ بقوّة بأنّ الإجهاض إثمٌ حتى في حالة ارتكاب المحارم أو الاغتصاب، يمكننا التساؤل عمّا كان سيحصل لو أنّ زوجته كانت وجدت نفسها حاملاً بعد ذلك الاعتداء...

تزوّج جون وجانيت في كانون الأوّل 1966، بعد لقائهما بأكثر من سنةٍ بقليلٍ. وفق الاعتراف الخاص لوزير العدالة، ما جذبه نحو طالبة القانون الشابّة واللامعة تلك كان «مسلكها النظيف وتواضع هيئتها» . بعد ما يقارب أربعين سنة، تحتفظ جانيت آشكروفت بالرشاقة والنضارة والجمال، ولكنّها تعطي الانطباع بصحّة لا جنسية جيّدة. في التايوور BCBG الخارج من كاتالوغٍ للأزياء والساتر جيداً لتقاسيم جسدها المتناسقة، أو في الفستان المزهّر الذي يبرز أنوثةً ظاهرة، تشبه جانيت، من حيث المظهر على الأقلّ، ربّة المنزل النموذجية في الخمسينات.

في جميع النقاشات التي تشارك فيها حول القيم العائلية، تشتكي جانيت آشكروفت من غياب المعايير الأخلاقية والدينية التي كانت تسود في أعوام الخمسينات. حينما يتجابه الليبراليون والمحافظون حول هذا الموضوع ذاته، لا يكفّ المحافظون، وبشكلٍ خاص اليمين المسيحي أو الإنجيليين، عن استحضار الأُسر التي كانت تُشاهَد على الشاشة الصغيرة في تلك الفترة. كانت الحياة آنذاك مثاليّة، وكانت أمريكا منخرطة في حربٍ باردة ضدّ الاتحاد السوڤيتي، حربٌ صامتةٌ كانت ترمز لصراع الخير ضدّ الشرّ، صراع أمريكيين مؤمنين ضد الشيوعيين الكَفَرة. في تلك الحقبة الموصوفة طواعية بـ «الأسطورية»، كانت البلاغة المستَخدَمة من قبل الرئيس دوايت أيزنهاور بخصوص الحرب الباردة تستند إلى القول بأنّ عائلة «سويّة» وأمّاً «حريصة» كانتا «خطّ الجبهة» في الكفاح ضدّ الخيانة.

عام 1959، وأثناء «نقاشه الشهير حول المطبخ» مع نيكيتا خروشوف، أكّد ريتشارد نيكسون نائب الرئيس بأنّ تفوّق الرأسمالية على الشيوعية كان «متجسّداً لا

في الأيديولوجية أو القوّة العسكرية، وإنّما في راحة منزلٍ في الضواحي مصمّمٍ لتسهيل حياة نسائنا» .

في الخمسينات، كانت «الأغلبية الأخلاقية» للبلاد تقرن الشيوعية بعائلة منحرفة، والخراب بسلوكٍ جنسيٍّ فاسد. ولأنّ ذلك حدث في الولايات المتّحدة منذ الحادي عشر من أيلول 2001، أجرت الـ FBI، وسواها من الوكالات الحكومية أبحاثاً لا مثيل لها حول الحياة الخاصّة لبعض المواطنين والأجانب الزائرين للبلاد، وذلك بذريعة عزل العناصر الهدّامة. بلغت تحقيقات الخمسينات ذروتها مع استجوابات السيناتور اليميني جوزيف مكارثي، حينما أُدرِجَت شخصياتٌ هوليودية على «القائمة السوداء» بسبب صلاتهم المفترَضة أو الحقيقية مع الحزب الشيوعي الأمريكي. وكان السلاح الأمضى ضدّ إمبراطورية الشرّ وخطر الشيوعية هو شعباً فاضلاً لابدّ له أن يكسب الحرب الباردة بعمق وثبات إيمانه باللّه.

في العائلة التقليدية لأمريكا الخمسينات، كانت المهمّة الأولى للأمّ الحريصة جدّاً والمرحة دائماً، هي السهر على التربية الأخلاقية للأطفال وعلى وجبات الطعام والعيش الرغيد لكلّ الأسرةِ.

بالنسبة لجانيت آشكروفت ومن يتقاسم معها أفكارها، تعتبر تلك المرأة نموذجاً للأنوثة، أو، على الأقلّ، القدوة الناجزة التي من أجلها خلق اللّه النساء. الأب كما ظهر في نماذج تلك المرحلة، هو شخصيّة بشوشة، و إلاّ فهو غير كفءٍ. يُشاهَد وهو ينطلق إلى العمل صباحاً ويعود منه مساءً، رائقاً، لا يبدي أدنى أثرٍ للضغوط المهنية أو المشاكل الشخصيّة. وأطفال الفئات نفسها هم عموماً مراهقون مشكلتهم الوجودية الأخطر هي وجود بثورٍ على وجههم، بينما حركتهم التمرديّة الأكثر وضوحاً تشتمل على خطف قطعة بسكويت خارجة من الفرن في مطبخ ماما، أو، بخصوص الموسيقى، الضغط بقوّة على أزرارِ الآلات. بالنسبة إلى السيّدة آشكروفت، كانت الرسالة آنذاك واضحة. لم تكن لأمريكا الخمسينات - أو على الأقلّ ما شاهدناه في التلفزيون وما قدّم كمثالٍ للعائلة الأمريكية النموذجية - أيّ رائحة للفضيحة، وكانت تنغمر بحبّ اللّه والوطن. كان الوالدان

في النماذج، يتبادلان القُبَل على الخدّ، وكانت التوتّرات الجنسية أو المظاهر العامّة للمحبّة على الأمواج كما في الحياة الحقيقية محظورة بشدّة. كانت تُراعى الوصايا العشر في كلّ ظروف الحياة، وإذا كان المرء يَغار من جاره، فذلك فقط لأنّ مرجته كانت أكثر اخضراراً، أو كلبه أكثر نظافةً أو إيمانه باللّه أكثر رسوخاً. كان شعار المرحلة : «عائلة موحّدة في الصلاة، ستبقى موحّدة». النساء كنّ آنذاك يعرفن مكانتهن، وكذلك الرجال.

حسب جانيت آشكروفت، «كان الوالدان يحافظان على أبنائهما على الطريق الصحيح، بمعونة اللّه وبالشيء الكثير من النظام الصحيّ» .

في عام 1954، وبعد توقيع نصٍّ قانونٍ من قبل الرئيس أيزنهاور، أُضيفَت إشارة «بأوامر اللّه» إلى يمين الولاء. ولتبرير قراره، أعلن أيزنهاور للشعب الأمريكي : «بهذا، نؤكّد من جديد على استمرار الإيمان في تراث أمريكا وفي مستقبلها. بهذا، لا نكفُّ عن تعزيز هذه الأسلحة الروحية التي ستكون إلى الأبد الوسيلة الأنجع لبلادنا في السلم كما في الحرب». بعيد حفل التوقيع مباشرةً، كان أيزنهاور يكتب : «ابتداءً من هذا اليوم، سيعلن طلبتنا يوميّاً بالملايين... خضوع أمّتنا وشعبنا للعليّ القدير».

الثنائي المؤلّف من آل آشكروفت له هذه الخصوصية: مع أنّ جانيت مساوية لزوجها مهنيّاً وثقافيّاً، إلا أنّها، في البيت، تقبل بأن يكون لها وضعٌ أدنى منه. العديد من الأشخاص الذين اُستقبِلوا على العشاء في بيتهم ذكروا بأنّ جانيت تدري أنّ عليها ألاّ تقاطع زوجها حينما يتكلّم في الدين وفي السياسة، أو يعرض رؤاه حيال هذين الشأنين. أحد المدعوين روى بأنّه، ذات يوم، وقد نست ولا شكّ القاعدة، عبّرت عن رأيها بحماسٍ بعض الشيء حول تفصيل تقني لقانون كان له تأثيرٌ على التعديل الرابع. فأوقفها زوجها على الفور قائلاً : «أين سمعتِ هذا، عند الحلاّق؟»

أولئك الذين يشاطرون جون وجانيت آشكروفت المعتقدات الدينية والمبادئ الأخلاقية يعتبرون أنّ الحركة النسائية هي «بِدْعة» إذا ما عاد المرء إلى مشروع اللّه حينما خلق المرأة. مع ذلك، إذا كان دور المرأة مختلفاً في الخمسينات عمّا هو

عليه اليوم، فذلك لأنّ الميول الطبيعية، في تلك الحقبة، كانت تُملى من الكتاب المقدّس، على اعتبارها النتيجة الطبيعية للسمات والصفات الفيزيولوجية والنفسية والوراثية. حسب عالم الاجتماع دافيد ريزمان، كانت النساء اللواتي يرفضن إنجاب الأطفال يُعتبرن منحرفات تقريباً، وتلك اللواتي لم يستطعن ولم يردْنَّ القبول بوضع المرأة البيتية كان ينظَر إليهنّ على أنّهن «غير طبيعيّات» .

حسب كتاب ستيفاني كونتز The Way We Never Were كان في الفترة ذاتها، يتم إجراء صدمات كهربائية لنساء منطقة سان فرانسيسكو المحجوزات في المستشفيات الخاصّة بالأمراض العقلية والنفسية لإرغامهنَّ على التقيّد بدورهنّ المنزلي والإذعان لأوامر أزواجهنّ. وكان هذا النمط من العلاجات يوصى للنساء اللواتي كنّ يرغبن في الإجهاض، انطلاقاً من أن عدم الرغبة في إنجاب الأطفال هو دليلٌ على اضطرابات عاطفية خطيرة. في عام 1954، وصفت مقالة في مجلّة Esquire، النساء المتزوّجات اللواتي يعملن بالـ «تهديد» ، وتحدّث صحفيّ من Life بنفس الموضوع عن «مرضٍ» . وفيما يخصّ الرجال، كان العُزّب يُعتَبرون على أنّهم غير ناضجين أو طفوليون أو نرجسيّون أو منحرفون أو حتّى حالات مرضيّة. أمّا الأخصائيّ في الإرشاد العائلي، بول لانديس، فقد أكّد بأنّ، «باستثناء المرضى والمشوّهين والعَجَزة واللا انضباطيين، والمتخلّفين عقليّاً، يكاد يكون كلّ واحدٍ، وبالمحصّلة، تحت مسؤولية، واجب الزواج» .

والغريب، مع أنّ السّيدة آشكروفت تقوم بوظيفة كأستاذة للقانون التجاري في جامعة هاوارد في واشنطن، ومع أنّ أحد أولادهما الثلاث، ابنتهم مارتا، مسجّلة في كليّة القانون، فإنّ جون آشكروفت يغتاظ من أن تعمل أمٌّ أو زوجةٌ. أثناء عشاءٍ آخر في بيتهما، التقط ضيفٌ من جهته تعليقاً يستحقّ الذكر: «بعملهنّ، تُحيلُ النساءُ الرجالَ إلى مجرّد مانحين للمنّي». إلى ذلك، ومع أنّ السيّدة آشكروفت شاركت زوجها في التوقيع على كرّاستين في القانون، فإنّ هذا الأخير، حينما سُئِل عن أكثر ما أعجبه من سمات زوجته، أجاب : «لقد علّمتني ترتيب الأطباق بحيث يمكنني استخدام الأطباق من أسفل الكَدْس مثلما يمكنني استخدامها غالباً من أعلاه».

في سيرته الذاتية، يتحدّث آشكروفت بصراحة عن عذريّته وعذريّة زوجته عندما تزوّجا، مصرّحاً بهذا الخصوص : «إنّ لمومسٍ حياةٌ جنسية، في حين أنّ لشخصٍ متزوّجٍ حياةٌ عاشقة».

أيّاً كانت برودة أقوال زوجها أو نجاحها الخاص، فإنّ جانيت آشكروفت تعتبر أنّ التزامها اتّجاه اللّه وعائلتها يأتي أمام كلّ شيءٍ في وجودها. لقد أعلنت مراراً بأنّ «مساهمتها الأغلى في الحياة العامّة لزوجها كانت وجودها إلى جانبه». وتقول: «لطالما كنتُ سعيدة بالقيام بالمهمّة التي قضى اللّه بها لي». كما تجهد السيّدة آشكروفت في شرح التزام زوجها اتجاه اللّه، إذ غالباً ما اتّهِمَ بالتساهل في تأثير إيمانه على عمله السياسيّ. «اللّه هو الأولوية الأولى عند زوجي، وإذا مارس تأثيرا حاسماً وعظيماً على أمريكا، فذلك لأنّه طالما تفحّص كلّ مسألة انطلاقاً من الكتاب المقدّس ونجح في إفهام ذلك ليس لمن يتقاسمه معتقداته فحسب بل وللآخرين أيضاً». أثناء لقاءٍ معها، أكّدت جانيت آشكروفت أنّه، «مهما حصل، فاللّه هو مجيب الدعوات».

بعد الحادي عشر من أيلول، أوضحت جانيت آشكروفت أنّ «أثر اللّه موجودٌ حتى في أكثر الأعمال دناءةً» . قالت: «أنا على يقين بأنّ اللّه يستطيع قلب أيّ وضعٍ كان، واستثماره بدرايةٍ. إنّ أحداث الحادي عشر من أيلول أوضحت بجلاء ضرورة العودة إلى الإيمان. لقد أنتُقِدَ جون لأنّه ينظّم جلساتٍ لدراسة الكتاب المقدّس في مكتبه، ولكننا الآن، نعود إلى اللّه وإلى الروح الوطنية، وأعتقد أنّ الناس يدركون بأنّ الأمر يتعلّق هنا بالقيم التي لطالما كانت سبب وجود هذه البلاد. قال لنا اللّه بأنّه علينا إدارة ظهورنا لآثامنا... وفي المحصّلة من المرعب أن يكون اللّه مرغَماً على أن يوبّخنا لكي يذكّرنا بقَصْدية كلّ هذا - أيّ أنّ جلاله مجيبٌ للدعوات وأننا ندينُ لجلاله بالولاء الأوّل. ولكن لو أدركنا ذلك، سنكون مشمولين ببَركته».

مثله مثل زوجته، يحترم جون بشدّة وصايا عقيدته، وخاصّة حرمان الذّات من التبغ والشراب والعلاقات الجنسية قبل الزواج والرقص لأنّ هذا، على ما يعتقد يثير الرغبة الجنسية. كذلك لا يقود السيارة ولا يستخدم أيّ جهازٍ الكتروني

طيلة يوم السبت. وليثبت عمق التزامه الديني، أعطى الأمر بتغطية تمثال العدالة، وهو تمثال رخاميّ يصوّر لإمرأة عارية، بكفنٍ أزرق كي لا تُرى نهداها. وإن لم يكن العضو الأوّل في مجالس اللّه يخدم في إدارة رئاسية- كان جيمس واط قد شغل مهام سكرتير الداخلية في فريق الرئيس ريغان - إلاّ أن آشكروفت مارس على السياسة الداخلية تأثيراً أكبر بكثير من سَلَفه. في الواقع، حاول، في مناسبات عديدة، إزاحة القانون المدني بذريعة تنفيذ إرادة الرّب. في كانون الأوّل 2003، اضطرّ قاضٍ في محكمة الدعوى الاتحادية أن يوجّه إليه توبيخاً لمحاولته مراراً أن يلاحق قضائيّاً، في ولاية أوريغون، أطباء كانوا يستخدمون القانون المبيح للانتحار بمساعدة الأدوية، القانون المصدّق لمرّتين من قبل ناخبي هذه الولاية.

كما يؤكّد آشكروفت بأنّه كان على السلطات العامّة أن تسنّ القوانين في الشأن الأخلاقي، مسلّماً تماماً بأنّه لا يمكن فعل ذلك مع الشأن الروحاني. وفي السياسة، كشف عن صلاتٍ مع أعضاء العديد من المجموعات المسيحية الأصولية من أمثال معمدانيي الجنوب.

إنّ النائب العام مدهشٌ ومؤثّر: إنّه ذكيٌّ ومثقّف وغالباً ما يفيض سحراً وفتنةً. إنّه رجلٌ طموحه بقدر إيمانه الديني، ما يبيح له الاعتقاد بأنّ كلّ نعوت نجاحه السياسي وسلطته تأتيه مباشرة من اللّه. في سيرته الذاتية، Lessons from a Father to His Son، المنشورة في عام 1998، يصف انتصارات وهزائم حملاته في ولايته الأمّ ميسوري بحالات «قيامة وصلب» ، مشبّها حياته المهنية بتجارب ومحن المسيح.

حسب أحد معاونيه في وزارة العدل، ثلاثة أرباع أعضاء فريقه هم أيضاً من المسيحيين العَنْصَريين الذين يلتقون كلّ صباح من أجل جلسة صلواتٍ بقيادته قبل مباشرة يومٍ من العمل. يتواصل أثناءها هو بنفسه وفريقه مباشرة مع يسوع بلغة غير مفهومة في سبيل مخادعة الشيطان والوصول مباشرة إلى يسوع. أحد أعضاء مجلس قيادته والذي لم يكن مسيحيّاً عَنْصَرياً اعترف بأنّ لا أحد يخضع لـ «ضغوطات» بإرغامه على المشاركة في جلسات الصلوات تلك، بيد أنّه، وبحذقٍ، يتم إفهام كلٍّ واحدٍ بأنّه عليه، «أيّاً كانت معتقداته الدينية» أن يكرّس يومياً بعض

الوقت لـ «محاولة الاتّصال باللّه» على الأقلّ.

حسب هذا المصدر ذاته، الأشخاص الوحيدين الذين يمقتهم آشكروفت أكثر من الملحدين، هم المسيحيّون غير الإنجيليين وغير الخلاصيين. كما يَخالُ آشكروفت أن الديمقراطية والحرية موهوبتان من اللّه الذي هو منتَقِمٍ كليّ العلم يرى كلَّ شيء.

حسب زعمه، على أولئك الذين رفضوا تعليمات اللّه الخضوع للعواقب التي يفرضها جلاله واعتبارها ذات طابعٍ إلهي. وهكذا، يكون آشكروفت مقتنعٌ بأن المصابين بمرض السيدا، الذين يتألّمون من جرائه أو يموتون به، قد عوقِبوا على «فُسْقِهم» الخاص من قبل الإله الخيِّر بنفسه.

تفجّر ذلك الإيمان عندما حاول هاري وايغينز، سيناتور ولايته الأمّ ميسوري والناطق باسم مجموعة غير سياسية، الحصول على أموال عامّة ليقيم في كنساس سيتي مأوى لمرضى السيدا كان سيسمّى مركز السامريّ الخيّر. بهذه المناسبة، التمس دعم آشكروفت الذي كان يشغل حينها منصب الحاكم، وتدخّل شخصياً لدى هذا الأخير سعياً لتبادل الرأي معه، إذ كان قد سبق له أن واجه لمرّتين اعتراضه على منح إعانة مالية مقدارها تسعمائة ألف دولار للمأوى. بعد أن دافع وايغينز عن قضيّته مظْهِراً للحاكم آشكروفت بأنه ما لم يموّل المركز، فإنّ المعوزين المعانين من السيدا سيضطرون للموت في الشارع سمع الردّ التالي: «أوافقك الرأي بأنّ تلك نهاية محزنة، ولكن إذا كانوا يجدون أنفسهم في تلك الحالة، فهذا بسبب فسقهم». في الواقع، كان آشكروفت يعتبر بأنّه لا ينبغي لولاية ميسوري أن تدفع نفقات مواطنين كانوا قد رفضوا تعليمات اللّه، وجرّوا على أنفسهم، بتصرّفهم اللاأخلاقي، ما كان يعتبره «عقابه العادل لآثميه».

بنفس الروح، حينما عقد آشكروفت جلسات استماع لتجنيد الأعضاء المستقبليين لأركان قيادته، اهتم أكثر من أيّ نقطة أخرى بتجربتهم في المجال القضائي بقدر ما اهتمّ بموقفهم من بعض القضايا التي تتيح، برأيه، فرز الأخلاقي عن اللاأخلاقي، والصالح عن الطالح.

روى أحد المرشّحين بأنّ آشكروفت طرح عليه، دفعة واحدة، الأسئلة التالية: «ما هي حقوق الجنين؟» و «ماذا يضمن، في الدستور، حقوق المثليين؟»

حينما يتوجّه إلى البلاد أو إلى العالم، يحاول آشكروفت أحياناً يلطّف بعض الشيء تصريحاته حول العلاقات بين الكنيسة والدولة. أمّا حينما يتحدّث إلى من يتقاسمه معتقداته، فتكون أقواله مطبوعة بإحساسٍ دينيٍّ حقيقي. في عام 1999، على سبيل المثال، كان هو من ألقى خطاب حفلة تقليد الشهادات في جامعة بوب جونز المشهورة بكونها معقلاً لا للأصولية فحسب، بل وللعنصرية أيضاً. مؤكّداً بأنّ أمريكا لم تكن «أمّة علمانية» ، وقد أبان عن قوله بهذه العبارات:

«ليس لنا من ملكٍ آخر غير يسوع».

4

الشعب المختار الجديد

أيّاً كانت مآثر جون آشكروفت، فإنّ عمله السياسي كان سلسلة من النجاحات والإخفاقات التي قد يسعها تثبيط همّة كلّ شخصٍ عاديٍّ غير مقتنعٍ بأن يكون مصيره رهن يدي اللّه. كان الوزير المستقبلي لعدل الولايات المتحدة الذي لا يكلّ من العمل، مدفوعاً بطموحٍ لا حدّ له، يجد الوقت، في عطلة نهاية الأسبوع، لإقامة حفلات فنية موسيقية غنائية إنجيلية. وظهر مع زميله في المدرسة الابتدائية، ماكس باكون، القاضي الديمقراطي والمسيحي الخلاصيّ، في صالات الاستراحة للكنائس وفي القاعات البلدية بكنساس سيتي في هاواي. سياسيّاً، كانا يشكّلان ثنائياً طريفاً، النائب العام الجمهوري، والقاضي الديمقراطي، ولكن روحيّاً بلغا الشهرة وهم يستدرون الدموع من الجمهور مع أغنية «احْمِل الصليب» التي كان آشكروفت مؤلفها.

إيمان آشكروفت هو النتيجة الطبيعية لتربيته، فقد ترعرع بالقرب من أبٍ كان قسّاً عَنْصَريّاً وأيضاً رئيساً لـ Evangel College في سبرينغفيلد بولاية إيلونوي.

وبفضل ج. روبرت آشكروفت، والد جون، نالت Evangel College تفويضها قبل أن تصبح Evangel University، المعهد الديني التابع لمجالس كنيسة اللّه والذي يضم اليوم ما يقارب ألفي طالب منتسب من أكثر من خمسين ولاية. لا يكتفي جون آشكروفت بمقارنة يسر عمله وعسره بإخفاقات ونجاحات يسوع المسيح، بل يشبّه غياب والده أثناء فصول الصيف الذي كان يجوب البلاد ليبشّر بالإنجيل بـ «الخلل الوظيفي» للحياة العائلية للرّب. يقول في سيرته الذاتية :

«يسوع بنفسه خضع لارتباكات عائلية. تذكّروا صرخته أمام اللّه: «يا إلهي، يا إلهي لماذا تركتني؟»».

حالياً، وباسم معتقداته الدينية وإيمانه، يؤكّد النائب العام بأنّ اللّه أوكل إليه مهمّة الدفاع عن الولايات المتحدة وبالتالي عن الديمقراطية الغربية والمسيحية ضدّ آفة الإسلام. غالباً ما تسير أعماله بالنقيض من الحقوق الإنسانية الأساسية المنصوص عليها في التعديل الرابع من الدستور، ولكنّه يعتبر أنّ اللّه مرّ قبل القانون المدني. الواقع الراهن في الولايات المتحدة هو أنّ التعديل الرابع، الذي يسمح بالتحقيق والحجز، غالباً ما يتم تجاهله أو يتمّ إعادة تفسيره بما يخدم قضايا جنائية معيّنة. وباستناده على قيم دينيّة منبثقة من اللّه مباشرةً، نفّذ آشكروفت معتقداته اللاهوتية الخاصّة على شكل مبادرات تشريعية بدل التصرّف كممثّل سياسيٍّ بسيط، همّه الوحيد العمل على احترام الدستور وقوانين البلاد.

في كلِّ مرّةٍ، يتّخذ، سياسيّاً، الموقف ضدّ المثليين أو الإجهاض أو أيّة قضيّة أخرى لا تُطاق بالنسبة له ولأصدقائه الإنجيليين، يستند آشكروفت على الكتاب المقدّس وعلى عصمة الكتب المقدّسة، واضعاً بذلك وجهة نظره فوق كلِّ نقدٍ وفي مأمنٍ من كلِّ جدل. طيلة عمله السياسي في مجلس الشيوخ، كنائبٍ عامٍ لميسوري ولاحقاً كحاكم، كان على الدوام خصماً شرساً لحقوق اللواطيين وعضواً وفياً في National Rifle Association، ومن هنا جاءت معارضته لكلِّ حظرٍ لبيع الأسلحة الهجومية. كما أيّد التعديلات العشر السامية التي يجيز أحدها تعديل مجمل الوثيقة على نحو أسهل. لو أُخِذَت الإجراءات والقوانين التي أيّدها داخل وزارة العدل منذ الحادي عشر من أيلول 2001، يبدو أنّ عمله السياسي لم يكن أبداً متأثراً إلى هذه الدرجة بالكتاب المقدّس. وإلى ذلك، لديه حليفٌ مؤثّر في البيت الأبيض إذ إنّ جورج دبليو بوش لا يدعم فحسب بل ويشاطر نائبه العام معتقداته السياسية والدينية.

* * *

وسّع Patriot Act[1]، الذي أُقرّ في 25 تشرين الأوّل، تماماً بعد ستة أسابيع من الهجمات الإرهابية، توجيهات Foreign Intelligence Surveillance Act (FISA)، الذي كان أصلاً يجيز للسلطات العامّة أن تقوم بالتحرّي وأن تمارَس رقابةً على المواطنين الأمريكيين. حينما تمّ تصوّر FISA كان الغرض منه السماح بالتحقّق من الجواسيس الدوليين والقبض عليهم عبر التنصّت الهاتفي وتفتيش المكاتب والمساكن لتصوير المستندات المشبوهة أو عبر وضع لاقطات الصوت التي تتيح متابعة تصرّفات المشتَّبه فيهم. في عام 2002، فاقت طلبات الوضع تحت رقابة الحكومة الاتحادية في إطار FISA، للمرّة الأولى في تاريخ البلاد، كلَّ الطلبات التي شُرِعَ بها في إطار القوانين المحلية. بعضهم سيقول بأنّ للحكومة، منذ أحداث الحادي عشر من أيلول، كلّ الأسباب في أن تظهر حذرة ومحترسة. يبقى أنّ هذا الموقف خطير حينما يسيءُ رسميون مؤثرين كثيراً كجون آشكروفت استخدام امتيازهم ومهمّتهم، تحت غطاء حقٍّ خولّه لهم اللّه بغية حماية الولايات المتحدة من الإرهابيين الإسلاميين الراديكاليين المحرّضين على تقويض ليس الديمقراطية فحسب، بل وحتى مبادئ المسيحية.

اليوم وبموجب United States Patriot Act، تستطيع الوكالات المكلّفة بفرض احترام القانون أن تجري عمليات تفتيش مفاجئة وعمليات حجز بدون مذكّرة وتوقيفات كيفية. وكما كان متوقّعاً، فأن جميع الأشخاص الذي اُحتُجزوا بموجب Patriot Act، اتُّهموا أو اُشتُبه فيهم بصلاتٍ مع الإرهاب الشرق أوسطي. بالإضافة إلى ذلك، في حين أن habeas corpus كان قد أوقِفَ فيما مضى فقط على الأجانب والمواطنين الذين كانت الحكومة ترى فيهم «عملاء محتَملين للعدو» ، فهناك منذ الحادي عشر من أيلول فئة جديدة من القضايا الجزائية التي أجازت بشأنها بعضُ دقائق القانون، إعتقال sine die مواطنين أمريكيين وُضِعوا في زنزانة منفردة دون احتمال الوصول إلى محام- إن كان رئيس الولايات المتّحدة، وغالباً بناءً على رأي النائب العام، يعتبر المعتَقل «عميلاً للعدو» .

(1) القانون الوطني لمكافحة الإرهاب ـ المترجم.

ثمّة جانب أخر لا يمكن إهماله لهذه الفئة الجديدة من القضايا الجنائية: إذا كان للمعتّقل، من الناحية التقنية، حق مطالبة المحكمة بأن تتّبع إجراءات habeas corpus ، فليس للسلطات العامّة، في سبيل دفاعها الخاصّ، سوى أن تتمسّك بشكوكها الخاصّة بالمعتَقل، ولا تُلزَم بأن تقدّم أدلّة ملموسة ولا الرضوخ للاستجواب المضاد لمحامي المدّعي. وينجم عن ذلك أن تكون جلسة habeas corpus محض شكليّة. كما أنّ هذا يدلّل على أنّ FISA، مركّباً بـ Patriot Act، يسمح لا باعتقال الجواسيس والإرهابيين فحسب بل وبمراقبة الممارسات الجنسية للمواطنين الأمريكيين الذين يعتبر الحكّام سلوكهم منافياً لتفسير الكتاب المقدّس من قبل الإنجيليين و العَنْصَريين والمسيحيين الخلاصيين.

علاوة على هذه «الحقوق» الأساسية المكتَسبة من قبل FISA، تستطيع الدوائر الحكومية ليس الدخول إلى المساكن والمكاتب دون علم شاغليها فحسب، بل أيضاً القيام بتحرّيات دون إخطار المشتَبه فيهم بأنّهم هدف إجراءٍ كهذا. ولتبرير موقفه حول هذه النقطة، صرّح جون آشكروفت: «إنّها مهمّة أنبل من الخدمة العامّة، إنّها خدمة اللّه».

منذ الحادي عشر من أيلول، وبالرغم من الدستور، وفي إطار الكفاح ضد الإرهاب، أقرّ آشكروفت شخصيّاً بأكثر بثمانية عشر استدعاءً للمثول أمام القضاء، وتفويضاً بالتحقيق موجّهة لمواطنين أمريكيين ومقيمين أجانب. في أيار 2003، أقرّ بأنّ وزارة العدل، تحت قيادته، حقّقت في 248 حالة، كانت قد أعلمت بشكلٍ متأخرٍ المعنيين بأن تحقيقاً يخصّهم كان يجري. منذ بضعة أشهر، تمّت دراسة إمكانية إدخال ميكروبروسسورات في بطاقات النقل الرقمية الجديدة للميترو ورُخَص القيادة حتى يمكن تقفّي أثر كل شخصٍ مستَخدِمٍ للشبكة العامّة منذ لحظة استعماله لبطاقته حتى نزوله في هذه المحطّة أو تلك. هذا الميكروبروسسور سيزيد بنسب كبيرة الوسائل التي تتصرّف بها السلطة العامّة لممارسة مراقبة على أيّ مواطنٍ، أي مراقبات ارتجالية في المترويات من قبل أعضاء في الشرطة مزوّدين بكاشفات معدنية نقّالة.

مثال آخر عن الحقّ الذي تدّعيه السلطات العامّة في الولوج إلى الحياة

الخاصّة للمواطنين: .Total Information Awareness Program (TIA) مشروع البنتاغون هذا الذي يديره العميد البحري جون بوانديكستر هدفه السماح للسلطة العامة بالتدخّل غير المشروع في الشؤون الخاصّة لكلّ الأمريكيين. عندها، حدّد الكونغرس نشاطات TIA، بما أنّ إمكانية أن تستطيع الولاية أن تتفحّص بيانات بطاقات الائتمان أو الملفّات الطبية هي انتهاكٌ لحقوق المواطنين التي قلّما تعوّضها الفوائد المتوقّعة. ولكن هذا لا يعني بأنّه سوف لن يتم تغيير الرأي في المستقبل، لاسيما إذا بقي تهديد الهجمات الإرهابية قائماً، مروراً بأنّ الدولة هي الحَكَم الوحيد في أن تحدّد في النهاية ما ينبغي أن يطّلِع عليه السكان. في الوقائع، قلّص الكونغرس نشاطات TIA، دون إيقافه تماماً، واحتفظ بحق «إعادة تفعيل» أو «توسيع» سلطاته في أيّ لحظة. وهكذا يمكن للعملاء الاتحاديين أن يفحصوا الحياة الخاصّة لأيّ أجنبي. وإذا ما صُدّقت الإشاعة، فمن المتوقّع حتى إقامة نظامٍ شبيه بذلك الموضوع على طول الحدود الإسرائيلية، بغية كشف كلّ الدخلاء الّذين قد يحاولون الاقتراب من السواحل الأمريكية.

بعد هجمات الحادي عشر من أيلول، لم يكتفِ الرئيس بوش بتوسيع سلطات الوكالات الموجودة: فأنشأ وزارة الأمن الداخلي بميزانية سنوية من 36 مليار دولار. خصّصت 8.5 مليار منها لتجنيد وتدريب وتجهيز عملاء الأمن الاتحادي في المطارات، ومُنِحَت 3 مليارات لـ «إعداد الكفاح ضد الإرهاب الحيوي» . واستخدمت المبالغ المتبقية في اقتناء لاقطات الإشعاعات وأنظمة مراقبة معقّدة سبق وإن وضعت في بعض المدن، وكذلك في تمويل FBI ليُتاح لها فتح ملفّات عن كلّ الأشخاص الذي يتبعون دورات في الغوص البحري، والذين يشتّبه فيهم بسبب إمكانية شن هجومٍ «تحت الماء» .

تقريباً استفادت كلّ المجموعات المرتبطة باليمين المتطرف أو باليمين الديني من البعد الأخلاقي الذي أدخله الرئيس بوش في السياسة. منذ انتخابه في العام 2000، جعل الكونغرس يسنّ قوانيناً، أو استخدم حقّه في النقض لإبطال بعض النصوص، خاصّة تلك التي تتعلّق بمراقبة حمل السلاح. وهكذا، في 9 نيسان 2003، أبدى مجلس النواب رأيه لصالح نصٍّ يقيّد الملاحقات ضد مصنّعي

الأسلحة النارية. بكلمتين، هذا يعني أنّه، لو أُقرَّ مشروع القانون هذا من قبل مجلس الشيوخ (حيث يحظى بالدعم الكافي لتمريره)، لن يعود بإمكان أنصار تقييد حمل السلاح، إلاّ في ما يقارب عشرين حالة، ملاحقة المصنّعين قضائياً ومطالبتهم بتعويضات لإنتاجهم أسلحة خطيرة وإتاحة وقوعها في أيدي المجرمين. كذلك يضع النصّ المصنّعين والتجّار في مأمنٍ عن الملاحقات وطلبات التعويض المرتبطة بسوء استعمال منتجاتهم من قبل الغير. وبرعاية الرئيس بوش، سمحت أغلبية الحزب الجمهوري للحركة المناهضة للإجهاض أن تحقّق انتصارها السياسي الأكبر منذ زمنٍ طويل: قاومت البحث حول الخلايا الجذعية المسبّب لاختلال وتلف الأجنّة البشرية في إطار البحث العلمي والطبّي. بالإضافة إلى ذلك، حصل اليمين المسيحي على إلغاء كل صياغة يمكن أن تفسَّر كـ pro-choice) لصالح الإجهاض)، كمؤيدٍ لحقوق اللواطيين أو للتربية الجنسية في المدارس، وتعليم التعفّف كأفضل وسيلة في نظرهم لضبط الولادات. في الواقع، الرئيس بوش نصير شرس لبرامج العفّة للمراهقين، وعلى الرغم من عدم المسؤولية التي أظهرها أثناء شبابه، والسلوكيات الطائشة والمريبة لابنتيه التوأمين، نظّم السيد بوش في آذار 1999، حينما كان حاكماً لتكساس، ندوة حول العفّة دعا إليها سبعمائة مراهق. كانت الغاية من تلك التظاهرة تعليم الشبّان أحدث المنشورات الإنجيلية، بما فيها إمكانية أن يستفيدوا من نوعٍ من العذرية « Born Again»، مع مراعاة أنّ الفتاة أو الصبي يلتزم، بحلف اليمين، بممارسة العفّة حتى الزواج. غالباً ما أعلن توم ديلاي، مبيد الجرذان السابق، والمسيحي الإنجيلي الورع، والعضو الجمهوري التكساسي في الكونغرس والزعيم الحالي للأغلبية في مجلس النواب : «وحدها المسيحية تقدّم نمطاً من الحياة يتيح مواجهة حقائق عالمنا» . فيما عداه، لم يذكر أيّ سياسيٍّ آخر في الساحة اللّه على نحوٍ غالبٍ سوى جورج دبليو بوش أو جون آشكروفت. هذا الأخير ليس أحد أشدّ داعمي الرئيس بوش وواحدٌ من الذين يمارسون التأثير الأكبر عليه، بل ذهب، بقدرته كنائبٍ عام، إلى حدِّ تأييد وجوب أن يعترف الدستور كما يطبّقه القضاة الأمريكيون بتفوّق الرئيس.

وحينما اتُّهِمَ آشكروفت بتجاوز حدود وظيفته كنائبٍ عام، دافع عن نفسه

مؤكّداً بأنّ إلى حين وصوله إلى وزارة العدل، كانت السلطة القضائية «تبدو على الدوام عدائيّة اتّجاه الدين» .

في الوقت الراهن، ينجز السيد آشكروفت مشروع Patriot Act رقم 2 ، المعروف رسميّاً تحت اسم (Domestic Security Enhancement Act قانون تعزيز الأمن الداخلي) لعام 2003.

هذا النصّ الجديد سيمنح للسلطات صلاحياتٍ أكبر بكثير في مجال جمع المعلومات في البلاد ولزيادة الامتيازات بخصوص مراقبة واحترام القانون. في الوقت ذاته، لابدّ من تحديد المعاينة الدستورية للقوانين ووصول الجمهور إلى المعلومة. وبشكلٍ خاص سيكون على التشريع الجديد أن يسمح لوزارة العدل بالتحفّظ على أيٍّ كان بسرية محكمة ولمدّة غير محدّدة، على الأقلّ إلى حين اتّهامه. وكلّ شخص يكشف هويّة المعتقل أو حتى وجوده في داخل النظام القضائي سيكون بدوره خاضعاً للملاحقات. وأخيراً، ستخوّل السلطات قانونياً حتى سحب الجنسية الأمريكية من أيٍّ متّهمٍ بكونه جزءً من منظّمة إرهابية أو داعماً لها. في مواجهة هذه الانتقادات، ذكر جون آشكروفت من جديد قول الرّب معلناً : «إنّ حفنة ممن يرتدون ثياب القضاة احتلوا جدار الحَرَم المخصّص لحماية الكنيسة وهذه البلاد ليجعلوا منه جداراً للاضطهاد الديني. يمكنهم طرد الله من بلادنا ولكن لن يتوصّلوا قط إلى إزالته من قلوبنا» .

بفضل مساعدة آشكروفت وغيره من المسيحيين الإنجيليين المؤثّرين، تحدّد مواقع الكترونية من الآن فصاعداً المسار الواجب إتّباعه لممارسة الضغط على المشرّعين. تُبذَل للمسيحيين اليمينيين معونات تتيح لهم الاعتقاد بأن قوّتهم الرئيسية تعود إلى كونهم «لوبي» قادر على إقرار تصويتٍ أو على الأقلّ إسماع صوتهم.

مؤسسة (AIPAC American Israel Public Affaires Committee)، مؤسّسة تُقاد وتُدار في جزءٍ كبيرٍ منها من قبل يهودٍ أمريكيين. وباعتبارها، بحق، واحدة من المنظمات الأكثر نفوذاً في واشنطن، تضم الـ AIPAC مائة وثلاثين موظّفاً، منهم سبع لوبيين متفرّغين. يوجد بين أعضائها في آن واحد جمهوريون وديمقراطيون يُعرّف عنهم منح ملايين الدولارات على شكل إسهامات سياسية

لمختلف أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب. مع ذلك، منذ بضعة سنوات تبدو الجالية اليهودية في الولايات المتّحدة والـ AIPAC جد متواضعتين في مقابل عدد المسيحيين الإنجيليين والتأثير المتزايد قوّة الذي يمارسونه على الحياة السياسية الأمريكية. ريتشارد هيلمان هو مؤسّس ورئيس الـ CIPAC (Christian Israel Public Action Campaign)، والذي هو بمثابة المعادل المسيحي الـ AIPAC.

وهذا رجلٌ بدينٌ مَرِحٌ عمل، تقريباً، طيلة حياته محامياً متخصّصاً في القضايا البيئية، وبهذه الصفة حرّر قوانين وأنظمة لـ EPA (Environmental Protection Agency).

دُعي زعيم CIPAC، لزيارة إسرائيل كمستشارٍ للبيئة، وكان مناحيم بيغن حينها رئيس الوزراء. في لقاء أجريته معه في واشنطن، صرّح هيلمان : «كانت تلك السنوات السبع هي الأكثر تميّزاً، لم أساعد في إنشاء وزارة البيئة قي ذلك البلد فحسب، بل أيضاً أَرَحتُ روحي وإيماني بالرّب وبفكرة أنّ الشعب اليهودي هو شعب اللّه المختار».

أثناء ولاية مناحيم بيغن بدأ التحالف الفعّال بين المسيحيين الإنجيليين والمنظمات اليهودية الأمريكية والقادة المحافظين الإسرائيليين.

بدءاً من عام 1977، داهن بيغن وحزبه الليكود الأجنحة المحاربة من السكان اليهود والمسيحيين، بتصوير مصادرة الأراضي العربية كحقٍّ «توراتي» للشعب اليهودي. لم يكتف بيغن برعاية علاقاتٍ مع المسيحيين الإنجيليين، وخاصّة المحتَرم جيري فالويل، بل، وفي عام 1980 أثناء حفلة عشاءٍ في نيويورك، كرّم هذا الأخير بإهدائه طائرة خاصّة من طراز ليرجت لشكره على «جهوده لصالح الشعب اليهودي». وككلّ المسيحيين الإنجيليين، يحبّ ريتشارد هيلمان أن يستحضر اللحظة المحدّدة التي دخل فيها يسوع المسيح إلى حياته لمساعدته في فهم أنّ إيمانه الحقيقي كان في أن يصبح مسيحياً عَنْصَريّاً.

أثناء مقابلتنا، ذكر «ولادته الجديدة» التي دفعته إلى أن يكرّس كلّ حياته المهنية للبحث عن الدعم السياسي لدولةِ إسرائيل. يروي هيلمان: «كان ذلك

خلال عطلة الربيع، وكانت زوجتي في إسرائيل. بينما كنتُ وحيداً في البيت، سقطّتُ أرضاً. عرفتُ في الحال بأنّ شيئاً خطيراً قد حدث لي، إذ لم أعد أتحرّك. في الواقع، كان كتفي قد انخلع، وانكسر عظمُ ترقوتي. ولكن وبينما كنتُ أرقد على الأرض، نجحتُ في استدعاء جارةٍ لي كانت مسيحية خلاصية. شرعت حينها في الصلاة من أجلي، وعندما قال الأطباء بأنّه لابد من خضوعي لعملية جراحية معقّدة، استمرّت جارتي في الصلاة. سألت الرّب أن يشفيني كي لا أحتاج لعملية جراحية. واستجاب لها الرّب. شُفي كتفي وترقوتي من تلقائهما. حينها أدركت وركعتُ لأسأل الرّب أن يدخل حياتي، وحينما لبّى جلاله، غيّر قلبي، وكذلك غيّر الرّب حياتي. كنتُ أعتقد بأنني كنتُ قد نجحتُ في عملي وفي حياتي العائلية، ولكن ذلك لم يكن إلا بعد التعهّد للّه بأنني أدركتُ مدى الشفاء الذي أحدثه في داخلي. كان زواجي يسير على نحوٍ أفضل، وكانت حياتي العائلية رائعة، ولا أظنّ بأنني كنت سأقبل بعملٍ مأجورٍ في إسرائيل لولا أن التوراة والشعب اليهودي قد أولياني أهمية كبيرة».

الـ CIPAC هي جماعة الضغط المسيحية المسجّلة الوحيدة التي يمكنها اقتراح أو معارضة قانون. يشرح هيلمان: «حينما عدتُ من إسرائيل كان ذلك من أجل هدفٍ محدّد. كان لدي الشعور بأنّ الولايات المتّحدة، وخاصّة الجماعات المسيحية والناس في الكابيتول، لم يكونوا يفهمون إسرائيل ولا التهديدات المحدقة بهذا البلد. وكل هذا كان ناجماً عن آفّة المعاداة للساميّة المتنكّرة في العداء للصهيونية، وحينها أدركت بأنّه على المسيحيين أن يتجنّدوا لتحريك الذهنيّات وسط الحكومة الأمريكية».

اليوم، تضمّ منظمة هيلمان أكثر من سبعة ملايين من الأتباع الأوفياء، الذين إمّا يشكلون جزءاً من جماعة ضغط وإمّا يساهمون مالياً ليتيحوا لها الحفاظ على مدلولها ونفوذها. «ذات يوم، ألمح البعض إلينا متحدّثين عن «الصدى الخفيف» لـ AIPAC، يقول هيلمان ضاحكاً، ربّما سنكون ذات يوم الصدى الهادر!»

في نيسان 2003، التقى وزير الخارجية كولن باول، على حِدة، المحافظين في مجلسَي الشيوخ والنواب، مثلما فعل ريتشارد هيلمان، ليطلب منهم سحب

قرارات مؤيدة لاجتياحٍ إسرائيليٍّ للضفّة الغربية قائلاً بأنّها سوف تعقّد الجهود المبذولة من قبل الولايات المتّحدة لترتيب محادثات السلام. بعد أن أُجِّل التصويت لأسبوعٍ واحدٍ، جرى التصديق في النهاية على القرارات رغم محاولات باول. يعتقد جميع المسيحيين الإنجيليين دون استثناء، رجال سياسة ومواطنين بسطاء، بأنّ التخلّي عن الولايات المتحدة لأعدائها دون اتّخاذ كافة التدابير المطلوبة في سبيل وضع حدٍّ لكلّ النزاعات هو انتقاصٌ من الوطنية. عدوّ الولايات المتحدة يخضع لأمرٍ إلهيٍّ يفيضُ من إلهٍ آخر (اللّه) يكرّسهم ويقودهم إلى الموت ليقوموا بواجبهم، أي بسط الإسلام على العالم برمّته. لذا فإنّ الإنجيليين حازمون في ألاّ ينفصل النزاع الإسرائيلي- الفلسطيني عن الحرب العالمية التي تخوضها الولايات المتّحدة ضد الجماعات الإرهابية الإسلامية. وبروحٍ براغماتيةٍ، يعتقدون بأنّه علاوة على دعم ومساندة يسوع المسيح، لا بدّ، لأجلِ تأمين قوّة نارية يُعتَدُّ بها، من دوائر للاستخبارات وكذلك رجال ونساء أشدّاء مستعدين لدحر عدوّهم ونشر المسيحية على كلِّ مواطني العالم.

في أمريكا اليوم، بالنسبة لما يقارب الثمانين مليوناً من المسيحيين الإنجيليين الذين يتقاسمون المعتقدات الدينية لجورج دبليو بوش وجون آشكروفت وكلّ أولئك الذين لا يُعدّون ولا يُحصون والذين هم حالياً بإمرة البلاد كغيرهم من الزعماء الدينيين، ليس هناك أيّ شيء عجيب ولا غريبٌ في الطريقة الهادئة والآمنة التي يتخيّلون بها علاقتهم الخاصّة بالخالق، ولا في أهليتهم للتواصل معه مباشرة. غالباً ما يكون من العسير على مَن لم يكن قد «مُسّ من قبل الرّب» فهم الاطمئنان المعلَن من قبل الإنجيليين في إيمانهم وتعبّدهم. بعد تغذية بعض الشكوك لبرهةٍ بخصوص هذا الموضوع، أدركتُ، وأنا أتزوّد بالمستندات لعملي الحالي، بأيِّ فطرةٍ يفكّرون بـ «علاقتهم الخاصّة بيسوع» . حينها امتلكتُ فرصة الالتقاء بمسيحية إنجيلية ساعدتني في مقابلة العديد من المسيحيين الخلاصيين أعضاءَ مجلسَي النواب والشيوخ.

***

تامي س. تلبس على آخر موضة، وتصبغ شعرها أشقر، وتشرب عند الحاجة

زجاجةً من الخمر وتدخّن، وتزخرف أقوالها بشتيمة خفيفة أو بتعبيرٍ شائع، وقد مرّت بنفس الأزمات، بما فيها زواجٌ فاشل، التي مرّت بها أغلبية النساء اللواتي التقيت بهنّ. غير أنّ ما يميّزها عن الأخريات هو الإيمان الذي يمكنها أن تبديه وهي تصلّي أو تحظى به من الربّ بأن يتدخّل في النزاع الإسرائيلي- الفلسطيني. هي وزوجها الثاني لديهم شُقّة في واشنطن مثلما لهم مسكن في القدس حيث يقضون القسم الأكبر من السنة. حسب عباراتها الخاصّة، «القدس هو المكان الذي يشعران فيه بأنّهم أقرب للرّب ويستطيعون فيه التواصل مع الشعب اليهودي».

في نهاية يوميَ الأخير في العاصمة، رافقتني تامي إلى فندقي وركنت سيارتها في الطريق الدائري المؤدّي إلى المدخل. أمضينا معاً ساعات عديدة وسط الزُحام وعلى تلّة الكابيتول ومن ثمّ في فوجي بوتوم بالقرب من عقدة ووترغيت حيث تناولنا الغداء، وقمنا كذلك في عجالة بالتبضّع في جورج تاون بين موعدين .

كان ذلك في السيارة، عندما استأذنّا بعضنا بالانصراف، استدارت فجأة نحوي وسألتني إن كانت تستطيع قول صلاة صغيرة لأجلي، لأنّها مقتنعة بأنّ «الرّبّ يحبّني وتنبأ لي بمهمّة خاصّة».

أنا نفسي مؤمنة، ولكن ظلّ الإيمان النوعي الذي يحثّني، على الدوام، شأناً خاصّاً وليس مرتبطاً لا بأيّ مكان للعبادة ولا بالتقيّد بأيّ شعيرة من الشعائر ولا بالرموز الدينية الخارجية. في المحصلة، أثّر طلب تامي التي أعرف معتقداتها العميقة عليّ أكثر من نفوري منها وأعطيتها الموافقة في الحال .

أحنت في الحال رأسها، ويداها ممسكتان بالمقود، وشرعت في التلفّظ بكلمات وأصواتٍ متداخلة مبهَمة. مذهولةً، انتظرت أن تُنهي لأسألها بأيٍّ لهجة تعبّر عن أفكارها. ابتسمت. «هذه ليست لهجة. كنتُ أُصلّي بالألسن» ، أجابت ببساطة قبل أن تشرح لي بأنّها مسيحية عَنْصَرية تلقّت هبة الاتّصال بيسوع بلغة غير معروفة للشيطان. ثم أضافت: «ولكن طبعاً يتكلّم اللّه بكل اللغات ولا يشقّ عليه فكّ ألغاز أقوالي».

كان ردُّ فعلي مضاعفاً، من جهة، فوجئتُ بأنّ تامي تستطيع أن تستلهم «الأرواح» بل بلا تأخير ودون معرفة «الآلام» المحتومة التي ترافق من حيث

المبدأ كلّ انتقال إلى درجة سامية من الروحانية. ومن جهة أخرى، أُهِنْت، إن صحّ القول، بأن تتمكّن من التفكير بإقناعي بقوّتها في «الدخول» في تلك الحالة في سيارتها أمام فندق شورهام، بالفعل البسيط للتلفّظ ببضع كلمات.

إذا كانت أحداث آزوزا ستريت والحركة العَنْصَرية قد أصبحت أسطورية جدّاً، فذلك جزئياً، وحسب شاهد عيان مذكورٍ من قبل فينسون سينان في عمله الفريد The Century of the Holy Spirit، لأنّ الأشخاص الموجودين في الكنيسة «هتفوا طيلة ثلاثة أيام بلياليها. وكانت تلك مدّة عيد الفصح. وكان الناس قد جاؤوا من كلٍّ مكان. في اليوم التالي، كان من غير الممكن الوصول إلى المبنى، وكان الذين يدخلون يستسلمون لسلطان اللّه. كانت المدينة بأسرها مزعزعة. لقد هتفوا بقوّة بحيث خرّت أركان الكنيسة ولكن لم يُجرَح أحدٌ من بينهم» .

مع ذلك، استطاعت تامي س. حسب رغبتها أن تبلغ هذا المستوى من الإيمان المذهل وأن تختلي في علاقة مع الروح القدس. لا شيء فيها، على الأقل ظاهريّاً، كان يدفعني للاعتقاد بأنّها كانت أرفع منزلة من العَنْصريين الآخرين، أو بكل بساطة متلهفة إلى الإدلاء بالبرهان على قوّة إيمانها. جوهريّاً، تعطي الانطباع بأنّ لا شيء يفاجئها في أعمال الرّبّ. «حينما نقض الفلسطينيّون وقفاً لإطلاق النار، رأيتُ، كما تشرح، في مبادرتهم بصمة اللّه. وحينما أرغم هجومٌ انتحاري كولن باول أو كلّ أعضاء حاشية جورج دبليو بوش الآخرين على إدانة الإرهاب الفلسطيني، عرفتُ أنّ الرّبّ موجودٌ وأنّ جلاله يتصرّف لحماية الشعب اليهودي» .

كانت تامي تجسّد كل صفات عضوٍ من الطبقة الوسطى - صورٌ لأحفادها في حقيبة يدها وقرضٌ رَهني لشقّتها المشتركة الملكية بالقرب من البيت الأبيض، واهتمام عاديٌّ بالأخبار. ولكنها كانت تستطيع كذلك، بهدوءٍ تام، أن تحجز الموقف أمام فندق شورهام وتتقلّب في الرطانة حتى تخدع الشيطان. قالت: «فوق هذه الأرض، لكلّ واحد القدرة على التآلف مع يسوع. بكلٍّ بساطة، أرى العلامات بحدّةٍ أكبر من أولئك الذين لم يستقبلوه بعد في قلوبهم». حينما روت لي بأنّها كانت قد ذهبت رفقة صديقة لها، هي الأخرى مسيحية خلاصية، إلى

الجليل لتصلّيان اثنتي عشرة ساعة متواصلة وتطلبان من الرّب أن يوقف المطر حتى يكون عيد المِظال اليهودي «حدثاً رائعاً بلا قطرة مطر» ، كانت لدى تامي اليقين المطلق بأنّ الرّب كان قد سمع صلواتهما : «طبعاً توقّف المطر، في المساء الأوّل من الاحتفالات في القدس، كانت السماء مرصّعة بالنجوم».

في الواقع، وبخلاف غيرهم من الجماعات الدينية أو المتشدّدين السياسيين (المميزين ظاهراً بأثوابهم الطويلة وجماجمهم الحليقة، أو الرموز التي يعرضونها) المسيحيون الإنجيليّون أناسٌ ينصهرون في الجماهير. إن كانوا يدعون أن جورج دبليو بوش أو جوليا بندغراست أو جون أو جانيت آشكروفت أو تامي س.، هم نماذج من عددٍ متزايدٍ من المسحيين الإنجيليين الذين يمارسون عقيدتهم جهاراً دون الاهتمام بالأثر الناجم عن غرابة شعائرهم. سواء كانوا عَنْصريين أو أعضاء في جماعة أخرى أقلّ تشدّداً من تلك الكنيسة، فإنّ الإنجيليين والمسيحيين الخلاصيين، أصبحوا في الولايات المتّحدة الكيان الديني والسياسي الأكثر نفوذاً. وبالتالي من المفهوم ألّا يظهروا أيَّ تكتّمٍ حول موضوع علاقتهم المتميّزة مع اللّه. كذلك من الهيّن التصوّر بأنّهم، إذ يدركون تأثيرهم السياسي المتعاظم بلا توقّف، يستطيعون أن يجيزوا لأنفسهم المبالغة في مواهبهم الدينية بحضور «المنافسين ضعيفي الحظ» الذين لا يشاطرونهم معتقداتهم. في الواقع، بالنسبة لهم، من لا يعترفون بأنّ المسيح يقودهم في حياتهم الشخصية وفي عملهم، هم من تعساء الجنس البشري الذين يجدر الإشفاق عليهم لجهلهم وللمصير الذي ينتظرهم لزمنٍ طويلٍ طيلة ما سيرفضون أن يُنقَذوا .

قلّما يهمّ من يكونون أو حتى كم هو عددهم، ربّما ما هو جدير أكثر بالاهتمام هو فهم معتقداتهم. بتعريف مسيحيٍّ إنجيلي من خلال عقائده، يؤخَذُ بالحسبان ما يميّزه عن البروتستانتي أو عن الكاثوليكي العادي في الولايات المتحدة.

التأثير الذي طالما مارسه المسيحيون الإنجيليون على القضايا الداخلية لهذا البلد يكاد اليوم أن يكون ثانوياً إزاء قدرتهم على تعديل نتيجة الانتخابات، وفي المحصّلة، الضغط على السياسة الخارجية الأمريكية.

5

فليبارك الله أمريكا

محاطاً بعددٍ متزايدٍ من الشيوخ وأعضاء الكونغرس وضبّاط كبار من الجيش، يشارك جون آشكروفت في حفلات فطور أسبوعية للصلاة يحرص على عدم خلطها بالجلسات الاعتيادية للصلوات التي ينظّمها في مكتبه بوزارة العدل.

حسب عضوٍ في الكونغرس وهو أيضاً مسيحيٌّ إنجيليّ، الغرض الأوّل من حفلات الفطور هو «تجنيد الأعضاء المحتملين لطائفة المسيحيين الخلاصيين ليتحادثوا مع يسوع رجلاً لرجل». كما ادّعى هذا النائب بأنّه غالباً ما منح اللّه، أثناء جلسات الصلوات الأسبوعية، القدرة لآشكروفت على حلّ «مآزق سياسية» ، الأمر الذي، على ما يعتقد، ما كان للكفرة أبداً أن يفعلوه في الوقت المناسب لحماية البلاد من فظائعٍ إرهابية أخرى.

الحل المطروح لواحدٍ من تلك «المآزق السياسية» جرى في 19 شباط 2003 عندما اتّهم جون آشكروفت بالابتزاز، سامي العريان، وهو أستاذ جامعي من أصلٍ فلسطيني مقيمٌ في فلوريدا. وهكذا أتُّهِم العريان بتمويل الهجمات الانتحارية. ومع ذلك، فإنّ هذا التوقيف يكتسي طابعاً استثنائيّاً في إطار النظام القضائي الأمريكي: فهذا الرجل كان قد أُتّهِمَ بالانتماء إلى الجهاد الإسلامي، المجموعة الأصولية الراديكالية التي تتّخذ من غزّة قاعدة لها وتستهدف المدنيين والجنود على عموم الأرض الإسرائيلية والأراضي المحتلة. منذ الحادي عشر من أيلول 2001، اتّخذ النائب العام قرارات فريدة جدّاً، ولكن هذا القرار ربّما يكون أكثر فرادة لأنّه يظهر بأنّ وزارة العدل جاهزة لتوقيف الإرهابيين المشتَبهين ليس فقط لمشاركتهم في هجمات ضدّ الولايات المتّحدة أو حتى ضدّ رعاياها ومصالحها

في الخارج، بل وكذلك لحساب إسرائيل. آشكروفت بنفسه يعترف بأنّ انضمامه إلى الميثاق الإبراهيمي هو مظهرٌ هام لفلسفته الشخصية. ولكنّه أعلن أيضاً بأنّ الإرهاب في إسرائيل ليس سوى مقدّمة لتهديدٍ إرهابيٍّ عالمي يمتلك وسائل إيذاء أمريكا ومواطنيها.

* * *

لا ريب أن ظروف هجمات الحادي عشر من أيلول 2001 كانت مأساوية. وأيّاً كان الهول الناجم عنها، يبقى أنّ إدارة بوش استغلّت لأقصى درجة الحدث لتبرير إدخال سلسلة من الإجراءات السياسية والاجتماعية السارية المفعول من الآن فصاعداً على عموم التراب الوطني. بعد ذلك التاريخ المقدّر بقليل، أعلن الرئيس للشعب الأمريكي بأنّه لابدّ لتشجيع الدين من أن يقلّل الخوف والذُهان الهَذياني اللذين كانا يجتاحان البلد بأسره. فقد صرّح في خطابٍ ألقاه في نيويورك في أيلول 2001: «نحن نضع إيماننا بالخالق الذي وهبنا الحياة، نضع أمام جلاله آلامنا وأحزاننا لنلتمس بركته». مع ذلك، إذا كان الخوف والذُهان لا يزالان يعيثان في البلاد بأسرها، فذلك لأنّ السيدين بوش وآشكروفت يغذّيان ردود الفعل العاطفية هذه. بالرغم من الكلمات التي أطلقها الرئيس في خطابٍ في ميامي في 2 تشرين الثاني 2003، حينما أعلن بخصوص الإرهابيين الإسلاميين، «نرفض العيش وسط الخوف» إنّ الواقع لمختلف تماماً. منذ ثلاث سنوات والشعب الأمريكي يعيش في قلقٍ. فمنذ تلك الهجمات، والحكومة العامّة، وبمساعدة نظامٍ من الألوان وسمات الخطر الخاصّة بأمن البلاد، تنسّق أسبوعياً رسائل: أحذروا الجار، راقبوا السماء، اشتروا الأردية والأقنعة الواقية، وكونوا محترسين حينما يكون هناك رجال ونساء بهيئة شرق أوسطية في وسائط النقل العامّة. لقد أصبح إنشاء بروفيلات عرقية باسم الأمن ممارسة سارية مثل تلك المرتكزة إلى ربط اللّه بالوطنية. في الواقع، الوطنية هي من الآن فصاعداً واحدة من دعائم العقيدة الإنجيلية. في شباط 2003، حينما ذهب الرئيس بوش إلى ناشفيل ليوجّه كلمة إلى National Religious Broadcasters ، أي إلى مسؤولي القنوات الإعلامية الدينية، كانت توجد خلفه لوحة خلفية تقول: «النطوّر وسائل الاتّصال المسيحية» . «وبدأ

حديثه بالكلمات التالية: أعداء أمريكا لا يطيقون بأن نستطيع الاحتفال باللّه العليّ القدير كما نفهمه..».

لا شكّ بأنّ استخدام الرئيس بوش المتواتر لعبارة «الحرب الصليبية» ، منذ الحادي عشر من أيلول، غرضه توجيه رسالة محدّدة بدقة إلى أصدقائه الإنجيليين وكلِّ أعضاء الحركة الذين يدعمونه. غداة الهجمات الإرهابية في ذلك اليوم ضدّ الولايات المتّحدة، أدلى المحترم فرانكلين غراهام، المسيحي الإنجيلي الشهير الذي تلا والده بيللي المسنّ والمريض، بتصريحٍ دوّت أصداءه في البلاد بأسرها. فإذ أكّد بأنّ هذه الهجمات كانت بمثابة «تحذير لأمريكا» ، قال: «المقصود بهذا الأمر طلقةُ إنذار لأنّ الماديّة أصبحت إله أمريكا. لقد سمح اللّه لهذا أن يحدث، تماماً مثلما سمح أن يفعل البابليّون حينما أخذوا جودا والإسرائيليين سبايا، تماماً مثلما سمح بالمحرقة حتى تنبعث إسرائيل من رمادها وتوجَد اليوم. المسائل التي تشغل الرّب غالباً ما تكون مكلفة في الحيوات البشرية».

جيري فالويل وبات روبرتسون وغيرهم من الزعماء المسيحيين الإنجيليين عزوا الهجمات إلى «خِسّة البشر» وإلى «رفضهم الاعتراف بيسوع مخلّصهم» وشبّهوا العمليات الإرهابية الأربع المنفصلة بوباء السيدا وبالطاعون الدُبَيليّ الذي أهلك في عام 1603 أكثر من نصف سكان أوروبا. تماماً مثلما رأى بروتستانت إنكلترا في ذلك الطاعون علامة للغضب الإلهي، رأى المسيحيون الخلاصيّون في وباء السيدا والهجمات الإرهابية علامة من السماء.

في تفسيرات منفصلة، سارع جيري فالويل وبات روبرتسون إلى الإعلان بأنّ هذه المأساة كانت حكمة إلهية مبرّرة بأخطاء العلمانيين. هنا وجهة نظرٍ تماثل على نحوٍ غريب وجهة نظر الإرهابيين الإسلاميين الذين ارتكبوا الهجمات. حتى الإنجيليين الساخطين عبّروا عن استيائهم. ورغم زوال حظوته الذي حدث فجأة قبل عشرين سنة، وصف جيمي سواغارت، في 10 تشرين الثاني 2002، النبي محمّد بالـ «المنحرف» و «الشاذّ جنسياً» . وصرّح إنجيليٌّ تَعِسٌ آخر هو جيم بيكر بأنّ الإسلام كان «ديناً سيئاً للغاية وخبيثاً جدّاً» ، وشنّ حرباً كلامية عنيفة ضدّه ملصقاً بالنبي محمّد، مؤسّس الإسلام، سمة «الإرهاب» . صرّح عضو آخر أكثر

احتراماً من اليمين المسيحي، هو إد ماكاتير بأنّ هذا النبي محمّد نفسه كان «منحرفاً جنسيّاً مسكوناً بالشيطان» .

فجأةً لم يعد هناك اختلافٌ بين الزعماء الإنجيليين والسياسيين المعروفين كسلطاتٍ أخلاقية وأولئك الذين كانوا قد فقدوا الحظوة في عملهم.

ما كان يهمّ، هو وحده واقع أنّ أمريكا ضُرِبَت، وأن اللّه كان، في المحصّلة، إلى جانبهم. ولذا وحّد كلّ سكان البلد - متدينون وعلمانيون - صفوفهم.

وإذ لم يعودوا يخشون من الخلط بين الدين والدولة، سمح سياسيون وشخصيات أخرى رفيعة من أمثال جون آشكروفت لأنفسهم أن يلوّحوا باللّه وبمحن البلاد لتفسير الهجمات. أكّد آشكروفت أنّ هؤلاء لم يفعلوا سوى البرهان على أنّ الولايات المتّحدة كانت «الأمّة التي اختارها اللّه لتقود معركة عادلة ضدّ الشرّ». وكان يضيف: «هذا ما قيل في رؤيا القديس يوحنا. المحنة الشديدة التي نعانيها هي جزءٌ من آلام ولادة المخلّص».

بعد أسبوعين من الهجمات، ألقى بوش خطاباً ليعرض خطّته الخاصّة بمنح القروض العامّة لمنظمات خيرية دينية؛ ولكنّ، في حين ركّز على هذه النقطة لثمان دقائق، غيّر الموضوع وتحدّث لعشرين دقيقة بلغة الإيمان. صرّح قائلاً: «يمكن للسلطات العامّة أن تحرّر حوّالات، ولكن لا يمكنها إثارة الأمل في القلوب ولا تعليم الناس كيفية إعطاء معنى لحياتهم». كان مجمع الزعماء الدينيين والمسئولين السياسيين حاضراً وكانوا ينصتون بافتتان، بينما كان بوش يتابع: «هذا الأمر [إثارة الأمل في القلوب] هو مهمّة أولئك الذين سمعوا نداءً، أولئك الذين هداهم الإيمان وتمت تهيئتهم لاقتسام هذا الكنز. لا أتحدّثُ عن دينٍ بعينه، بل عن كل تلك الأديان التي تنتسب إلى اللّه العليّ القدير». كان من الواضح أنّ الإله الذي استحضره الرئيس بوش في أقواله هو الإله اليهودي - المسيحي، وليس إله الإسلام.

بعد المأساة بستّة أسابيع، ألقى السيد بوش، بمناسبة عيد الشكر، خطاباً

إذاعيّاً، نعته العديد من القساوسة بالموعظة. وطيلة الأسابيع الستّة التي سبقت الذكرى السنوية الثانية للحادي عشر من أيلول، لم يكتف الرئيس بوش بالإشارة إلى الهجمات لدى الحديث عن العراق وأفغانستان والأمن في المطارات، بقدر الحديث عن مجالات كانت الإسقاطات فيها مباشرة وعميقة، بل كذلك استغلّ الحادي عشر من أيلول لتبرير سياسته المتعلّقة بالطاقة وتخفيضات الضرائب والبطالة ونقص وجمع القروض لحملته. وكذلك، حينما سأله الصحفيّون، في تموز 2003، عن الميزانية المؤلّفة من 170 مليار دولار المقدّرة لأوائل 2004، والتي كان واثقاً من الحصول عليها، ردّ: «كلُّ يومٍ يذكّرني بما يعنيه الحادي عشر من أيلول لأمريكا». حسب رأيه «لا يزال هذا البلد يعيش تحت تهديد الإرهاب، عليّ إذاً أن أتابع مهمّتي، وهذه سترتكز إلى العمل على أن يكون الأمريكيون أكثر أمناً».

بينما كانت حملة إعادة انتخابه في أوجها، ارتفعت أصواتٌ عديدة احتجاجاً على هذا الاستغلال للهجمات. ففي الواقع، سيكون من ماتوا أو فقدوا أشخاصاً أعزاء بمثابة أدواتٍ بفضلها يسجّل بوش نقاطاً على الأرض السياسية. وكذلك انتُقِدت الإعلانات المتلفَزة حول صور الضحايا انتقاداً شديداً. وفي معرض ردّه، صرّح رئيس الولايات المتحدة بأنّ الهجمات ضدّ البلاد بالنسبة له جانبٌ مركزيٌّ لولايته الرئاسية وستبقى مسألة أساسية طيلة الحملة الانتخابية، وستكون من الآن فصاعداً مدرجة في برنامج أيِّ مرشّحٍ لمنصب الرئاسة. علاوة على ذلك، فإنّه مع «المهمّة الإلهية» التي تلقّاها، يعتبر بأنّه أكثر من يحظى بثقة اللّه، بل هو، وجون آشكروفت إلى جانبه، أكثر من يمكنه تجنيب الولايات المتّحدة والأمّة الأمريكية عذابات أخرى.

فيما يتعلّق بالانتقادات التي باتت تُسمَع في أمريكا والعالم بأسره بخصوص الصراعات في أفغانستان والعراق، واصل الرئيس بوش ومستشاروه القول بأنّ اللّه يقف إلى جانب أمريكا وبالتّالي ليس هناك ما يدعو لمناقشة الغزوات أو تبريرها أو شرحها لأنّها التعويض العادل عن الهجمات المرتكَبَة ضد البلاد. حتى حقيقة أنّه لم يتمّ العثور على أسلحة الدمار الشامل اُعتُبِرَت في غيرِ محلّها؛ فالأمر

الجوهري هو أنّ الإرادة الإلهية للرّب جنّدت الجنود الأمريكيين لإبادة الإرهابيين وكلٍّ أعداء اللّه والديمقراطية. هذا هو ما يهمّ وليست التقارير المريبة لأجهزة الاستخبارات التي كان من المفروض أنّها تبرّر في البداية مهاجمة العراق. بعبارات أخرى، بما أنّ اللّه طرفٌ أخّاذ في هذا الهجوم، فإنّ الاعتبارات الأخرى المتعلّقة بتعريض الجنود والمدنيين للخطر ليست وثيقة الصلة بالموضوع. في الواقع، في كلّ مرّة سُئِلَ بوش عن الوضع في أفغانستان أو الحرب الدائرة في العراق والتي تبدو وكأنّ لا نهاية لها، ردّ بأنّه على الشعب الأمريكي أن يفوّض أمره «للعناية الإلهية ويثق بإله المحبّة الذي يحكم كلّ جوانب الحياة ومجرى التاريخ» . في مداخلته أمام مسئولي الأقنية التلفزيونية الدينية في ناشڤيل، صرّح الرئيس بوش كذلك: «التضحية التي نبذلها في سبيل تحرير غرباء ليس هبة أمريكا للعالم وإنّما هبة اللّه للإنسانية. إنّها هبة اللّه لكلِّ كائن بشري على هذه الأرض، وأمريكا هي التي اختيرَت لتقود العالم نحو السلام». ولكن ثمّة أسباب أخرى أكثر دقّة تبرّر الحرب الصليبية ضد الإرهاب المندلعة في العالم العربي بأسره .

في الوضع العالمي المؤاتي لنا، يَخَال للرئيس بوش بأنّ صراعاً في العراق بالنسبة للولايات المتّحدة سيكون له لا إسقاطات جيوسياسية إيجابية فحسب، بل انّه سيكون إيجابيّاً في دعم الثمانين مليوناً من المسيحيين الإنجيليين الذين يعتقدون بأنّ كلَّ حربٍ ضد الإسلام ليست أيّ شيءٍ سوى «حرب صليبية» لتحرير العالم نهائيّاً من هذه الآفة. هؤلاء الإنجيليين أنفسهم مقتنعون، فضلاً عن ذلك، بأنّ انتصار أمريكا على بلدٍ إسلاميٍّ كبير سيفتح أبواب ذلك البلد لمبشّرين مسيحيين لهداية أرواحٍ جديدة.

في عام 2003، كان فرانكلين غراهام، وهو أحد الدعاة الإنجيليين الأكثر حضوراً، ضيفَ شرفٍ على البنتاغون في قدّاس الجمعة العظيمة. كانت رسالته واضحة جدّاً: «ليس هناك سوى إله واحد وعقيدة واحدة» ، هتف أمام حشدٍ من الجنود بلباسهم الرسمي المموّه وموظّفين مدنيين من بينهم ابنه الأصغر في ويست بوينت. «ليس من سبيل آخرٍ إلى اللّه سوى المسيح...يسوع المسيح حيّ لأنه بُعِثَ. يا أصدقائي، سيعود، أنا واثقٌ من أنّه سوف يعود قريباً».

بعد اندلاع الأعمال الحربية في العراق مباشرة، زار المحترم فرانكلين هيلمان هذا البلد ليحمل، على حدِّ زعمه، للشعب العراقي أطعمة وألبسة دافئة وأدوية، وكلّ ذلك برعاية منظمته الخيرية (Samaritans Purse) «صُرّة السامِريّ»). قبل مغادرته بقليل، شرح السيد هيلمان في مقابلة، الغرض من رحلته بالعبارات التالية: «عملية تحرير العراق فرصة للمسيح. سنذهب إلى هناك لنمدّ يدنا للعراقيين ونخلّصهم. وكمسيحي، أتصرّف هكذا باسم المسيح».

بعد وصوله، حدثت إشكالات عديدة، ونسب العراقيون إلى معاونيه السعي إلى نشر «كلام المسيح» . وروى جنديٌّ، أبقى اسمه طي الكتمان، بأنّه رأى حجّاجاً إنجيليين من أتباع غراهام يعرضون الماء العذب على مجموعةٍ من العراقيين ولكن بشرطٍ صريحٍ وهو أن يقبلوا بأن يتعمّدوا ويعتنقوا العقيدة المسيحية.

رغم ارتفاع عدد الضحايا الأمريكيين، يغضّ اليمين المسيحي الطَرف، بطيبة خاطر، عن التدهوّر الذي تلا نهاية النزاع لأنّه مقتنعٌ بأنّ قوّات الرّب ستنتهي إلى التغلّب عليه. باعثهم الوحيد على القلق هو الأمريكيون الذين يعارضون الرئيس بوش وعزمه على إقامة الديمقراطية في العراق، لأنّ موقفاً كهذا لا يفعل سوى التأكيد على أنّهم «تجرّدوا روحياً مقابل الحرب والتضحيات التي تقتضيها» . في 13 كانون الأول 2003، حينما اُعتُقِل صدام حسين أخيراً في تكريت، كانت الاتّصالات الهاتفية الأربعة الأولى التي أجراها جورج دبليو بوش لإعلان الخبر، بعد أن أُعلِم مستشاروه السياسيون المباشرون، كانت لوالده والمحترم بيللي غراهام والنائب العام جون آشكروفت وقسّه، قسّ United Methodist Church في دالاس بعد عشرين دقيقة من ذلك، وجون آشكروفت إلى جانبه، والمبشّران على الخط من خلال مؤتمر مرئي، اتّصل بوالديه جورج و. باربارا بوش. أمّا وقد أُجري الاتّصال بكلّ هؤلاء الأشخاص، فقد طلب الرئيس من بيللي غراهام قيادة الصلاة. كان بوش الابن وآشكروفت، وهما راكعين في المكتب البيضاوي، يحنيان رأسيهما بينما كان غراهام يعبّر عن رأيه. «يا يسوع، هذه الرسالة تحمل بصمتك، ومن خلالك، أيها الرّب، وقع تجسيد الشرّ هذا الذي هو صدام حسين

بين أيدي العدالة. باسم يسوع المسيح نشكرك ونحمدك على هذه الهبة النادرة التي وهبتها للتو للشعب الطيّب لأمتنا المباركة، الولايات المتحدة الأمريكية».

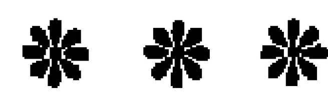
ليست هذه المرّة الأولى التي يُطلَب فيها إلى المحترم بيللي غراهام ليتوجّه بآيات الشكر إلى الرّب بعد انتصارٍ عسكريٍّ. أثناء حرب الخليج الأولى، كان تأثيره على الرئيس الحادي والأربعين للولايات المتّحدة، جورج هـ.و. بوش أيضاً كبيراً جداً. أيّاً كانت الاختلافات اللاهوتية بين الرئيس الحالي ووالده، نجح غراهام في توحيد اليمين الديني وقيادته للعب دورٍ هام لتعبئة الرأي العام لصالح حرب 1991.

أثناء تحرير الكويت المحتَلّة من قبل قوات صدام حسين، وعد الرئيس جورج هـ.و. بوش، تحت صولجان المحترم، الأمريكيين بأن صدام حسين سيُهزَم، ولكن فقط شريطة أن «يصلّوا من أجل هذا النصر ومن أجل عودة جنودنا بسلام». في 31 كانون الثاني 1991، كان بوش الأب يعلن: «في طول البلاد وعرضها، سجّلت الكنائس والكُنس وحتى الجوامع حشوداً لم يسبق لها مثيل. امتلأت كل هذه الأماكن بالناس الذين صلّوا من أجل انتصارنا في هذه العملية العسكرية ضدّ الوحش صدام حسين».

ليلة اندلاع حرب الخليج الأولى، كان بيللي غراهام ضيفُ البيت الأبيض، وقال لبوش الأب، بهذه المناسبة، كم كان من المهمّ «الاستدارة نحو اللّه بشعبٍ مسكونٍ بالإيمان، الاستدارة نحو جلاله بأملٍ». في اليوم التالي صباحاً، بينما كانت الحرب على أشدّها، زار المحترم فورت مايرز، في نيوجرسي، حيث كانت القوات الأمريكية تنتظر أن تُهرَع إلى الجبهة، وأقام فيها قدّاساً دينيّاً. وحسب جورج هـ.و. بوش، «لقد أقمنا قدّاساً مهيباً، قاد خلاله الدكتور هيلمان أمّتنا في صلاةٍ مؤثِّرة مع ذكرٍ خاصٍّ لقواتنا في الخارج. لقد تضرّعنا إلى اللّه لكي يُتاحَ لنا دحر القوات العراقية».

عبر التاريخ، لم تُخمِد على الدوام الصلوات في سبيل النصر على الأعداء مخاوف وقلاقل كلّ الأمريكيين. بل غالباً ما أثارت ردود فعلٍ لاذعة السخرية. كانت، مثلاً، تلك هي حال الكاتب الهزليّ الكبير مارك توين، عندما شنّت

أمريكا، في السنوات الأولى من القرن العشرين، واحدة من حروبها الوقائية في الفيليبين. يذكر توين لمواطنيه بالضبط هذا السبب لكونهم يصلّون عندما كانوا يسألون اللّه أن يقف إلى جانبهم في النزاع وأن يبيد العدو. ها هو اقتباسٌ من «الصلاة في زمن الحرب» لهذا الكاتب : «أيّها الرّب إلهنا، ساعدنا في تحويل جنودهم مزقاً دامية بخراطيشنا. ساعدنا في نثر حقولهم الزاهية بجثثٍ شاحبة لوطنيّيهم. ساعدنا في تغطية قرقعات مدافعهم بأنين جرحاهم المتلوّين ألماً. ساعدنا في تدمير بيوتهم المتواضعة بوابلٍ من النار... ساعدنا في تقويض أسطحهم، ليتوه صغارهم منفردين في الحقول الجرداء لأرضهم المحوّلة إلى أنقاض... هذا ما نتوسله، باسم المحبّة، ممّن هو منبع المحبّة».



حاليّاً، يعجُّ كونغرس الولايات المتّحدة برجالٍ ونساءٍ مقتنعين بأنّ كل مزايا الحياة الحديثة، بما فيها التقدّم العلمي، لم تفد سوى في رفض الإيمان الأساسي باللّه وبالدين. بالنسبة لآخرين أيضاً، وبما أنّ خطر الإرهاب، يأتي بشكلٍ أساسي من جماعات إسلامية متشدّدة، فإنّ أيّ محاولة للتصالح مع الزعماء أو البلدان أو الحكومات العربية وان كانت معتدلة تُعتَبر تعطيلاً مميتاً للديمقراطية.

القاسم المشتَرك لأغلبية الساسة المنتمين إلى العقيدة الإنجيلية هو الاعتقاد بأنّ كل أرض إسرائيل ملكٌ لليهود بموجب الميثاق الإبراهيمي المذكور في سفر التكوين، الذي أوصى اللّه عبره بهذه الأرض العريقة للنسل العبري لإبراهيم. أما الساسة الذين ليسوا مسيحيين إنجيليين، فقد أدركوا بأنّهم، وللبقاء في الخدمة، عليهم إرضاء رغبات ناخبيهم الإنجيليين وناخبيهم اليهود. هكذا، وتحت غطاء رغبة مشتركة في الدفاع عن الديمقراطية والقيم الغربية، تقود أمريكا حرباً ضدَّ الإرهاب، والتي هي في الحقيقة حربٌ بين القيم اليهودية-المسيحية والقيم الإسلامية، بالاعتماد على معتقدات وطموحات إقليمية بصبغة توراتية قويّة جدّاً.

منذ اللحظة التي أصبح فيها منتمياً إلى حركة المسيحيين الخلاصيين، عرّف الرئيس بوش نفسه كرجلٍ يحكّم إيمانه باللّه في كل جوانب الوجود. ومثلما فعل

في عام 2000 أثناء حملة الانتخابات الرئاسية، أعلن بوش، الطامع في ولاية ثانية، بلا مواربة بأنّ هدفه الأولي يبقى الكفاح ضدّ الإرهاب، معركة جارية و لا متناهية، ضدّ الشرّ. وفي مناسبات عديدة، أثناء الحملتين الانتخابيتين، حثّ الشعب الأمريكي على السعي إلى المواساة في الكتب المقدّسة، مع نبرات تميّز مبشّراً أكثر منه مرشّحاً للرئاسة. علاوة على الكتاب المقدّس، درس السيد بوش أيضاً كتاب التقوى اليومية لأوزفالد تشامبر، My Upmost for His Highest. في عام 2003، وفي خطابه إلى الكونغرس حول حال الاتّحاد، الذي نقلته القنوات التلفزيونية للعالم بأسره، تحدّث الرئيس عن «السلطة، السلطة الاعجازية لطيبة الشعب الأمريكي ومثاليته وإيمانه» .

وليس من قبيل الصدفة أن يختار كاتب خطاباته، مايكل غيرسون الذي ينتمي بدوره إلى حركة المسيحيين الخلاصيين ، هذه العبارات المألوفة لكلّ عضوٍ من الحركة يعرف النشيد المعمداني «سلطة الدم» الذي يستعيد الجمع فيه عبارة «السلطة، السلطة، السلطة الاعجازية للدم، للدم، للدم الكريم لحَمَل اللّه» . في خطابه حول حال الاتحاد لعام 2004، تابع بوش إرسال رسائل مرموزة إلى الطائفة الإنجيلية مع إشاراته إلى اللّه والدور الذي لعبه جلاله في حماية أمريكا ضدّ الإرهابيين. في الواقع ركّز المعلقون السياسيون الأجانب، الذين تابعوا مداخلته، على المكانة التي يشغلها اللّه والدين، في ظل إدارة بوش، في الحياة السياسية الأمريكية.

على غرار ما كان يحدث عادة، تحت رعاية النائب العام، في مكاتب وزارة العدل، تجري حفلات فطور للصلاة أسبوعياً في أقبية الكونغرس. وعلاوة على هذه الجلسات، نُظّمتْ بانتظام اجتماعات وقداديسٌ استثنائية من قبل مشرّعين إنجيليين آخرين. شغلت جلسات دراسة الكتاب المقدّس حيزاً مفرطاً في استخدام الوقت العام لرئيس الولايات المتّحدة، فاعتاد الأمريكيون على هذا البيت الأبيض موضوعاً تحت علامة الدين، وعلى هذه الإدارة المستندة على الإيمان. علاوة على ذلك، وحتى حينما لا يكونون مؤمنين، فهم مطمئنون على نحو غريب بخطابات سياسية، الأمر والرؤية فيها على صلة بفقرات مقتبسة مباشرة من الكتاب

المقدّس، ويبدأ كلّ شيء وينتهي بإحالات إلى اللّه. في مناخ التديّن والقلق الذي يغلب على أمريكا منذ هجمات الحادي عشر من أيلول الإرهابية، أدرك المشرّعون والنواب المنتَخبون بسرعة فائقة أنّ إغفال اللّه أو الكتب المقدّسة أو تفسير للكتاب المقدّس مناقض للتفسير الحرفي للإنجيليين، قد يكلّفهم الانتخابات التشريعية أو يجعلهم يتدهورون في استطلاعات شعبيتهم.

6

من المحرقة إلى الإنجيلية

آنيت لانتوس امرأة نحيلة في الخامسة والسبعين من عمرها، تطلي وجهها بالمساحيق وكلُّ خصلة من شعرها المستعار مرتّبة أحسن ترتيب، وترتدي ألبسة رسمية رفيعة بألوان فاقعة مصمّمة لنساء يصغرْنَها سنّاً بثلاث مرات. وهي جاثمة على كراسٍ بارتفاعٍ غريبٍ، تعلن رغبتها في ألاّ تنحني أمام السنين. لها بنات عمومة الشقيقات غابور - زسازسا وايڤا وماغدا -، المشارَكة الأشهر لهنغاريا في هوليوود الخمسينات. آنيت لانتوس تشبههم جسديّاً بلطف ألفاظها ورقّة قسماتها. وتتكلّم الإنكليزية أيضاً مثلهنّ بنبرة هنغارية ساحرة تضفي المزيد من اللطف على شخصيتها. في الواقع حينما تروي «ولادتها الجديدة» وكيف «وجدت يسوع» ، تكاد تكون أكثر سحراً، بمراقبة سِيمائها المأساوية والاهتمام بوقفاتها وبانحناءاتها المسرحية، من متابعة سردها المذهل.

آنيت لانتوس يهودية ناجية من المحرقة، وقد اعتقدت خلال الجزء الأعظم من حياتها الراشدة أنّ اللّه كان قد تخلّى عن الشعب اليهودي. لديهما، هي وزوجها توم، ابنتين جميلتين أعطتاهما سبعة عشر حفيداً. لدى جميعهم ميلٌ روحي ودمجوا المسيح في حياتهم. تزوجّت الابنتان من غير اليهود. تروي آنيت تجربة تعود إلى عام 1958 جعلتها تدرك، للمرّة الأولى، إلى أيّة درجة كانت تعيش بعيدة عن الإيمان والدين واللّه. وصفت آنيت المشهد: كانت في السيارة مع زوجها وابنتها البكر التي كانت بالكاد تبلغ عامها السادس. كانت الطفلة جميلة شقراء متلألئة ذات خدود وردية، كانت حسب أمّها «طفلة ودودة وحنونة للغاية» ، خاصّة مع والدها الذي كانت تحبّه حبّاً جمّاً.

تشرح آنيت: «كنّا نحن الاثنين مولعين بها، ولكنّ الصغيرة آنيت [إذاً كانت تحمل نفس اسمها] كانت أكثر قرباً إلى والدها منّي». بينما نوا يسيرون، استدارت الابنة فجأة نحوه وقالت: «أبي أحبّك كثيراً، ولكن هناك من أحبّه أكثر منك». تتذكّر آنيت تلك اللحظة. «كنتُ محتارة لأنني كنتُ أعرف أنّه لا يمكن أن تقصدني، فانتظرتها لتعبّر عن رأيها، وعندما فعلت ذلك، نظر زوجي المنذَهِل إليّ وكأنّه ليقول لي ماذا دسستِ في رأس هذه الطفلة؟»

قالت الطفلة لوالدها أنّ الكائن الوحيد الذي كانت تحبّه أكثر منه هو اللّه، وهو ما كان أمراً لا يمكن تصوّره بالنسبة للزوجين. تشرح آنيت: «لطالما كنا رفضنا تماماً يهوديتنا، خاصّة حينما وُلِدَ أطفالنا لأنّنا كنّا نخشى محرقة جديدة. لم يشكّل اللّه أو الدين أبداً جزءاً من حياتنا. حينما قلت لبنتيَّ في نهاية الأمر بأنّنا كنّا يهوداً، اقتصر الأمر على ذلك مع أنّه ما كان لذلك، بجلاء، أن يمنع الروحانية من أن تتطوّر لدى الاثنتين. صحيحٌ أنّه، حينما تزوّجنا من غير يهود وقرّرنا، دون تحريضٍ من جانبنا، أن تنجبا كلّ الأطفال الذين شاء اللّه أن يرزقهما بهم لتعويض اختفاء أقاربنا في معسكرات الاعتقال، كان عليّ أن يحدّثني قلبي بأنّ هذه الروحانية كانت موجودة فيهما مذ كانتا تكبران. ولكن الكلام على اللّه بطريقة جد عفوية كان مدهشاً، ولاسيما من لدن طفلة في السادسة من عمرها. فيما يخصّنا أنا وزوجي، كان اللّه قد سبّب لنا الكثير من الهموم، لنا ولعوائلنا وللشعب اليهودي». وتتوقف لحظة. «ولكن ما قالته آنيت الصغيرة هو ما أوقد الشعلة في داخلي».

بعد تلك الحادثة ببضعة أسابيع، ذهبت آنيت رفقة زوجها إلى القدس، وتتذكّر بأنّها كانت تشعر، طيلة إقامتها هناك، بأنّها ضعيفة ومريضة غير قادرة على مغادرة غرفتها في الفندق. تشرح قائلة: «الآن، بالرجوع إلى الوراء، أرى بأنّ روحي هي التي كانت مريضة وليس جسدي».

بعد مغادرتهما القدس للعودة إلى كاليفورنيا، توقّف الزوجان في مونت كارلو. هناك، وبينما كانت جالسة على رصيف مقهى، لمحت آنيت لانتوس فجأةً والدها وهو يقبل نحوها. قالت: «كان هناك، وكان يسير نحوي، ولم يكن بمقدوري أن أصدّق ذلك لأن النازيين قتلوه في عام 1945. حينها أمسكتُ ذراع زوجي وقلتُ له

«انظر ها هو والدي»، ولكن حينما استدار كان والدي قد اختفى». ابتسمت ابتسامة غامضة. «قالي لي زوجي بأنّه لابد من أنني توهّمت، فالكثير من الناس يتشابهون، وبالتأكيد، لابدّ أنني فكّرتُ كثيراً بوالدي، ومن ثمّ ولأنّنا كنّا في أوروبا فمن الطبيعي تخيّله. طبعاً اعتقد زوجي بواقعيته بأنني كنتُ قد أخطأت». صمتت من جديد. «ولكنني كنتُ أعلم بأنني كنتُ قد رأيتُ أبي في ذلك اليوم حقيقةً مثلما كنتُ أرى زوجي جالساً في ذلك المقهى في مونت كارلو». بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من ذلك، عند عودتها إلى كاليفورنيا، وفي غمرة الليل، حلمت آنيت حلماً فسّر لها بما لا يدع مجالاً للشك كيف أن والدها قد ظهر لها في ذلك اليوم. قالت بهدوء: «جاءني يسوع في الحلم، وكانت تلك اللحظة التي عرفتُ فيها بأنّني قد لُمسْتُ من قبل الله الذي أتاح لي أن أرى من جديد المرحوم والدي العزيز. كما قال لي يسوع بأنّ راوول ڤالينبرغ، الرجل الذي كان قد زوّدنا أميّ وأنا بجوازات سفرٍ سويدية مزوّرة للهروب من النازيين، كان حيّاً وموجوداً في كولاكٍ سوڤياتي». بالنسبة لآنيت، كان ذلك الحلم وحياً، كان عيداً للغطاس، وحينها سلّمتُ بيسوع «كحبرٍ لكل الأحبار» ، وتابعت: «حينها علمتُ بأنّه في قلب كلّ اليهود الذين عليهم أن يكاشفوه. حينما يأتي الوحي فجأة، كما هي الحال بالنسبة لي، يتوقّف الزمن ويجد الشخص نفسه في مستوى مختلف، متحوّلاً إلى جزءٍ من ثانية في عالم آخر، في الملكوت الأبدي». وتدّعي آنيت لانتوس بأنّها، في لحظة تسليمها بيسوع، عرفت أيضاً بأنّها كانت حاضرة حينما صُلِبَ. «شاهدتُ نفسي واقفة هناك أثناء صلبه، وبكيت. حينما سلّمتُ به، كأنّ كل ما كان مقفلاً الفتح: اجتاحني حبٌّ مذهل لكلّ الكائنات لأطفالي ولزوجي وللعالم أجمع. كنتُ أريد أن أعلن ذلك على الملأ. هذا هو بالضبط ما عشته ولم يستغرق سوى يومٍ واحدٍ، ولكنّني أصبحتُ بعد ذلك قويّة جداً، ونسيتُ بكل بساطة ما هو الخوف».

في تلك السنة ذاتها 1956، في عيد الميلاد، إبان الانتفاضة الهنغارية، تلقّت آنيت لانتوس طرداً من بودابست، تقول عنه: «كان ذلك أمراً غريباً، لأنه، في تلك الفترة، لم يكن لأيٍّ شيءٍ أن يدخل أو يخرج من البلاد. ولكنني تلقيتُ ذلك الطرد الضخم، وحينما فتحتهُ أُغميَ علي. كان ذلك هغاده عيد الفصح

اليهودي مع لوحة فضّية مكتوب عليها اسمي. وما كان أكثر غرابة هو أنّ النازيين كانوا قد صادروا كلَّ ما كنّا نملك حينما دخلوا إلى هنغاريا».

كان والد آنيت أحد أبرز أعضاء الجالية اليهودية في بودابست، وكان قد نجح في مجال المجوهرات. كانت تحترمه وتحبّه حبّاً جمّاً. «حينما وصل النازيون، لجأنا أميّ وأنا إلى الخفاء، بينما نُفي والدي إلى اوشوايتز. حينما فتحتُ تلك الهغاده التي وصلت بمنتهى السرّية من بودابست بعد كل تلك السنين، كانت رسالة قد انسلّت من بين الصفحات، كانت قد كتِبَتْ من قبل والدي قبل نفيه، كان يقول بأنّ العالم بأسره يريد إبادة الشعب اليهودي، ولكنّه، ورغم كلّ شيء، كان يطلب منّي أن أعده بشيءٍ وحيدٍ فقط. كان يعلم بأنّه لن ينجو، وطلب منّي أن أبقى متمسّكة بإله أسلافنا، باللّه الذي جعلنا نمرّ بمحن وآلام ولكنّه حافظ علينا كشعب». توقّفت من جديد. «ما جعل تلك الرسالة أليمة أكثر بالنسبة لي، هو واقع أنّه بالكاد كانت قد مرّت بضعة أيام على إيماني بيسوع، وأنّه باسم يسوع كان قد ذُبِحَ اليهود».

في عام 1964، عادت آنيت لانتوس إلى هنغاريا للمرّة الأولى منذ مغادرتها بعد الحرب. وحينها علمت بأنّ عمّتها، شقيقة لأبيها، كانت مصدر إرسال الهغاده. ولكن حينما سألت آنيت السيّدة المسنّة كيف كانت قد اكتشفته، بقي السرّ مطبقاً، بل وأخذ مظهراً خارقاً. «قالت لي عمّتي بأنّ أحداً ما كان قد اقترب منها في الطريق ووضع الكتاب ببساطة بين يديها. وحينما رأت ما يتعلّق به الأمر، أدركت بأنّه كان عليها ألاّ تترك وسيلة إلاّ وتلجأ إليها لتوصله إليّ في أمريكا».

في عام 1983، بعد ربع قرن من رؤيتها ليسوع، حلمت آنيت لانتوس حلماً آخر جاءها فيه الرّب. هذه المرّة، قال لها جلاله بأنّ راوول ڤالنبيرغ هَلِكَ مؤخّراً في الكولاك. بعد ذلك بسنوات، في عام 2001، شاء تقلّبٌ قَدَريٌّ آخر أن يحضر حفيد شقيق ڤالنبيرغ إلى مكتب زوجها ليجري فيه تمريناً اختصاصيّاً. «أتى إلينا لأنّه كان يعرف بعلاقتنا مع شقيق جدّه. كنّا زوجي وأنا جزءاً من خمسة يهود هنغاريين مشاركين في الفيلم الوثائقي لستيڤن سبيلبيرغ المتصدّر لجوائز الأوسكار في فترة الاحتلال النازي. ولكن الأكثر إدهاشا، هو أنّه كان لذلك الشابّ نفس الطريقة

الذهنية التي كانت لشقيق جدّه. ساعدنا في جمع ملايين الدولارات في اسكندنافيا لمساعدة إسرائيل وحمايتها من الإرهابيين المحيطين بها». لن تشكّل العلاقة الخاصّة لآنيت بيسوع ودعمها غير المشروط لإسرائيل ولكلّ القضايا النفيسة للطائفة الإنجيلية مشكلةً إن لم يكن زوجها توم لانتوس الديمقراطي المُختار عن سان فرانسيسكو إلى الكونغرس والناجي الوحيد من الشواه والذي لم يسبق وأن شغل مقعداً في هذا المجلس. ومع ذلك، ما يميّز توم لانتوس عن زملائه في المجلس هو ربّما وضعه كناجٍ من ألمانيا النازية، على نحو أقلّ من واقع كونه أيضاً العضو الوحيد في الكونغرس الذي تنخرط زوجته في مناقشات سياسية تعبئ المسيحيين الإنجيليين. لا تملك آنيت لانتوس مكتباً بالقرب من مكتب زوجها في مبنى مجلس النواب فحسب، بل تشكّل مع توم جزءاً من مجموعة من الرجال والنساء في الكابيتول الذين نسجوا علاقات وثيقة مع طائفة المسيحيين الخلاصيين. وباختياره كديمقراطيٍّ تقدّمي من قبل دائرة في سان فرانسيسكو تتكوّن بشكلٍ أساسيٍّ من المثليين جنسيّاً، هوجِم توم لانتوس بعنف من قبل مقاطعته على مواقف قريبة من المسيحيين الإنجيليين. فهو يقاسمهم، على سبيل المثال، معارضتهم الشرسة لتشريع زيجات اللواطيين، وإرادتهم في تجريم ممارسة اللواط بين رجلين برضاهما في بيتهما الخاصّ - وكذلك موضوعات شائكة بالنسبة لمقاطعته ذات أغلبية لوطية.

ربّما تُعتبر آنيت لانتوس من قبل البعض صورة هزلية للمرأة المغامرة في أوروبا الوسطى التي تعتقد بأنّها قد مسّت ليس من قبل يسوع فحسب، بل ومن قبل العناصر الأكثر روحيّة في الكون، بينما زوجها وبخلافها يُعرف من قبل زملائه بأنّه رجل هادئ ومتحفّظ. وهو، إذ يُجهر بإلحاده، كتومٌ بل ومعارض لعلاقة زوجته الخاصّة بيسوع المسيح. تروي آنيت بأنّه، حينما قالت له بأنّها وجدت يسوع و «كانت تريد أن تعلن للملأ حبّها للإنسانية جمعاء» ، كاد أن «يرميها خارج البيت» . بأسلوبِ فكهٍ زائف، ادّعت بأنّ واحدة من مهمّاتها كانت تشتمل على «إنقاذ روح توم» ، هي بنفسها وأصدقاؤها الإنجيليون الذين كانوا على يقين بأنّه، ورغم كل مقاومته وانكاراته، رجلٌ مولعٌ جدّاً بالروحانية وبالدين.

مع ذلك، ما يوثّق علاقة الزوجين، هو الحبّ غير المشروط الذي يكنّانه لإسرائيل، والقناعة الراسخة بأنّ هذه الأرض ملكٌ للشعب اليهودي، وان كان توم لانتوس يرفض أيّ تدخّل إلهي فيها، بينما تنطلق آنيت من تفسير حرفيٍّ للكتاب المقدّس.

حينما عرفت آنيت توم في بودابست قبل نصف قرن، كان شابّاً أنيقاً متألّقاً ومُعدماً، في حين كانت هي الابنة الوحيدة والمدلّلة للتاجر الأكثر نجاحاً في الغيتو اليهودي في بودابست.

بفضل ثروة ووضع عائلتها، استطاعت أن تعثر على ملاذٍ في سويسرا، في الوقت الذي كان أقارب توم ووالده قد نُفوا بأجمعهم إلى اوشوايتز. بعد أن أنقذه راوول ڤالينبيرغ، انخرط توم لانتوس في المقاومة الهنغارية. وحينما انتهت الحرب، تزوّجا وهاجرا إلى الولايات المتحدة حيث درّس توم في ستانفورد بالقرب من سان فرانسيسكو، قبل أن ينخرط في السياسة. منذ أربع وعشرين سنة، وهو في خدمة المقاطعة نفسها ويُعدُّ حالياً من بين الأعضاء البارزين في لجنة الشؤون الخارجية، حيث، وحسب أقواله هو، «فعل كلَّ ما أمكنه للشعب اليهودي وإسرائيل لأنّنا، ومن زمنٍ ليس ببعيد، كدنا أن نُباد» .

بفضل زوجته، توم وسيطٌ لا غنى عنه بين الطائفة الإنجيلية والكونغرس الأمريكي. ومع أنّه لا ينتمي كالمسيحيين الإنجيليين إلى الميثاق الإبراهيمي كما ورد في الكتاب المقدّس، إلاّ أنّه ظلَّ مقتنعاً بأنّ إسرائيل هي الوطن المطلق والنهائي للشعب اليهودي. علاوة على ذلك، وبدلاً من تفويض الأمر لنبوءات الكتاب المقدّس، يعتقد بأنّ القوّة العسكرية هي، بالنسبة لكلِّ الديمقراطيات بما فيها إسرائيل، السور الأسلم ضدّ الآفة الحديثة للتطرف الإسلامي .

بعيداً من أن يكون استثناءاً، كان توم لانتوس في عداد تلك الجماعة من السياسيين الأمريكيين الذين وجدوا، بمعزل عن الخلافات الحزبية، أرضية تفاهم مع المسيحيين الإنجيليين ضمن أغلبية الجمهوريين. يشكّل مفهوم إسلامٍ معادٍ للديمقراطية مقوّماً لهذا الخليط السياسي الممزوج بالكتاب المقدّس الذي يوجد من حوله، في السلطات القيادية للبلاد، متديّنون من كلِّ المشارب وعلمانيّون.

البعض من منتقدي لانتوس - وهم كثيرون- يتّهمونه بالغدر حيال الحزب الديمقراطي، سيما وأنّه كان أحد الأعضاء الأوائل والقليلين في هذا الحزب الذين صوّتوا لاتّهام الرئيس كلينتون أمام الكونغرس .(Impeachment) إلاّ أنّ، وبخلاف زملائه الإنجيليين، ما كان يزعج لانتوس عند كلينتون، كان سعيه الحثيث لإبرام اتفاقية سلام إسرائيلية- فلسطينية أكثر من انحرافاته السلوكية.

اليوم، توم وآنيت يتعاونان عن كثب مع الإيباك، اللوبي اليهودي في واشنطن، والسيباك نظيره الإنجيلي الذي يقوده ريتشارد هيلمان. وكأحد المحامين الرئيسيين لتحالفٍ رسميٍّ بين اللوبيين المسيحي واليهودي، أعلن توم لانتوس على رؤوس الأشهاد بأنّه مستعدٌ لأن يضع جانباً التزاماته الخاصّة على الصعيد الداخلي إذا ما كان بقاء دولة إسرائيل في خطر. من جهة أخرى، صرّح زعيمٌ إنجيلي بأنّه «إذا ما استُبْعِدَ السيد لانتوس من القائمة الديمقراطية بسبب تطابق وجهات نظره مع الطائفة المسيحية المعارضة لحقوق المثليين، وهي القضية اللاهبة في مقاطعته سان فرانسيسكو، سندعمه على القائمة الجمهورية».

أكّد توم لانتوس معرفته للسبب الذي يدفع أولئك الذين يعملون في وزارة الخارجية إلى رفض «أيّ صلح مع إسرائيل» بشكلٍ صريح. حسب رأيه، «يمتلك الموظّفون في هذه الوزارة، في بداية عملهم، موقفاً محايداً حول الشرق الأوسط، ولكنّهم سرعان ما يدركون، لاحقاً، بأنّ هناك ثلاثون دولة عربية سيُعَيّنون حتماً فيها، و يمكنهم أن يأملوا بالخدمة فيها في صفّ السفراء. ويشرح لانتوس: إذا شاءوا أن يمارسوا العمل في وزارة الخارجية، فليس من مصلحتهم أن يظهروا أنفسهم كمناصرين لإسرائيل، وقد يكون لهذا تأثيرٌ في إبعادهم عن أيِّ منصبٍ دبلوماسيٍّ في مجمل هذه البلدان العربية».

علاوة على ذلك، يؤكّد لانتوس بأنّه، لو أنّ موظّفاً في وزارة الخارجية لم يحصل على منصب سفيرٍ بعد مرور أربع سنوات على شغله لوظيفة «سكرتير في السفارة»، فعليه أن يخرج من الحلبة. «ليس لديهم سوى مدّة أربع سنوات ليصبحوا سفراء، وبالتالي، عليهم أن يصارعوا من أجل وظيفتهم، وقلّةٌ أولئك الذين سيضحّون بمستقبلهم من أجل دعم إسرائيل».

7

الكلّ متّحد في سبيل إسرائيل

بالنسبة لمراقب غير مجرّبٍ، غالباً ما تبدو المعتقدات الدينية للمسيحيين الإنجيليين مبالغٌ فيها ومن الصعب مجاراتهم عندما يدّعون اللقاء بالرّب والتحادث معه. ومع ذلك، فإنّ الرجال والنساء الذين يقودون الحركة في الولايات المتحدة ليسوا لا من الحالمين العطوفين ولا من الطائشين.

كلّ أولئك الذين يطيعون كلام المسيح هم بلا استثناء أشخاص نفعيّون، وقد خلقوا، تحت صولجان زعمائهم الكاريزميين، أيديولوجية تقدّم لهم خطّة عمل. وهذه الخطّة هي التي، في آخر المطاف، تصبح برنامجاً سياسياً مدعوماً باللوبيات المؤثّرة وبمليارات الدولارات الممنوحة للأجنحة المحافظة ولليمين المسيحي، لأسبابٍ تخرج عن نطاق الكتاب المقدّس ولكنها تبقى من جهة أخرى مطبوعة بالخطاب الأصولي. وحتى نفهم حقاً من هم بدقة «الممثلون» الذين يلعبون هذه الألعاب السياسية المنصوبة على علامة الكتاب المقدّس، يجدر بنا التحقّق من هوية هؤلاء المسيحيين الذين يحوزون على القوة في البلاد وفي الكونغرس.

يحضر سيناتور كنساس الجمهوري سام براونباك المسيحي الإنجيلي، يومياً، حفلات فطور النائب العام آشكروفت المخصّصة للصلوات. بل وكان في عداد أوائل المنظّمين لهذه التظاهرة. عقد براونباك في الكونغرس القمّة الأولى حول الجنس والاغتصاب في وسائل الإعلام، كما أنّه كان هو عرّاب القانون الذي أباح (Federal Trade Commission Report تقرير اللجنة الاتحادية للتجارة) كشف خطورة المتاجرة بأطفال البرامج العنفية والخلاعية. أيّاً كان الحزب، فإن مسألة مضمون الأفلام والبرامج المتلفزة تشغل البال كثيراً. ولذا عمل براونباك

حثيثاً مع تيبر غور، زوجة نائب الرئيس السابق آل غور، في مراقبة أشرطة الڤيديو والأفلام وبرامج التلفزيون بغية حذف كل مشهد عنفي أو ذي محتوى جنسي واضح عندما يكون الجمهور المقصود مكوّناً من المراهقين بل وغالباً من الراشدين. أثناء مقابلة حديثة، صرّح السيناتور الذي يُعتَبر كمؤيدٍ لـ «إسرائيل الكبرى» وواحد من ألّد خصوم «خارطة الطريق» للسلام، قائلاً: «أتمنى أن تصلّوا كلّ يوم من أجل رئيسنا حتى يجد الجرأة في أتباع الكتاب المقدّس بدقّة عندما يكون الموضوع إسرائيل والشعب اليهودي».

دون أدنى شكّ، سام براونباك منشغلٌ بمسألة أمن إسرائيل وأكثر التزاماً بهذه النقطة من أي عضوٍ آخر في مجلس الشيوخ أو مجلس النواب. كما أنّه واحد من الرجال القلائل الذين ليس لهم أيّ دافع سياسي في مساندة إسرائيل. ففي ولايته الأمّ كنساس، لا يوجد سوى 14500 يهودي، وهو ما يمثّل قوة انتخابية تقدّر بـ 5.0%. علاوة على ذلك، الأغلبية منهم ليسوا على علمٍ بعلاقاته الحميمة مع إسرائيل. ولم يحصد براونباك قط عدداً مهمّاً من الأصواتَ من هذه الطائفة. يبقى أنّ دعمه يفوق طموحاته السياسية وأنّه يتعاون بدقّة مع امرأةٍ من مدينته الأمّ فاعلة جدّاً في إبرام هذا التحالف اليهودي - الإنجيلي.

استر ليڤانز أرملة ثريّة تقارب الثمانين من العمر وتسكن بيتاً فسيحاً وحديثاً في ضاحية راقية من كنساس سيتي. وهي جمهورية مدافعة بحماس عن إسرائيل في النزاع الإسرائيلي–الفلسطيني. كان زوجها، الذي ترك لها تركة كبيرة، رجل أعمالٍ مهمٌ وجمهورياً فاعلاً في مجتمعهم. كان المدير شبه الرسمي لحملة روبرت دول السيناتور الجمهوري لولاية كنساس والذي رشّح نفسه ضدّ بيل كلينتون في الانتخابات الرئاسية لعام 1992، مثلما كان الجامع الرئيسي والرسمي للتبرّعات لحملته. من جهة أخرى، بقيت استر ليڤانز قريبة من روبرت وإليزابيث دول. بعد موت زوجها ملكت ما سمّته «عيد غطاسٍ مفاجئ» قادها إلى إنشاء المنظمة المسماة (National Unity Coalition for Israel الائتلاف الوطني من أجل إسرائيل).

في ربيع 2003، وأثناء حديثٍ جرى في بيتها، شرحت لي ليڤانز كيف

جاءتها فكرة ائتلاف بين اليهود والمسيحيين. «ذات يوم، شاهدتُ في استطلاع بأن 70% من الأمريكيين كانوا يساندون إسرائيل. وإذ كنتُ أدري بأنّ اليهود لا يمثّلون سوى 2% من السكان، حينها قلت في نفسي، من هم هؤلاء الناس الآخرين؟ وتكفّلتُ بمهمة الالتقاء بال 68% المتبقين».

بعد أن علمت بأنّ الأمر كان يتعلّق في جانب كبيرٍ منه بالمسيحيين الإنجيليين، قرّرت تشكيل تحالف لاستثمار القدرة الانتخابية للمجموعتين، اليهود واليمين المسيحي، بغية إجراء تغييرٍ عميق في ذهنية الطبقة الحاكمة والسياسة الخارجية للبلاد. بفضل المال الذي تركه لها زوجها وبفضل الصلات التي عقدتها في أوساط السلطة، أصبحت مجموعتها كياناً يُمنَح ميزانية سنوية بأكثر من عشرة ملايين دولار. تكرّس استر ليڤانز وجودها لتمويل المرشحين وللمشاريع الذين يتوافقون مع أفكارها حول إسرائيل والشعب اليهودي.

في الوقت الراهن، تضم National Unity Coalition for Israel، التي يقع مقرّها في مسكنها الفسيح بالقرب من كنساس سيتي، أكثر من مائتي منظّمة يهودية ومسيحية تمثّل ملايين عديدة من الأمريكيين الملتزمين بـ «أمن إسرائيل» .

بول بروكس، أحد المبشّرين الإنجيليين الأكثر اتّزاناً في هذه المنطقة من البلاد. وتُعدُّ جمعيته التقوية، التي تضم ما بين سبعة وثمانية آلاف عضواً، واحدة من أكبر جمعيات كنساس، وتجذب عظته المتلفزة، أسبوعياً، ملايين عديدة من الأشخاص الإضافيين. أثناء زيارتي لبيت السيّدة ليڤانز، التقيت القس بروكس وزوجته بيكي. كما دُعيتُ إلى وليمة شاباتية من قبل إحدى الأسَر اليهودية المرموقة في المنطقة. بروكس رجلٌ متبصّرٌ مجازٌ من المدرسة الاكليريكية للاهوت المعمداني في نيو أورليانز، وهو إلى ذلك نموذجٌ للمسيحيّ الخلاصيّ، الذي يكون انضمامه للميثاق الإبراهيمي صادقاً وبراغماتيّاً. يعتبر بروكس بأنّه حينما يتعلّق الأمر بدعم إسرائيل والشعب اليهودي «يكون من مسؤولية جميع الأمريكيين أن يُسْمِعوا صوتهم حول هذا الموضوع» . ويصرّح: «إن تصاعد موجة معاداة السامية في أوروبا مرعبٌ، وهذا عائدٌ لتوافد المسلمين الذي جعل من الإسلام الدين الثاني بعد المسيحية في هذه البقعة من العالم. ويجب الاعتراف بأنّ

المسيحيين، في الماضي، لم يواجهوا مشكلة معاداة السامية، لذا فإنّنا بيكي وأنا نعتقد بأنّ الصلاة مفيدة، ونصلّي من أجل أن يتّخذ كولن باول وكوندوليزا رايس والرئيس بوش وكلّ الآخرين في واشنطن، الذين عليهم أن يُبْدوا رأيهم في المسائل الأساسية، المواقف الصحيحة حينما يتعلّق الأمر بإسرائيل. الكتب المقدّسة واضحة جدّاً، ففي الرسالة التقوية إلى الرومان، يذكر بولص العلاقة الفريدة التي لليهود مع إله إسرائيل. إذاً، التحالف موجود أبداً، وأنا أعتقد أنّ اليهود هم الشعب المختار. بالتأكيد، لم تتحقّق وعود الأنبياء المتعلّقة بالمخلّص، ولكنني أعتقد بأنّ ما ورد في الكتب المقدّسة يخصّنا نحن اليهود والمسيحيين لأنّنا أخوة ونعبد الإله ذاته. وإن كان هناك خلافٌ حول واقع ما إذا كان المخلّص قد أتى أم لم يأتِ بعد، فإنّ هذا ليس سبباً كافياً بأن لا نعود أخوة. وفي النهاية، المسيحية ليست سوى طائفة من اليهودية، فكلّ ما في المسيحية يهودي. نحن المسيحيون، تعلّمنا أن نعظّم اللّه، وكلّ ما تعلّمناه حول اللّه وحول صفاته التي أذكرها كلّ أحدٍ في موعظتي، تأتي من كتاب نيهيمي الباب التاسع».

حسب رأي القس بروكس، تغيّرت المدرسة الاكليريكية اللاهوتية المعمدانية عندما طرد المعمدانيون في الجنوب الليبراليين الذين كانوا ينتمون إلى لاهوت التحرير البروتستانتي، وأحلّوا محلّهم الزعماء الدينيين المحافظين أي الإنجيليين. اليوم ما يقارب 99% من رعيّته يؤيّدون موقفه من إسرائيل. «الديّ قولي الصريح، وأولئك الذين لا يوافقونني الرأي في هذه النقطة، لا يمكنهم البقاء طويلاً في جمعيتي، لأنّهم يُصدمون لدرجة تفضيلهم للرحيل».

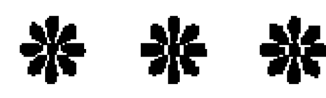
برفقة مجموعة من المبشّرين الإنجيليين البارزين، دُعي بروكس في السنة الماضية إلى البيت البيض من أجل سلسلة لقاءات مع جون آشكروفت. «في كلّ مرّة نُدعى فيها، يجتمع بنا عضوٌ مختلف من الإدارة، والسيد آشكروفت داعم قوي لإسرائيل. إنّ التغيير ملحوظٌ، لأنّه في السابق كان الديمقراطيون هم من يمنحون المكانة الأكبر للشعب اليهودي في برنامجهم. ولكن، الغريب، أنّ أكثر من دعم الشعب اليهودي هم على الدوام المحافظون، باستثناء هاري ترومان الذي كان ديمقراطيّاً ومعمدانياً من الجنوب».

يعتقد بروكس أنّ حلّ المشكلة سيكون بالضرورة سياسياً، ولكن مع ذلك، يبقى مقتنعاً بأنّ حلاًّ سياسياً عادلاً لن يكون من الممكن بلوغه إلاّ بمخرج «التدخّل الإلهي» . كما يعتقد بأنّ نزاع الشرق الأوسط هو حرب ثقافية بين العرب وبقية العالم، فيقول: «لا أصدّق أن (Allah اللّه) [يقصد الله عند الإسلام] هو اللّه الذي يذكره الكتاب المقدّس. إذا كان موجوداً، فـ Allah هو الشيطان. وكانت المحمديّة خدعة شيطانية لتحلّ محل اليهودية، اختلقها الشيطان بغية الاستحواذ على العقول وصرفها عن الحقيقة. واحدة من السمات المشهورة للشيطان هو فنّه في الغشّ. خذوا مصدر هذه الديانة: حينما بدأ محمّد يتلقى الوحي، اعتقد بأنّ ذلك عملٌ من فعل الشيطان وقال لزوجته، «أعتقد أنّ الشيطان يكلّمني»، فردّت زوجته عليه: «كلاّ، هذا ليس الشيطان، إنّه اللّه». ولكن حتى هي كانت تعتقد بأنّه على صلة بالشيطان، وعندما وصل إلى المدينة، أسّس جيشاً وغزا مكّة، وهناك وجد علبته السوداء، وفي تلك العلبة كان هناك 365 إلهاً، إله لكلٍّ يوم من أيام السنة، وقد حطّمهم كلّهم باستثناء واحدٍ. الإله الذي اختاره كان رمز القمر والسيف، إذاً هو إله الحرب وليس اللّه الذي يذكره المقدّس. إنّه دينٌ مزيّف، دينٌ مبنيٌّ على العنف لأنّ هذا الرجل كان عنيفاً. الدين الإسلامي ليس ديناً صحيحاً. لا أكره العرب، إنّهم يثيرون شفقتي لأنّه جرى التلاعب بهم بفظاظة».

يعتقد القس بروكس بأنّ على كلٍّ شخص في العالم، ولكن خاصة في أمريكا، أن يستخدم كل ما يمتلك من تأثير ليمارس الضغط على رجال السياسة عندما يتعلّق الموضوع بالنزاع الإسرائيلي - الفلسطيني. كما يعتقد، رغم الدعم المقدّم عبر المسيحيين الإنجيليين من الحكومة إلى الشعب اليهودي وإسرائيل، بأنّ الأمر يتعلّق هنا بـ «معركة قاسية». «حينما زرتُ مسئولا رفيعاً في القنصلية الأمريكية في القدس قبل فترة، قلتُ له أني أتأسّف لحال الفلسطينيين لأنّهم قد أُسيئَت قيادتهم. فصُدمتُ لردِّ فعله، فقد أجاب بأنّ المشكلة لم تكن تكمن في الفلسطينيين وإنّما في اليهود. وحينما أجبته بأنّ السلطة الفلسطينية فاسدة لدرجة لا تُصدّق، قال لي بأنّ الفلسطينيين أناسٌ شرفاء وقد أُفسدوا من قبل اليهود. في تلك الزيارة كان بصحبتي صديقٌ من الرعيّة مقرّبٌ مني كثيراً وهو بذل أموالاً طائلة في

سبيل القضية اليهودية والإنجيلية هو ريتشارد هاستينغز، وكنّا نحن الاثنان حانقين يتملّكنا الغضب. وكنّا قد سألناه عمّا كان يريد قوله بهذا لأنّ العالم أجمع يعرف إلى أيّة درجة كان ياسر عرفات فاسداً. رغم كلّ شيء، كرّر بأنّ كل ما عليه عرفات تعلّمه من اليهود».

فيما يخصّ فيلم آلام المسيح لميل جيبسون، يؤكّد بروكس بأنّ عنف هذا الفيلم شبيه بعنف قائمة شيندلر، لأنّه لدينا، في هذين العملين، «لوحة بلا امتياز من التاريخ» . حسب رأيه ما من مسيحيٍّ يستطيع مشاهدة الآلام دون أن يدرك بأنّ حياة يسوع لم «تؤخذ» من قبل الرومان أو اليهود وإنّما الأحرى هو وهبها. يقول بروكس: «إذا ما آمن المرء بأنّه اللّه، كما نفعل نحن، فكيف كان لإنسانٍ أن يأخذ حياته؟» بيد أنّه يعتقد أيضاً بأنّه إذا ما شاهد معاداة للسامية في الفيلم، سوف لن يستطيع الخروج من الصالة إلاّ متشبثاً بقناعاته. «سوف يدفعه تعصّبُه إلى إلقاء الذنب على اليهود حتى وان كان الرومان هم من عذّبوه. معاداة السامية المرتبطة بالآلام سخيفة. وكأن المرء، بلومه الرومان على قتل يسوع، ينقلب ضدّ أصدقائه الإيطاليين!»



تحافظ استر ليفانز على علاقات وثيقة مع القس بروكس مثلما مع مجموعة من السياسيين الذين، حسب رأيها، الأكثر تمسّكاً بالدفاع عن قضية إسرائيل في الكابيتول. أحدهم هو براونباك بالذات، سيناتور كنساس الجمهوري والمسيحي الخلاصي مثلها. في تشرين الثاني 2003، دُعيتُ إلى المشاركة في اجتماعٍ للجنة التنفيذية لـ National Unity Coalition في واشنطن. من كرسيّه المتحرك، الذي أقعده فيه، منذ سنوات، سقوطٌ مريعٌ على الجليد، ترأس فايريتش الاجتماع الذي كان يجري برعاية Heritage Foundation، وهي مجموعة خبراء من اليمين المحافظ المتطرّف.

كان الجو حميميّاً، وكان المسيحيون الخلاصيون واثقين من الاقتراب من العديد من مسئولي السفارة الإسرائيلية، المهذّبين ولكن غير المكترثين، وكذلك

ممثلي الائتلاف الجمهوري في مجلسي النواب والشيوخ. أدارت شاري دولينجر، المرأة الشابة التي بالكاد تبلغ الثلاثين من العمر ولكنها الموغلة كثيراً في الأوساط السياسية، النقاشات بكثير من البلاغة واللباقة. تتمتّع دولينجر، التي كانت فيما مضى مساعدة لبراونباك بعد أن وثّقت في السفارة الإسرائيلية في واشنطن الصلة بين الطائفتين اليهودية والإنجيلية، بفن تعبئة هذه الأخيرة لتبدي على الدوام سخاءً متزايداً. اثنتان من المجموعات الرئيسية التي تموّل National Unity Coalition، هما Bridges for Peace جسور السلام) المجموعة الإنجيلية التي يديرها القس كلارانس فاغنر ومقرّها في القدس، و (International Christian Embassy in Jerusalem السفارة المسيحية الدولية في القدس) التي لها مكتبٌ في واشنطن أيضاً.

في يوم زيارتي، كان أيضاً من بين الحضور، عضوٌ في الطائفة المسيحية وهو المحترم جيمس م.هوتشيز، الجنرال المتقاعد والمرشد السابق للجيش الأمريكي والذي يرأس حالياً جمعية (Christians for Israel المسيحيون من أجل إسرائيل)، وجوآن ماغنوسن مديرة جسور السلام في مينوسوتا، وبيتر هيبرت، وهو مسيحيٌّ خلاصي آخر له صلات مع الأوساط المصرفية، وسوزان مايكلز، التي تدير مكاتب International Christian Embassy in Jerusalem، والقس وليام ج. موري مؤسّس (Religious Freedom Coalition الائتلاف الديني من أجل الحرية) وهي منظمة إنجيلية أخرى مكافحة في سبيل دعم إسرائيل في العاصمة الأمريكية.

إذاً، تأسّس الائتلاف الديني من أجل الحرية من قبل وليام ج. موري، الذي كان في السنوات العشرين هذه، في الصف الأوّل للمحافظة الاجتماعية. في بداية الثمانينات، أدار جمعية (Freedom's Friends أصدقاء الحرية)، المنظمّة التي كانت تمدّ يد العون لضحايا الشيوعية عبر العالم. في التسعينات، أسّس في الاتحاد السوڤيتي أوّل شركة تجارية لنشر الكتاب المقدّس. وعلى مدى سنوات، نظّمت جمعيته مسابقات إنجيلية للمسيحيين في الاتحاد السوڤيتي. ومنذ البداية، كانت رسالة موري بسيطة: الشيوعية تجسّد الشيطان وتشكّك حتى في وجود يسوع والقيم المسيحية الخيّرة. قبل سقوط الاتحاد السوڤيتي، كان موري قد تنبأ بجهادٍ

إسلامي عظيم ضدّ الغرب العلماني. في الحادي عشر من أيلول، كان موري في سيارته، بالقرب من البنتاغون، حينما تحطّمت الطائرة رقم 77 من أميريكان ايرلاينز (الخطوط الجوية الأمريكية) على المبنى. بعد الكارثة مباشرة، بدأ بنشر إعلانات في الصحافة عن أنّه لم يكن هناك اختلاف حقيقي بين الحكومة السعودية وحكومة طالبان. الآن، لا يُعدُّ فقط مؤيّداً متحمّساً لـ «حلِّ الدولة الوحيدة» بل ويموّل مدرسة مسيحية في الأراضي الفلسطينية وغالباً ما يرافق مجموعات مسيحية إلى إسرائيل.

في ذلك اليوم من تشرين الثاني، وفي ذلك الاجتماع للجنة التنفيذية لـ National Unity Coalition، في واشنطن، كان أحد أشهر المشاركين فرانك ج. غافني، المساعد السابق لوزير الدفاع في عهد رونالد ريغان، والرئيس الحالي لـ (Center for Security Policy مركز السياسة الأمنية). أثناء تبادل الحديث مع گافني، صرّح لي بأنّ «المدافعين المتحمّسين عن إسرائيل لهم من الآن فصاعداً عند بوش حق الدخول إلى البيت الأبيض. نرى اليوم بأنّ سياسة حكومة الولايات المتحدة متأثّرة بمجموعة من الناس من الخارج يمارسون الضغط على الداخل حينما يتعلّق الأمر بتحديد الموقف الأمريكي من النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني».

كان ضيف الشرف في هذا الاجتماع هو سام براونباك الذي كان خطابه مزيجاً من التجربة السياسية والذرائعية والخطاب الخلاصي على نحوٍ نموذجي. كانت رسالته واضحة، فقد صرّح لمجلسٍ لا يخفي إعجابه: «السبيل الوحيد لبلوغ السلام في الشرق الأوسط يكمن في استخدام القوّة».

وحسب براونباك، لا يمكن للقوّة أن تفعل فعلها إلاّ إذا «مالت السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط إلى اليمين» . وبالتالي هذا يعني التودّد إلى المحافظين في الكونغرس، حيث الكثير منهم من المسيحيين الإنجيليين.

واحدٌ منهم هو مايك بينس، وهو مساعدٌ آخرٌ مقرّبٌ من سام براونباك ومتحالفٌ مع جون آشكروفت، والذي اجتهد دون توقّف في تشجيع برنامج اليمين المسيحي في مجال السياسة الداخلية والخارجية. يحسب بينس، نائب أنديانا، نفسه «في الأساس، مسيحيّاً محافظاً وجمهورياً».

بينس أحد المناصرين الشرسين لحرب الرئيس بوش ضد الإرهاب وكان أحد مهندسي Patriot Act ، الذي خوّل وزير العدل توقيف وحجز الإرهابيين المشتبه بهم دون أن توّجه إليهم التهمة ودون حضور محامٍ عنهم، وذلك لوقتٍ غير محدّدٍ. كما كان النائب بينس واحداً من مبتكري وزارة الأمن الوطني التي تحظى بميزانية سنوية مقدارها ستّة وثلاثون مليار دولار لتعويض النقائص المكتَشفة وحماية البلاد من الهجمات الإرهابية. وحسب أقوال بينس الخاصّة، هو «ملتزمٌ بالدفاع عن مصالح الدولة والشعب الإسرائيليين وتشجيعها». وقد صرّح «لقد سعيتُ إلى الانضمام إلى لجنة الشؤون الدولية في الكونغرس بغية مساندة إسرائيل، ولتطوير سياستنا الخارجيّة الخاصّة بإسرائيل، فقد شاركت في الكونغرس بعددٍ كبير من النقاشات، وفي كلّ مرّة كانت إسرائيل فيها متّهمة، نزلتُ إلى الحلبة ومعي العديد من زملائي اليهود والذين في معظمهم من ديمقراطيي الشمال الشرقي. بالتأكيد هم ضدّ مواقفي الخاصّة بالسياسة الداخلية - حول الإجهاض وحقوق المثليين على سبيل المثال- ولكن رغم اختلافاتنا، فقد أصبحنا أصدقاء أوفياء. لقد توصّلتُ إلى إقناعهم بأننا ملتزمون بإخلاص بحماية إسرائيل والدفاع عنها. من جهة أخرى أنا واحد من أولئك المحافظين الذين استنفرتهم كوندوليزا رايس حينما قصدت وزارة الخارجية بأنّنا سنؤيّد إقامة دولة فلسطينية. بالنسبة لي كان ذلك آخر شيء يمكن أن أفعله». وحسب بينس، اقتنعت كوندوليزا رايس بذلك وصرّحت بأنّ فكرة إقامة دولة فلسطينية كانت «فعلاً هدّاماً لوزارة الخارجية». ويؤكّد بينس قائلاً: «الرئيس حقّاً مع إسرائيل، ولكن العديد منّا يخشى من الضغوط المتنامية من قبل مستشاريه الذين يريدون أن يروا الأفق مشرقاً أمام الانتخابات الرئاسية عام 2004، ومع ذلك، فإنّ الطرق لم تُقفَل بكاملها، لأن الرئيس بوش يعلم بأنّنا، نحن الإنجيليون، مستعدّون للدفاع عن إسرائيل بنفس الضراوة التي ندافع بها عن الحقّ في الحياة».

أثناء تلك المقابلة ذاتها التي جرت في مكتبه في الكابيتول، أعلن النائب بينس بوضوح موقفه ضدّ قيام دولة فلسطينية مستقلّة، فقال: «على الولايات المتّحدة أن تحتفظ برباطة جأشها وتتيح للشعب اليهودي الازدهار بفضل سخائها

ورفق اللّه». كما شرح لي بأنّ «ولعه» بإسرائيل يعود إلى أواخر الثمانينات، وبأنّ ذلك راوده جزئيّاً، لأنّ شقيقه تزوّج من يهودية، الأمر الذي أتاح له فرصة أن يعرف منها المزيد عن هذا الشعب. قال لي: «أساند إسرائيل لأنني أؤمن بالحلم الذي تجسّده، وأؤمن بالعلاقة الخاصّة الموجودة بين الولايات المتّحدة وهذا البلد. ولكن في أعماقي، لا أؤمن فحسب بأنّ إسرائيل اختلقَت من قبل يهود أمريكيين مرعوبين من مأساة المحرقة، بل أيضاً بأنّه ابنة المسيحيين الأمريكيين لأنّ هؤلاء يحلمون بالوعود الخاصّة بعودة اللّه إلى الأرض كمخلّص وكملك».

تصادفت الولاية الأولى لمايك بينس مع الدور 107 للكونغرس، والأولى بعد هجمات الحادي عشر من أيلول. ويتذكّر بينس منها ويذكر بعبارات دقيقة الكلمات التي بدأ بها تعليقاته حول الإرهاب الإسلامي وحول العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، فيروي: «قلتُ ببساطة بأنني مسيحي إنجيلي من Middle West وبأنّ إسرائيل، بالنسبة لي، هي المستضعفة في منطقة مأهولة بالأفظاظ. لدى الـ Middle West إدراك للشرق الأوسط أفضل ممّا لدى صبيان واشنطن. لقد هُزِمَت دفاعاتنا [يقول عائداً إلى الحادي عشر من أيلول] لأنّنا، وبخلاف ما يقول سفر التكوين، لم نبارك إسرائيل مثلما أمرنا اللّه بذلك. نحن [الولايات المتحدة] لسنا عظماء بقدر ما كان ينبغي علينا لأنّنا لسنا صالحين بقدر ما كان ينبغي علينا اتجاه إسرائيل».

ويعترف بينس بأنّه يسعى، مع زملائه في الكونغرس، إلى حشد سبعة ملايين ليكتبوا إلى نوابهم المحترمين ويطالبوا حكومة الولايات المتّحدة بدعم أكبرٍ لإسرائيل. «نملك في هذا البلد سلطة سياسية كبيرة، والأمور تتغيّر الآن لأنّ العالم يتغيّر ولأننا مع أصدقائي اليهود وشركائي الديمقراطيين، هنا في الكونغرس، مستعدّون لتناسي خلافاتنا في سبيل ضمان الأمن والوجود للدولة اليهودية».

يعتقد ريتشارد هيلمان رئيس اللوبي المسيحي (CIPAC) بأنّ جزءاً أساسيّاً من «مهمته» يشتمل على إبلاغ الكونغرس بطبيعة الأرض في إسرائيل وبحاجة هذا البلد إلى الاحتفاظ بالمرتفعات المشرفة على السهل الساحلي. إن حقوق إسرائيل من وجهة نظر القانون الدولي أو التفويض الخاصّ بها لم تتوقّف أبداً، ولم

تُخَصّ مناطق يهودا والسامرة وغزّة. نعلم جميعاً أنّ الأردنيين حاولوا ضمّها، ولكنّهم اصطدموا برفضٍ عام، عدا بريطانيا العظمى وباكستان. ثمّ لابدّ من حل المشكلة السكانية. مؤخراً، كافحنا لصالح تصوّر الترحيل، لأنّه من الواضح بأنّ هذه المشكلة لن تُطرح بتعابير مختلفة إذا ما كانت يهودا والسامرة سيّدتين أم لا. يبقى هذا الأمر خطيراً لأنّه لا يمكن لثلاثة ملايين من الناس أن تعيش في منطقة غير منتجة لا زراعة فيها ولا صناعة، وطبعاً المسألة الكبيرة هي مسألة التزوّد بالمياه. في ظلّ هذه الظروف كيف سيتمكّن الشعب الفلسطيني من التخلّص من هذه الورطة؟»

يتحدّث هيلمان والأعضاء الآخرون في الكونغرس الذين يشاطرونه عقيدته وآرائه السياسية عن خطّة مارشال «مصغّرة» يجب أن تبدأ بترحيل وإعادة توطين ما يقارب من مائة ألف عائلة فلسطينية سنويّاً. يشرح هيلمان: «في غضون سبع سنوات، يمكننا وضع سبعمائة ألف فلسطيني في الأردن. بالتأكيد، كلّنا نعرف بأنّ كلّ شيء سوف لن يتمّ بين ليلة وضحاها، وأنّ مصير الفلسطينيين وأطفالهم سوف لن يتحسّن في الحال. أغلبية من يفكّرون مثلنا يخشون من القول بأنّ الحلّ هو الأردن أو هو بإقامة تجمّع جديد في سيناء أو في الجزء الجنوبي من العراق. إذا خلقتم الظروف الجذّابة للكثير من هؤلاء الناس، سيبدؤون في البحث في المشكلة وبالتالي تسويتها. في الواقع، حتى ان مُنِحُوا غداً الاستقلال، فإنّهم لن يتمكّنوا من البقاء ككيانٍ سياسي بسبب مشكلتهم السكانية.

ليس لديهم الماء الكافي ولا شبكة مجاري، فيجب إعطائهم أسباب مقنعة للذهاب إلى مكانٍ آخر، وهذه هي الرسالة التي نحاول تمريرها إلى شخصيات مثل براونباك وجيم ساكسون في نيوجرسي الذي هو جمهوري ولكنّه ليس إنجيليّاً. إن حافز ساكسون هو ببساطة أنّه يدرك ما ينبغي فعله. يُدرك أنّ إسرائيل هي الديمقراطية الوحيدة في منطقة مسلمة تحكمها أنظمة فيها شمولية. السناتور اينهوف وبراونباك وبينس وتود تيارت وكذلك توم لانتوس، جميعهم معنا، مثل توم ديلاي وديك آرميري حينما كان في الكونغرس، مثلما هو العدّاء جيم رايان الذي يساندنا بكلّ قواه بفضل الكتاب المقدّس. من المهم التأكيد على أنّ أغلبية النواب

والشيوخ يساندون إسرائيل. ولكن المشكلة تكمن في سقف تلك المساعدة والثبات عليه، إذ لا يتطلّب الكثير منهم. يصوّتون لصالح الدعم الخارجي لإسرائيل ويكتبون إلى الرئيس حينما لا تعجبهم طريقته التي يدير بها النزاع ويبرؤون ذمتهم، ولكن ما أريده أنا هو أن يتّخذ الكونغرس البديل كما كان ينصّ عليه الدستور، وأن تكون لنا نقاشات هامّة حول هذا الموضوع. بعبارة أخرى، يجب أن يأخذ الكونغرس المبادرة وألاّ يكتفي بتنفيذ تدابير السياسة الخارجية بل ويشارك في إعدادها ، تماماً مثلما فعل ذلك بكلّ وضوح بالنسبة لكوبا والاتحاد السوڤيتي واليوم العراق. كلّ هؤلاء الناس، سيصبحون على وزنٍ كبير حينما سيتعلّق الأمر بتبنّي موقف صريحٍ ومتوازنٍ حيال إسرائيل».

ريتشارد هيلمان، هو وراء نص قانون عام 1995، المتعلّق بنقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس (Jerusalem Embassy Act) ويتدخّل كل ستة أشهر لدى الرئيس للمطالبة بتنفيذه. «الرئيس كلينتون ردّ بعنف تسع مرّات، والرئيس بوش أربع مرّات. ما نريده أيضاً هو أن تصبح إسرائيل عضواً دائماً، وليس مؤقتاً، في مجلس الأمن. الآن، لدى المجلس مقعد مؤقت في دائرة أوروبا الغربية، المجموعة الإقليمية الوحيدة التي قد تقبلها بدورة مخادعة، الأمر الذي يعني أن الإسرائيليين لن يتمكّنوا من إيجاد مكان لهم لا في المجلس ولا في أيّ منظمّة مقرّرة، لأن الأمم المتّحدة، ببساطة، مكانٌ عجيب. واقع أن تكون إسرائيل هي البلد الوحيد الذي يُعامل بهذا الشكل ينمّ عن تمييزٍ حيالها. والمبرّر الذي تقدّمه الدول الأخرى هو أنّ ليس لإسرائيل مكان في الشرق الأوسط وأنّ العرب لن يقبلوا باليهود. وفي المحصّلة، عليهم أن ينزلوا في خانة هذا القطاع من أوروبا الغربية. الأمر الذي لا يصدّق هو أنّ سوريا، هذه الدولة الإرهابية، ترأست لمدّة شهر مجلس الأمن. إنّه لأمرٌ مضحكٌ. لقد انسحبت القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان واحترمت الحدود المثبتة من قبل الأمم المتّحدة، ومع ذلك لا تزال سوريا تحتل لبنان. نحن، في CIPAC، نُطالب بأن تُعاقَب سوريا. أمرٌ آخر: إسرائيل هي البلد الوحيد الذي لا يُبحث جديّاً عن أسراها في الحرب وعن مفقوديها في المعركة. نحن هنا لنناضل ضدّ التمييز الذي تتعرّض له».

8

كواليس السلطة

عموماً، يُعتَبر المسيحي الإنجيلي وليام هاريسون فريست (الوجه الجديد) للحزب الجمهوري. قبل أن ينخرط في السياسة ويصبح سيناتوراً عن تينيسي، كان جرّاحاً مختصّاً في زرع القلب والرئتين. ويتمتّع الزعيم الحالي للأغلبية الجمهورية، عوضاً عن ترنت لوت، المُقال بسبب أقواله العنصرية ضدّ السود، أيضاً بمواهب الشافي، وذلك حسب أقوال أصدقائه. وفي الواقع، هو نفسه أكّد بأنّه لا يتوفّر على قدرة ومؤهلات الشفاء الناجمة عن ثقافته الطبية فحسب وإنّما يمكنه أيضاً إبراء الناس ببساطة من خلال وضع يده على رؤوسهم. وحينما عُهِد إليه بالتكليف الثاني في مجلس الشيوخ، صرّح بأنّه كان يقبل بذلك مع «إحساسٍ عميقٍ من التواضع، فذلك تماماً مثلما نعاني من وضع قلبٍ في صدر رجلٍ أو امرأةٍ أو طفلٍ يشارف على الموت». يرى فيه الكثيرون من زملائه وأنصاره «منقذ» الحزب الجمهوري، الذي سيتناول المشعل بعد الولاية الثانية لجورج بوش. وإذا ما خسر الحزب البيت الأبيض، فلا شكّ أن فريست سيكون مرشّحه لانتخابات عام 2008. حكماً أنّ السيناتور مقتنعٌ بأنّه «ممسوسٌ من اللّه» . هذا ما صرّح به في سيرته الذاتية، The Iconography of the Healer، وأقرّ بأنّه من السهل تجاوز الحدّ بين الطبيب بالمعنى الأكثر ابتذالاً للعبارة والشافي، لأنّ الأطباء يُعتبرون مقرّبين إلى اللّه. وأَسَر مَنْ ينقذهم الأطباء يمجّدون ويبجّلون هؤلاء الأخيرين. «بالنسبة لأولئك الذين بين الحياة والموت، نتّخذ قرارات تقرّبنا إلى اللّه. ومرضانا، يؤكّد فريست، الذين ننقذهم، يرون في هذه التجربة ضرباً من ولادة جديدة». ذات يوم، سأله أحد الزملاء: «كيف يمكنك أن تحلّ نفسك محلّ اللّه

هكذا؟» فردّ كالتالي: «لأنّي أعرف تمام المعرفة ما هي الولادة من جديد».

فريست، الطويل الرفيع والرشيق، يحرص دائماً على التأنّق في ملبسه ويصفّف شعره بعناية فائقة، ويحسن التعبير عن آرائه ويفرض حضوره في مجلس الشيوخ وفي الحزب الجمهوري بكامله عبر أساليبه اللطيفة والفائقة التهذيب. بدأت أسطورة بيل فريست قبل ولادته بوقت طويل حينما هرع جدّه جاكوب فريست أمام قطارٍ منطلقٍ لينقذ امرأةً وطفلاً كانا تائهين. حينها أصبح الجدّ، الذي كاد أن يفقد حياته، بطلاً محليّاً حيث اُحتُفيَ بعمله المقدام من قبل كلّ صحافة تينيسي. كما تلقّى من البلاد بأسرها وابلاً من الرسائل مرفقة غالباً بكلماتٍ من نوع: «إن مأثرتك الشجاعة هي نموذجيّة لما ينتظره منّا مخلّصنا». أتت ثروة أسرة فريست من ابن جاكوب، توماس، والد بيل، الذي كان طبيباً وأسّس مستشفى Hospital Corporation of America الذي أتاح له أن يجعل من أسرته واحدة من أغنى أسر البلاد. بعد فترة وجيزة، اجتهد في أن يثبت سلطة مهنته، وخاصّة لأبنائه. من كلّ ذريته، بيل هو أكثر من يشبهه بسحره وبروحه المبشّرة وطموحه. ولكن ثمّة في شخصيته تناقضات مثيرة. فعندما كان في الجامعة، كان الرجل الذي سيصبح سناتوراً وشافياً يُظهر حبّاً للحيوانات ذاهباً بشكل دوري إلى مآوي بغية استرداد قططٍ تُركَت فيها، كان يجري عليها لاحقاً عمليات جراحية. يشرح السيناتور فريست: «في النهار، كنتُ الصبي الذي كان يريد أن يكون طبيباً مثل والده، وفي الليل، كنتُ أكبحُ أيّ شعور حيال تلك الكرات الصغيرة الرائعة من الفرو باسم مهنتي». على الصعيد الشخصي، عقد خطوبته، على ما يقول، قبل أن يقع ذات يوم وجهاً لوجه في المستشفى مع ممرّضة ويتصوّر في الحال بأنّه كان قد «عرفها في حياة أخرى». في نفس ذلك المساء، استقلّ الطائرة إلى تينيسي وألغى خطوبته قبل أن يتزوّج الممرّضة التي يدّعي بأنّه على «علاقة كونية قويّة» معها.

في عام 1994، بعدما قرّر دخول المعترك السياسي، اختار فريست كارل روف، مرشد بوش، مرشداً ومستشاراً. أيكون هذا بسبب تأثير روف أم بسبب المعتقدات الدينية التي تسيّر حياته؟ يبقى أنّ فريست صوّت ضدّ حقوق المثليين بخصوص الوظيفة، وضد القانون المتعلّق بالأنواع الآيلة إلى الانقراض. كما

صوّت مع توجيه الاتّهام للرئيس كلينتون وضدّ تعديل تمويل الحملات الانتخابية. وصوّت على تخفيض نشر برنامج Medicare وتحديد دور الدولة في مجال الصحّة. ومع أنّه وصل إلى السلطة واعداً بأن يكون «شافياً» وأن يضع نهاية للصدوع بين اليسار واليمين، إلا أنّه اختار مساندة حليفٍ محافظٍ ذو أهمية هو السناتور ريك سانتوروم، الذي وضع المثلية الجنسية في نفس سلّة ارتكاب المحارم وتعدّد الزوجات، وطبعاً أبدى موقفه المعارض للإجهاض. وكنصير شرس لإسرائيل التوراتية، يؤيّد السيناتور فريست ترحيل الفلسطينيين نحو دولة جديدة قد تُقام في صحراء سيناء.

في 3 نيسان 2003، انعقدت في Mayflower Hotel في واشنطن ندوة كانت الغاية منها «توطيد وتجديد التحالف السياسي الأمريكي لصالح إسرائيل».

صمّمت الحملة التضامنية «ساندوا إسرائيل» من قبل الحاخام ياشييل اكستاين مؤسّس International Fellowship of Christians and Jews) الجمعية اليهودية-المسيحية الدولية) والتي تتّخذ مقرّاً لها في القدس وفي شيكاغو، ومن قبل رالف ريد، المسيحي الإنجيلي وأحد الشركاء الروحيين والتجاريين للحاخام، والمدير السابق للتحالف المسيحي (Christian Coalition)[1] والمستشار الحالي للرئيس

(1) Christian Coalition: تأسّس التحالف المسيحي في عام 1989 من قبل المبشّر الإنجيلي وقطب الصحافة، بات روبرتسون. وهي المنظمّة السياسية المحافظة الشعبية الأكثر أهمية ونشاطاً في الولايات المتحدة. وهي تقدّم إلى «أهل الإيمان» إمكانية الاشتراك بفاعلية في صياغة حكومتهم «من القصر العدلي وحتى أروقة الكونغرس». وحسب روبرتا كومبس، المديرة الجديدة للمنظمة التي حلّت بديلة حينما استقال بات روبرتسون، التحالف المسيحي هو «تحالفٌ للكاثوليك الرومان «المناصرين للعائلة»، للمسيحيين الإنجيليين وسواهم من أهل الإيمان الذين يعملون معاً لتعبّر العائلات الأمريكية عن رأيها بصوتٍ واحدٍ». الأمر الذي يعني، بعبارات أخرى، أنّ التحالف المسيحي يعمل باستمرار على تنفيذ برنامجه الديني والمحافظ المناهض للإجهاض ولحقوق المثليين الجنسيين، والمؤيّد لعقوبة الإعدام وللصلاة في المدارس وكلّ القضايا التقليدية الأخرى التي يدافع عنها اليمين المسيحي، والتي تنقسم البلاد حولها. أثناء انتخابات عام 2000، نشر التحالف المسيحي، من خلال أكثر من مليون عضو، سبعين مليون دليل مواطن، باللغتين الانكليزية والاسبانية، لحشد الناخبين حول جورج دبليو بوش وبرنامجه المسيحي «المؤيد للعائلة». والمعلوم أنّ تبرّعاتهم السنوية تبلغ 5.26 مليون دولار.

جورج دبليو بوش. أُلقيت الكلمة الافتتاحية لهذه التظاهرة من قبل النائب العام جون آشكروفت الذي ختم مداخلته قائلاً: «إنّ قدرتكم على إيجاد التضامن الأساسي مع الحرب ضدّ الإرهاب في بلادنا وفي إسرائيل وبلدان أخرى، تخدم قضيّة الحرية». كما كان من بين الحضور في ذلك اليوم، روبرت لاند، المسيحي الإنجيلي، مدير Southern Baptist Convention، الجماعة الأكبر للمسيحيين الكاريزميين في أمريكا، والتي يراقب وسطها (Ethics and Religious Liberty Commission لجنة الأخلاق والحرية الدينية) التي تهتمّ بالمسائل الاجتماعية والأخلاقية. في مقابلة معه، قال لي: «أتمنّى أن تصلّي كلّ يوم من أجل الرئيس!»

إلى جانب روبرت لاند، هناك أيضاً الداعية الإنجيلي الشهير جيري فالويل. وكلاهما صديقان مقرّبان ومناصران للسيناتور براونباك وللنائب بينس وكذلك لجون آشكروفت. كلّ هؤلاء الرجال يعملون معاً حينما يتعلّق الأمر بمعارضة أيّة اتفاقية سلام إسرائيلية - فلسطينية. «منذ سنوات ونحن نساند إسرائيل، يؤكّد لاند، لأنّنا نعتقد بأنّ اللّه وهب إلى الأبد أرض إسرائيل لليهود. إنّهم شعب اللّه المختار».

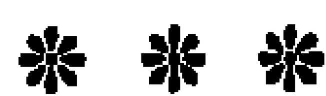
توم ديلاي، النائب الجمهوري عن تكساس والمسيحي الخلاصيّ المتحمّس، كان يهتمّ فيما مضى بمكافحة القوارض. ثمّ، بسبب الغضب من تقليص النفقات البيئية بشأن المبيدات الطفيلية، انخرط في السياسة. شكّل في مجلس النواب جماعة من أجل الدعم غير المشروط لإسرائيل ضامّاً إلى قضيّته النواب واحداً إثر واحد. وقد حاز على دعمه سواء بالتهديد بتعريض إعادة انتخابهم للخطر، أو بإقامة ولائم البيتزا ولحم الخنزير لهم إبان جلسات التصويت الليلية الطويلة في الكونغرس.

ومثله كمثل براونباك، يُعدّ ديلاي واحداً من أكثر مؤيّدي إسرائيل شراسة في الكابيتول، مع أنّ دائرته توجد في تكساس، الولاية التي يشكّل اليهود فيها أقل من 1% من السكان. يوافق ديلاي على سياسة زعماء اليمين الإسرائيليين الذين يريدون الاحتفاظ بالأراضي الفلسطينية وغزّة ومرتفعات الجولان. إضافة إلى أنّه يقيم علاقة شخصية حميمة معهم ويزور دورياً القدس. ويعلن موقفه المؤيد لترحيل

الفلسطينيين وتشتيتهم عبر العالم العربي. وهذه قضية تأتي في كلّ الندوات التي تضمّ أمريكيين وإسرائيليين.

غاري باور، مسيحيٌّ إنجيلي آخر يدير (American Values القيم الأمريكية)، وهي منظمة ترمي إلى انتخاب «مرشّحين على غرار ريغان» قابلين «للدفاع عن القيم الأخلاقية للكتاب المقدّس» . أثناء مقابلة حديثة معه بمكتبه في واشنطن، أسرّ إلي بأنّه كان ينتظر دعوة من ايستر ليڤانز ومن السيناتور براونباك لأنّ ثلاثتهم كانوا ينوون كتابة رسالة مشتَركة موجّهة إلى الرئيس جورج بوش بغية أن يعرضوا عليه موقفهم حول الترحيل القسري للفلسطينيين من الأراضي المحتلة. حينما كنتُ في بيتها في كنساس سيتي، كانت ايستر ليڤانز قد ذكرت لي تلك الرسالة. في تلك اللحظة، كنت قد سألتها، من بين أمور أخرى، كيف كان يمكنها، مع أوساطها، أن تثني على ذلك الإبعاد، نظراً لتاريخ الشعب اليهودي. بعد برهة من التفكير، أجابت: «أظنّ أنّك على حق، يجب صياغة هذا الأمر بطريقة بحيث لا تغيظ أيَّ شخصٍ». سألت عدداً لا يُحصى من المسئولين الإنجيليين الذين التقيت بهم، بينما كانوا يمطرون البيت الأبيض بالرسائل الالكترونية متمسّكين بمعارضتهم لخارطة الطريق: «هل وصلنا إلى لحظة الحقيقة التي ستتيح لكم معرفة ما إذا كان الرئيس بوش مسيحيّ خلاصيٌّ حقيقي، مقتنعٌ بعصمة الكتب المقدّسة، أم أنّه بكل بساطة سياسيٌّ استخدمكم، أنتم ودينكم، من أجل كسب الأصوات؟»

. اختلفت الأجوبة تبعاً لعنادهم حول الموضوع. ومع ذلك، كاد الجميع أن يؤكّدوا بأنّ بوش، حسب رأيهم، كان بالتأكيد مسيحياً مقتنعاً، ولكنّه لم يكن يفهم الكتب المقدّسة بشكلٍ حقيقي لم يكن قد تعمّق في سبيل إدراك المكانة التي تشغلها إسرائيل والشعب اليهودي في الخطّة الإلهية من أجل الإنسانية.



إنّ تأثير المسيحيين الإنجيليين في كل مستويات الإدارة الأمريكية الحالية وصل إلى درجة بحيث افتتحت سفارة إسرائيل «مكتباً للشؤون الدينية البينية» يقدّم شهرياً تعليمات للإنجيليين ويستقبل حافلات المؤمنين وينظّم حفلات فطور.

يُعتبَر اد ماكاتير واحداً من المهندسين الرئيسيين لليمين الديني الجديد في أمريكا. هذا الموظّف القديم، المدير التجاري في Colgate Palmolive، غالباً ما يوصف بـ «عرّاب» اليمين الديني.

ذات صباح، جاء زعماء دينيون على نفقتهم من أركان البلاد الأربعة للاستماع إليه وهو يتكلّم في سفارة إسرائيل. لدى وصولهم، قدّمت إليهم شارتان - علمٌ أمريكي وعلمٌ إسرائيلي- سارعوا إلى شكّهما على ثنية سترتهم. كما تلقّى كلٌّ منهم فيلم ڤيديو قصير تظهر فيه مجموعة من الجنود الإسرائيليين في حديثٍ وديٍّ مع رهبانٍ أثناء حصار كنيسة الميلاد في بيت لحم العام الماضي. بدأ المشاركون بإنشاد العلم المنجّم والنشيد الوطني الإسرائيلي، الهاتيكافه، ثمّ غنّوا مقطعاً للمغنّي الشعبي بات بون، وهو بدوره إنجيلي مقتنع، بعنوان إسرائيل أيتّها المباركة. كان موشي فوكس، مدير الشؤون العامّة في السفارة آنذاك، أول من شرع في الكلام. «هذه ليست صدفة ان كانت صلواتنا، نحن المسيحيون واليهود، مكمّلة لبعضها». قال ذلك قبل أن يستشهد باستفاضة بفقرات العهد القديم الذي وعد اللّه فيه اليهود بأرضٍ تدرُّ لبناً وعسلاً. واختتم فوكس كلامه: «أطلب إليكم أن تقيموا صلاتكم هذه وتساهموا فيما يجعل هذا الوعد الإلهي حقيقة».

في ذلك اليوم، كانت من بين المدعوين جانيت بارشال، المذيعة المعروفة في الإذاعات الإنجيلية التي يستمع إلى برنامجها اليومي ثلاثة ملايين ونصف من المسيحيين في البلاد بأسرها. «لقد قرأت نهاية الكتاب، قالت ملمّحة إلى نبوءات الكتاب المقدّس المتعلّقة بنهاية العالم، وأعرف ما سيحدث».

هذه الموعظة المزيعة، تُردّد باستمرار من قبل جميع المسيحيين الإنجيليين حينما يكونون في حضرة زعماء يهود وإسرائيليين.

* * *

في اليوم التالي لصلاة الفطور تلك في واشنطن، في السفارة الإسرائيلية، استقلّ اد ماكاتير الطائرة إلى ممفيس حيث كان ينتظره احتفال ضخم لصالح إسرائيل نظّمته الجمعية الخيرية المحلية Memphis Jewish Federation، التي تقدّم

خدمات اجتماعية للجالية اليهودية في المنطقة.

وبخلاف نظرائهم في نيويورك وبوسطن الذين ينظّمون احتفالات من هذا الطراز، فإنّ المسؤولين اليهود في تينيسي يحظون على الدوام بدعم التحالف المسيحي للمدينة. قبل بدء التظاهرة في القاعة الشاسعة، كان الناس يلوّحون بلافتات كتب عليها : «بورِكت إسرائيل، بورِك شارون، عرفات هو العدو». أثناء الخطابات، كانت تُعرض، على شاشة عملاقة خلف المنصّة، شريط فيديو يُظهر المشاهد الفظيعة التي تعقب العديد من الهجمات الانتحارية. وطمأن نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي ايهود أُلمرت، في بثٍّ فضائيٍّ مباشر، الجمهور بأنّ القدس لن تقسّم أبداً.

كان أحد المشاركين توماس ليندبيرغ، قس الـ First Assembly of God Church. تحدّث في خطابه عن الرحلة إلى إسرائيل التي نظّمها للمسيحيين الإنجيليين الأمريكيين. «لقد شعرنا بتلك الميزة الفريدة التي أنعم اللّه بها على هذا البلد وشعبه العظيم، الشعب اليهودي في العالم. وأودّ القول بأنّنا_ وحينما أقول نحن فهذا يعني جميع محافل اللّه هنا في أمريكا التي تضم ثلاثة ملايين ونصف من الأعضاء، ومحافل اللّه عبر العالم التي تضم اثنين وأربعين مليوناً– أودّ القول إذاً بأنّنا جميعاً نحبُّ إسرائيل».

بعد الاحتفال، أعلن اد ماكاتير بأنّه هو شخصياً وجميع المسيحيين الإنجيليين الذين يشاطرونه رؤاه حول إسرائيل، لا يعتبرون أنفسهم كوسطاء للسلام، بل الأحرى كمناصرين شرسين لحلّ الدولة الوحيدة، الذي يقصي، تحديداً، أيّ إمكانية لإقامة دولة فلسطينية. يعتقد ماكاتير بأنّ أيّة أرض محتلة من قبل إسرائيل لا ينبغي أن تعود إلى الفلسطينيين. فيشرح قائلاً : «من المؤكّد أن قيادتهم قد اختارت في عام 48 الخيار الخاطئ، وبالمحصّلة، دفع الشعب الفلسطيني ضريبة باهظة، ولكن هذا لا يغيّر شيئاً في واقع أنّ هذه الأرض لم تخصّهم أبداً عند الرحيل، وأنّ ليس لهم أيّ حق ولا مطالبة بالمساواة عليها». كما يعتقد اد ماكاتير وزعماء إنجيليون آخرون بأنّ سلالة العرب تعود إلى إسماعيل، الابن الذي كان إبراهيم يكنّ له القليل من الحبّ. «من الواضح أنّه، حينما أبرم اللّه الميثاق

مع إبراهيم، كان يعرف بالضبط ما كان جلاله يفعله. وكان يعرف جيداً قبل ذلك بأنّ إبراهيم كان ميّالاً لصالح الشعب اليهودي».

غير أنّه، وعلاوة على الإحالات التوراتية والتعلّق العميق بإسرائيل والقلق الوطني من رؤية الإرهاب الإسلامي يهدّد أمن الأمريكيين في العالم بأسره، هناك في موقف ماكاتير من العالم العربي شيءٌ ينمّ على قلّة الاحترام، إذ يؤكّد: «مهما كانت ثروتهم، فإنّ العرب سوف لن يعرفوا السلام الروحي. لنأخذ عربياً طويلاً جميلاً وثريّاً، ممتلكاً لكل ما يلزم لكي تعيش عائلته حياة هانئة، ولنهب أنّه يملك كل الأسباب ليكون سعيداً وناجحاً، فسيكون هناك على الدوام شيئاً ما لكي يمنعه من السعادة الكاملة. العربي هو المسلم الذي لديه كرهٌ شديد، محفورٌ في أعماق قلبه، للشعب اليهودي. والنتيجة هي أنّ هذا الرجل الذي يحظى بكل ما يمكن للمرء أن يشتهيه في الدنيا لا يحلم سوى بهذه القطعة الصغيرة من الأرض التي تخصّ اليهود. وهذا يكفي ليفسد عليه حياته. إنّه متضايق من هذه الدولة لدرجة أنّه حينما يرى يهودياً يمرّ، ورغم كلّ ثروته الوافرة، تقلُّ سعادته. لديه في صميم روحه حمى تدفعه إلى القتل والتدمير».

جيمس ويلسي المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية CIA، والمستشار الحالي لـ Jewish Institute for National Security Affairs) المعهد اليهودي لشؤون الأمن الوطني)، هو صديق مقرّب وزميلٌ لماكاتير. بالنسبة له، «المسيحيّون الإنجيليّون هامّون، ولكنّ على الصعيد السياسي أقلّ منه كرمزٍ للدعم الواسع الذي تتمتّع به إسرائيل في البلاد. أمّا وقد طُرِح هذا، فمن المؤكّد أنّ الطائفة الإنجيلية، حينما انتُخِبَ بوش رئيساً، مارست تأثيراً لا سابق له على بعض المسئولين الكبار في إدارته. وإذا كان صحيحاً أنّ لا أحد يحتكر النصيحة للرئيس، فلا حاجة للقول بأنّ هذا الأخير هو الأكثر تفتّحاً على الرسالة المناصرة لإسرائيل كما لم يكن كذلك لا والده ولا أيٌّ من أسلافه، باستثناء رونالد ريغان. كما أنّه من المؤكّد أنّ كل رجل أو امرأة ساعٍ إلى وكالة عامّة يعلم بأنّ سيكون عليه أن يعدّ مع أصوات الإنجيليين. وبالتالي، للجميع المصلحة في أن يعملوا بما يتوافق موقفهم من إسرائيل والشرق الأوسط مع رؤى اليمين المسيحي».

مساعد وزير الدفاع دوغلاس فايث، أحد أرفع المسئولين في البنتاغون بعد وزير الدفاع نفسه، دونالد رامسفيلد، هو الحليف الأكثر حماساً لإسرائيل داخل الإدارة. وقد صرّح في مناسبات عديدة بأنّه كان على الإسرائيليين «أن يعيدوا احتلال كلّ الأراضي التي تخلّوا عنها للسلطة الفلسطينية حتى وإن تطلّب ذلك إراقة الكثير من الدم» . قبل أن يدخل الحكومة، كان فايث الرئيس الفخري لـ National Unity Coalition for Israel، المنظّمة التي أسّستها ايستر ليڤانز، كما ترأس مجلس (Center for Security Policy مركز السياسة الأمنية) وهي مجموعة لخبراء مؤيدين لإسرائيل تتّخذ من واشنطن قاعدة لها. كما أنّ لـ إد ماكاتير، المقرّب من المراتب الأرفع للسلطة، عادة إعطاء الكلام للمواطنين البسطاء أثناء الاحتفالات والتجمعات العديدة التي ينظّمها في سبيل إسرائيل. أدلت امرأة، تباهت بمنح الأموال لإسرائيل وبنقل «كلام الرب» إلى كل من التقت بهم ليأتوا لمساعدة إسرائيل، بشهادتها: «نحن لا نعتقد بامتلاك كلّ الإجابات. اللّه يعلم بأنّ حتى جورج بوش لا يمتلكها، ولا حتى أكثر من آرييل شارون وياسر عرفات، الكائن الوحيد الذي يعرف الإجابات هو يسوع». تؤمن هذه المرأة بالعلامات وبـ «التدخّل الإلهي» في بعض اللحظات الهامّة من الأحداث: «حينما أرى رئيس العربية السعودية يأتي إلى واشنطن مع فكرة عن خطّة سلام، ويضطرّ للعودة الفورية إلى بلاده لأنّ شقيقه قد تعرّض لهجوم، أتساءل ألا يتعلّق الأمر هنا بمبادرة من اللّه لحماية الشعب اليهودي». في مواجهة التهديد الذي يشكّله الإسلام على الصعيد العالمي، احتضنت الحياة السياسية الأمريكية شكلاً من التطرّف اللاهوتي – المسيحانية الإنجيلية - لتواجه به تطرّفاً آخر هو الأصولية الإسلاموية.



في عام 1996، أسّس رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق بنيامين نتنياهو Israel Christians Advocacy Council مجلس المسيحيين أصدقاء إسرائيل) وللاحتفال بتأسيس هذه المنظمة، جلب إلى إسرائيل سبعة عشر مسئولا مسيحيّاً أقسموا بألاّ «تتخلّى أمريكا أبداً عن إسرائيل». ولاحقاً، في كانون الأول 2000، خاطب

رئيس الوزراء آريل شارون ألف وخمسمائة صهيونياً مسيحياً زائراً للقدس، فأعلن أمام الحضور الذي كان يهتف له: «نحن نعتبركم من بين أفضل أصدقائنا في العالم».

منذ انتخاب جورج بوش وهجمات الحادي عشر من أيلول، جعل المسيحيون المحافظون من مساندة إسرائيل واحدة من أولوياتهم، وأولوها أهمية كأهمية معركتهم ضدّ الإجهاض وسواها من القضايا المبيّنة في الكتاب المقدّس حسب زعمهم. اليوم، وإذ تقترب الانتخابات الرئاسية لعام 2004، يستنفر مسيحيون معروفون جدّاً مثل جيري فالويل وبات روبرتسون وريتشارد لاند الذي يدير Southern Baptist Convention، المجموعة الأكبر للمسيحيين الكاريزماتيين في أمريكا، يستنفرون قواهم في سبيل تأمين الفوز لجورج بوش.

ويحظى جون آشكروفت وسام براونباك ومايك بينس ووليام فريست وإنجيليون آخرون بتأثير هائل. إلاّ أنّ سلطتهم هزيلة إلى حدٍّ ما مقارنة بسلطة العديد من المجموعات الخفية للمحسنين الذين يمدّون الخيوط إلى مستو أكثر عالمية.

البعض من الأمريكيين المنتمين إلى المراتب العليا من السلطة والأوساط المالية هم أعضاء في منظمات سرية لها السلطة في أن تقرض في الكواليس تغييرات على السياسة في العالم أجمع. تتألف هذه المنظمات من مجموعات خبراء دوليين إلى أندية مغلقة تضم من بين أعضائها رجال أعمال أمريكيين ورجال سياسة وزعماء دينيين ونجوم إعلام كما تضم رؤساء دول أجانب. هذه المجموعات موجودة منذ عقودٍ من الزمن، ولكن برامجها تطوّرت حديثاً: فبدل السعي إلى تشجيع الديمقراطية وإلى قلب الدكتاتوريات الشيوعية في أفريقيا وأوروبا وأمريكا الجنوبية، تهدف الآن إلى قلب الأنظمة الإسلامية والشمولية في الشرق الأوسط، وهو الهدف الذي يتوافق مع توجّههم المسيحي المحافظ.

إحدى الدعائم الرئيسية لحفلات فطور الصلاة التي يقيمها النائب العام آشكروفت وكذلك (National Prayer Breakfast فطور الصلاة الوطني) التي يرعاها كلّ رئيس أمريكي أثناء ولايته، هي مجموعة اسمها ببساطة «العائلة» .

9

العائلة

«العائلة» هي منظمّة «لا تُقهَر» للمسيحيين الإنجيليين هدفها جذب رجال مؤثّرين إلى يسوع المسيح وقيادة بعض العمليات الدبلوماسية في الخفاء. أعضاؤها بمعظمهم من السياسيين الذين يرتبطون بصلاتٍ وثيقة مع الرؤساء الأجانب ورجال الأعمال في قطاعات النفط والفضاء. حسب مصادر داخلية، تتصرّف «العائلة» بميزانية سنوية تفوق 250مليون دولار، ولكن هذا الرقم، ودائماً حسب نفس هذه المصادر، لا يشكّل «سوى جزء من موارد «العائلة»».

يأتي المال بشكل خاصّ من «أصدقاء» المنظمة ومن منح خاصّة من رجال أعمالٍ أثرياء ومن حكومات أجنبية ومن جمعيات دينية أو مؤسّسات المصلحة العامّة التي «ربّما لا تعرف نشاطات «العائلة»» . من بين أكبر المانحين يأتي مايكل تيميس، محامي ديترويت وجامع التبرعات الجمهوري، وبول تامبل المستثمر الخاصّ لميريلاند، وجيروم أ. لويس المدير العام السابق لشركة Petro-Lewis Corporation. منذ أمدٍ قريبٍ جدّاً، دفعت هذه المنظّمة السرية أكثر من عشرة ملايين دولار للحكومة الإسرائيلية لمساعدتها على بناء الجدار الأمني المثير للجدل بشدّة بين إسرائيل والأراضي الفلسطينية المحتلة.

وقائمة أعضاء «العائلة» المعدّة معلوماتياً محمية بعناية قصوى. فهذه المجموعة لا تمنح بطاقات عضوية ولا تستوفي أيّ اشتراكٍ رسمي وتطلب من المنضوين إليها التزام الصمت حيال كلٍّ نشاطاتها. ومن بين السياسيين الأعضاء في هذه المنظمة السريّة التي، هي كذلك، لا تبالي بالتباينات السياسية، يوجد السيناتورات دون نيكلس (جمهوري من أوكلاهوما) وتشارلز غراسلي (جمهوري

من أيوا) وبيت دومينيسي (جمهوري من نيو مكسيكو) وجون انسيغن (جمهوري من نيڤادا) وجيمس اينهوف (جمهوري من أوكلاهوما) وبيل نيلسون (ديمقراطي من فلوريدا) وكونراد بورنز (جمهوري من مونتانا). ومن بين النوّاب، هناك جيم دومينت (جمهوري من كارولاينا الجنوبية) وفرانك وولف (جمهوري من ڤيرجينيا) وجوزف بيتس (جمهوري من بينسلڤانيا) وزاتش وامب (جمهوري من تنيسي) وبارت ستوباك (ديمقراطي من ميشيغان). ويوجد مقرّ المنظمة في إحدى ضواحي آرلينغتون في ڤيرجينيا في مبنى يسمّى ايڤانوالد. وتختبئ نشاطاتها خلف مـجـمـوعـاتٍ شـتّـى مـثـل National Organization of Christian Leadership وInternational Christian Leadership و National Leadership Council وFellowship House وFellowship Foundation وFellowship Council National وInternational Foundation.

من المفروض أنّ هذه المجموعات حوّلت اهتمام «العائلة» ومنعتها من أن تصبح «موضوع خلاف» على حدّ تعبير أحد أعضائها.

الاجتماع الرسمي الوحيد لـ «العائلة» هو National Prayer Breakfast، الذي أقامته في عام 1953 إبّان رئاسة إيزنهاور، أثناء الحرب الباردة، والذي استمرّت في تنظيمه، تحت رعاية الكونغرس، كلّ شباط في واشنطن. سنويّاً، يدفع كلّ واحدٍ من ثلاثة آلاف ممثّل عن عشرات البلدان الأجنبية 425 دولاراً لحضور هذه التظاهرة. تعتقد منظّمة «العائلة» أنّ الأمر يتعلّق هنا بوسيلة مناسبة لتجنيد الأثرياء والمقتدرين وحثّهم على «المساهمة في اجتماعات صلاةٍ أضيق وأكثر تواتراً حيث يمكنهم خدمة مصالحهم السياسية بالاعتماد على الدعم الخاصّ ليسوع المسيح».

باجتذاب رجالٍ مؤثّرين إلى يسوع (لا يمكن للنساء أن يصبحن من الأعضاء) نجحت «العائلة» في قيادة عددٍ من العمليات الدبلوماسية في الظلّ. فقد ساعدت سرّاً، في عام 1978، إدارة كارتر في إطلاق نداء دولي لصلاةٍ مع مناحيم بيغن وأنور السادات، وفي فترة أقرب، في عام 2001، جمعت سرّاً زعماء الحرب في كونغو ورواندا، الأمر الذي سمح للطرفين أن يعقدوا اتفاقية سلام في تموز 2002. هذه المساعي الحميدة هي بوضوح الاستثناء الذي يؤكّد

القاعدة. في أفريقيا، إبّان سنوات الستينات، ساهمت «العائلة» في نسج صلاتٍ بين السلطات الأمريكية والعناصر المعادية للشيوعيين ودكتاتوريي حكومات ما بعد المستعمرات. وخلال تلك الفترة ذاتها ودائماً بمساعدة «العائلة»، كان الدكتاتور البرازيلي، الجنرال كوستا سيلڤا، يرأس بانتظام اجتماعات تشاورية لزعماء أمريكيين جنوبيين، بينما، في إندونيسيا، كان الجنرال سوهارتو (والذي، من جراء ترتيبه لمجزرة ضدّ مئات الآلاف من الشيوعيين، له الحظّ التعس في أن يكون أحد أقسى ديكتاتوريي القرن العشرين) يرأس مجموعة من خمسين مشرّعاً اندونيسيّاً. في ظلِّ إدارة ريغان، شاركت «العائلة» في عقد صلاة وديّة بين حكومة الولايات المتّحدة ورجالٍ من أمثال الجنرال السلڤادوري كارلوس اوجينيوس ڤيديس كازانوڤا، المحكوم من قبل محكمة في فلوريدا بتعذيب الآلاف من الأشخاص، والجنرال غوستاڤو آلڤاريز مارتينيز في الهندوراس، وهو نفسه مبشّر إنجيلي، والذي كان مرتبطاً في الوقت ذاته بالـ CIA وكتائب الموت قبل أن يُطاح به. ولتبرير هذه التحالفات، صرّح دوغلاس كو، الزعيم الفعلي لـ «العائلة» قائلاً: «نحن نعمل مع السلطة القائمة في كلّ مرّة يكون ذلك ممكناً، ونقيم سلطات جديدة حينما يكون من المتعذّر فعل عكس ذلك».

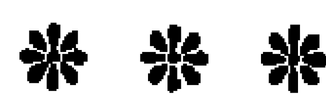
أثناء National Prayer Breakfast في عام 1990، أشاد جورج هـ. دبليو بوش الرئيس آنذاك بدوغلاس كو على ما أسماه بـ «دبلوماسيته الرزينة»، فقد صرّح: «سوف لن أتكلّم على الدبلوماسية السرية. سأقول أنّ دوغ كان سفيراً وفيّاً».

دوغ كو رجلٌ ودودٌ ومرح جدّاً. بدأ العمل مع «العائلة» في عام 1959، بعد فترة وجيزة على انتهائه من دراسته الجامعية، وتسلّم الإدارة فيها عام 1969. وقد زار كل عواصم العالم تقريباً، ودائماً مصحوباً بعضو في الكونغرس، الأمر الذي منحه الفرصة «لصنع أصدقاء»، «أصدقاء» يدعوهم لاحقاً إلى المقرّ شبه الرسمي لـ «العائلة»، وهو مسكنٌ يقع في نفس الشارع الذي يقع في ايڤانوالد، والذي تمّ شراؤه بـ 1,5 مليون دولار بمنحةٍ من توم فيليبس، الذي كان حينها مدير عمليات صانع الأسلحة رايتون، وكين اولسن، مؤسّس ورئيس Digital Equipment

Corporation، إضافة إلى آخرين. يؤكد كو: «الدين يبعد الناس عن يسوع ويسمح لهم بفصل إرادة المسيح من عملهم في الدنيا. نقدّر أنّ تحالف اللّه مع الشعب اليهودي قويٌّ كالعلاقة داخل المافيا». يستجمع قواه ويتابع: «بالنسبة لهم، انّه الشرف. بالنسبة لنا، انه يسوع». ويذكر كو رجالاً آخرين يعتبرهم «قد غيّروا العالم عبر التحالفات التي نسجوها مع إخوتهم». قائلاً: «هذه هي حالة هتلر ولينين وهو شي منه وبن لادن. ولكننا، نحن العائلة، نمتلك سلاحاً كان ينقص هؤلاء الزعماء: الإخاء الكليّ في المسيح».

عضوٌ سابق في العائلة، وهو سيناتور معروف جيّداً عن وسط غرب والذي افترق عن الجماعة بسبب ما أسماه «الانحرافات الدينية»، لم يقل، رغم كلّ شيء، سوى الخير عن المنظّمة. يؤيّد السيناتور الهدف الذي يكمن في نسج «روابط من وراء ضجيج vox populi» ، ولكنّه يقول بأنّه أخذ مسافة عن الجماعة لأنّ هذه الأخيرة تزعم بأنّ «تحالف اليهود مع اللّه انتهى و [أنّ] العائلة من الآن فصاعداً هي من اختارها الرّبّ». ويشرح السيناتور: «أعتقد بأنّه قد ذهبوا بعيداً جداً حول هذه النقطة. كل ما يفعلونه رائعٌ بالنسبة للديمقراطية، ولكنني أعتقد بأنّ النجاح قد أحدث اضطراباً لديهم وقادهم إلى الاعتقاد بأنّهم أكثر قداسة من العليّ القدير وأكثر قداسة من الشعب اليهودي الذي عقد اللّه معه الميثاق الإبراهيمي».

وفي ردٍّ على هذا الاتّهام، قال دوغ كو بأنّ يسوع، بالنسبة له ولأعضاء آخرين في «العائلة»، ليس مجرد كلمة؛ بل أيضاً إنسان من لحم ودم. قال كو: «إنّه شابٌ مذهل. كان يبرعُ في كلِّ شيء. بالتأكيد كان معلّماً عظيماً، ولكنّه كان أيضاً رجلاً خارقاً حقّاً، وربّما كان مصارعاً بارزاً. نحن لا ندّعي بأنّنا أجدر منه. نحن نقول ببساطة، لأنّه واحدٌ من أهلنا، فليس هناك حدٌّ لما يمكننا فعله». توقّف برهة ثم أضاف: «نحن نؤمن بيسوع ولكننا نؤمن كذلك بقوّتنا الخاصّة وبسلطتنا الخاصّة، عارفين تماماً، بلا شكّ، أنّ اللّه هو الذي منحنا إياهما».



تأسّست «العائلة» في عام 1935 من قبل ابراهام ڤيريدي، المهاجر النرويجي

الذي كان يكسب قوته كقسٍّ متجوّل. ذات ليلة، وبينما كان مستلقياً في سريره، أدرك فجأةً أنّه كان الشخص الوحيد القادر على منع مدينة سياتل من أن تسقط في أيدي السوفييت.

كانت لدى ڤيريدي، جهاراً، رؤية وصفها كالتالي: «إنّ صوتاً هو نورٌ في الظلماتِ، حادٌ ومبهرٌ». في اليوم التالي، التقى رجلَ أعمالٍ ثريّاً، واستوحيا، معاً، في وضعٍ سليمٍ، خطة روحية. نجحا في إقناع تسعة عشر من أرباب العمل بالاشتراك معهم أسبوعياً في فطورٍ ورؤية بعضهم البعض في صلاة، مقتنعين بأنّ وحده يسوع سيستطيع إنقاذ سياتل وتدمير النقابات اليسارية التي كانت، حسب رأيهم، «أداة للنظام الشيوعي». ورغبة منهم في إعطاء اتّجاهٍ ليسوع، سألوا اللّه أن يختار من بينهم زعيماً. وحينها نهض أحد أعضائهم، المستشار البلدي آرتور لانغلي وقال: «أنا مستعدٌ لأن أصبح أداةً للّه». انتُخِب لانغلي في البداية عمدةً ومن ثمّ حاكماً لولاية واشنطن، واستفاد، في هاتين الحملتين، من الدعم المالي لأصدقائه في صلوات الفطور الذين تزايد عددهم سريعاً. جاب ڤيريدي و«إخوانه» الجدد كلَّ أنحاء شمال غرب البلاد ليؤدوا فيها المهمّة التي كان المسيح أوكلها إليهم. لقد كتب ڤيريدي: «أنجز هؤلاء الرجال مهمّتهم التي كانت إنقاذ البلاد من الشيوعيين وملاقاة يسوع». وتكوّنت مجموعات صلاةٍ في العشرات من المدن الأمريكية، من شرق البلاد إلى غربها. وحسب رأي ڤيريدي، كان هناك ما يكفي من المبشّرين للاهتمام بالفقراء. ولذا قرّر هو شخصياً وتلامذته بأنّه كان من الأجدر تركيز جهدهم على الأثرياء والمقتدرين. إذاً، لم تكن رعيّته من «المنبوذين»، وإنّما كما كان يقول: «المقتدرين والأثرياء».

في 6 أيلول 1941، نزل ڤيريدي في واشنطن، ونظّم، بعد يومٍ أو يومين، أوّل اجتماعٍ للصلاة في الكابيتول حضره أكثر من مئة عضوٍ في الكونغرس. في نهاية الحرب، عام 1945، شارك ثلث عدد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي في صلاته الأسبوعية، مصمّمين على قرن رؤيته بـ «نظامٍ عالميٍّ جديد». وكان قد سبق وعقد حينها اجتماعاتٍ من هذا النمط للمندوبين في الأمم المتّحدة. وبتمتّعه حينذاك بخلفية دولية، طرح ما كان يسمّيه «خطّة اللّه لإعادة البناء على أنقاض الحرب».

عام 1946، جاب ڤيريدي العالم، مزوّداً برسائل توصية صادرة عن ستّة شيوخٍ ونواب وكذلك عن بول ج. هوفمان، مدير خطّة مارشال. كما كان لديه بين أمتعته تفويضاً من الجنرال جون هيلدرينغ مساعد وزير الخارجية، معدّ قائمة الألمان «الطيّبين» من النموذج «المتوقّع». كان ڤيريدي وشركاؤه يخالون أنّهم كانوا قد سجنوا لمجرّد امتلاك «علاقات ملتبسة جدّاً مع النظام النازي». حسب رأي ڤيريدي، كان يمكن للرجال المعنيين، أعدائنا السابقين، أن «يُستخدَموا في مهمّة إعادة البناء الضخمة». وطرح شرطاً وحيداً: على هؤلاء النازيين السابقين، الشخصيات الهامشية للرايخ الثالث، أن يقسموا على «أن يُجِلّوا يسوع بنفس الطريقة التي كانوا يُجِلُّون بها هتلر».

عام 1955، نظّم السيناتور فرانك كارلسون، المستشار المقرّب من الرئيس إيزنهاور وصديق ڤيريدي، اجتماعاً أعلن خلاله أنّه يجب أن تكون مهمّة «العائلة» شن «حملة روحية في العالم أجمع» في سبيل قهر الاتحاد السوڤيتي وتجريده من السلاح ودحره. حينما انتُخِب جون فيتزجيرالد كنيدي رئيساً للولايات المتّحدة عام 1960، كانت هذه الحملة جارية على كلّ القارات باستثناء القطبية الجنوبية. وقد وجب الانتظار إلى الثمانينات لتنزل العائلة في هذا الركن الأخير من الكوكب وتفتتح مكتباً فيه.

في نهاية الستينات، لم تعد خطب ڤيريدي، في صلوات الفطور عبر البلاد بأسرها، تشكّل العناوين الأولى للصحف، وبدأ أعضاء «العائلة» الذين يجوبون العالم باسم يسوع المسيح هم من يجذبون اهتمام وسائل الإعلام. عام 1966، قبل عامين من اختفائه، أعلن ڤيريدي في رسالة أن الوقت قد حان «للتخلّص من الصورة المؤسّسية «للعائلة»». وكتب: «قطعاً، لن تجنّد «العائلة» مقتدرين في وضح النهار، وكذلك لن تجنّد منهم الكثير. وكما هو الحال دائماً في تاريخ العالم، ينبغي أن يمتلك رجلٌ أو مجموعة صغيرة من الناس رؤية لبلادهم ويعوا بما يمكنه أن يقدّم روحياً للأمّة وللعالم «قيادة ملهمة من اللّه. . .» إنّ هؤلاء الرجال، الذين يعملون معاً، هم من سيحقّقون الرؤية التي وهبني إياها اللّه منذ أمدٍ بعيدٍ».

بعد وفاة ڤيريدي، قرّر السياسيون الأكثر فاعلية داخل المنظّمة- إيزنهاور

وج.ف.كنيدي وجورج هـ.و. بوش- بأنّه على العائلة أن تعمل، منذ الآن فصاعداً، وفق مبدأ ما أسموه «الرأسمالية الكتابية»[1]، وهو ما يزال عليه الحال اليوم حيث تمارس المجموعة التأثير السياسي والمالي المعلوم.

* * *

منذ انتخاب هاري س.ترومان في عام 1948، لم تتوقّف قط هيمنة المحترم بيللي غراهام على جميع الرؤساء الأمريكيين. بدأ احترافه عندما جذب انتباه قطب الصحافة وليام راندولف هيرست

وعندما أعطى هذا الأخير الأمر لصحفه بمنحه تغطية واسعة. وفي عام 1951، غدا غراهام أحد مشاهير التلفزيون في الولايات المتحدة أولاً ومن ثم في العالم بأسره. وإليه يعود الفضل في البدء بإقامة العقيدة الإنجيلية في وسائل الإعلام الجماهيرية، وفي نشر الإنجيل في الصحافة المكتوبة وفي الإذاعة والتلفزيون قبل ظهوره في الحياة السياسية. وقد ظهرت مأثرة حديثة من مآثره: إنّه هو من ساعد جورج دبليو بوش في مقابلة يسوع المسيح وفي أن يصبح خلاصيّاً.

بدأت حكاية التقاء السيد بوش مع يسوع المسيح بسهرة صيفية حامية في عام 1985، في المُلكية العائلية لكينبونكبورت في ماين. كان بوش الابن وغراهام يتحادثان، جالسين بالقرب من مصباح. حينذاك، كان من المعلوم للجميع بأنّه كان لدى بوش «مشكلة الإدمان على الكحول». يقول الرئيس: «لا أتذكّر كلمات محدّدة نطق بها المحترم غراهام، ولكن الأمر الأهم كان سطوة نموذجه. كان الرّبّ ينعكس بوضوح تامٍّ في لطف وطيبة سلوكه الذي أحدث تغييراً في قلبي».

في اليوم التالي، جرت المناقشة الثانية للرجلين خلال نزهة في وولكرز بوينت، وحينها، ظاهرياً، زرع المحترم «بذرة الخردل»، بذرة الرّبّ، في روح بوش الابن. يروي بوش: «قادني حتى الطريق، وشرعتُ في السير. وحينها بدأت حياتي بالتغيّر. لطالما كنتُ شخصاً متديّناً، كنتُ أذهب بانتظام إلى الكنيسة، بل

(1) نسبة إلى الكتاب المقدّس ـ المترجم.

ودرّستُ التعليم المسيحي، لقد كنتُ صبي المذبح. ولكن في عطلة نهاية الأسبوع هذه، اتّخذ إيماني بعداً جديداً. لقد سلكتُ درباً جديداً، وللمرّة الثانية، نذرتُ قلبي ليسوع المسيح».

وإلى هذا اليوم، لا يفوّت الرئيس بوش مناسبة ليمرّر في خطاباته بأنّه «ملتزمٌ بطريقٍ كأيٍّ مسيحيٍّ خلاصيٍّ»، طريقٌ تقرّب في النهاية المؤمن على نحوٍ متزايدٍ من يسوع المسيح. «أنا ملتزمٌ بطريقٍ» صرّح المرشّح بوش أمام جمهور سينسيناتي، في أوهايو، في تشرين الأوّل 2000، ومرّة أخرى في واشنطن في كانون الثاني 2004، «تماماً مثلكم، وهذه طريقٌ بلا نهاية فيما يخصّني» .

إنّه لأمرٌ مقلقٌ في إيمان الرئيس: فكلّ دعوته للّه هي، بطريقة وبأخرى، على علاقة بمهنته السياسية. وفي حديثٍ له في تشرين الأوّل 2002، أقرّ بأنّ «المسيحية كما يمارسها [هو] تفرض [عليه] أن يأخذ نموذج المسيح مأخذ الجدّ». «وهذا أمرٌ يستحيل فعله ما لم تكن معه على الدوام، وهذا ما لا يمكنك فعله سوى بقراءة الكتاب المقدّس. لا يمكنك سماعه بواسطة الروح-القدس إن قرّرت التوقّف كما ترغب في النصّ».

لم تكن تلك المرّة الأولى التي أكّد فيها الرئيس امتلاك خطٍّ مباشرٍ مع اللّه، فقد سبق وقال إنّ «تفسير» كلام جلاله كان أقلّ نفعاً بالنسبة له كمسيحيٍّ صادقٍ من التأثير البسيط لأخذ علامات الرّبّ «بالمعنى الحرفي».

أثناء مقابلة معه أجريت في مزرعته بتكساس في كانون الأوّل 2000، مباشرة بعد أن منحته إعادة احتساب الأصوات الفوز على آل غور، بدا بوش غارقاً في التفكير وفي غاية التقوى، وألقى عدّة نكات. «كنتُ أستعدّ لمباشرة ولايتي الثانية حاكماً لتكساس، حينما ذهبت ذات يوم أحدٍ إلى الكنيسة. هناك، سمعتُ عظةً لقسّي، قسّ United Methodist Church في دالاس. تحدّث عن تحفّظ موسى عندما أمره اللّه بإخراج شعبه من مصر. كان لدى موسى الكثير من الأسباب لرفض تلك المهمّة. ومثلما قال القسّ ذلك، كان ردّ فعله الأوّل هو «أنا آسفٌ، يا رّبّ، ليس لدي الوقت. لدي عائلة، وغنمٌ عليّ الاعتناء بها. لديّ حياتي. ثمّ من أنا حتى أذهب إلى الفرعون وأُخرِج من مصر بني إسرائيل؟»»

الأخلاق، حسب بوش، هي أن «يكون الناس متعطشين للزعامة... متعطشين لزعماء موهوبين بالشجاعة الأدبية والأخلاقية». فيما بعد ذلك، قالت باربارا بوش لابنها: «كان يتوجّه إليك». ومع إقراره بأنّ كلمات قسّه شكّلت بالنسبة له لحظة حاسمة، فإنّ بوش، الحريص دائماً على التواضع، سلّم بأنّ القس كان يتوجّه، يوم ذاك، لكلّ رعايا الكنيسة. ابتسم، ثمّ صرّح: «ولكن بعد العودة إلى البيت، قلتُ لمجموعة من المتعاطفين معي بأنّ اللّه كان يشاء، على ما كان يبدو لي، أن أصبح رئيس الولايات المتّحدة».

في نيسان 2000، وقّع جورج دبليو بوش، الذي كان لا يزال حاكماً لتكساس، على أمرٍ يجعل من يوم10 حزيران 2000 يوم يسوع ويطلب من جميع التكساسيين «الإقتداء بالمسيح» من خلال إنجاز أعمال صالحة في مجتمعهم ومع جوارهم. على المستوى الوطني، لم يُلاحظ هذا الأمر سوى من عددٍ قليل من المجموعات المسيحية التي عبّرت عن امتنانها لحكومة بوش وطلبت من نظرائه في الولايات الأخرى إعلان يومٍ سنوي للخير والصلاة والمواكب باسم يسوع المسيح. بعد بضعة أشهر، حينما سمّي حاكم تكساس من قبل الحزب الجمهوري في السباق إلى الرئاسة، بدأ معارضوه ومنافسوه بانتقاد لا مبالاته حيال الأمريكيين غير المسيحيين والذين يؤمنون بالتعديل الأوّل الذي ينصّ على الفصل بين الكنيسة والدولة.

والواقع، وصف مدير American Jewish Committee، وكذلك العديد من المجموعات المسلمة بيان السيد بوش المتعلّق بيوم يسوع بـ «انتهاكٍ مريب وصارخ لروح التعديل الأوّل». وبمثابة ردٍّ على ذلك، أكّد السيد بوش على الدوام أنّ معتقداته الدينية الشخصية هي مصدر كل قراراته، سواء كانت ذات طابعٍ سياسي أو اجتماعي أو عاطفي. كم مرّة لم يقل الرئيس الأمريكي بأنّ «الطريق الوحيدة لبلوغ السماء تمرّ من المسيح»؟ أو أنّ يسوع هو «السياسيّ الأثير» لديه؟

ولتبرير إقامة يوم ليسوع، ذكر بوش أنّ اليهود كانوا قد أعلنوا يوماً لذكرى الشواه، وكانوا يحتفلون بـ هانوكاه، في حين أنّ أتباع البهائية في أمريكا يلتزمون بيوم التذكار المئوي، ويلتزم المسلمون بشهر رمضان. ومع ذلك، كان نصّ خطابه

يقول بوضوح أنّ السبيل الوحيد نحو النجاة، سواء تعلّق الأمر بالسلوك الشخصي أو بالأعمال الخيرية اتجاه الآخر، كان يمرّ عبر المسيح. «كان يمكن القول، بأنّ أتباع الأديان كلّها، في العالم بأسره، كانوا يسلّمون بيسوع المسيح كنموذجٍ للمحبّة والرحمة والتضحية والوفاء. وبنجدته للفقراء وللذين يتألّمون وللهامشيين، أبدى سلطة أخلاقية، ظلّت اليوم مصدراً للإلهام لعددٍ لا يُحصى من الرجال والنساء والأطفال. وتكريماً لحياته ولتعاليمه، اتّحد المسيحيون من جميع الأعراق والملل لإقرار العاشر من حزيران يوماً ليسوع. وينبغي أن يحثّ هذا اليوم الناس على أن يقتدوا بالمسيح بأداء الأعمال الخيّرة في مجتمعهم وفي جوارهم».

بالتأكيد، ليس الموضوع هو تحديد ما إذا كان يسوع هو القدوة الصالحة للجميع بصدد الطيبة والتسامح والإنسانية. المشكلة هي، بعبارات التعديل الأوّل، أنّ هذه النماذج من التصريح لا تحظى بالقوة القانونية، كما لا تستثمر مال المكلّف ولا تستدعي إجراءً خاصّاً، بحيث يكون من الصعب تقديم شكوى بها. إن تصريحاً محابياً ليسوع أو للشيطان أو لأيِّ إلهٍ أو دينٍ آخرٍ ليس معادلاً، من منظور القانون الدستوري الأمريكي، لإعلان أسبوعٍ وطنيٍّ للمنتجات اللّبنية. ولكنّ السيد بوش استمرّ على رأيه. في 3 شباط 2004، أدلى بالتصريح التالي: «لا يمكن للمرء أن يكون رئيساً لهذه البلاد من دون الإيمان باللّه، ومن دون أن يكون مقتنعاً بأنّنا نشكّل الأمّة الوحيدة الخاضعة لأوامر اللّه... إنّ اللّه صخرتنا وسلامنا. علينا أن نثق به وأن نؤمن به... اليوم، أطلب أن يكون يوم الأحد 3 شباط يومياً قومياً للصلاة».

أيّاً كانت أقوال بوش حول ظروف «ولادته الجديدة»، هناك رواياتٌ أخرى تتعلّق باللحظة التي «وجد يسوع» فيها حقّاً ثم أقلع عن الكحول نهائيّاً.

روى مستشارٌ سابقٌ حادثاً طرأ بعد فترة وجيزةٍ من لقاء الرئيس مع المحترَم بيللي غراهام في ماين. حسب ذلك المصدر، وبّخت لورا بوش، عام 1986، زوجها في مطبخ مزرعتهم في تكساس بشأن إفراطه في الشرب وأنذرته بالاختيار بين الزجاجة والزواج. وكردٍّ على ذلك، كان بوش قد تأمّلها لبضعة ثوانٍ ثمّ سار نحو المجلى، ودون أن يفقد هدوءه، احتسى زجاجة أخرى من مشروب جاك

دانيلز. هذه الرواية كانت قد أُكِّدَت من قبل شهودٍ مقرّبين آخرين. يروي هؤلاء أن جورج دبليو بوش، في الصيف التالي، كان في عطلة في كولورادو مع مجموعةٍ من أصدقائه. وقد استيقظوا، ذات صباحٍ، منهكين لدرجة أنّهم لم يستطيعوا الذهاب كما هو متوقّعٌ إلى مُصَلّى أكاديمية القوة الجوية Air Force Academy. حينها انتشت البذرة التي كان المحترم ابراهام قد زرعها، فقد أقلع جورج دبليو بوش عن الشرب.

ومع إيمانهم بهدايته بأعوامه المشارفة على الأربعينات وبالمساعدة التي بذلتها له الصلاة في كفاحه ضدّ الإدمان على الكحول، إلا أنّه لا يزال هناك لدى بعض المسيحيين الإنجيليين شعورٌ بأنّ بوش، في الفترات الأخيرة، لا ينصتُ «للنصائح السليمة للّه بخصوص إسرائيل وبموقع هذا الشعب في خطّة جلاله». في الواقع، حجرة العثرة الحقيقية، هي «خارطة الطريق» التي يُفترض بها أن تفضي إلى إقامة دولة فلسطينية والتي أخضعت بعض أعضاء اليمين المسيحي لمحنة قاسية، نفد صبرهم من جرّائها.

10

أسياد اللعبة

إد ماكاتير الملقّب بـ «عرّاب اليمين المسيحي»، هو أحد أولئك المسيحيين الذين لهم، منذ أمدٍ طويل، علاقة ملتبسة مع جورج دبليو بوش.

لاشيء يهمّ ماكاتير، المولود في تنيسي، أكثر من حبّه ليسوع و«حبّه الذي لا لبس فيه للشعب اليهودي ودولة إسرائيل» الأمر الذي جعل منه «الصهيوني المسيحي» الأكثر تأثيراً في أمريكا.

حسب رأيه، «أفضل أصدقاء إسرائيل هم الذين يعتقدون أن الكتاب المقدّس لا يحوي كلام الله وإنّما هو كلام الله».

إنّ الحديث مع ماكاتير يجعلك مقطوع الأنفاس، إنّه نفس نموذج البائع الممتاز الذي يتكلّم رشّاً. خطابه مليءٌ بالنوادر الباعثة على الإدراك سريعاً بأنّه لعب دوراً حاسماً في العديد من القرارات المرتبطة بالبلاد. وبالسجية ذاتها، يلحُّ على الصلاة المتميّزة التي يحافظ عليها مع العليّ القدير، مستحضراً حتّى الخط المباشر الذي يربطه بجلاله. حكماً، ماكاتير نافذٌ في واشنطن ويجتذب أنظار عددٍ كبير من المسئولين. إذ أنّ رئيسين - رونالد ريغان وجورج هـ.و بوش ـ وطامعين إلى المنصب الأرفع ـ جاك كمب وبات روبرتسون - طلبوا إليه بإلحاح ليصبح مستشاراً لهم أو يكون جزءاً من إدارتهم. مع أنّ سلوكه بشكلٍ خاص ليس منحرفاً، إذ لا يفوّت فرصة دون أن يذكّر بأنّه ليس سوى ابن للريف، فإنّه لا يزال متزوّجاً منذ خمسين سنةٍ من «فتاة أحلامه»، ويقسم بأنّها، منذ موعدهم الأوّل، طلبتْ منه مرافقتها إلى الكنيسة.

يعود الاتصال الأول لماكاتير مع جورج دبليو بوش إلى الحملة الانتخابية الرئاسية لبوش الأب عام 1988، حينما طلب هذا الأخير منه «الصعود إلى السفينة» لتوثيق الصلة بين المجتمع المسيحي والحزب الجمهوري. في ذلك الحين، كان دوغ وايد المسيحي الإنجيلي من محافل اللّه، مثل جون آشكروفت، مكلّفاً بـ «إعداد» الشاب بوش لدفع العلاقة السياسية مع المجتمع المسيحي لصالح والده. ومع أنّ وايد بنفسه كان طويل الباع في الترويج، كان يحتاج إلى بطلٍ بهذا الخصوص لكي يساعده في تدريب جورج دبليو على مبادئ الطائفة الإنجيلية. وبالتأكيد لم يكن أيّ شخصٍ مرشّحاً لذلك آنذاك أكثر من إد ماكاتير. «مذ جاء دوغ للقائي ووافقت على العمل معه ومع بوش الابن، طلب مني بوش الأب أن ألعب دوراً أكثر بروزاً وثباتاً في حملته. ولكنني رفضت ذلك لأنني كنتُ أعتقد بأنني سأكون أكثر جدوى عندما لا أكون مكشوفاً وأعمل في الظلّ لكي تسير الأمور على ما يرام. كانت مبادرتي الأولى استقلالي للطائرة إلى دالاس بغية الالتقاء بـ و.آ. غريسويل، قسّ المحترم بيللي غراهام في First Baptist Church في المدينة. هناك، تكلّمت أمام كل أولئك المعمدانيين، ومدحتُ خصال الشاب بوش. جعلتُ منه بطلاً لكي يستمع جميع أصدقائي المسيحيين إليه، ويصوّتوا لوالده عندما يؤون الأوان».

بعد فترة قليلة، أعدّ ماكاتير الشاب بوش بحيث يخاطب مجموعة المسيحيين الإنجيليين الأكثر نفوذاً خلال National Religious Broadcasters Conference. يشرح ماكاتير: «كان بوش ووالده يعرفان بأنّهما، للفوز في الانتخابات، كانا يحتاجان إلى الجنوب، فإذا فازا بالانتخابات الأولية في الولايات الجنوبية، فإنّ النصر في متناولهما. وستكون تلك حال م.دوكاكيس المنافس الديمقراطي».

بعد انتخاب جورج هـ.و.بوش، الرئيس الحادي والأربعين للولايات المتحدة، تلقّى ماكاتير رسالة لطيفة منه. «قال لي إنني، وان لم أكن أتمكّن من السير تماماً على الماء، كنتُ أنجح بعد كلّ حساب في الولوج إليه حتى العراقيب دون أن أغرق. وقد عبّر لي عن امتنانه العميق لهذا الانتصار الكبير وللطريقة التي كنتُ قد نظّمتُ بها كلّ شيء. وبفضل عملي أدرك أصدقائي المسيحيين بأنّهم

سيعارضون، بكل ما أوتوا من قوى، الإجهاض بغية إنقاذ الأطفال الصغار، وكذلك كُره المثلية الجنسية وكلّ الأمور الأخرى التي تقلقنا أشدّ القلق».

في يوم تنصيب جورج هـ.و. بوش، أبدى إد ماكاتير شعوراً بالفخر حينما أقسم الرئيس الجديد، ترافقه سيّدته الأولى باربارا، اليمين. ثم، في جادة بنسلفانيا، صفّق لدى مرور الموكب الرئاسي الذي كان يتوجّه نحو البيت الأبيض. «أكثر ما صدمني في ذلك اليوم هي الطريقة التي كان بوش الابن يتجنّب بها نظرتي. ففي كلّ مرّة كنتُ أحاول الاقتراب منه كان يشيح بوجهه عنّي». ابتسم ماكاتير. ولكن لم تُبهج تلك الابتسامة قط نظرته التي بقيت باردة ورصينة.

أمّا وقد انتهت المهرجانات واستقرّ بوش الأب تماماً في المكتب البيضاوي، علِم ماكاتير من مصادر عديدة بأنّ الرئيس كان قد قرّر أن «يأخذ مسافة مع اليمين المسيحي حول القضايا التي يمكن لها أن تزعج الأعضاء المعتدلين أو الأكثر ليبرالية للحزب الجمهوري». قال ماكاتير: «لابد من معرفة أنّ اليمين المسيحي هو من أعطى ولايات الجنوب للرئيس وأتاح انتخابه». توقّف برهة ثم أردف «وهو أيضاً من منع إعادة انتخابه. ولكن بعد تلك الرسالة، لم يعد لي أيّ اتصالٍ مع بوش الأب ولا مع أيّ أحد في البيت الأبيض إلى ما قبل عامين، حينما كنتُ في دالاس على نفس المنصة التي كان عليها الرئيس الحالي جورج دبليو بوش. ما أن انتهت الخطابات، لاحظتُ أنّ الشاب جورج كان يقبل نحوي ليشدّ على بعض الأيادي. لستُ متأكّداً من أنّه لاحظني قبل أن يصبح إلى جانبي». حسب ما قال ماكاتير، توقّف الرئيس برهةً وكأنّه تفاجأ، ثم انحنى نحوه وربّت على كتفه قائلاً: «لقد مرّت علينا لحظات رائعة معاً، أليس كذلك يا إد؟» قبل أن يغوص بين الحشد. في الوقت الحاضر، يستشير إد ماكاتير بانتظام النائب العام جون آشكروفت الذي يعتبره صديقاً ومسيحيّاً حقيقيّاً. ونظراً لوزنه وسط المجتمع الإنجيلي، غالباً ما يلفت الرئيس إلى النظام بخصوص مبادراته للتوصّل إلى اتفاق سلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين. يقول ماكاتير: «لا أخفي توقّعات الطائفة الإنجيلية حول المشكلات الداخلية وكذلك بخصوص إسرائيل. فالحق يقال، أنّ موقف جورج الابن من الإجهاض وغيره من القضايا الهامّة بنظرنا ليس سيئاً. إنّ

الطريقة التي يعالج بها مسألة الإرهاب الإسلامي في إسرائيل هي ما يقلقنا، أنا وغيري من المسيحيين، أشدّ القلق».

مع ذلك، حينما دُعي إلى أن يقول فيما إذا كان اليمين المسيحي سيتخذ موقف محدداً أثناء الانتخابات القادمة، يُظهر ماكاتير نفسه كبراغماتي: «ليس واقعياً الانتظار بأنّ أحدنا سيستطيع أن يكون جزءاً من القائمة الجمهورية، إذاً بصراحة، ليس هناك شخصٌ أفضل في الجانب الجمهوري، والحال، في الجانب الديمقراطي، أسوأ. الأمر الذي يعني نعم، في نهاية المطاف سنصوّت لصالح جورج دبليو بوش أثناء الانتخابات القادمة».

وإذ يضع براغماتيته جانباً، فإنّ ماكاتير غير متأكّدٍ تماماً من المعتقدات الدينية للرئيس بوش ولا من معرفته، بشكلٍ خاص، بالكتب المقدّسة بخصوص الميثاق الإبراهيمي وبمشاعر اللّه تجاه الشعب اليهودي. «أعلم أنّ هناك أناس في وزارة الخارجية وبعض مستشاري بوش مثل وزير الخارجية كولن باول، يدفعونه لإبرام اتفاقية سلام إسرائيلية-فلسطينية. ولكن علي أن أقول بأنّ ذلك لن يتمّ، أولاً لأنّ اللّه ضدّ ذلك، وثانياً لأنّ السيد بوش لا يتوفّر على سلطة تعديل ما أقرّه الرّبّ منذ آلاف السنين».

دوغ وايد الذي يعمل باستمرار وسيطاً بين بوش واليمين المسيحي، هو الآخر براغماتي ويدرك جيّداً المشكلة التي يواجه بها الرئيس عشيّة انتخابات 2004. يقول وايد: «أعرف أنّ البعض لا يصدّقون التصريحات الإيمانية الرنّانة للرئيس. ولكنّه يدرك الرموز ويعرف إلى أيّة درجة يعتبر الدين هامّاً بالنسبة إلى الملايين من الناس في الولايات المتّحدة. 90% من الأمريكيين يؤمنون بإلهٍ وحيدٍ، وهذه نسبة مئوية عالية. ففي الحالة الراهنة، سوف لن أراهن على اتفاقية سلام في الشرق الأوسط».

في الحقيقة لا يهمّ كثيراً إن كان الرئيس جورج دبليو بوش مؤمناً حقيقياً أو مجرّد انتهازيٍّ انتحل لغة وشعارات اليمين الديني لأنّه يمتلك سلطة انتخابه لولاية ثانية. أيّاً كانت معتقداته الدينية ومرجعياته كمسيحيٍّ خلاصيٍّ، بخصوص السياسة الخارجية، لن يفعل أيٍّ شيءٍ يمكنه أن يصدم قبل الاستحقاق المقدّر. فيما يتّصل

بالسياسة الداخلية، مثلما يتعلّق الأمر بالعراق ومناطق أخرى مضطربة من الشرق الأوسط، الآن، يتّخذ كلَّ القرارات التي من الممكن أن تروق لليمين المسيحي.

* * *

لقياس أهمية الدين في أمريكا، تُعتبر السلطة التنفيذية بارومتراً تامّاً: إذ ما من رئيسٍ لا يرى، أثناء مروره في البيت الأبيض، في اللّه ناصحه الأقرب ودليله الروحي. حتى قبل أن تصبح المسيحية الإنجيلية في الولايات المتحدة قوة يُحسَب لها الحساب، اختارت أغلبية السكان باستمرار رجالاً ربطوا معتقداتهم الدينية بالوظائف العامّة التي مارسوها. وبدل الانبهار بالرموز الدينية أو بالإحالات إلى اللّه في العديد من السلطات القومية الأرفع والأقدس أو أيضاً استشهادات بالكتاب المقدّس المرصّعة للخطاب السياسي، يعتبر الأمريكيون بأن اللّه، علاوة على قوّتهم العسكرية وتفوّقهم التكنولوجي الأكيد، هو من سمح بالحفاظ على الحريات الأساسية لبلادهم.

لم يكن الدين أبداً حاضراً في البلاد مثلما هو عليه منذ ربع قرن. اللّه في كلِّ مكان، وسلطة العقيدة ومعجزة الصلاة تجتاحان كل دوائر البلاد، من الحلقات الأرفع للسلطة إلى الهواء الذي نستنشقه، من الشراب الذي نشربه أو نمتنع عن شربه إلى مالنا، من يمين الولاء إلى عَلَمِنا وإلى نشيدنا القومي، من الصلوات في المدارس إلى الصلوات التي تسبق المباريات الرياضية، إلى حدّ الابتهال إلى اللّه في أندية البستنة أو أندية الرماية، في المحاكم وحتى في السجون، حيث 90% من المعتقلين البيض المسجونين بسبب جرائم خطيرة «وجدوا اللّه» وأصبحوا من المسيحيين الخلاصيين.

لنأخذ واشنطن، حيث سيمكننا أن نقرأ على جدران مجلسي النواب والشيوخ العبارة التالية: «نحن نؤمن باللّه–In God We Trust».

وكذلك على جدران قبّة الكابيتول يمكن قراءة: «...العهد الجديد حسب سيّدنا ومخلّصنا يسوع المسيح. . . The New Testament according to the Lord and Savior Jesus Christ» ـ. وفي الكابيتول، يوجد تمثال للمسيح على الصليب.

أخيراً، ترد على الخاتم الكبير للولايات المتّحدة العبارة التالية: «يبتسم اللّه لفعلنا God has smiled on our undertaking -» ، وتحتها عبارة مأخوذة من خطاب ابراهام لنكولن في جيتيسبورغ:

«هذه الأمّة خاضعة للّه – This Nation under God» .

حينما تنعقد المحكمة العليا للولايات المتحدة، يفتتح الحاجب ويغلق كلّ يوم منادياً: «ليحمِ اللّه الولايات المتحدة وهذه المحكمة النبيلة!». وحينما يؤدي رئيس الولايات المتحدة اليمين أثناء تنصيبه على مدارج الكابيتول، يضع يده اليمنى على كتابٍ مقدّسٍ ويرفع اليسرى وينهي قسمه بهذه الكلمات: «فلْيغثْني اللّه». وفي أيّة محكمة كانت، أثناء الإدلاء بالشهادة، يقسم المواطن البسيط على «قول الحقيقة، كلّ الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة، بعون اللّه»، وفي حالة الرفض، قد يُقاضى بتهمة إهانة المحكمة، ويرى نفسه يتعرّض لغرامة أو لعقوبة السجن أو الاثنتين معاً، أو بكل بساطة يفقد حقّه في الشهادة لصالح الدفاع أو الاتّهام.

حتّى بيل كلينتون الذي كان بالنسبة للمسيحيين الإنجيليين نقيض الأخلاق، قاد حملاته كاجتماعات إحيائية أكثر من أيّ مرشح آخر. منذ حملته الانتخابية الأولى عام 1992، عندما مثّل دور المبشّرين في كنائس السود، أتقن كلينتون على الدوام إخراج الدين، ومن ثمّ، طيلة ولايتيه الرئاسيتين، حشا كلّ خطاباته بعباراتٍ من الكتاب المقدّس، التي يعرفها عن ظهر قلب، وكان بإمكانه تحديد الفصول والآيات. ولم تظهر الخديعة إلا في نهاية رئاسته. لم يقسم كلينتون أمام اللّه على أن يحترم اليمين المعلَن كرئيسٍ للولايات المتحدة فحسب ، بل وأقسم أيضاً على كتابٍ مقدّسٍ عندما نفى أيّة علاقة مع المتدربة في البيت الأبيض مونيكا لوينسكي. قال علناً ورسمياً: «لم أقم قطّ علاقات مع تلك المرأة». في النهاية، حينما أُقيم الدليل على أنّه كان قد كذب في تلك المسألة، أيضاً ربط اللّه بدفاعه واعترف بـ «ذنبه» أثناء حفلة فطور سنوية للصلاة في واشنطن، بواسطة استشهاداتٍ بالعهد الجديد وبشعيرة يوم كيبور، فقال: «لقد أودعتُ حياتي بين يدي محكمة عليا وسألتُ اللّه أن يغفر لي ذنوبي. وإذا كنتُ قد أذنبت فذلك لأنّني

تُهتُ ولأنّني غفلتُ عن الوصايا العشر».

لم يكن الجدل حول فصل الكنيسة عن الدولة حاداً قط مثلما كان إبان انتخابات 1960 الرئاسية، حينما أنتُخِب جون ف. كنيدي، وهو كاثوليكي، للمنصب الأرفع في البلاد. في الولايات المتحدة، لطالما أعتُبِرت الكنيسة الكاثوليكية كليّة القدرة وكانت تتصرّف بموارد مالية لا حدود لها، كانت تتيح لها ممارسة تأثير على الحكومات. وهي القناعة التي ترسّخت أثناء الحرب العالمية الثانية، حينما ثبّت التاريخ سُلطان الكنيسة على السلطة السياسية، عن معرفةٍ أو سهواً.

أصبح جون ف. كنيدي أوّل كاثوليكيٍّ يشغل المكتب البيضاوي وكذلك أوّل من دعا الأساقفة والكرادلة إلى البيت الأبيض، ليس فقط لحفلات التعميد أو دعوات مآدب العشاء الاجتماعية، بل وأيضاً من أجل الصلاة إلى جانبه أثناء أزمة صواريخ كوبا. ولكن في الحقيقة، كان تأثير الكنيسة الكاثوليكية على القوانين المدنية للبلاد أقلّ مما كان فيما بعد لطوائف أخرى بروتستانتية. السلطة المدهشة للمسيحيين الإنجيليين تأتي جزئياً من كونهم، وبعكس أعضاء الكنيسة الكاثوليكية، خرجوا تقريباً من جهة لاغية. ولم يكن قدومهم مرغوباً ولا منتظَراً، لم يفطن إليهم أحدٌ لبعض الوقت، سيما وأنّهم لم يثيروا أيّ تدبيرٍ رقابيٍّ.

بعد اغتيال الرئيس كنيدي، تشبّعت اللغة السياسية من جديد بنوع مختلف من الدين والإيمان. حينذاك، حثّ ليندون ب.جونسون الشعب الأمريكي على العودة نحو «اللّه» لكي يعينه جلاله على تجاوز «مرحلة كالحة من التاريخ». لم تكن هناك مآخذ على الإحالات الدينية للرئيس جونسون: فكعضوٍ في حواريي كنيسة المسيح التي تضمّ حوالي ثمانمائة ألف عضو في الولايات المتّحدة وكندا، كان جونسون يؤمن بأنّ مهمّته تشتمل على نشر «بشرى يسوع المسيح» وفي المحبة وأداء الشهادة ودفع «أبواب بلادنا إلى أقاصي المعمورة». كان هو بنفسه وسواه من أعضاء كنيسته يعتقدون بأنّ اللّه أوكل إليهم أن يكونوا طائفة وفيّة ومنتشرة تظهر روحاً جماعية حقيقية وإيماناً مسيحيّاً عميقاً وتعلّقاً لا تشوبه شائبة بالعدل، وفوق كلّ شيء، تضع ثقتها «لا في أيّة عقيدة كانت، وإنما في يسوع المسيح وحده».

لطالما كانت أمريكا أمّة إلهامٍ مسيحيّ، ولكنّها لم تصبح بلاداً ينمّي فيها شكل خاصّ جداً من المسيحية نفوذاً هامّاً بفضل عديد أتباعها وقوّتها المالية سوى في الربع الأخير من القرن. وفي المحصّلة، يكون فصل الكنيسة عن الدولة دقيقاً أكثر فأكثر حينما يتعلّق الأمر بسنّ قوانين مبنية على القيم الدينية للمشرّعين وناخبيهم.

حسب تحقيقٍ لمؤسّسة غالوب أُجري في نيسان 2002، هناك اليوم في العالم 2.2 مليار مسيحي و3.1 مليار مسلم و900 مليون هندوسي و360 مليون بوذي و5.13 مليون يهودي و850 مليون يؤكّدون عدم إيمانهم باللّه. بفضل الميّزات المذكورة سابقاً وبفضل الوعي بأنّهم يمتلكون التأثير بالمال وبالنفوذ على القرارات السياسية، يصعد المسيحيّون الخلاصيون إلى الشرفة عندما يتعلّق الأمر بالدفاع عن موقفهم من الصلاة في المدرسة والقيم العائلية والقوانين حول وقاية الحياة وبإبداء معارضتهم الشديدة للمثلية الجنسية. علاوة على ذلك أظهر نفس الاستطلاع بأنّ هناك 80 مليون مسيحي إنجيلي، خلاصي في الولايات المتحدة يشكّلون 35% من إجمالي السكان.

الجميع مقتنعٌ بأنّ يسوع المسيح مات بسبب خطاياهم، ويهتمون قبل كلّ شيء بالخيط الأخلاقي للبلاد. 72 مليون من هؤلاء الملايين الثمانين من البالغين الإنجيليين يقولون بدعم اليمين الديني الذي يضمّ، بالتحديد، 42% من الحزب الجمهوري، يؤكّد 7.58% من بينهم إيمانهم بأنّ العالم سيبلغ نهايته إبان معركة هرمجدّون التي سيواجه يسوع فيها الشيطان، و40% يعلنون قبولهم بالتصويت لتعديلٍ يقول بأنّ الولايات المتّحدة «أمّة مسيحية».

لم يكن الأثر الوحيد لأحداث الحادي عشر من أيلول هو حثّ الرئيس بوش على الانخراط في حربٍ على الإرهاب، وإنّما أيضاً دفعت إلى واجهة العمل السياسي بعض الأفكار الدينية التي أصبحت أساس السياسة الأمريكية الداخلية. هذا المناخ هو بالضبط ما كان الرئيس قد وعد بإشاعته في عموم البلاد أثناء حملته، حينما كان يسعى إلى إرضاء الثمانين مليوناً من المسيحيين الإنجيليين الذين أوصلوه إلى السلطة. وهذا هو بالضبط ما واظب على فعله عشية سعيه إلى

ولاية ثانية. أصبح البرنامج «المحافظ الرحيم» للرئيس بوش توريةً عن الإيمان بالله والانضمام إلى الكتاب المقدّس. غالباً ما يقدّم الإيمان، في أحاديثه، كدواءٍ لعددٍ لا يُحصى من المشاكل الاجتماعية، وأصبح هذا الاعتقاد جليّاً على نحوٍ خاصٍّ عندما أقرّ الكونغرس بمبادرةٍ منه بعض الأجنحة الرئيسية للبرنامج. وقد صرّح السيد بوش قائلاً: «علينا ألاّ نقلق لوجود الإيمان في مجتمعنا، بل على العكس من ذلك، علينا إدماجه بعملنا. علينا دمجه في نظامنا للمساعفة الاجتماعية. علينا أن نقرّ بالنفوذ العلاجي للإيمان في مجتمعنا».



كانت أمريكا على الدوام بلداً ممتلئاً بالمتناقضات، ممزّقاً بين متطرفين. فبعد الثوب الأزرق لمونيكا الملطّخ بالمني الرئاسي، كان لقاء بوش بالإيمان قد دخل التاريخ. هذا البلد، الذي يُعتبر مهداً للحركة النسائية، هو أيضاً البلد الذي كان قد يُسمِحَ للعبودية والتمييز أن يتموضعا فيه. هذا البلد المعروف بكونه رأس الجسر الرئيسي ومختَبَر المُتْعيّة، لم يعد معقلاً للطُهْريّة. لا يطيق مواطنوه القوانين المقيّدة لحرياتهم الفردية، ولكن هذا لا يمنعهم من مماحكة واستغلال النظام القضائي للمطالبة بتعويضاتٍ تعويضاً عن أضرار حقيقية أو موهومة قد يتعرّض لها شخصهم أو ممتلكاتهم أو سمعتهم. الأكثر وضوحاً هو التفكّك العام الذي، علاوة على ذلك، يضرُّ بالمبادئ الأساسية التي نظّمت كتابة قوانين البلاد: الأعمال الإجرامية المرتكبة من قبل المسيحيين الإنجيليين والعناصر المتطرفة الذين يشكّلون جزءاً من ذلك، أو معارضتهم للتقدّم العلمي والطبّي، يتسبّب أيضاً في خسائر في الحيوات البشرية.

لقد اغتال المتطرفون المتدينون من اليمين المسيحي في أمريكا أطباءَ وممرضات في العيادات وهم يجرون عمليات إجهاض، واعتدوا بلا تبصّرٍ على مثليين جنسياً بحجة أنّ الفعل الجنسي بين رجلين أو امرأتين إثمٌ بحقّ الله. علاوة على ذلك، أظهر المتطرفون المسيحيون معارضتهم للتسامح الديني ولحرية التعبير ولفصل الكنيسة عن الدولة. كما أبدوا موقفهم بوضوح ضدّ اختبارات ومكتشفات البيولوجيا والفيزياء حول أصول الحياة ويؤكّدون بأنّ كتاب سفر التكوين، حتى

في أدقّ تفاصيله، مؤسَّسٌ علمياً. لكلٍّ هذه المشاكل جذورها في تعليمات الكتاب المقدّس، ولكن، وقد بات اليمين المسيحي قوّة سياسية في البلاد، وُضِعتْ أمام أرفع المحاكم الأمريكية التي بتّتْ فيها، واستُخدِمَتْ كبرامج سياسية انتخابية لسياسيين يحظون بدعم اليمين المسيحي.

حسب المسيحيين الإنجيليين، تُعتَبر العديد من المسائل ذات الطابع الأخلاقي إهانة للّه مثل الإباحية والزنا وعددٍ لا يُحصى من المسائل الأخرى المدرَجة في برنامجهم في عداد تلك التي تمثّل معارضة الصلاة في المدارس أو معارضة شريعة الذّحل التوراتية بخصوص عقوبة الإعدام. وبما أنّ الخلاصيين يتحرّكون بقوّة اللّه في حين أنّ عدوّهم ينشط بقوّة الشيطان، فيوجد في عالمنا، الذي يُعدُّ مرتعاً لنزعات التطرف الديني، كفاحٌ متواصلٌ لا هوادة فيه بين تلك القوى. بين الخير والشرّ قلما يوجد مكان للجدل أو للتفرّد أو للخطأ. في الوقت الذي كانت البلاد تتهيّأ فيه للتصويت في الانتخابات الرئاسية لعام 2000، باتت مسألةٌ تشكّل مصدراً مهمّاً لحربٍ كلامية بين مَنْ يخافون اللّه والكافرين.

شكّل الزواج اللواطي أحد الرهانات الأساسية لحملة انتخابات 2000[1] مثلما كانت عليه الحال في عام 2000 بالنسبة للإجهاض. وقد أخبر العديد من الزعماء الإنجيليين المتنفّذين الرئيس بوش بأنّه فيما لو امتنع عن مساندة تعديلٍ في الدستور يحظر في عموم البلاد الزواج بين شخصين من نفس الجنس، فهو يجازف بخسارة مساندتهم. فوجد الرئيس نفسه بين نارين: فهو يعلم بأنّه، بدعمه لهذا التعديل، سيفقد، للوهلة ذاتها، جزءاً هامّاً من كتلته الانتخابية الجمهورية المعتدلة. كان كارل روف، العقل الذي يمسك بالخيوط في المكتب البيضاوي، من الدهاء ما يكفي للإدراك بأنّه لا بدّ من مداهنة المحافظين المسيحيين، وكان مقتنعاً بأنّ بوش، في عام 2000، كاد أن يخسر الانتخابات لأنّ أربعة ملايين من المسيحيين الإنجيليين كانوا قد أحجموا، ببساطة، عن التصويت. هذه المرّة،

(1) الأرجح أنّ المقصود هو عام 2004 ـ المترجم.

رسالتهم إلى البيت الأبيض أكثر وضوحاً. فقد صرّح العديد من الزعماء الإنجيليين البارزين للرئيس بوش بأنّه ما لم يدعم التعديل المذكور فسيمتنعون، في اللحظة المواتية، «عن الذهاب إلى صناديق الاقتراع». تعزيزاً لهذه الأقوال، يمكن أن نقرأ، خلف برنامج مؤتمر الحزب الجمهوري، الشعار التالي: «ما الذي يمكن أن يفعله سبعون مليون إنجيلي لأمريكاف كلٌّ ما يروق لهم!»

صرّح روبرت نايت، الصوت القويّ لليمين المسيحي ومدير Culture and Family Institute (معهد العائلة والثقافة) والذي قدّم لجورج دبليو بوش مساعدة لا يستهان بها في سبيل إعادة

انتخابه، قائلاً: «لقد علّمنا يسوع أنّه من الجوهري أن نثبّت في ذهن الأطفال المحبّة والسلام والطيبة». ولكنّه أكّد أيضاً أنّ المناضلين المثليين جنسياً وأنصار الحرية المطلقة في موضوع الحقوق المدنية هم الخصوم الأكثر ضراوة للقيم الدينية في المدرسة.

هناك مشرّع أخر يعارض بشدّة حقوق اللواطيين: إنّه السيناتور ريك سانتوريوم الجمهوري عن بنسلفانيا والذي، فلنذكر ذلك، يضع المثلية الجنسية في نفس مستوى التزوّج بامرأتين وتعدّد الزوجات وارتكاب المحارم والزنا. وهو الآن في نزاعٍ مع المحكمة العليا بخصوص الإبقاء على قانونٍ تكساسيٍّ يحظر العلاقات الجنسيةِ الحرّة بين البالغين برضاهم. لقد أصبح الجدل حول الزواج اللوطي موضوعاً أساسياً للحملة حينما أجازت المحكمة العليا في ماساشوسيت الزيجات بين أشخاصٍ من نفس الجنس. الآن، يكافح المسيحيّون الإنجيليون للحصول على إلغاء ذلك القرار بغية منع ولايات أخرى من أن تحذو حذوَها. وان لم يكن هناك غالباً لجوء للعنف، إلاّ أنّه ليس من النادر رؤية أو سماع شعارات من قبيل «الموت للوطيين» أثناء المظاهرات. كما تواترت الإشارات إلى شرعة القوانين المدنية والدينية[1]: «لم يشأ اللّه أن ينام الرجال مع الرجال أو أن تنام النساء مع

(1) Deutéronome: شرعة القوانين المدنية والدينية، وهو أيضاً الكتاب الخامس من أسفار موسى الخمس -المترجم.

النساء». الشعار الذي يشبه بطريقة مخيفة ذلك الذي كان يستخدمه في عام 1958 أنصار التمييز العنصري، الذين كانوا، بدورهم، يشدّدون على الشرعة 7: 3 لإدانة الزيجات بين الأعراق: «لم يشأ اللّه العليّ القدير أن تمتزج الأعراق». ولم تفرض المحكمة العليا إلغاء القوانين المتعلّقة بهذا النمط من الاقتران إلاّ في عام 1967.

في شباط 2004، حرّرت في سان فرانسيسكو شهادات زواجٍ لأكثر من ثلاثة آلاف زوجٍ من نفس الجنس. وزيادة في الارتباك، في مدينة صغيرة من ولاية نيويورك، قرية نيو بالتز العمدة الديمقراطي الشاب والعضو في حزب البيئة الأخضر والمرشّح المحتَمَل لمنصب الحاكم في انتخابات 2006، بدأت بإقامة احتفالات قصيرة، بعد الظهيرة، بين الأزواج من نفس الجنس. في الولايات الثلاث المعنية، ردّ الرئيس بوش بحجّة أنّ الانحراف بالنسبة إلى القانون كان صنيع «حفنة من القضاة المتطرفين»، ولكنّه أضاف بأن برأيه كان الزواج «المؤسّسة الأكثر جوهرية للعالم المتمدّن».

ولدعم أقوال الرئيس، زعم داڤيد هيوزينغا، قسّ Sunshine Community Church، الكنيسة المسيحية البروتستانتية الأكبر في ميشيغان، أنّه كان يتلقّى يوميّاً العديد من الرسائل الالكترونية من مجموعات مسيحية محافظة مثل (American Family Association جمعية العائلة الأمريكية).

وصرّح: «إذا أغضينا الطرف، سيكون الزواج حينها مهدّداً في بلادنا. أعتقد أنّ الزواج سيغدو مهزلة وسيتسبّب ذلك في انحلال مجتمعنا ومدارسنا». يكاد كلُّ المواطنين العاديّين من أعضاء الكنائس الإنجيلية والمعمدانيّة عبر البلاد أن يكونوا مقتنعين بأنّ الزواج اللواطي «يسير بالضدّ من المنهج الإلهي». من جهتها، صرّحت امرأةٌ من كونيكتيكوت بأنّ «المثليين الجنسيين قد خُدِعوا بأكاذيب الشيطان».

سواءً لعب الشيطان دوراً أم لا، في الجدل حول المثلية الجنسية، فإنّ أمراً واحداً مؤكّدٌ: لقد أُشرك اللّه في الحرب الكلامية وغدا من الآن فصاعداً جزءاً من الحملة. قلّما يمكن للأمريكيين أن يندهشوا لسماع الرئيس بوش يؤكّد أن اللّه

ضدّ المثلية الجنسية. وهذا هو أيضاً الموقف الذي لطالما اتّخذه الحزب الجمهوري حتى في اتجاهه الأكثر اعتدالاً. في تشرينالأول 2003، أعلن بوش المدّة من 12 إلى 18 «أسبوع حماية الزواج» بغية، على ما يشرح، «تحدّي اللوبيات اللوطية التي تحثّ القضاة المتطرفين على مطابقة حالة الزواج بالقرانات بين أشخاصٍ من نفس الجنس». الغريب أنّه في عام 1996 رأى (Defense of Marriage Act) DOM، قانون حماية الزواج النور على النطاق الفيدرالي. في الواقع، صيغَ هذا النص بطريقة بحيث لا يمكن للزواج أن يُحدّد سوى بقرانٍ شرعيٍّ بين شخصين من جنسين مختلفين مقترنين كزوجٍ وزوجةٍ.

إنّ رئيساً ديمقراطياً، بيل كلينتون، هو من صادق عليه. حينها، كان جون كيري المرشح الديمقراطي الحالي للرئاسة من بين أربعة عشر سيناتوراً عارضوه. مؤخّراً، استخدم الكونغرس السلطة التي تمنحه - full faith and credit provision بند من الدستور يلزم الولايات بالإقرار بالأحكام المرسلة من قبل الولايات الأخرى- لكي يشرّع بأنّه «لا يمكن أن تُرغَم أيّةُ ولايةٍ من قبل ولاية أخرى على الاستجابة للإقرار بعلاقاتٍ بين أشخاصٍ من نفس الجنس».

الآن والحملة في أوجّ نشاطها، يدّعي المسيحيون الإنجيليون بأنّ كيري ليس مؤيّداً للزواج المثليّ فحسب بل ويشجّع «الجهد المتواصل للمثليين للمصادقة على نمط حياتهم عبر السلطات العامّة وعبر المجتمع بشكلٍ عامٍ».

بدوره، أحد الذين لهم كلامٌ مسموعٌ مثل المحترم جيري فالويل صرّح: «يغزو المدافعون عن المثليين الآن مدارسنا العامّة لإقناع السذّج بدعم مطالبهم الاجتماعية الخطيرة». وذهب إلى حدّ التأكيد على أنّ (Gay, Lesbian and Straight Education Network الشبكة التربوية اللوطية، للسحاقيات والمشتهين للمغايرين جنسياً) قد نشرت «دليلاً تربوياً» مخصّصاً للمعلّمين مع مخطّط للدروس من ستّ نقاط خاصٌ بـ «إقناع التلاميذ بأنّ العلاقات المثلية معادلة للعلاقات التقليدية بين رجل وامرأة». تضمّ هذه الدروس نقاشات حول تاريخ القرانات المثلية وكذلك تعليمات للقراءة حول نفس هذا الموضوع ليتمكّن التلاميذ من تخيّل ما تشابهه هكذا قرانات.

إنّ النتيجة المنطقية والخطيرة لهذا النمط من الدعاية واللجوء إلى المشعوذين هي أنّ المعلّمين المتّهمين بالمثلية معرّضون للطرد بل وللملاحقة، كون المسيحيين الإنجيليين مقتنعين بأنّه يمكن للمثليين أن يعلّموا وحتى أن يخدعوا. ليندا هارفي عضو Mission America، وهي منظّمة إنجيلية أخرى، صرّحت في مقالة لها أنّ التلاميذ، في البلاد بأسرها، «تغمرهم المنشورات التي تشيد بالمثلية الجنسية». وأكّدت: «في الوقت ذاته، فإنّ المتديّنين منهم غالباً ما يُجعَلون هُزأةً لزملائهم».

أرادت ماريلين موسغراف، النائبة الجمهورية عن كولورادو، أن تذهب أبعد ممّا لم يفعله الرئيس كلينتون وهو يوقّع بالأحرف الأولى على DOMA. فقد اقترحت (Federal Marriage Amendment to the Constitution تعديلٌ اتّحاديٌّ على الدستور حول الزواج) ينصّ على أنّ: «الزواج في الولايات المتّحدة لا يمكن أن يعني سوى قران بين رجلٍ وامرأة. لن يكون بإمكان لا الدستور الاتحادي ولا دستور أيّة ولاية ولا أيّ قانون فيدرالي أو قانون أيّة ولاية أن يفسّر بحيث يعني أن أزواجاً أو أفراداً يتعاشرون معاشرة غير شرعية يستفيدون من الحالة الزوجية أو من الأحكام القضائية السارية».

في ماضٍ قريبٍ، سبق وأُجري تعديلٌ على الدستور يحظر الزواج بين الأعراق، القران بين البيض والسود. في الوقت الحاضر حيث رُفِع ذلك الحظر، ثمّة خطرٌ في البلاد بأسرها من إدارة آلة محرّكة جديدة: إذا ما أصبحت الزيجات المثلية غير شرعية، هل سنرى قانوناً يمنع مسيحيّاً إنجيلياً من أن يتزوّج من يهودية أو هندوسية أو مسلمةٍ؟ المشكلة تكمن في تحديد النفوذ الذي على السلطات الاتحادية أن تمارسه في بلدٍ ديمقراطي على سياسة وقرارات كلّ ولاية.

في الحادي عشر من آذار، ودائماً في كولورادو، توجّه الرئيس بوش إلى New Life Church، الكنيسة الإنجيلية التي تضمّ أكثر من ثلاثين مليون عضو يمثّلون أكثر من خمس وأربعين ألف أبرشية مسيحية. كانت تلك المنظمة تقيم مؤتمرها السنوي، واستغلّ الرئيس ذلك ليطالب بالتصويت على تعديلٍ ينفي الزيجات بين الأشخاص من نفس الجنس. أثارت كلماته عاصفة من التصفيق أردفتها كلمة «آمين». أثناء خطابه الذي كان يشكّل كذلك جزءاً من الحملة التي

يخوضها في سبيل تأمين دعم المسيحيين الإنجيليين، صرّح السيد بوش لجمهوره: «إنّكم تنجزون بيقينٍ وسخاء عمل اللّه، وانّي، باسم بلادنا، أشكركم». ثم وعد جميع المشاركين أن «يدافع عن قدسية الزواج في مواجهة القضاة المتطرّفين والموظّفين المحليين الذين يسعون إلى إعادة تعريف هذه المؤسّسة». وأكّد: «أنّ القران بين رجلٍ وامرأة هو المؤسّسة الإنسانية الأكثر قِدماً التي مُجِّدت وشُجِّعَت من قبل كلِّ الثقافات وكلِّ الأديان. إنّ تاريخاً ألفيّاً علّم الإنسانية أنّ التزام رجلٍ وامرأةٍ بأن يتحابّوا ويتعاضدوا يساهم في هناء الأطفال وفي استقرار الجسد الاجتماعي».

طبعاً، جرى هذا التدخّل قبل ساعاتٍ فقط من عدم التزام المحكمة العليا في كاليفورنيا بالتوقّف عن تحرير شهادات الزواج لأشخاصٍ من نفس الجنس في سان فرانسيسكو، وقبل عدم مصادقة المجلس التشريعي لماساشوسيت من القراءة الأولى على الإجراءات المحتملة لتسوية منع الزواج اللواطي، ولكن المجيز للزيجات المدنية بغية حماية حقوق المثليين المعنيين.

11

اللوطيون في مدى النّظر

ابتداءً من تموز 1985، خدم غاري باور في إدارة ريغان لمدة ثمان سنوات بصفة وكيل وزارة التربية، وبهذه الصفة عيّن رئيساً لـ (Special Working Group on the Family مجموعة العمل الخاصّ بالأسرة) التي كان رئيس الدولة قد أسّسها. وخلال السنتين الأخيرتين من الولاية الرئاسية، مارس مهام المستشار الأوّل للرئيس للسياسة الداخلية. وفي وقت لاحق، تقدّم باور ضدّ جورج دبليو بوش للترشّح الجمهوري للرئاسة في انتخابات عام 2000، ويدير حالياً American Values، المجموعة المسيحية اليمينية التي تتّخذ من واشنطن مقرّاً لها. إنّه رجلٌ أهيف ذو قسمات لطيفة وشعرٍ أشقرٍ متشعث، وهو يبقى أحد الممثلين الرئيسيين للتيار الكتابي[1] في السياسة وخصمٌ لدودٌ للزنا والمثلية والإجهاض. في الواقع، كان باور على الدوام الكاتب الأخلاقي لليمين المتشدّد. لقد كبُر، وهو ابن بوّاب، في كينتاكي الريفية وخاض جهاداً لاستئصال نزعة الشرّ. فقد صرّح: «إنّ الزنا أمرٌ خطير. كيف يمكنني الثقة برجلٍ إذا كانت زوجته لا تثق به؟»

في عام 1996، اتُّهِم باور، المتزوّج والأب لثلاثة أطفال، من قبل أعوانه بأنّه على علاقة بميليسا ماكلارد، المرأة الشابّة ذات الستة وعشرين عاماً، والتي كانت مساعدته أثناء الحملة الانتخابية الرئاسية. وقد أكّد تشارلز جارڤيس الذي كان مديراً لحملته في عام 2000، بأنّه إذا كان قد استقال على غرار تيم ماكدونالد، مسئول تنظيم العمليات، فإنّ ذلك كان بالضبط «للاحتجاج على

(1) نسبة إلى الكتاب المقدّس ـ المترجم.

السلوك غير اللائق لباور الذي كان يسافر وحيداً وكان ينفرد بالمديرة المساعدة للحملة، وهي امرأة شابّة في السادسة والعشرين من العمر». وعلى الرغم من هذه الاتّهامات بالطيش الجنسي، والتي كذّبها في الحال، ظلّ باور الرمز الشرس للأخلاق الدينية في أمريكا، وأدرك كلّ أهمية النفوذ السياسي الذي تحتفظ به الطائفة الإنجيلية.

اليوم، السيد باور هو، من بعيد، صاحب الموقف الأكثر حدّة ضدّ المثلية الجنسية.

وهو يعتقد أنّ المحافظين «سوف لن يتسامحوا بعد الآن في أن يعترف الرجال الذين انتخبوهم بالإخفاق حول المسائل الأخلاقية أو الثقافية». قائلاً: «ماذا سنكون قد جنينا لو أنّنا انتصرنا على محور الشرّ في الخارج وخفّضنا الضرائب، متنازلين تماماً في الداخل عن عقيدة آبائِنا المؤسّسين التي بموجبها يمكن لشعبٍ فضيلٍ وحده أن يبقى حرّاً؟»

أثناء حديثٍ في مكتبه في واشنطن، أكّد باور أنّ من بين مَنْ يذهبون إلى الكنيسة يوم الأحد وإلى صناديق الاقتراع يوم الثلاثاء، هناك على الأقلّ 40% من أعضاء الائتلاف الجمهوري، العصبة الأوسع للحزب. فشرح قائلاً: «لنفترض أنّكم كنتم تحلّون في بلدنا غداة الانتخابات الرئاسية الأخيرة، وتلتقون بأمريكيين في الشارع، وتسعون لمعرفة كيفية تصويتهم، على أنّه كان من المحظور التحرّي عن انتمائهم السياسي، سيكون حينها لا بدّ من السؤال عمّا إذا كانوا يذهبون بانتظامٍ إلى الكنيسة. لأنّ من سيجيبون منهم بنعم، سيكونون قد صوّتوا على نطاقٍ واسعٍ للجمهوريين، ومن سيجيبون بلا سيكونون قد صوّتوا على نطاقٍ واسعٍ للديمقراطيين».

غاري باور، وهو المعارض للمثلية الجنسية ولحقوق اللواطيين وللزواج بين أشخاصٍ من نفس الجنس، حاول المستحيل ليُبطِلَ مرسوماً حول الحقوق المدنية يحمي اللواطيين ضدّ التمييز بخصوص السكن والعمل.

ربّما يأتي جزءٌ من وسواسه بصدد اللوطيين من انتمائه إلى وصايا الكتاب

المقدّس ومن فكرة أنّ صدره يضيق. كما أنّ الخوف والتعصّب اللذان يسكنانه، يلعبان بلا شكّ دوراً في ذلك. الغريب في الأمر هو أنّ بعض من تتماثل أصواتهم في نقدهم الأكثر لذعاً من أمثال روي كوهن، المستشار القانوني للسيناتور جوزيف مكارثي الذي راح ينبش في حياة كبار شخصيات هوليود، متّهماً إيّاهم بأنّهم شيوعيّون، أو آرتور فينكلستاين، المستشار السياسي للسيناتور اليميني جيسي هيلمز، تبيّن أنّهم هم أنفسهم لوطيون.

ويوزّع كلود آلن، وهو صديق لغاري باور، اشمئزازه من المثلية الجنسية. وقد لفت آلن انتباه وسائل الإعلام إلى محافظته الدينية والسياسية حينما أعلن، كناطقٍ باسم السيناتور جيسي هيلمز أثناء حملته من أجل إعادة انتخابه عام 1984، أنّ خصمهم الديمقراطي كان عطوباً بسبب صلاته مع «اللوطيين». وكناشطٍ في مجموعةٍ مسيحية تكدّ، في الولايات المتحدة وفي إسرائيل، لحثّ المثليين جنسيّاً على «الانضمام إلى يسوع»، كان قد عُيّن حديثاً من قبل الرئيس بوش في محكمة الاستئناف الاتّحادية لهيئة المحكمة البداية الاتحادية[1] في ڤيرجينيا. وكأنّه من قبيل الصدفة، كان بيل بريور، وهو عضو آخر في تلك المجموعة المسيحية والنائب العام في آلاباما، هو الآخر مرشّحاً لمحكمة الاستئناف الاتحادية في المحكمة الاتحادية الحادية عشرة للمحكمة البدائية في أتلانتا. وقد عُرِف السيد بريور بشكلٍ خاصٍّ من خلال المذكّرة التي قدّمها هذا العام (أي 2004- المترجم-) إلى المحكمة العليا بغية الدفاع عن قانونٍ تكساسيٍّ يجعل من العلاقات الجنسية بين اللواطيين جُنحةً. وتصنّف الوثيقة هذه العلاقات في نفس فئة وَطْء الموتى ووَطْء الحيوانات والانحراف الجنسي نحو الأولاد وتروّج بأنّ الولايات مخوّلة بتجريم ومعاقبة كلّ شخصٍ متورِّطٍ في علاقاتٍ كهذه.

حينها وعلى صدى وجهة نظر بريور، افتتح السيد بوش القمّة مع الرئيس الروسي ڤلاديمير بوتين بهذه الكلمات: «إنّنا بحاجةٍ إلى قضاةٍ موهوبين بحسٍّ

(1) في الولايات المتّحدة، محكمة الاستئناف الاتحادية مقسّمة إلى إحدى عشرة محكمة تضمّ الواحدة منها العديد من الولايات والمقاطعات. وتُدعى « circuits courts (NdE) ».

مشتركٍ، ويدركون أننا نأخذ حقوقنا من اللّه، وهذا هو نوع القضاة الذين أنوي توظيفهم».

اليوم، في أمريكا بوش، يبدو أنّه لا يكفي المرء، ليكون قاضياً، التمسّك بكفاءاته كمختصٍّ في القانون، بل عليه بشكلٍ خاص أن يؤكّد حق أولوية القانون الإلهي على قانون البلاد. بعباراتٍ أخرى، من لا يكون مسيحيّاً إنجيليا يضيّع وقته بالتماسه وظيفة قاضٍ. المنظمة اليمينية النافذة المتمركزة في واشنطن وأحد الداعمين الرئيسيين لغاري باور في سباقه إلى الرئاسة ضدّ جورج بوش في عام 2000، (Family Research Council مجلس البحث حول العائلة) والتي يديرها كين كونور، تعهّدت بـ «إبراء» المثليين جنسياً.

ولكنّ كونور وباور ومحافظون آخرون قلّلوا من أهمية اجتماع عُقد في شهر آذار الأخير بين مارك راسيكوت، الرئيس القومي الجمهوري، و(Human Rights Campaignالحملة من أجل حقوق الإنسان)، الجماعة المستقلّة المطالبة بالمساواة في الحقوق للمثليين جنسياً. إنها المرّة الأولى التي كان يلتقي فيها رئيسٌ للحزب

الجمهوري جماعة تدافع عن تلك الفئة. كما أنّ أنصار كونور والآخرين وجّهوا رسائل الكترونية إلى راسيكوت، متّهمين إيّاه «بعدم الإصغاء» إلى «الناخبين الأكثر وفاءً وولاءً» للرئيس بوش. وفي لحظة، بلغ احتداد المشاعر حدٌّ أنّ باور وكونور وسواهما ممّن يمثّلون الملايين من المسيحيين الإنجيليين هدّدوا بعدم مساندة بوش في انتخابات 2004 إذا كان راسيكوت يواظب على التودّد إلى جماعات المثليين جنسياً. كان شعار اليمين الإنجيلي هو: «لا للتحالف مع اللوبي المثليّ جنسياً».

إنّها حربٌ كلامية عجيبة، لأنّ المسيحيين الإنجيليين يشتهرون بالتحالف مع أقاربهم وبالدفاع عنهم وبالتظاهر بأنّهم أوفياء لموضعهم، وان عاكس أحدهم قناعاتهم التوراتية. أحد الأمثلة على هذا الوفاء، أُعطيَ من قبل المحترم بيللي غراهام، أحد المبشّرين الإنجيليين الأكثر تأثيراً في تاريخ البلاد.

إبّان إدارة الرئيس جونسون، ضُبِطَ والتر جينكينز أحد أقرب مستشاري الرئيس في وضعيةٍ مشبوهةٍ مع نادلٍ في حمامات الرجال (YMCA Young Men Christian Association). حينما علِم بتوقيف جينكينز، كان أوّل من دعاه الرئيس هو المحترم غراهام. بعد خمسة أيامٍ من تفجّر الفضيحةِ في وسائل الإعلام، ذهب غراهام إلى رئيس الدولة ليؤكّد مساندته له. قال غراهام: «تعلمون أن يسوع حينما كان على صلةٍ مع أشخاصٍ مبتلين بمشاكل أخلاقية كهذا العزيز والتر، أظهر على الدوام الرأفة، أرجوك ببساطة، ان اتّصلت به، أن تبلغه محبّتي ورأفتي به». في الواقع، لم يضطرّ قط لرؤية جينكينز ثانية. وبعد قضاء بضعة أيام في مستشفى للأمراض العقلية في واشنطن، غادر هذا الأخير إلى تكساس، ولم يعد أحدٌ يسمع شيئاً عنه. حينما انتُخِبَ جورج دبليو بوش وديك تشيني، ذُهِل جميع لوطيي وسحاقيات أمريكا دون استثناء لأنّ هذين الرجلين كانا على النقيض من الزوجي كلينتون/غور الذي كان قد قدّم نفسه على أنّه مدركٌ لمكانتهم.

ومع ذلك، وقفت امرأةٌ، سحاقيةٌ ومناضلةٌ معلنةٌ من الوسط اللوطي، بفخر إلى جانبِ والدها في كانون الثاني 2000، حينما أدّى اليمين كنائبٍ لرئيس الولايات المتّحدة، وستكون من جديد إلى جانبه إذا ما جدّد للفريق الذي في السلطة عام 2004.

عملت ميري تشيني كمديرة للعلاقات مع الجماعة اللوطية عند كورس بروينغ، وكان لها الحظّ في أن يقرّر أصحاب اليمين المتطرّف «احترام حياتها الخاصّة». لا يُعرف الشيء الكثير عن ماضيها خارج حقيقة أنّها كانت عند كورس حتى أيار 2003 قبل أن تعود إلى الجامعة لتعدّ وظيفة في إدارة الأعمال. وسكنت مع شريكتها في الحياة هيثر بو بمنطقة دنفر في بيت اقتنتاه بشكل مشترك. وإذا كانت ميري تلتزم الصمت حيال حياتها الخاصّة، فهذا لا يعني بالضرورة أنّها لا تتفاهم مع والدها. فكل من يعرفهما يشير إلى أيّ درجة هما قريبين من بعضهما. تروي إحدى الصديقات المقرّبات: «إنهما ينطلقان بإرادتهما في العطلة، لوحدهما. إنّ توافقاً كهذا بين سحاقية مكشوفة ووالدها يعّد أمراً نادر الشيوع. لقد ذهبا معاً إلى روسيا وأمريكا الجنوبية. إنّهما مغرمان بالقنص سويّاً وبالصيد بالطُعم».

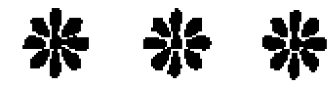
في الحقيقة، يوجد هنا مكيالان ومعياران، بالرغم من أنّ ابنة نائب الرئيس متحفّظة بما فيه الكفاية حول كلّ المواضيع سوى حقوق اللواطيين. يبقى أنّ ميري تطرح أسئلة دقيقة حول العلاقة بين العائلة والسياسة. الوضع الذي تجد نفسها فيه بعيدٌ عن أن يكون فريداً. بعد كلّ شيء، تسيطر نفس الضغوطات على الآلاف من الأسَر التي يكون ربّ الأسرة شخصية سياسة شهيرة. تجدر الإشارة إلى أنّ الداعم الرئيسي لميري تشيني هو ريتشارد سوكاريدز الذي كان يؤمّن الصلة بين اللواطيين والسحاقيات لصالح الرئيس كلينتون. سوكاريدز بنفسه عاش مأزقاً شبيهاً بمأزقها، حيث كان والده تشارلز مسيحيّاً إنجيليّاً وواحداً من أشدّ أنصار اللجوء إلى المداواة في سبيل «إبراء» المثليين جنسياً.

الدكتورة شيريل كلارك واحدة من أولئك الذين ادّعوا بأنّهم «شفوا» ووصفت نفسها على أنّها «سحاقية رأت النور». قبل ثلاثة أعوام، غيّرت كلارك اتّجاهها وهجرت شريكتها بعد أن اقتنعت بالمسيحية تحت رعاية تشارلز سوكاريدز. كان قد سُمِحَ لصديقتها القديمة إلسي ملكليود بأن تشارك في حضانة ابنتها بالتبنّي.

وقد زعمت بأنّها صُدمت باكتشافها أنّ كنيسة الدكتورة كلارك نشرت في ندوتها وثائقاً صادرة عن (Focus on the Family and Promise Keepers تركيز البؤرة على العائلة وعلى المحافظين على العهد) تستهزئ بنمط الحياة المثليّ جنسياً. أصدر أحد قضاة دنفر قراراً رسميّاً يلزم كلارك باستبعاد كلّ وثيقة متماثلة الرعب homophobe من التربية الدينية أو من تعليم الأطفال. استأنف محامو كلارك هذا القرار بحجّة أن القرار الرسميّ المذكور ينتهك الحقوق التي منحها الدستور لموكّلتهم في تدبير تربية طفلها، وكذلك حقوقها بموجب التعديل الأوّل الذي يكفل حريّة العبادة وحريّة التعبير. القرار الرسمي هو على نحوٍ خاصٌّ اعتداء على حرية العبادة لأنّه يمنع كلارك من التردّد على الكنيسة التي اختارتها بصحبة طفلها.

أعلن الدكتور روبرت سبايتزر، الأستاذ في جامعة كولومبيا، بأنّه التقى مائتي مثلياً «سابقاً» والذين كانوا مغايرين جنسيّاً قبل خمس سنواتٍ على الأقلّ. تزوّج الكثير من بينهم في الأثناء وبدا للجميع التغيير الخير. يؤكّد سبايزر: «لقد أظهرت

أبحاثي أنّ جميع المثليين، رجالاً أو نساءً، يمكنهم تغيير سلوكهم الجنسي شريطة أن يقبلوا بيسوع المسيح. فليس من قبيل الصدفة أنّ الأشخاص المائتين الذين التقيت بهم لم يتغيّروا سوى بعد انضمامهم إلى الرّبّ».



جمعية (Log Cabin Republicans جمهوريو الأكواخ الخشبية) هي جماعة للوطيين والسحاقيات تأسّست منذ ربع قرن. ينخرط أعضاؤها، خارج ميولهم الجنسية، في جميع القضايا الأخرى التي تتّخذ أغلبية الحزب مواقف يمينية منها. يقدّر باتريك غيريرو، المدير التنفيذي لـ Log Cabin Republicans ، أن مليون شخصاً يعرّفون أنفسهم كجمهوريين لوطيين قد صوّتوا لبوش في عام 2000. ولطالما دافع جورج دبليو بوش عن قيم العائلة، وساند، كحاكم لتكساس، القوانين التي تجرّم العلاقات الجنسية المثلية بين البالغين الراضين. إلاّ أنّه، وفي لحظة السعي إلى ولاية ثانية، وجد نفسه في مواجهة مأزقٍ. فقد نظّم، مؤخّراً، أحد أصدقاء العائلة، تشارلز فرانسيس، اللوطي المكشوف، لقاءً بين بوش وجمهوريين من نفس الطرف تركّز على قضايا مثل العلاقات مع أخٍ لوطي أو أختٍ سحاقيّة والزواج اللوطي ومرض السيدا. أسّس فرانسيس حينها (Republican Unity Coalition التحالف من أجل الوحدة الجمهورية)، وهي مجموعة لجمهوريين بارزين يُذكَر في عدادهم جيرالد فورد. تهدف هذه المجموعة إلى تحييد الاتّجاه الجنسي في الحزب وتعتقد بأنّ المليون ناخب من اللواطيين والسحاقيات الذين صوّتوا لبوش في انتخابات 2000، سوف يحجمون عن التصويت له في انتخابات 2004، إذا ما حاول التصويت للتعديل المتعلّق بالزواج على الدستور. يبقى أنّ ريتشارد تشيني هو نائب للرئيس وسيبقى كذلك بالتأكيد لولاية ثانية باسم حزب سياسيٍّ يجازف بأن ينكر على ابنته ورفيقتها الحقّ في تبنّي طفلٍ أو الحماية ضدّ التمييز في مجال العمل. ففي الواقع، يلتزم برنامج الحزب الجمهوري للانتخابات الرئاسية لعام 2004 بمعارضة أيّ مشروع قانون يمنح حماية على أساس «الأفضلية الجنسية». وإذا كان ديك تشيني يرتاح ظاهرياً إلى حدٍّ كبير للحياة الجنسية لابنته، فانّ زوجته لين المحافظة المسيحية المنتمية إلى اليمين المتطرّف تبدو أقلّ تسامحاً

بكثير حيال الوضع. حينما ذكّرها صحافيٌّ في مقابلة تلفزيونية بأنّ ابنتها كانت تزعم بأنّها «مثلية»، ردّت: «لم تقل ميري قطّ شيئاً كهذا».

وضع قرار المحكمة العليا في ماساشوسيت بخصوص الزواج اللوطي وكذلك قرار محكمة سان فرانسيسكو، الذي أجاز زواج الآلاف من الأزواج المثليين جنسياً، الرئيس بوش وخصومه الديمقراطيين، وبشكلٍ خاصٍّ جون كيري وجون ادواردز، في موقفٍ صعبٍ. فالجماعة اللوطية مصمّمة على إرغام الديمقراطيين على التدخّل للدفاع عن قضيتهم. بالمقابل، فإنّ اليمين الأمريكي أكثر حريّة بكثير ليعلن بوضوح اشمئزازه ومعارضته. وقد ألغى توم ديلاي، زعيم الأغلبية في مجلس النواب، ما يسمّيه «جموح القضاء»، وتعهّد بطرح تعديلٍ دستوريٍّ يحظر الزواج بين المثليين جنسياً. وصرّح: «لن تذهب الأمور أبعد من ذلك. هذه المسألة ستكون موضع اهتمام ورعاية لزمنٍ طويلٍ».

حتى الآن، يكاد كلّ المرشحين الديمقراطيين للانتخابات الرئاسية أن يكونوا قد أعلنوا بأنّهم، ورغم معارضتهم للزواج اللوطي، كانوا يؤيّدون صيغة ما لوضعٍ قانونيٍّ للأزواج اللواطيين والسحاقيات. وان أبقى حزبهم على غموضٍ حول الموضوع، فقد وقّع هاوارد دين، حينما كان حاكماً لولاية ڤيرمونت، مشروع قانونٍ يبيح الزيجات المدنية. أمّا بخصوص السيناتور كيرين فقد جاء من ولاية ماساشوسيت التي شَرْعَنت الزيجات بين الأشخاص من نفس الجنس. وغالباً ما قال مرشّحٌ آخرٌ سيء الحظ في ترشيح الحزب الديمقراطي، وهو المبشّر المعمدانيّ الشهير في نيويورك آل شاربتون، بأنّه لن يعارض إقامة حفلة زواجٍ بين أشخاصٍ من نفس الجنس بل وسوف يكون «فخوراً» بذلك.

إحدى أكبر مخاوف اليمين هي أن يفعل جورج دبليو بوش ما أقدم عليه والده في عام 1992. إذ أنّ بوش الأب، والذي كان يُرى على أنّه مقرّب جدّاً من الزعماء المحافظين والدينيين الذين كانوا قد أنكروا بشدّة حقوق اللواطيين في مؤتمر الحزب، كان قد نفّر الناخبين المعتدلين. وعلى أيّة حال، فإنّ الرئيس الحالي أكّد أنّ «الزواج يجب أن يتمّ بين رجلٍ وامرأة»، وأنّه «سيفعل ما هو ضروري قانونيّاً للحفاظ على قدسية الزواج».

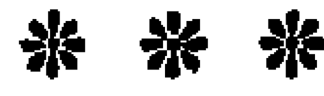
يَعتبر إد جيليسبي، رئيس (Republican National Committee اللجنة القومية الجمهورية) أنّ الجمهور الأمريكي «يعارض على نحوٍ واسعٍ الزواج اللوطي».

ووفق استطلاعٍ أجري على 1515 شخصاً بين الخامس عشر والتاسع عشر من تشرين الأوّل 2003، من قبل (Pew Research Center for the People and the Press المركز البحثي بيو للجمهور والصحافة)، زعم 59% من الأشخاص الذين سُئلوا بأنّهم معادون للزواج اللوطي. ودائماً حسب هذا الاستطلاع، فإنّ النسبة عند الأمريكيين المتدينين جدّاً والذين، في نظر مستشاري السيد بوش، تتزايد أهميتهم لإعادة انتخابه هي ستّة إلى واحد لصالح المعارضين. «هذا سيدفعهم بالجملة إلى السعي للتعديل في الدستور»، على ما صرّحت اليزابيت بيرش، المديرة التنفيذية لـ (Human Rights campaign الحملة من أجل حقوق الإنسان)، وهي لجنة العمل السياسي للوطيين. «سيكون ذلك هو المعيار الوحيد. سيتم التلاعب بكل شيء بشأن ذلك في هذا الانتخاب». كما أكّدت بيرش أنّ الحياة الجنسية لميري تشيني تبقى رهاناً هامّاً للحملة الانتخابية. «المسألة وثيقة الصلة بالموضوع لأنّ هذا هو بالضبط ما نقوله منذ سنوات: يعيش اللوطيون في الأُسَر الأمريكية. المشكلة تطرح نفسها بهذه العبارات: وجود ماري تشيني، السحاقية المُعلَنة، يكفي ليبرهن أنّ جورج دبليو بوش وديك تشيني لا يمكنهما البقاء لا مباليين بمصير اللواطيين في هذه البلاد».

من جهة أخرى، تعتبر الجماعة اللوطية أن رهانات أخرى غير الزواج بين أشخاصٍ من نفس الجنس قد تحثُّ على التصويت للمرشّح الجمهوري. وتعتبر مارغريت ليبي، السحاقية المنتمية للحزب الجمهوري والعضو في جمعية Pink Pistols التي تضمّ اللواطيين والسحاقيات الحائزين على الأسلحة، أنّ الموقف الديمقراطي حول ضبط الأسلحة مناقض لقناعاتها العميقة. وتقول: «في هذه اللحظة، أميل نحو بوش لأنّ الديمقراطيين يريدون وضع حدٍّ للأسلحة. إنّ مَنْ له قيمي وقناعاتي لا يمكنه بناء خياره على مسألة واحدة».

أثناء سلسلة من الأحاديث التي أجريتها مع جمهوريين لوطيين، أظهر هؤلاء على نحوٍ واسعٍ الانشغال ذاته: في الواقع، حسب رأيهم، يبدو الناس وكأنّهم

يعتقدون بأنّ وحدهم المغايرين جنسياً يقلقون على الضرائب أو على أمن البلاد في حين أنّ المثليين جنسياً لا يفكّرون سوى بحياتهم الجنسية. يقول جيم ماكفارلاند، العضو في (Pro-Life Alliance of Gays and Lesbians تحالف اللوطيين والسحاقيات من أجل الحياة) والناشط الجمهوري اللوطي، بأنّه سيصوّت للرئيس بوش لأنّه يعتقد بأنّه «المؤهّل الأفضل بشأن السياسة الخارجية والسياسة الضريبية». ويردف ماكفارلاند: «لاسيما وأنني لا أريد العودة إلى التخفيضات الكبيرة للضرائب التي أقرّها. هناك مشاكل أخرى لها أثرٌ حاسمٌ على حياتي خارج حقيقة أنّني لوطي».



في البداية، لم يكن لدى إدارة بوش مشروع حقيقي سوى تخفيض الضرائب لصالح الأثرياء وضغط برامج المساعفة الاجتماعية للفقراء وتثبيت اتّجاه أخلاقي ورعٍ والذي لم ينجح إلاّ غداة الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من أيلول 2001. حينها فقط عرّفت تلك الرئاسة نفسها بكفاحها ضدّ الإرهاب، وأخذ الإيمان واللّه والدين صدارة المشهد واستخدموا كأساسٍ لعملها السياسي. إبّان ولايته الأولى في البيت الأبيض، وفى بوش بالوعد المقطوع لثمانين مليوناً من المسيحيين الإنجيليين بتخفيف فصل الكنيسة عن الدولة الذي أقامه الآباء المؤسّسون للبلاد. وقد نجح في تمرير مختلف المشاريع ونصوص القوانين المشبعة بالتديّن وبتعاليم الكتاب المقدّس في الكونغرس، زاعماً أنّ الإيمان هو الدواء لكل محن أمريكا. إحدى القضايا الخاصّة التي دافع عنها بوش تتعلّق بالكلمات «بأوامر اللّه» المتجسّدة في يمين الولاء للعلم. وقد أثارت القضية المرفوعة أمام المحكمة العليا معركة قضائية حقيقية. فمن طرف، المسيحيون الإنجيليون الذين يؤيّدون الإبقاء على هذه العبارات، ومن طرفٍ آخر، أولئك الذين يعتبرونها لا دستورية ويطالبون برفعها. السبب المقدّم هو أنّ الملايين من الأطفال، في المدارس الحكومية، مرغمين على ترديد القسم بهذه الصيغة كلّ صباح قبل الدخول إلى الصفوف، حتى وان كانوا ملحدين أو لا أدريين أو غير مؤمنين برمزٍ آخر. والحال أنّ، حسب الدستور، يجب ألاّ يحتوي هذا القسم أيّة

إشارة دينية. ومثلما كان متوقّعاً، وبعد ما يقارب الثلاثين عاماً من إدراج أيزنهاور لهذه الكلمات في النص، جعل والد الرئيس الحالي من هذه المسألة حجّته الأثيرة في الحملة الانتخابية لعام 1988، التي كان يواجه فيها المرشّح الديمقراطي مايكل دوكاكيس. المسألة الأخرى التي أثارت المسيحيين الإنجيليين ضدّ الأجنحة العلمانية في المجتمع لها صلة بالوصايا العشر. منذ أمدٍ قريب، صادق رئيس المحكمة العليا في آلاباما على إقامة نصبٍ تذكاريٍّ ضخمٍ نُقِشت عليه التعاليم العشرة، وقد وجدت هذه القطعة أخيراً مكانها في الجناح القانوني لمقرٍّ سلطة الدولة في مونتغومري. ويروّج أنصاره بأنّ هذه الوصايا «شاملة»، حتى وان كان 15% من السكان لا يلتزمون بالقوانين التي منحها اللّه لمهد المسيح .Moïse حينها، نُقِلَ النصب الحجري ولكن المعركة استمرّت في المحكمة العليا. وهناك مشاكل أخرى تهدّد أيضاً فصل الكنيسة عن الدولة وتمسّ مسائل حسّاسة جدّاً كعلم الأخلاق الأحيائي .bioéthique فمنذ عام 1990، تعيش في فلوريدا امرأة في الثالثة والثلاثين، هي تيري شيافو، غيبوبة. وبما أنّها لم تتّخذ أيّة تدابير ولا حدّدت أيّ شخصٍ لحلّ مشاكلها الصحية، فإنّ زوجها في صراعٍ مفتوحٍ مع ذويها لأنّه يطالب بسحب المسبار الذي يبقيها على قيد الحياة. العنصر الجوهري في هذه المأساة هو أنّ ذوي المرأة الشابّة هم من الكاثوليكيين الرومانيين الورعين. من جهة أخرى، قرّرت المحاكم بأنّ الكلمة الأخيرة في مصير هذه المرأة الشابة تعود للزوج. ولكن القصّة لا تتوقّف هنا. فبعد عدّة أيامٍ من إعلان هذا الحكم، علِم الليبراليون في كافة أرجاء البلاد وبسخط أنّ حاكم فلوريدا جيب بوش، الأخ البِكر للرئيس والمؤمن بالكاثوليكية، قد نقض قرار المحكمة وأمر بإعادة وضع المسبار. طبعاً، شكر المسيحيون الإنجيليون جيب بوش والرب لسماحهم لتيري شيافو الاستمرار في العيش في غيبوبة عميقة إلى أن «يقضي اللّه بردّها إلى السماء». إنّ مسائل الحياة والموت لا تخصّ فقط عائلة مرغمة على اتّخاذ قرارٍ صعبٍ يملى في نهاية المطاف من قبل رجلٍ سياسيٍّ. إنّها تطرح نفسها كذلك على الميدان الأوسع لساحة المعركة. علاوة على أنّ المسئولين الكبار في إدارة بوش ليسوا جميعاً متدينون، وغالباً ما يحدث لهم أن يجدوا أنفسهم مواجَهين بمرؤوسين يصرّون على زجّ الكتاب المقدّس واللّه في ممارسة واجباتهم المهنية والسياسية.

12

لا للإجهاض

حينما تولّى دونالد رامسفيلد حقيبة الدفاع (البنتاغون)، أدخل إليها فكرة أنّ الحروب التقليدية لم تعد تمثّل تهديداً. واعتقد بأنّه للردّ بشكلٍ صحيح على اعتداء عسكري صادرٍ من عدوٍّ جديدٍ وأكثر سرّيّةٍ، ينبغي عدم التردّد في استخدام كلّ وسائل الدفاع المتاحة، سواءً احترمت أم لم تحترم حقوق الإنسان. وفي حديثٍ له في وزارة الدفاع، ذكر موقفه من «الشرعية» في الجيش و «النفور من الخطر». فصرّح قائلاً: «اليوم، العدو هو الإرهاب، ويجب محاربته حصرياً بالعنف لأنّ الإرهابي لا يساوم ولا يفاوض. يتركّز مسلكه الذهني على أمرٍ واحد: إيجاد الوسيلة لتعنيف من يكرههم بأقصى ما يمكنه. في المقابل، لا يفكّر الجندي المحترف والجيش المنظّم بهذه الطريقة. فعمله هو الحرب واستخدام العنف ليس سوى جانبٍ منه. فالجنود المحترفون يفكّرون في معاني اللجوء إلى القوّة بصيغٍ شتّى: الضغوط والتهديدات بل والإقناع بعرض العضلات وهو الدبلوماسية الجديدة كبديلٍ عن إطلاق القدرة النارية.»

رامسفيلد رجلٌ ساحر وموهوب بروحٍ من المزاج الصَلِف والوقح. هو ليس متديّناً ولا يؤمن بالرموز أو بالإشارات من الوحي الإلهي. فلسفته مستوحاة بدقّة من أفكار الجنرال البروسي كارل ڤون كلاوسڤايتز، المنظّر العسكري الذي كان يعلّم بأنّ «الحرب هي امتدادٌ للسياسة وللعمل السياسي بوسائلٍ أخرى»، وأنّ على الإستراتيجية أن «تخدم ثلاث كيانات معاً- الجيش والشعب والدولة». وكمثقّفٍ براغماتيٍّ يفضّل ألاّ يوكل إلى العناية الإلهية مهمّة الدفاع عن بلده، صرّح رامسفيلد «طوال تاريخنا، عُدّلت باستمرار مفاهيم الجيش بالتصاعد القوي لحقوق

الإنسان، وهي السياسة التي تمّ تبنّيها في البداية لتقييد استخدام القوّة من قبل الاتّحاد السوفياتي ضدّ أقلياته أو ضد جيرانه الضعفاء.» ويردف: «لسوء الحظّ، بانت هذه السياسة عن نتيجتين متعاكستين لأنّ حقوق الإنسان اكتسبت عمداً وضعاً قانونياً بحيث راقبت الحكومة الاتحادية تصرّفات الجيش على نحوٍ متزايد. في سنوات التسعينات، في بداية التدخّل الأمريكي في البلقان، وجد القادة أنفسهم مقيّدين بقواعد الاشتباك التي كانت تعرّض حياة قواتهم للخطر. وهي المشكلة التي تفاقمت، غداة النزاع الڤيتنامي، بفعل الحاجة الملّحة لتجنّب الخسائر. إذاً، قولوا لي ما العمل للدفاع عن البلد بيدٍ مقيّدة خلف الظهر؟»

ظاهرياً هي مسألة محض شكلية، ولكنّ هناك مسألة أخرى أوثق صلة بالموضوع، وهي كيف يمكن لوزير الدفاع أن يعدّ إستراتيجية قتالية عندما يمزج بعض مساعديه قناعاتهم الدينية بثقافتهم العسكرية؟ يأتي على رأس من يعتبرون الدين أساساً للعمل السياسي والسياسي جنرال الفيلق وليام بويكن، مساعد نائب وزير الدفاع لشؤون التدريب، الذي يشغل إحدى الوظائف العامّة الأكثر حساسية في البلاد والذي غدا موقعه حسّاساً أكثر جراء انخراط أمريكا في النزاع الحالي في العراق.

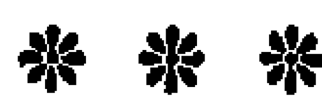
مرتدياً الزيّ العسكري، وهو ما كان يشير إلى أنّه كان في الخدمة وكان يعبّر عن رأيه كممثّلٍ لبلاده ولوظيفته، ألقى جنرال الفيلق بويكن علناً العديد من الخطابات التي استهزأ فيها بالعقيدة الإسلامية التي تعتبر (Allah) هو اللّه. ولدعم أقواله، استذكر بويكن تجاربه في نزاع عام 1993 في الصومال. «كنتُ أعلم أنّ ربّي أكبر من ربّه [ربّ غريمه الإسلامي]، كنتُ أعلم أنّ ربّي كان الحقيقيّ وربّه كان صنماً.» بعد هذا التصريح، وصف بويكن الولايات المتّحدة بـ «الأمّة المسيحية»، وأكّد بخصوص النزاع العراقي الحالي: «في هذه المعركة، نحن نشكّل جزءاً من جيش اللّه.»

الجنرال الذي صرّح بنفوره من الإسلام وربط الحرب على الإرهاب بيسوع وبالمسيحية ليس نموذجاً منفرداً. من الآن فصاعداً، لم يعد يتردّد بعض أفراد القوات المسلّحة وكذلك رجال السياسة والمواطنون العاديّون عن اعتبار النزاع في

العراق كحربٍ صليبية أو حربٍ مقدّسة تُشنُّ باسم القيم اليهودية - المسيحية ضدّ إمبراطورية الشرّ الجديدة التي هي الإسلام.

حينما دُعي رامسفيلد للتعليق على تصريحات بويكن، ردّ: «لديّ مهمّة علي أن أؤّديها وهي حماية الولايات المتّحدة الأمريكية من أعدائها وحماية حياة جنودنا. وللجنرال بويكن نفس المسؤولية، أمّا أنا فأعتقد أنّه يبلي بلاءً حسناً.» توقّف برهة ثم أردف: «في الواقع، وبمقدار ما أعلم، ليس المنهجيّون ولا الكاثوليك هم من ارتكبوا الهجمات الانتحارية وصدموا بالطائرات Word Trade Center (مركز التجارة العالمي).»

ليس يمين الولاء للعلم وتيري شيا؟و والوصايا العشر والإهانات الدينية للجنرال بويكن ضدّ الإسلام سوى مظاهر عدّة لمشكلة أكبر تجد الولايات المتّحدة نفسها مواجَهَةً بها. ففي الواقع لدى الأمريكيين بأجمعهم وبقية العالم، عموماً، مأزقٌ يستدعي حلاًّ: تحديد كيف يمكن، في نطاق احترام القواعد الدستورية، لمواطني البلد الأقوى على الكوكب أن يُرضوا ورعهم الفردي وهم يمارسون في الوقت نفسه المسؤولية السياسية التي يمنحهم إياها حالياً وضعهم كقوّة عظمى وحيدة.



تترتّب على البرنامج الأصولي المسيحي نتائجُ جِسام. حيث، وبفضل القدرة المالية، توصّل القادة الأمريكيون الحاليّون إلى تحويل الأفعال السياسية الأكثر تعمّداً إلى واجبات يفرضها الإيمان. وقد أسفر ذلك عن أنّ يكون كلُّ قرارٍ متّخذٍ لدوافع دينية خالٍ، بفعل الواقع، من خطر الضلال بما أنّ للّه الكلمة الأخيرة حول كلِّ المواضيع. في عقل وقلب هؤلاء الأمريكيين الذين يؤدّون واجباتهم الدينية، سيكون التعرّض للغضب الإلهي، في أوقات الحرب والإرهاب هذه، بمثابة انتحارٍ استراتيجيٍّ وسياسيٍّ. ووفق هذا المنطق، يعتقد المسيحيّون الإنجيليون، على سبيل المثال، أنّ الإجهاض هو إثمٌ لأنّه قتل لصغارٍ أبرياء في الأرحام، والذين يعتبرونهم كائنات بشرية كاملة منحها اللّه روحاً. وبالمحصلة

سيؤدّي هذا الإثم حتماً إلى قتل أرواحٍ بريئةٍ أخرى في مرحلة أكثر تقدّماً للوجود. بالنسبة لهم، قتل إنسانٍ هو قتل، سواء كان الضحايا مدنيين قتلوا في الهجمات الإرهابية أو جنوداً فقدوا حياتهم في القتال ضدّ مرتكبي هذه الأعمال أو أجنّة أوقِف وجودهم بعملية إجهاض .

لا شكّ أن شرعنة الإجهاض هو أكثر ما هيّج وأثار الخلاصيين. ففي كلِّ أنحاء أمريكا، من المألوف رؤية مظاهرات يلوّح فيها المناهضون للإجهاض بصورٍ فجّة جدّاً لأجنّة ميّتة أو يدفعون أمام عدسات التلفاز بأطفالٍ رضّعٍ ليقابلوا هؤلاء «النّاجين» بـ «المنذورين للقتل» الآخرين.

في الثالث عشر من كانون الأوّل عام 1971، نظرت المحكمة العليا ابتدائياً في القضية الشهيرة التي رفعتها روي ضدّ واد: كان الأمر يتعلّق بشكوى تضامن جماعية مقدّمة من امرأة عزباء حامل(جان روي) تعترض على دستورية القانون الجزائي التكساسي الذي يعتبر الإجهاض جريمةً، إلاّ في حالة وحيدة حينما يُجرى وفق رأيٍ طبّيٍ لإنقاذ حياة الأمّ. مرّت القضية من جديد أمام المحكمة العليا في الحادي عشر من تشرين الأول 1972، وحُسِمت في النهاية لصالح روي في 22 كانون الثاني 1973. وقد اعتُبِر الإجهاض بناءً على طلبٍ مشروعاً في البلاد برمّتها حينما يُجرى من قبل طبيبٍ مختصٍّ قبل أن يتجاوز الحَمْل الأسبوع الحادي والعشرين. وأُجيزت التدخّلات الأكثر تأخّراً في حالة وحيدة حينما تكون حياة الأمّ في خطر. ومع ذلك لم تُسوّى مسألة الإجهاض لأنّ عدداً متزايداً من الأمريكيين مستعدّون لفعل كلِّ شيء لإعاقة هذا القرار القضائي.

* * *

منذ خمس سنوات، تنظّم باميلا سبايڤي سنويّاً المهرجان العالمي للعروسة والمقمقة المسيحيتين[1]، في جامعة أوليڤيه نازارين في كانكاكي بإيلونوي. وقد جذب

(1) العروسة: دمية تُحرّك بالخيطان. والمقمقة: فنّ التكلّم من البطن. والمقصود هنا مسرح العرائس والكلام الباطني-المترجم-

الحدث، في آخر مرّة، مسيحيين قادمين من خمس وثلاثين ولاية وخمسة عشر بلداً أجنبياً لحضور أسبوعٍ واحدٍ من ورش العمل وحلقات البحث والعبادات والمباريات الودية والحفلات الموسيقية الإنجيلية gospel من قبل فرق قَرع الطبول rap.

الموضوع الذي تناولته السيّدة سبايڤي كان الإجهاض. جاء دارين كاستيل، القس السابق للأطفال في كنيسة اللّه في بيفورد بولاية ڤيرجينيا، وأحد النجوم، مع ليون، وهي عروسة مزدانة بدوائر خضراء صغيرة، قدّمها لأطفالٍ مصابين بالسرطان في أحد مشافي المدينة. وكان غرضه من ذلك هو أن يُظهِر بأنّ أطفال اللّه يكافحون من أجل الحياة، في حين أنّ، وفي الوقت ذاته، بعض الوالدين العميان مستعدّون لأن «يقتلوا حتى قبل الولادة» طفلهم.

انتهى المهرجان بعرضٍ موسيقيٍّ ضخم، عرض خلاله أحد المشاركين، دانييل جاي، وهو محمّل شاحنات في كي مارت بولايته الأمّ آركنساس، قطّه المرتدي لقماشٍ من القطيفة الكستنائية اللون، والمسمّى فوزبال، وتوجّه إلى الجمهور قائلاً: «حياتنا من دون المسيح جامدة كعروسة خرساء. ولكن ما أن نسلّم بيسوع، حتى تدخل الروح القدس في حياتنا مثل يدِ المقماق.»

بعد أن أُنقذت من قبل مزيّنها الذي لفت نظرها إلى أنّها كانت «جميلة ظاهرياً ولكنّها كانت تسوء داخلياً»، قرّرت كارين كاسبيان، مدبّرة منزل من ميشيغان، أنّ مهمّتها كانت أن تجوب البلاد بغية «إقناع النساء والفتيات في كلّ مكان بألاّ يقتلْنَ صغارهم». وبإقرارها بأنّ عروستها لم تكن سوى وسيلة «لتقديم أفكاري بطريقة مؤثّرة»، أوجدت لنفسها وظيفة الذهاب إلى كلّ العيادات التي تمارس الإجهاض لتوصل رسالتها عبر هذا المَخْرَج. في اليوم الذي وقفت فيه أمام مؤسّسة لضاحية نيويورك، كانت قد أنهت للتو مشهدها. محاطة بمجموعة من المسيحيّات من حركة (Pro-Life من أجل الحياة) اللواتي كنَّ يرفعن لافتات تظهر صوراً مرعبة لأجنّة مستخلصة من مرحلة متقدّمة من النمو، مثّلت ڤيكتوريا دور عروسة رضيعٍ صيّاحةٍ، كانت تغنّي: «قل شكراً للّه لوجودك هنا.»

***

يعتبر الرئيس بوش الإجهاض مشكلة خطيرة. وإذا كان، منذ تولّيه لمهامه، قد اتّخذ عدداً من التدابير التي تشوّش على الخط الفاصل بين الدين والسلطة، فإنّ تعيينه لجون آشكروفت في منصب النائب العام في 22 حزيران 2001 يوم إحياء ذكرى إصدار الحكم في قضيّة روي ضدّ واد، هو ما استرعى انتباه المسيحيين الإنجيليين قبل كلّ شيء. جون آشكروفت متعلّقٌ بالكتب المقدّسة وبالأخلاق العَنْصَرية إلى درجة أنّ بوش ظهر، بالمقارنة به، هرطوقياً. معارضته للإجهاض شهيرة، وأثناء تعيينه لوزارة العدل، كان بوش يقول: « إننا نتقاسم هدفاً جميلاً هو العمل من أجل أن يكون، ذات يوم، كلٌّ طفلٍ مرحباً به وأن يستطيع الانتفاع بحماية القانون.»

منذ يومه الأوّل كرئيس، أعاد بوش حظر أيّ تمويل اتّحاديٍّ للجمعيات التي تهتمّ بالإجهاض أو لديها نشاطات استشارية في هذا المجال. وقد كانت المنظمات غير الحكومية (ONG) الأكثر تضرّراً لأنّها عموماً تواجه فقراء المدن الذين يعتمدون على المساعدة الحكومية لتمويل عمليات الإجهاض. وفي الوقت ذاته، جهّز مكتب (Faith-Based and Community Initiatives المبادرات المجتمعية والدينية) في البيت الأبيض خطّة لإعادة توزيع القروض التي حوّلت من البرامج الاجتماعية السارية المؤيدة للاجهاض إلى المنظمات الدينية، بغية مساعدة الكنائس على تمويل برامجها الاجتماعية المحلية الخاصّة، كتلك المخصّصة لمكافحة الإدمان على الكحول والمخدّرات. الشرط الوحيد المحدّد للتردّد على جمعية دينية هو المشاركة الإلزامية في الصلوات وفي قراءات الكتاب المقدّس، ان كان المرء مؤمناً أو لا. وفي ردٍّ على الانتقادات التي وُجّهت إليه، أكّد السيد بوش بأنّه «بدون الإيمان باللّه، يستحيل التغلّب على أيِّ شيء، بما في ذلك الإدمان على المخدّر والكحول. إذاً هذا سببٌ كافٍ لإلزام جميع المساهمين في هذه البرامج الاجتماعية على المشاركة في الصلوات».

في عام 2003، وأثناء انعقاد دورة مجلسها التشريعي، صوّتت ولاية تكساس، التي كانت قد اُستخدِمَتْ ميداناً لقضيّة روي ضدّ واد، على قانونٍ مقدّمٍ من النائب رالف كورت، ينصّ على الحمايات التالية للأطفال الأجنّة. أوّلاً:

ينبغي أن تكون المرأة الحامل على علم بأوصاف طفلها بطريقة الصور الملوّنة كلّ أسبوعين خلال حملها. ثانياً: يجب أن تكون المرأة الحامل على علم بوجود نظرية تقيم علاقة بين الإجهاض وسرطان الثدي. ثالثاً: لابدّ من مهلةٍ من أربع وعشرين ساعة قبل إجراء عملية إجهاض. رابعاً: لابدّ من أن يجري حديث مباشر بين المرأة الحامل والمجهِض قبل العملية الجراحية. خامساً: لن يخصّص أيُّ تمويلٍ لمنظّمة تمارس عمليات الإجهاض أو توجّه الأشخاص المعنيين نحو المراكز المختصّة بعمليات الإجهاض.

مع أنّ العديد من الجمهوريين أثنوا شفهياً على حركة (Pro- Lifeالمناهضة الإجهاض)، إلاّ أنّ سياسة السيد بوش بقيت بالنسبة لهذه الأخيرة أكبر انتصاراتها منذ أيام ريغان. وإذا كان ريغان قد أصبح في التاريخ الحديث للبلاد النموذج المثالي للجمهوري المحافظ، فهو ليس ضحية مرض آلزهايمر فحسب، بل أيضاً، كملايين الأشخاص الآخرين، ضحية قانونٍ يحظر أيّ تمويلٍ اتّحاديٍّ للبحث حول خلايا المنشأ، القانون الذي كان لربّما سيتيح في نهاية المطاف إيجاد دواءٍ لذلك المرض ولغيره من أمراضٍ أكثر ترويعاً. وبينما كان، وهو في الثانية والتسعين، في الأطوار الأخيرة من المرض، وما كان له أن يأمل أيّ شيءٍ من تغيير في التشريع، شرعت زوجته نانسي ريغان في استخدام نفوذها لكي يُرفع هذا الحظر على تمويل البحث حول خلايا المنشأ. وفي تناقضٍ ظاهرٍ، ومع امتلاكه، دون أدنى شكٍّ، جزءاً من طيبة القلب التي كان يتّصف بها رونالد ريغان، فإنّ الرئيس جورج دبليو بوش ذهب أبعد بكثير من هذا الأخير في معارضته للاجهاض، مع الأخذ بالحسبان التطورات التكنولوجية الحديثة للطبّ الحديث الدقيق. وبذلك استُبعِد البحث حول خلايا المنشأ لأنّه ينطوي على خلخلة واتلاف النويّات البشرية. بالنسبة للمحافظين المتدينين، يشكّل جمع النويات تصنيعاً مرعباً للاجهاض في حين يرى العلماء بأنّ هذا البحث قد يتيح معالجة أمراض مرعبة واستبدال أعضاء بشرية معطوبة بل وحتى إيقاف الشيخوخة.

أمام حشد من المحافظين المنتمين إلى Pro- Life والذين ظلّوا من أشدّ أنصار زوجها وفاءً، صرّحت السيدة ريغان، التي غيّرت رأيها: « هذا الأمر ليس

نفس الإجهاض. المقصود، في هذه المرّة، هو منح الحياة.» وفي عام 2001، وجّهت رسالة شخصية للرئيس بوش ترجوه فيها أن يغيّر موقفه من المسألة. ولكن، في ذلك اليوم، لم يرتئي الرئيس بأنّه من المفيد متابعة ذلك الالتماس. في 7 تشرين الثاني 2003، وقّع الرئيس بوش، الذي ظلّ مقتنعاً بضرورة الدفاع عن حقوق الأطفال أثناء الحمل، قانوناً، أُقرَّ أوّلاً في مجلس النواب ومن ثم في مجلس الشيوخ، يحظر « الإجهاض في مرحلة متقدّمة من نمو الجنين» (partial-birth abortion). ليست هذه العبارة، التي غدت من حينها جزءاً من المفردات الإنجيلية، مجرّد تحيّة لليمين المسيحي. إنّها تعني أيضاً بأنّه من المحظور إجراء عملية إجهاض لجنين بلغ أكثر من ثلاثة أشهر، ومهما كانت الحالة، حتى وان تسبّبت بموت الأمّ. وبذلك، كاد الرئيس بوش، وبجرّة قلمٍ رئاسيٍّ، أن يلغي، من طرفٍ واحدٍ، قرار المحكمة العليا لعام 1973 حول الإجهاض.

أثناء توقيع هذا القانون من قبل الرئيس في المكتب البيضاوي، كان العديد من المسيحيين الإنجيليين الأعضاء في Pro-Life المشهورين الذين قاموا بحملة دعائية لصالحه موجودين. من بينهم المحترم جيري فالويل واد ماكاتير. وكان هناك شاهدٌ آخر على الحدث، هو تشارلز كولسون، المدان في فضيحة، والذي اهتدى إلى يسوع في السجن بعد أن كان قد أُدين على نشاطات غير مشروعة كانت سبب استقالة ريتشارد نيكسون.

أثناء الاجتماع الذي سبق التوقيع، أعلن بوش بأنّ إدارته ستساند بكلِّ قواها حظر الإجهاض في مرحلة متقدّمة، ثمّ طلب من الأشخاص الحاضرين أن يشبكوا أيديهم و«يصلّوا ليبارك اللّه الجهود التي نبذلها للحفاظ على الحياة في بلادنا». قال فالويل: «بالنسبة لي، هذه لحظةٌ لا تُنسى. وأنا أقف هنا، في المكتب البيضاوي، شعرتُ فجأةً كم أنا متواضعٌ أمام هذا الرجل-رئيسنا- الذي يأخذ دينه على محمل الجدّ ويسترعي صلوات أصدقائه وهو يقود أمّتنا.» في ختام الصلاة، قال المحترم فالويل للرئيس بوش إنّ الأشخاص السبعة الموجودين اليوم في الغرفة كانوا يمثّلون نحو مائتي ألف مبشّرٍ وثمانين مليون مؤمنٍ في البلاد والذين يعتبرونه «ليس كرئيسٍ لنا فحسب بل وكرجلِ دين أيضاً». وفي معرضِ ردّه، التفت

بوش نحو فالويل وقال له: «سأحاول أن أكون عند حسن الظنّ.»

كان في المكتب البيضاوي، يومها، جاي سوكولو؟، محامي اليمين المسيحي والمدافع الرئيسي عن دستورية النص الذي نحن بصدده. وقد قال: «هذا القانون صحيحٌ دستورياً ونحن على قناعة من أنّه سيتفوّق على كلّ المراجع التي سبق تشريعها. سنضع كلّ وسائلنا في خدمة وزارة العدل في الولايات المتّحدة للدفاع عن هذا القانون، أوّلاً أمام المحاكم ومن ثمّ في المحكمة العليا.» بالمقابل، دعا الرئيس بوش إلى صلاةٍ جديدة: «أدعوكم جميعاً للصلاة من أجل جاي وفريقه، لكلِّ محامي وزارة العدل ولكلِّ الآخرين الذين سيدافعون عن هذا النصّ.» ما ان انتهت الصلاة، أضاف فالويل: «لنضع أيدينا على هذا الرجل الطيّب ونصلّي. ليحفظ اللّه الرئيس بوش حاضراً في صلواتنا حينما سيقود هذه المعركة، لأنّ الأمر يتعلّق هنا بصراعٍ علينا أن نصلّي له بيقظة وانتباه.»

حينما انتهت الصلاة، كانت عينا بوش مغرورقتين بالدموع.

لدى خروجه من المكتب البيضاوي، أدلى المحترم فالويل بالتصريح التالي حول الالتزام الديني لجورج دبليو بوش: « تقول الكتب المقدّسة إنّ اللّه هو من يعين الزعماء، وأنّ هذا، إذا كان زعيمٌ ما يعرف اللّه حقًّا، يمنحه مسحةً خاصّة. في بعض العهود، وفي بعض اللحظات من تاريخ بلادنا، وجد اللّه الرجل الذي كان يحتاجه لسماع شهادة جلاله. وفوق كلِّ شيء، يحبّ اللّه الزعماء الذين يتجاوزون المحنة باكتشاف معنى حياتهم. لقد تحوّل رئيسنا من ميلٍ شديدٍ نحو الكحول إلى بناء عمارة عالمية جديدة.»

* * *

تبلغ لويز سوليڤان من العمر ست وعشرين عاماً وهي أمٌّ لولدين في الثالثة والرابعة من العمر، وتعيش بالمساعدة الاجتماعية في حيٍّ فقيرٍ من دالاس(تكساس)، وحينما يُتاح لها، تعمل في أعمال التنظيف في مطعمٍ غير بعيدٍ عن منزلها. والحياة ليست سهلة، فللحصول على بضعة دولارات، يجب أن تستطيع أمّها رعاية أطفالها. حينما التقيت بها في الخريف الماضي، بدت لي قصّتها

مؤثّرة، ولكن تبيّن لي لاحقاً بأنّ الأمر لم يكن قط يتعلّق بحالة فريدة في أمريكا جورج دبليو بوش «المحافظة والرحيمة». وسوليڤان المصابة بالتهاب مزمنٍ في الكليتين، لا تتوفّر على التغطية الطبيّة، كما أنّ الضمان الشحيح الذي تتصرّف به قلّما يسمح لها بمراجعة طبيبٍ غالباً ما تحتاجه حالتها، ويشكل جزءاً من إعاناتها الاجتماعية.العامل الذي يُفاقم الوضع هو أنّ سوليڤان لا تتوفّر على وسائل شراء الأدوية المكلفة التي قد تتيح استقرار حالتها وتمكينها من أن تكون حالتها جيّدة بما فيها الكفاية لتستغني عن المساعدة الاجتماعية وتجد وظيفة دائمة.

إنّ شبابها وقلّة تعليمها، وكذلك واقع أنّ لديها طفلان في سنٍّ صغيرة وتلقيها للإعانات الاجتماعية حتى قبل ولادتهما هي بعض البواعث التي من أجلها تُعتبر سوليڤان أحد النماذج الأكثر يأساً لهذه المأساة التي تنتشر على نحوٍ متسارعٍ في أمريكا. ولكن، إذا كانت داخل النظام وتستطيع الانتفاع بالمعونات الاجتماعية، فذلك فقط لأنّ زوجها، والد طفليه، ريك ماكاليستر الكهربائيّ العاطل عن العمل، نجح في أن يدلّ السلطات العامّة على وجوده. حينما كانت سوليڤان حامل في الشهر الثامن بطفلها الثاني، ضربها، بالأيدي المجرّدة، بقوّة بحيث أُغمي عليها وبقيت لأسبوعين بين الحياة والموت. حينها أجرى الأطبّاء القلقون عملية ولادة قيصرية لتخليص الطفل خشية أن يموت معها. استعادت سوليڤان صحّتها بأعجوبة. وحوكِم المعتدي عليها، الذي كان له ماضٍ طويلٍ في العنف، على اعتداءين آخرين بالضرب والجروح: مشاجرة في بار ومن ثمّ مشاجرة مع سائق سيارة أجرة أخرجه من عربته لأنّه كان قد توقّف على إشارة حمراء محدثاً صريراً في العجلات. كان كلُّ ذلك جديراً بأن يُدان كحدٍّ أدنى بعقوبة عشر سنوات في السجن.

ومع ذلك كانت الإصلاحيات مزدحمة. ولأنّه كان قد اتّبع برنامجاً لدراسة الكتاب المقدّس وغدا سجيناً نموذجيّاً، أفرج عن ماكاليستر إفراجاً مشروطاً ونُقِل إلى مركزٍ لإعادة التأهيل، الأمر الذي أتاح له أن يأخذ وظيفة منتظمة مع بقائه تحت المراقبة. أحد مسئولي السجن الذي أجريت مقابلة معه حدّد الأسباب التي من أجلها أُطلق سراح ماكاليستر، كما جرى بانتظام للعشرات من المعتقلين

الآخرين، أي انعدام المكان وقلّة الموظّفين في المؤسّسات الإصلاحية. وقد صرّح: «يعاني النظام من الكثافة المفرطة ومن قلّة الملاك، الأمر الذي يعني أنّنا نحاول الأخذ بالحسبان بيانات هؤلاء الرجال، حالة بحالة، وكذلك سلوكهم أثناء حبسهم. تقدّم كلٌّ مؤسّسة صفوفاً لدراسة الكتاب المقدّس وأغلبية الرجال، وخاصّة أولئك الذين ارتكبوا الأعمال الأكثر خطورة، يظهرون رغبة شديدة في العثور على اللّه والتكفير عن خطأهم وسلوك الطريق القويم. في حالة ريك ماكاليستر، لم تكن مسألته لا أسلحة ولا مخدّرات، وكان يبدو أنّه شخصٌ يريد حقّاً أن يُصلح ذاته. بعد ثلاثة أعوامٍ، لم يكن يتلقّى فقط دروساً في الكتاب المقدّس، بل وكان يعرف النصّ كليّاً بحيث كان جديراً بأن يعلّمه بدوره للرجال الآخرين. لقد كان شخصاً ذكيّاً يبدو أنّه حقّاً قد ندم على فعلته وأراد أن يطوي تلك الصفحة من حياته.»

بينما كان ريك ماكاليستر ينال قصاصه في سجنٍ تكساسي، وحسب اعترافه شخصياً، «وجد اللّه» و«سمح فَرِحاً ليسوع المسيح أن يدخل جسده وروحه»، حسب تعابيره. حينها أصلح سلوكه وبدأ، من بين آخرين، بالتردّد على الكنيسة واقتسام الإنجيل مع زملائه المعتقلين.

خلا الأشهر الثلاثة التي أعقبت إطلاق سراحه، جرى كلٌّ شيء على ما يرام نسبيّاً، ومع أنّ لويز كانت قد أقامت دعوى قرار عاجل ضدّه، فقد سُمِح لريك بلقاء طفليه تحت المراقبة. ولكن بعد عشرة أسابيع من خروجه، ثمِل، وقرّر، غاضباً، أن يطالب بنفقاتٍ من سوليڤان التي كانت ترفض «استرداده»، بعد أن انتهت زيارتها لمركز إعادة التأهيل المراقَب. وعلى حدٍّ رأيه: «إن الشيء الوحيد في العالم الذي كان يتمنّاه هو أن يستعيد زوجته وطفليه وأن يعيش مع عائلته حياة طبيعية تحت جناح يسوع الحامي». أمّا سوليڤان، فقالت بأنّ الشيء الوحيد الذي كانت تريده، هو رعاية فضلى وعمل وحياة لائقة لأطفالها والابتعاد قدر الإمكان عن صاحبها السابق.

في الثالث من تشرين الثاني 2003، كمن في الطريق على مقربة من العمارة، وفي حوالي الساعة الثانية صباحاً، حينما عادت لويز من العمل بعد

تنظيف المطعم، انقضّ عليها وسحبها إلى ممرٍّ وأوسعها ضرباً قبل اغتصابها. وبعد أن هدّدها بقتلها والطفلين ان أخبرت الشرطة عن اعتدائه عليها، أقسم لها ماكاليستر بأنّه كان يحبّها وبأنّه كان يريد فقط أن يعيدها إلى رشدها بعض الشيء، وأن يجعلها تدرك أنّ الأفضل «للطفلين كان العيش مع والدهما ومع يسوع».

لم تشتكِ لويز سوليڤان أبداً لأنّها كانت تعلم بأنّه سيُبعث حينها مباشرة إلى خلف القضبان، وأنّها ستخسر النفقة الزهيدة التي كانت المحكمة قد أمرت بصرفها للطفلين. على كلِّ حالٍ، اعتبرت أنّ جراحها سطحية ولكنّها أقسمت بأنّها، في حال كرّر فعلته، ستبلّغ عنه وتتّهمه بهتك عرضها وانتهاك الأمر العاجل. خلال الشهرين التاليين، وبدافعٍ من شعورٍ بالذنب أو خوفاً، أرسل ماكاليستر بدقّة أسبوعياً جزءاً من راتبه لسوليڤان. ولكن سوليڤان اكتشفت لاحقاً بأنّها كانت حامل. سوليڤان التي تواجه احتمال قدوم طفلٍ ثالثٍ ناتجٍ عن عملية اغتصاب، والمعوزة والمريضة بكِلْيَتَيْها والتي تكاد تكون غير قادرة على الاعتناء بالطفلين، تساءلت مطوّلاً عما عليها أن تفعله. ولكن المأساويّ في الحكاية، هو أنّها انتظرت أكثر من شهرين مما جعل من غير المشروع إجراء عملية إجهاض في ولاية تكساس.

قرّرت سوليڤان ألاّ تقول لماكاليستر ولا لأيِّ شخصٍ آخرٍ بأنّها حامل لأنّها كانت مرتبكة لعدم تبليغها للشرطة بالاغتصاب، ولم تكن تريد صلة إضافية بصاحبها السابق. أثناء عملية الولادة، تعرّضت لسكتة دماغية قضت عليها.

الطفل الخديج والطفلان الآخران هم الآن في مركز استقبال.

أنهى ريك ماكاليستر مدّته في مركز إعادة التأهيل ويقيم منذ ذلك الحين في ممفيس بولاية تينيسي. يعمل كهربائيّاً ويحضر بانتظام قداديس الكنيسة العَنْصرية منزوياً. أثناء حديث هاتفيٍّ أجريته معه أثناء إقامته في ممفيس، صرّح لي بأنّه وصل إلى نهاية تدريبٍ بالمراسلة سيتيح له بأن يوسَم كاهناً للكنيسة المحلية لمحافل اللّه. قبل أن ينهي المخابرة، قال بأنّه يصلّي يومياً من أجل لويز وأنّه لا يزال مقتنعاً بأنّها «مع الرّبّ، في مكانٍ أفضلٍ بكثير من عالمنا في الدنيا».

13

نعم لحكم الإعدام

لكون الولايات المتّحدة بلدٌ قائم على حرية العبادة، لا يمكن الأخذ على أحدٍ، ولا حتى على رئيس الولايات المتحدة، وضع اللّه والدين في صلبِ حياته. كذلك سيكون من الجور نقد أيٍّ كان يجمع للصلاة أشخاصٍ يقاسمونه عقيدته. ومع ذلك تبقى هناك مسألة مطروحة: متى يخالف احتفالٌ ديني في المكتب البيضاوي على سبيل المثال مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة المنصوص عنه في الدستور؟ متى يمكن القول إن رهانات السياسة الداخلية والخارجية متأثّرة بالمصالح الدينية؟

في الولايات المتّحدة، ينتخب المواطنون قادتهم ليكونوا صوتهم مسموعاً. وفي أيّ ديمقراطية، لا تكون العلاقة بين الكنيسة والدولة بيضاء أو سوداء. ويتم الدخول في منطقة رمادية، على سبيل المثال، حينما يكون الشخص المنتَخب على رأس مجلس إدارة مدرسة متديّناً، ويبدي رأيه لصالح التعليم الديني بدافعٍ من قناعاته. في هذه الحالة، يتعلق الأمر بتحديد لا فيما إذا كان لابدّ للصلاة في المدرسة أن تكون ملزمة عبر القانون، وإنما فيما إذا كان يحقّ لأنصار دروس الكتاب المقدّس استخدام الأمكنة المدرسية بدلاً من أن يشيّدوا لهذا الغرض مكاناً منفصلاً بميزانيات اتّحادية أو بميزانية الولاية. ويتمّ الدخول في مناطق أكثر رماديّة حينما يخرق نفس هذا المسئول عن المجلس والذي يجد نفسه منتسباً إلى هكذا طائفة دينية، روح الدستور بإرغامه للتلاميذ على المشاركة في الصلوات، داخل حَرم المؤسّسة أو في أمكنة منفصلة.

أخيراً نكون في السواد المطلق حينما تمارس مجموعة دينية تأثيراً على رئيس

الولايات المتّحدة في السياسة الداخلية بخصوص مسائل مثل الصلاة في المدرسة أو في السياسة الخارجية بصدد عمل دولة سيّدة.

موقف اليمين الديني حازمٌ من مسألة الإجهاض كموقفهم من حكم الإعدام. فحسب استطلاعٍ لمؤسسة غالوب أُجري في كانون الأوّل 2003، يؤيّد 99% ممن يساندون موقف حركة Pro Life، عقوبة الإعدام أيضاً.

حينما كان جورج دبليو بوش حاكماً لتكساس، الولاية الأولى في عدد تنفيذ أحكام الإعدام، ترأس ما يقارب 20% من أحكام الموت التي أُجريت منذ إعادة العمل بعقوبة الإعدام في عام 1976. وفي ولاية تكساس أيضاً، أسّس، منذ أمدٍ قريب، جون مكماهون، وهو موظّف في البناء، جمعية لمنع إقامة عيادة متخصّصة في عمليات الإجهاض، زاعماً «أنّها ستكون شبيهة بإقامة معسكر اعتقال إبان المحرقة. إنّ الله لا يريد إقامة عيادة كهذه». وتأتي ولاية لويزيانا، التي يناهض مشرّعوها الإجهاض بشدّة، في المرتبة الثانية بعد تكساس بالنسبة لعقوبة الإعدام. وفي مقاطعة جيفرسون حيث حُكِم على الناس بالموت أكثر من أية بلدة أخرى من الولاية، لا يزال محاميان من المحامين العامّين في مكتب نائب الجمهورية اللذان يدافعان عن حقوق الأطفال قبل الولادة، يرتديان ربطتي عنقٍ مأتميتين أثناء دعاوى القتل ليظهروا بأنّهم يؤيّدون عقوبة الإعدام.

إنّ التباهي بربطة عنقٍ من هذا الطراز في محكمة عامّة ليس مجرّد انعدام للذوق، وإنما أيضاً تجلٍّ للثقافة الدموية والعنصرية التي تسود في مكتب نائب مقاطعة جيفرسون: غالبية الأشخاص المحكومين بالموت هم أمريكيون من أصلٍ أفريقي. وقلّما يضعف الارتباط الوثيق بشريعة الذُّحل بشأن القضاء الجزائي حتى بعد نهاية القضية. في كلِّ مرّة يكسب محام عام حكماً بالإعدام، يتشارك جميع الموظّفين في اقتناء لوحة يرسمون عليها محقن واسم المحكوم، ومن ثمّ يزيّن هذا التذكار مكتب المحامي الذي انتصر.

اليوم، يكتسب المناخ السياسي والثقافي والاجتماعي لأمريكا هذه الخصوصية بحيث، وبخلاف ما كان يحدث في السابق، نجح اليمين في كسب دعم الشباب. علاوة على هذا، نجد كذلك، في وسط هذا اليمين الجديد

المسيحي والجمهوري، نساءً من الطبقة الوسطى مستعدات لأن يقبلن بالخطاب المناهض للاجهاض وبالتقشّف الجنسي وبكل المواقف المتّخذة من قبل الإنجيليين إذا ما وُعدن، بالمقابل، ببلدٍ يُسيطَر فيه على الإجرام ولا تؤثّر الضرائب المخفّضة في الأغنياء وتُحترَم فيه القيم الأُسَرية، بلدٌ بلا قانونٍ يقيّد حمل السلاح ويُعتَقل فيه الإرهابيون قبل تنفيذ العملية. وبخلاف الشبيبة الجمهورية النخبوية من الخمسينات وحتى التسعينات،في الجامعات، فإنّ الجيل الجديد من المحافظين على استعدادٍ لأن يأخذ على عاتقه مستقبل الحزب الجمهوري خلال السنوات القادمة ويضمّ المزيد من الأعضاء الذين يجتهدون في تعليم العقيدة المحافظة.

حتى في الأحرام الجامعية التي كانت على الدوام يسارية مثل جامعة هاوارد المخصّصة للسود أو جامعة بركلي في كاليفورنيا أو جامعة ڤيسكونسن في ماديسون، شكّل الطلبة مجموعات تسمى (الجمهوريون هيب هوب). وقد ساعد (Campus Leadership Program برنامج قيادة الأحرام الجامعية)، وحسب أرقامه الخاصّة، في تشكيل 256 مجموعة محافظة في الجامعات، في غضون ثلاث سنوات. منذ عام 1999، زادت College Republican National Committee)اللجنة القومية الجمهورية للأحرام الجامعية)، الجمعية المعبّئة للطلبة لكي يشاركوا في الحملة، ثلاث مرّات ملاكها وحطّمت رقمها القياسي الخاصّ بـ 1148 فرعاً. وقد لُمس الأثر بعيداً عن الجامعات، فقد ساهم الطلاب في فوز الحزب الجمهوري بالانتخابات النصفية الأخيرة، حسب رئيسها سكوت ستيوارت الذي قال: «لقد امتلك الطلاب الحماسة والشغف والحيوية الضرورية لبيع الكراريس وتوزيعها.»

الغريب في الأمر، أنّ الشبّان والشابّات الذين ينتمون إلى هذه الحركة الجديدة للشبيبة المحافظة يشبهون أولئك الهبيّين الذين كانوا يثورون في الستينات ضدّ المؤسّسة اليمينية. ولكن، بخلاف BCBG، الذين كانوا يرتدون سترات رياضية وتنورات قصيرة لحدّ الركبة وقمصان مزرّرة وكانوا يدعمون رونالد ريغان في الثمانينات، يرتدي هؤلاء الشبّان بناطيل من الجينز الممزّق والتيشيرتات

وشعورهم كثّة. حتى إنّ بعضهم يدخّن المخدّر ويستمع إلى هارد روك مع معارضتهم المستمرة في الحرم الجامعي لممثلي التمرّد السابق ضدّ النظام القائم. بعبارات أخرى، ما يُرفض اليوم هي الأيديولوجيات السياسية لليسار. وهذا التطور استثنائي وحاسم بالنسبة للانتخابات الرئاسية المقبلة. في الماضي، كانت الأجيال الشابّة متمرّدة فطرياً ضدّ المؤسّسة. يكفي أن تنتقل هذه من اليمين إلى اليسار وأن يجتاح السويُّ سياسيّاً الأحرام الجامعية كي يستمرّ التمرّد. وإذا ما أضفنا إلى ذلك أحداث الحادي عشر من أيلول والحاجة إلى الخضوع لإلهٍ حافظٍ واليقين بأنّ الإسلام هو إمبراطورية الشرّ الجديدة، وليست الشيوعية، حينها تجتمع كلّ الشروط ليميل الشباب إلى اليمين دون أن يكون ذلك مفاجأة.

يموّل الطلبة المحافظون من قبل سلسلة كاملة من مجموعات الخيرية من نفس الجهة مثل (Yong Americans for Freedom الشباب الأمريكيون من أجل الحرية) و Yong Americas Foundation

(مؤسّسة أمريكا للشباب) و (Leadership Institute معهد القيادة) و (Collegiate Network شبكة الأحرام الجامعية و(Intercollegiate Studies Institute معهد الدراسات الجامعية الدولية). ولتشجيع البرنامج المحافظ حول الأحرام الجامعية، سلكت هذه المجموعات شتّى السبل. البعض قدّم هبات نقدية مباشرة لجمعيات الطلبة لكي يروّجوا لصحفٍ محافظة ويديروها في الحرم الجامعي. مجموعات أخرى قدّمت تدريباً مجانياً للقيادة المحافظة ومنحت مالاً لكي يتمكّن هؤلاء الشباب من الذهاب لتعلّم نشر جريدة. وأخيراً، منحت مجموعات أخرى إعانات مالية للطلبة لمساعدتهم في تسديد الأجور الباهظة للشخصيات المرموقة لليمين التي تأتي لتعبّر عن آراءها أمامهم.

كما أنّ هذه المجموعات نسّقت جهودها وأنشطتها. وهكذا شنّت في غضون السنوات الثلاث الأخيرة حملة تجنيد منسّقة في الجامعات بغية تحويل الشباب من ذوي الميول المحافظة إلى نشطاء يمينيين منظّمين. وقد غدت الوطنية درجة وأصبح العلم الأمريكي رمزاً لدعم البلاد في مواجهة أعدائها. علاوة على ذلك، هناك الآن، تقريباً في كلّ مجمّعات الطلبة المحافظين، صورة شخصية لهيلاري كلينتون

على ممسحة الأرجل، بحيث يمسح الناس الداخلين والخارجين أقدامهم بوجهها.

يشغل اللّه والدين مكاناً بارزاً في مكان العمل، وتشكّل الأخلاق الدينية الآن جزءاً من الحياة اليومية لكثير من المخدومين والمستخدَمين.

أحد البرامج المنظّمة من قبل Wesleyan Church لألينغتون في الكونيكتيكوت يندرج في إطار هذا الاتجاه المؤكّد على نحوٍ متزايدٍ ويطرح نماذج عديدة من الاجتماعات المخصّصة لتشجيع الدين في المكتب عبر البلاد بأسرها .

في عام 2003، كانت توجد أكثر من 1200 مجموعة مسيحية توقف نفسها على «الكهنوت في مكان العمل»، وهذا ضعف عدد هذه المجموعات قبل خمس سنوات، وإلى هنا رأت مائتا مجموعة أخرى النور. ويعتبر داڤيد ميلر، مدير (Center for Faith and Culture مركز الإيمان والثقافة) في جامعة يال، أنّ الدين لم يعد شأناً شخصياً، فيقول: «بعد فترة طويلة كان الناس خلالها يقولون بأنّ الدين كان شأناً شخصياً، هناك العديد ممن يسعون إلى خلط هذين العنصرين بوجودهم.»

تقدّم بعض الجمعيات الدينية جلسات صلاةٍ أو دروساً في الكتاب المقدّس أثناء العمل عوضاً عن «استراحة القهوة» التي كانت ذات شعبية كبيرة فيما مضى، بينما تنظّم أخرى اجتماعات في الكنائس وتعلّم المشاركين فيها نشر الوصايا العشر ومعتقداتهم الدينية في عالم الأعمال. وحينما يشقّ عليهم اتّخاذ القرار في العمل، يستنجد العديد من المسيحيين الإنجيليين بأحد زعماء هذه المجموعات الدينية المختصّة. وقد أعلنت امرأة بأنّ أفضل رأيٍ تلقّته كان «الصلاة من أجل حلّ المشكلة» وشرحت: «كلّ هذا مرتبط بإصلاح الذات والسلوك السليم وحُسن السريرة وبشبكات الاتصال. إنها قيمٌ أمريكية بامتياز.»

بكل منطق، كيف سيمكن اتّهام أولئك الذين يسعون إلى ردّ الاعتبار للأخلاق والجمال في مكان العمل؟ المشكلة هي أنّ «اللجوء إلى اللّه» غالباً ما يقود إلى تجاوزات تقارب حدّ إثارة السخرية. أحياناً، يشبه هذا الأطفال الذين يروون حكايات عجيبة، ولجعلها قابلة للتصديق، يستحضرون الصورة الأخلاقية

السامية قائلين «إذا كنت لا تصدّقني، اسأل والدتي.» في القدس حيث يتزايد عدد المسيحيين الإنجيليين الذين يقتنون منازل وعمارات فيها، بغية امتلاك قاعدة في الأرض المقدّسة، تتردّد وكيلة عقارية في مفاوضتهم، وتقول: «حينما أُعلن لهم ثمن عمارة أو دارٍ، يشرع العديد منهم في التفاوض قائلين لي بأنّ يسوع قال لهم ألاّ ينفقوا أكثر من هذا أو ذاك.» وتبتسم: «كيف أعمل للتفاوض مع اللّه؟»

* * *

لطالما تباهى الأمريكيون، خلال ما يقارب الثلاثمائة سنة المنصرمة منذ إقامة بلادهم، بعزمهم ومقدرتهم في الإبقاء على فصل بين الكنيسة والدولة. وبالاستناد على مبادئ الآباء المؤسسين الذين أضافوا، في عام 1791، تعديلاً على الدستور لتعزيز هذا الفصل، حرصوا دوماً على تجنّب أيٍّ تأثيرٍ للدين على السياسة. ومع ذلك، اعتبرت أغلبيتهم باستمرار أنّ مبادئهم كانت راسخة في حقٍّ إلهيٍّ في الحياة وفي الحرية وفي البحث عن السعادة، وأنّ اللّه كان يلعب دوراً أساسياً في حياتهم.

بشكلٍ عام، الأمريكيون شعبٌ ميّالٌ للروحانية. والإيمان باللّه ومسألة تأثير الدين في الشؤون العامّة هما من الأمور التي تعود إلى عهد جورج واشنطن وتوماس جيفرسون وابراهام لينكولن والكثيرين من الرؤساء الآخرين. فمسألة الفصل بين الكنيسة والدولة راسخة كذلك في جوهر الحياة الأمريكية ذاتها كإرادة الحفاظ عليها.

كان الرئيس الأوّل للولايات المتّحدة، جورج واشنطن، لأمدٍ طويل عضواً في الكنيسة الأنكليكانية، وقد عمِّد وتزوّج ودُفِن حسب شعائرها. وحسب المؤرخين، اعتبر نفسه على الدوام كمسيحيٍّ يرى بأنّ مبادئ دينيه ضرورية للحفاظ على الأخلاق. في أيامنا هذه، يؤكّد المسيحيون الإنجيليون أنّ واشنطن «كان يؤمن بعمق بيسوع المسيح وأنّه كان قد عرف فيه ربّه ومخلّصه». ومهما يكن، فقد أعلن واشنطن في رسالة إلى ادوارد نيوينهام، أحد أقرب أصدقائه ومستشاريه: «من بين جميع الخصومات التي تعيث بين البشر فساداً، تُعتبر تلك الناجمة عن

الاختلافات الدينية، بجلاء، الأكثر تصلّباً والأكثر إثارة للكدر وقد تكون الأكثر انحطاطاً. كنتُ أتمنى لو أنّ السياسة الليبرالية المستنيرة لبلادنا كانت على الأقلّ قد وفّقت بين المسيحيين من كلّ الطوائف بغية ألاّ نعود نشاهد نزاعات دينية من شأنها أن تهدّد السلم الاجتماعي.»

في عام 1776، عام ولادة الأمّة، تكلّم توماس جيفرسون، أحد آبائها المؤسسين، عن إقامة جدار بين الدين وقيادة الشؤون العامّة. «... روحُ كلِّ إنسان تخصّه وحده... ينبثق الشرّ حينما يضطرّ الإنسان للخضوع لشخصٍ آخرٍ في سبيل سلامته. لا يمكن لأيّ إنسان أن يدَع آخراً يملي عليه عقيدته.» مع ذلك، في عام 1804، حينما كان يتولّى مقادير البلاد، طلب جيفرسون نسختين من رواية الملك جيمس للعهد الجديد. ومع أنّه لم يكن شديد التديّن، كان جيفرسون يُعجب بيسوع كحكيمٍ وفيلسوفٍ، مع رفضه في الوقت ذاته الهالة المجازية التي كانت تحيط حياة سيادته. بعد اقتناء المجلّدين، تصفّح جيفرسون النصّ من الأول حتى الآخِر، وشطب كلّ المقاطع المتعلّقة بالحَبَل بلا دنس، والقيامة وتجسُّد المسيح وكلّ ما كان له علاقة بما هو فَوْق طبيعي. في النهاية، نُشِرت الآيات المتبقية تحت عنوان فلسفة يسوع الناصري. يظهر يسوع، في هذا العمل، بسمات الفيلسوف والحكيم التي لطالما تخيّلها المؤلِّف. كان لهذا المشروع أن يجعل من جيفرسون أوّل اختصاصيٍّ حقيقي في أمريكا بنص الكتاب المقدّس، وأظهرت نسخته المنقّحة للأناجيل مسيحاً متصوَّراً على صورته، وأظهرت أنّ الأجيال القادمة ستستمرّ في الإدراك تبعاً لحاجاتهم. بعباراتٍ أخرى، يسوعُ جيفرسون كان إنساناً جلبت تعاليمه الجزيلة في حياته أكثر بكثير من حكاية الكتاب المقدّس عن موتٍ مكرّسٍ للتكفير عن خطايا البشر.

في القرن التاسع عشر، غدت وجهة نظر جيفرسون أكثر شيوعاً. من بين الذين تبنّوها، كان يُذكَر مبشّرون متجوّلون من منهجيين ومعمدانيين كانوا يرحلون من مدينة إلى مدينة لنشر الكلمة الطيّبة وتقديم يسوع كشخصٍ إنساني يسهل الاقتراب منه وترسيخه في حياة من كانوا يؤمنون به.

في عمله Memorial and Remonstrance الصادر عام 1785، تكلّم أبٌ

مؤسّسٌ آخر، جيمس ماديسون، عن العلاقة بين الكنيسة والدولة مديناً استخدام «الدين كمحرّك للسياسة المدنية». كان يزعم بأنّ إبعاد الدين لا يحطّ في شيءٍ من مكانة هذا الأخير، وإنّما على العكس من ذلك يحميه من أيّ استغلال من قبل السلطة السياسية، من «أيّ تشويهٍ كافرٍ بأسلحة الخلاص».

سيكون جيفرسون وماديسون وزملائهما قد تمكّنوا بلا مشقّة من تحديد المسيحية كدينٍ رسميٍّ للولايات المتّحدة، ولكنهم فضّلوا، عمداً، تجنّب ذلك. كان مؤسّسو الجمهورية الأمريكية يريدون في الواقع الفصل بين مؤسّسات الكنيسة والدولة وإعاقة تشييد الدين. وبجعلهم من الدستور أساس التعددية الدينية، فرضوا في الوقت ذاته مبدأ التسامح الديني. لا يمكن لأيّة عقيدة أن تحظى بالمحاباة ولا أن تغدو الدين السائد، ولجميع العقائد الحرية في أن تسعى إلى الظفر بقلوب سكان البلاد وعقولهم. ولم يحدث خلاف حول هذه النقطة المحدّدة سوى مرّة وحيدة في تاريخ البلاد، حين تجابه باتريك هنري(«إن لم تمنحوني الحريّة، فأعطوني الموت») وتوماس جيفرسون، وهما من أشدّ أنصار الاستقلال، حول مسألة معرفة ما إذا كان ينبغي أن تصبح الكنيسة الأنكليكانية دين ولايتهما الأمّ ڤيرجينيا أم لا.

كان هنري يريد أن تحظى هذه الكنيسة بوضع مفضّلٍ في الدومينيون[1] السابق، بينما كان جيفرسون معارضاً لكلِّ شكل من أشكال «دين الدولة». وقد كانت الغلبة لهذا الأخير. وتُحسَب له الوثيقة التي كُتِبَت تحت رعايته في عام 1786، Virginia Statute of Religious Freedom من بين ألقابه الرئيسية المجيدة.

ورغماً عن الخلاف حول المراجع الإنجيلية لجورج واشنطن أو الغموض المحيط بقرار جيفرسون بإعادة تعريف هوية المسيح، سيطر الدين باستمرار على المجادلات السياسية الكبيرة في الولايات المتّحدة. في عام 1847، أشادت الجريدة الجماهيرية، New York Globe، بضمّ المكسيك لأنّه كان« يبدو تقريباً»

(1) دومينيون: دول مرتبطة بالتاج البريطاني-المترجم-

أنّ مواطنيها «كانوا قد جذبوا إلى أنفسهم صواعق العليّ القدير، وكنّا بدورنا قد اُخترْنا لكي نقتلعهم ونبيدهم بما هم أمّة متميّزة ومنفصلة».

في عام 1832، باشر ابراهام لنكولن احترافه السياسي بالترشّح للانتخابات التشريعية في ايلينوي ضدّ بيتر كارتورايت، فنان السيرك الإنجيلي الذي كان سبب إثارة الإشاعة التي تكفّر لنكولن.

والحال أنّ ذلك لم يكن صحيحاً في شيء. فقد كان لنكولن، أثناء الحملة الانتخابية الرئاسية في عام 1860، في ترينتون في نيوجيرسي، قد صرّح بالتصريح التالي: «الأمريكيون هم الشعب المختار وأمنيتي هي أن أصبح الخادم المتواضع للعليّ القدير وشعبه المختار.»

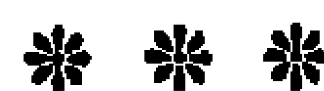
لم يكن ابراهام لنكولن متديّناً فحسب، بل كان والده كاهناً معمدانيّاً، والذي كان قد ألزمه بقراءة الكتاب المقدّس طيلة أيام حياته. فكان لينكولن يذكر بكثرة الكتاب المقدّس وصرّح في خطابه الثاني للتنصيب في آذار 1865: «الشمال والجنوب كلاهما يقرآن الكتاب المقدّس نفسه، ويصلّيان للرب ذاته، وكلٌّ يدّعي مساعدته للآخر، قد يبدو غريباً أن يتجرأ إنسانٌ على أن يطلب عوناً من إلهٍ عادلٍ ليكسب خبزه بعرق جبين أناسٍ آخرين، ولكن علينا ألا نحكم حتى لا نكون محكومين. لم يكن بإمكان دعوات الطرفين أن تكون مستجابة. لم يكن أيٌّ الطرفين كذلك تماماً. فللعليّ القدير خططه الخاصّة».

بالنسبة إلى لنكولن، إذا كان الأمريكيون «الشعب المختار» فأمريكا كانت أيضاً «بلاد اللّه». لم يبدو ذلك قط أكثر جلاءً سوى أثناء حديث بين لنكولن وكاهن إنجيلي هو آنغوس ليفارد، المولود بمدينة كبيرة في الشمال. قال ليفارد للينكولن بأنّه كان يأمل بأنّ «الرّبّ إلى جانبنا». الأمر الذي ردّ عليه لنكولن: «قلّما يهمّني هذا... ليس لهميّ الوحيد، لابتهالي الوحيد سوى غرضٌ واحد: أن أكون مع هذه الأمّة إلى جانب الرّبّ».

سخرية القدر في حوليات النصارى في أمريكا هي أنّ العبودية، أحد الجراح الأكثر عمقاً التي عرفتها هذه الأمّة، أُلغيت، لا بقرارٍ من قسّيسٍ أو من عالمٍ في

اللاهوت، وإنّما من خلال رجلٍ سياسيٍّ عصاميٍّ كان قد اكتشف في عائلته سُبل اللّه والقيم الإنسانية. كما أنّه ليس مصادفة أن يؤلّف (النشيد الحربي للجمهورية) The Battle Hymn of the Republic، أثناء الحرب الأهلية، حينما كان لنكولن يشغل البيت الأبيض. في الواقع، نجد في هذا النصّ صدى اشعيا 3، 63 ورؤيا القديس يوحنا 20، 14: «يدوس المحصول الذي يحتوي على عناقيد الغضب».

بعد حرب الانفصال، حتّمت المهمّة المرتكزة على أنْسَنَة يسوع على الكهنة البروتستانت المتحررين، المهتمين بإصلاح المجتمع، الذين جعلوا من يسوع «أخلاقياً أكثر من أن يكون صانع معجزات»، شخصية كانت تذرَع الأرض لا في سبيل أن يفي ما عليه من دينٍ حيال أبٍ غاضبٍ «بل ليظهر للبشر حلم اللّه ورأفته ويقودهم إلى أن ينمّوا في أنفسهم الفضيلة نفسها». في عهد أحدث، في الستينات، بدأ الهيبّيون وهامشيّو هايت- آشبوري (بالقرب من سان فرانسيسكو) وهوليود يرون في يسوع وسيلة للتحليق أكثر نجاعة من الحشيش أو .LSD عظةٌ في تقاطع الشوارع وبيع شارات عليها شعارات مثل: «الرسالة، هو المخلّص»، وعروضٌ لموسيقى الروك مثل :Jesus Christ Superstar كلُّ الوسائل كانت مناسبة في سبيل تبديل الثقافة المضادة بثقافة أخرى سيحلّ اللّه فيها محلّ المخدّر. فعلياً، وطيلة تاريخ البلاد، تم تكييف يسوع مع الحاجات الاجتماعية والثقافية للسكان. وعلى مرِّ قرون، جُعِل منه دورياً اشتراكياً ورأسمالياً وداعية سلام ومناضلاً في سبيل الحقوق المدنية وجندياً بل وحتى عنصرياً. ففي العهد الڤيكتوري في انكلترا، اعتبر البروتستانتيون يسوع منقذاً لطيفاً وطيّباً، معبوداً للنساء والأطفال، في حين، في أمريكا، كان، رمزياً على الأقل، يمتطي جواداً إلى جانب Rough Riders في فيلق الخيّالة Teddy وأصبح، في الوقت ذاته، محارباً شجاعاً.



مع أنّ المسيحية هي الدين السائد في أمريكا، إلاّ أنّها لا تشمل الجميع. ويشكّل المسيحيون الإنجيليون جزءاً من نادٍ حصريٍّ بقواعد قبول صارمة جداً. عقيدتهم الأساسية هي أن لا أحد يولد مسيحياً، حتى وان عمِّد شخصٌ ما ولُقِّن

تعاليم كنيسته، فإنّه لا يكون مسيحيّاً أكثر من يهودي أو مسلم أو هندوسيٍّ أو بوذيٍّ أو أيِّ عضوٍ آخرٍ من دينٍ أقلّويٍّ آخرٍ يُمارس اليوم في العالم. قواعد القبول صارمة ولكنها أيضاً ليبرالية، بحيث يمكن لأيٍّ كان أن يصبح خلاصياً إذا ما فوّض حياته ليسوع المسيح وأقرَّ بأنّه تألّم وهلك على الصليب بسبب خطاياه. يودّ المسيحيون الإنجيليون أن يشيروا إلى أنّ حتى صليبهم يؤكّد الطريقة التي يرون بها يسوع، بتعارضٍ مع الطريقة التي يدركه به الكاثوليكيّون، على سبيل المثال.

الصليب الذي يرتديه هؤلاء الأخيرين حول العنق مؤلّف من صورة ليسوع المسيح، لأنّه، بالنسبة لهم، يبقى مصلوباً ومتألماً، في حين أنّ صليب المسيحيين الإنجيليين مجرّدٌ ، الأمر الذي يعني أنّ يسوع عوقِب على خطايا الإنسان وانّه لم يعد في الشقاء بل يتربّع في السموات إلى يمين الرّبّ.

حتى يعرف المرء ولادة جديدة أو يرغب في تفويض حياته إلى يسوع، لابدّ من أنّ يسلّم، بأنّه قد عجز عن الحقيقة وعن الوصايا المتضمّنة في الكتاب المقدّس. حسب مبدأ أساسيٍّ للبروتستانتية، فإنّ كلّ الكائنات، لمجرّد كونها ذات طبيعة بشرية، مذمومة بسبب انجذابها إلى الخطيئة ووحدها علاقة فوق طبيعية بيسوع تستطيع أن ترفع الإنسان وتنشله من تلك الحالة الأثيمة. حتى يكفّر الفرد عن خطاياه ويلتحق في النهاية بالسماء، لابدّ له من الإقرار بيسوع كمنقذٍ له تحت طائلة أن يكون محكوماً إلى أبد الآبدين.

يشكّل اللقاء الشخصي مع الرّبّ جزءاً من هذه العملية، والتمرّن، في الواقع، على «ولادة جديدة»، وهذا يعني تلقّي زيارة يسوع المسيح، والتعهّد حينها بالعيش حسب كلامه مثلما هو مبيّنٌ في الكتب المقدّسة. علاوة على القبول بيسوع في قلبه وروحه، لا بدّ للمرء كذلك من الاعتراف بأنّه السبيل الوحيد المتاح للفرد للخلاص من العقاب حتى نهاية الأزمان، حتى الأيام الأخيرة، التاريخ الذي سيعود فيه المسيح، المخلّص والفادي، إلى الأرض. وان كانوا من أصلٍ أنكليكانيٍّ، كاثوليكيٍّ أو يهوديٍّ، فإنّ جميع الخلاصيين الذين قابلتهم، وأنا أعدُّ هذا العمل، تحدّثوا إليّ عفوياً عن اللحظة التي قبلوا فيها بقدوم يسوع المسيح إلى حياتهم.

14

العودة إلى الأصول

كلارانس ڤاغنر كاهنٌ إنجيلي يقود منظّمة تسمى (Bridges for Peace جسور السلام) والتي مقرّها في القدس. وبتصرّفه بميزانية سنوية مقدارها ثمانون مليون دولار، يساعد ڤاغنر ومجموعته الاقتصاد الإسرائيلي كما يموّل قادة اليمين في إسرائيل كاليمين المسيحي في أمريكا. وتخصّ المباني التي تضمّ هذه المنظّمة، والتي تتوزع حول فناء صغير وحديقة، الكنيسة الإثيوبية التي لا تزال تستخدم الكاتدرائية الكبيرة التي تقع خلف المجمع الصناعي. وحسب المحترم ڤاغنر، تودُّ منظمة جسور السلام اقتناء هذه المباني- الأمر الذي لا يمثّل مبلغاً زهيداً في قلب القدس- ولكن الكنيسة الأثيوبية ترفض، حتى هذه اللحظة، بيعها.

يعمل فيها ما يقارب ستين شخصاً، معظمهم من الأمريكيين الذي كرّسوا أنفسهم في سبيل «عمل الخير على الأرض التي وطأها يسوع». ويتقاضى الموظّفون الإسرائيليون، ومن بينهم سكرتيرة ڤاغنر، رواتبَ عادية. وقد بدت أمريكية تعمل على المقسم الهاتفي ظريفة ومستعدّة لإعطاء الأسباب التي دفعتهم لمغادرة وسط غرب الولايات المتّحدة إلى الشرق الأوسط. وهي أرملة تبلغ من العمر سبعين سنة، ذات شعرٍ أشقرٍ مجعّدٍ وأظفارٍ حمراء معقوفة، وتروي أنّها، بعد أن فقدت زوجها وتبيّن أنّه من أصلٍ يهودي، رأت كلَّ ذلك كعلامةٍ من الرّبّ وهو يحثّها على تغيير حياتها والقيام بعملٍ خيريٍّ للشعب اليهودي. فوضعت نفسها طواعية في خدمة جسور السلام وأمّنت بنفسها كلَّ معاشاتها، بما في ذلك الرحلات بين إنديانا والقدس.

أغلبية الاتصالات المباشرة مع المجتمع الإسرائيلي تجري بين النشطاء

الاجتماعيين والبلديات التي تطلعهم على احتياجات الأحياء الفقيرة المحرومة. يتم تجديد ما يقارب ثلاثمائة وخمسين مسكناً كلّ عام من قبل المتطوعين الذين يقدّمون المواد ويصنعون كلّ ما هو ضروري في ورشات النجارة.

في عام 1976، بدأت جسور السلام نشاطاتها في القدس لتطبّق رسالة القدّيس بولص الرسول إلى كنيسة روما 15،27: «لأنّهم شاركوا أبناء سائر الشعوب في خيراتهم الروحية فكان على هؤلاء أن يخدموهم بخيراتهم المادية». خلال الأحاديث الطويلة التي أدلى بها لي، شرح المحترم فاغنر كيف جاءت جسور السلام لمساعدة المستوطنات الإسرائيلية وموّلت الهجرة نحو الدولة اليهودية من أثيوبيا وأوروبا وروسيا وأمريكا الجنوبية وكندا، وسهّلت، من خلال اتصالاتها بكبار المسئولين، الحصول على تأشيرات المقيمين وغير المقيمين للمسيحيين الراغبين بالعيش في الأرض المقدّسة. في وقت كان اقتصاد البلاد في أدنى مستوياته منذ عام 1982، وفي وقت هدّت الانتفاضة أعصاب السكان، وزّعت جسور السلام على الفقراء أكثر من خمسين طنّاً من الأغذية سنوياً وقدّمت للمهاجرين الجدد مسكناً وأدوات مطبخ وأغطيةً وأدويةً ولوازم مدرسية وكتباً مقدّسة. كما موّلت المنظّمة أجهزة الطوارئ الضرورية بعد الهجمات الإرهابية. وأخيراً، رمّمت بيوت الإسرائيليين الفقراء وأكملت إعانات البطالة والتقاعد لمن لم ينجح بمخصّصاتهم الشهرية في الموازاة بين المدخول والمصروف.

أثناء لقائي الأوّل به في مكتبه بالقدس، روى لي فاغنر، كيف كان قد شعر، بعد أن تربّى على العقيدة الأنكليكانية، بأنّه محرومٌ من «العون الشخصي للرّبّ». وحسب تعابيره الخاصّة، قبل «مقابلة يسوع»، كان «شخصاً خيِّراً يذهب بانتظام إلى الكنيسة ويقوم بكل ما يُنتَظر منه». ولكنّه كان قد وصل إلى مرحلة في حياته، حيث لم تكن المبادئ العظيمة للعقيدة الأنكليكانية تمنحه بما فيه الكفاية الوسائل التي يحقّق بها ذاته. وشرح قائلاً: «كنت أعلم بأنني مذنب وهذا ما كان يشغلني، لأنّه هنا بالضبط يوجد الاختلاف بين المسيحيين الإنجيليين وسواهم من المسيحيين. لقد قضى يسوع بسبب خطايانا، وبما أنني لم أكن أقبل به، لم يكن بمقدوري أن أكون حرّاً».

في السادسة عشرة من عمره، أرسله والداه مدرسة داخلية في بالم بيش (فلوريدا)، حيث كان على جميع التلاميذ، على حدِّ قوله، الذهاب إلى الصلاة كلّ صباح. ذات يوم، سأله أحد الأساتذة، مثلما سأل العديد من زملائه، غن كانوا يريدون المشاركة بدرسٍ في الكتاب المقدّس لأنّه لا يزال هناك بعض الأمكنة الشاغرة. ووافق فاغنر في الحال. والحال أنّه تبيّن بأنّ الأستاذ عضوٌ في كنيسة معمدانية في بالم بيش. قال فاغنر: «حينما وصلت، أدركتُ بأنّهم يولون الأهمية الأكثر لقراءة الكتاب المقدّس، بحيث لم يكن المقصود مجرّد الاستماع إلى عقائد الكنيسة وتلاوتها. كان الكتاب المقدّس مندمجاً بالحياة يومياً، وأردتُ أن أصبح ذلك المسيحي الذي يحيا الكتاب المقدّس يومياً».

بعد بضعة أسابيع من ذلك، وأثناء قدّاس في الكنيسة المعمدانية بعد درس الكتاب المقدّس، سأل القسّ ان كان أحد الحضور يريد أن يأتي و«يفوّض حياته للمسيح». يقول فاغنر: «ذهبتُ إليه، وكان ذلك بمثابة طيّ صفحة. حينها علمتُ بأن يسوع كان قد دعاني، وبأنني كنتُ أريد، دون أدنى شك، أن أصبح عضو تلك الطائفة. عُمّدتُ، وبما أنّه ليس هناك سوى تعميد واحدٍ مثلما قال الكتاب المقدّس، هو الذي يتلقّاه المرء وهو يقبل بيسوع في حياته، فكانت تلك هي اللحظة التي أصبحتُ فيها مسيحيّاً. الآن، أقرأ الكتاب المقدّس يومياً. بالتأكيد لستُ خالياً من العيوب ولكنني أسعى لدمج كل تعاليم الرّبّ في حياتي. هذا لا يعني بأنّني أعتمد قواعد جديدة: فأن يكون المرء خلاصيّاً لا يختلف في الحقيقة كثيراً عن أن يكون يهودياً. فعلى أيِّ حال، كُتِبَ الكتاب المقدّس من قبل اليهود». السؤال الذي يطرحه على أولئك الذين يعملون في جسور السلام، وأولئك الذين لم يلتزموا بعد حيال يسوع المسيح هو التالي: «هل أنتم على هذه القائمة؟ هل تؤمنون بأنّ إسرائيل بكاملها ملكٌ للشعب اليهودي بحيث، حينما يعود إليها يسوع، تستطيعون أن تقيموا بسلامٍ وانسجامٍ معه؟»

بعبارة أخرى، هل يعطي الكتاب المقدّس لليهود شيكاً على بياضٍ (طبعاً على حساب اللّه الكريم) لكي يفعلوا كل ما يشاءون بالأرض المقدّسة؟

يشرح فاغنر: «لو كان الملك سليمان يعود من أعماق العصور ويرى

المسيحيين بمكانتهم الجديدة وبدورهم الجديد هنا في إسرائيل، لحثّهم على البقاء بمزيدٍ من الجرأة في المشهد للحفاظ على الدور الذي أُسنِدَ إليهم منذ زمنٍ طويلٍ جداً».

وفي حياته الراهنة كرئيسٍ لمنظّمة إنجيلية بموقفٍ نوعيٍّ جداً من الكتاب المقدّس وبالتالي من السياسة الخارجية للولايات المتّحدة حيال إسرائيل، يقرّ فاغنر بأنّه يختار أصدقائه من بين مَنْ يقاسمه «معتقداته». ويصرّح: «لستُ هنا في إسرائيل لأقوم بالتبشير، وإنما أتمنّى أن أكون نوراً للعالمين وأقود اليهود وكلَّ إنسانٍ إلى رؤية نور يسوع المسيح». لماذا؟ يهزُّ كتفيه: «لأنّ الشعب اليهودي اختير من قبل اللّه، ولأنّ أرضَ إسرائيل أورِثَت من قبل الرّبّ لهذا الشعب، ولأنّه في النهاية سيقبل بيسوع حينما سيعود إلى إسرائيل».

وماذا سيحدث لأولئك الذين لا يقبلون بيسوع؟ يهزّ كتفيه من جديد: «الجواب مكتوب في الكتاب المقدّس».

قبل قيام دولة إسرائيل، لم تكن أمم الأرض ترى في اليهود سوى شعبٍ مشتّت، وكان معظم المسيحيين يزعمون بأنّه إذا كان لم يعد لهذا الشعب من روابط فذلك لأنّه كان قد رفض الاعتراف بيسوع مخلّصاً له. ومع ذلك، حينما منحت أمم الأرض، في 29 تشرين الثاني 1947، دولةً لليهود، وجِبَت إعادة تحديد العلاقة بين مصير اليهود والكنيسة. بعد أن أعطى الرئيس ترومان موافقته على إقامة دولة يهودية، تغيّرت صورة الشعب اليهودي كأمّة مهدّدة بقد ما أصبح في الشرق الأوسط قوّة عسكرية مسلّحة من قبل الولايات المتّحدة ومدعومة بجماعة ضغطٍ قوية في واشنطن. كان لابدّ لرئيس تحرير Christianity Today، نيلسون بيل، الطبيب المبشّر السابق الذي كان يلعب آنذاك دوراً فاعلاً في قيادة الحركة الإنجيلية، والذي تزوّجت ابنته المحترم بيللي غراهام، أن يكتب في دوريّته: «حقيقة أن توجد القدس الآن، للمرّة الأولى منذ ألفي عام، بين أيدي اليهود وحدها يثير القارئ المولع، الذي هو أنا، بالكتاب المقدّس وينعش إيمانه بصِحّة وملائمة رسالته».

وكمعمدانيّ يقوم بواجباته الدينية، كان رئيس الولايات المتّحدة هاري ترومان

أوّل من دعا المحترم بيللي غراهام إلى البيت الأبيض لقيادة صلاةٍ في حفلة فطورٍ. ودون أدنى شك، لم يتأثّر ترومان بإيمانه الخاصّ بالكتب المقدّسة فحسب، بل أيضاً بغراهام حينما اعترف في عام 1948 بدولة إسرائيل، متحدّياً المجتمع الدولي. فقد كان، حسب ابنته مارغريت ترومان دانييل، مسيحياً مقتنعاً ولكنّه أيضاً كان قد قرأ وحَفِظ عن ظهر قلب طيلة حياته الكتاب المقدّس بحيث كانت إسرائيل تشكّل بالنسبة إليه التزاماً أخلاقيّاً. وقد كتب ميشيل بينسون، مؤلّف كتاب Harry S. Truman and The Founding of Israel: «في الرابعة عشرة من عمره، كان ترومان قد قرأ لمرّاتٍ أربع الكتاب المقدّس من أوّله إلى آخره. ومن الواضح أنّ معرفته بالماضي التوراتي في الشرق الأوسط، بعد أن عقد علاقاتٍ مع المحترم بيللي غراهام، أثّرت فيه بشدّة حين قرّر ما كان سيفعله بشأن فلسطين. [...] وكان ترومان، متأثّراً بشدّة بتربية توراتية في مواضيع يهودية- مسيحية، وبثقافة معمدانية كانت تشدّد على عودة اليهود إلى صهيون، يميلُ على نحوٍ خاصٍّ إلى مزمور 137 الذي كان يرمز إلى تلك هذه المسيرة: «على أنهار بابل هناك جلسنا، فبكينا عندما تذكّرنا صهيون». »

خلال حديثٍ مع غراهام، بُعَيْد الاعتراف بإسرائيل، كان على ترومان أن يسلّم بأنّ «العهد القديم كان قد لعب دوراً حاسماً في الوعد [الذي كان قد قطعه] للشعب اليهودي بأنّه سيكون له، ذات يوم، وطنٌ». ومع ذلك، حينما أصبحت إسرائيل حقيقة، اُمتُدِحَ ترومان وانتُقِدَ في آنٍ واحدٍ، من قبل المجتمع الإنجيلي بقدر المجتمع اليهودي.

ردّ ترومان على المسيحيين غير الإنجيليين الذين اتّهموه بأنّه لم يعترف بإسرائيل إلاّ لاستمالة الناخبين اليهود في الولايات المتّحدة، بأنّه لطالما أُعتُبِر مثل «كورش، الإمبراطور الفارسي الذي انتصر على الطاغية البابليّ نبوخذنصر وسمح لليهود، عام 538 ق.م، بالخروج من السبي والعودة إلى صهيون». ففي الواقع، عندما أثنى أحد أنصار ترومان عليه، ذات يوم، لدوره الحاسم في إنشاء دولة إسرائيل، أجاب: «أجل، لقد كان حاسماً كإبليس! أنا كورش الأمريكي».

في صحيفة داخلية اكتُشِفَت بعد زمن طويل من موته، كان قد أدلى، تماماً

قبل سنة من اعترافه بإسرائيل، بأحاديث معادية علانيةً للسامية، حيث يكتب ترومان في مكانٍ منها: «اليهود أنانيّون جداً، فهم لا يبالون إلا قليلاً بمعرفة كم من الاستونيين أو الليتوانيين أو الفنلنديين أو البولونيين أو اليوغسلافيين أو اليونانيين أُبيدوا، الذين كانوا مثلهم يحظون بالرضا لزمنٍ طويلٍ. مع ذلك، حينما امتلكوا النفوذ الماديّ والمالي والسياسيّ، لم يبلغ لا هتلر ولا ستالين ما بلغوه. آه! إنّها قسوة وسوء معاملة المنبوذ! امنحوا السلطة للمنبوذ وسيفقد رشده، بغض النظر إن كان روسياً، يهودياً، أسوداً، مديراً، عاملاً، مورمونيّاً[1] أو معمدانيّاً». رغم هذه الآثار الثقافية المعادية للسامية، غدا ترومان بطلاً بالنسبة ليهود العالم أجمع و الولايات المتّحدة على نحو خاص، وطبعاً في لإسرائيل.

فالواقع، قبل أن يدخل عالم السياسة، حينما كان صانع قمصانٍ في كنساس، طالما قال ترومان أنّه كان لديه شريكٌ يهوديّ هو ادي جاكوبس. حينما سُئِل إن كان ذاك الرجل قد حظي بأيِّ تأثيرٍ على قراره، ردّ، وعينه تلمع: «حسنٌ، لقد كان لإدي علاقة كبيرة بالقرار الذي اتّخذته بصدد إسرائيل».

اليوم، لا يفعل المسيحيّون الإنجيليون الذين قرّروا زيارة إسرائيل أو السكن فيها سوى الالتزام مالياً بدعم الدولة اليهودية. كما أنّهم يشكلون كتلة متّحدة لممارسة الضغط على الساسة الأمريكيين. صرّح توم ديلاي، الخلاصيّ والنائب الجمهوري عن تكساس وزعيم الأغلبية الجمهورية في مجلس النواب، صرّح لمشاركين في اجتماعٍ لـ Christian Coalition بأنّ: «[الضغط على السياسيين] هو الطريقة المثلى لنيل دعمٍ سياسيٍّ من الولايات المتّحدة لإسرائيل». وأثناء مقابلة حديثة في واشنطن، صرّح السيد ديلاي أنّ «المسيحيين استثمروا على نطاق واسع مالياً في إسرائيل. وهذا يدلّ على أنّ تهديد الإرهاب الإسلامي حاسمٌ بالنسبة لخلاصنا المشترك تماماً مثلما لبرنامجنا على الصعيد الداخلي». وبعد ذلك بفترة، خلال حديثٍ آخر، أضاف بأنّه لابدّ أن يُستخدم جزءٌ من المال الذي تمّ جمعه

(1) مورموني: عضو في طائفة دينية أمريكية أنشأها جوزيف سميث عام 1830 وأباحت تعدّد الزوجات في البدء-المترجم-

وسط الطائفة الإنجيلية الأمريكية على نحوٍ خاصٍ في تمويل الجدار الذي هو قيد البناء حول إسرائيل وبعض الأجزاء من الأراضي المحتلّة.

على الصعيد الدولي، وسّع اليمين الديني كثيراً تأثيره على السياسة الخارجية الأمريكية الخاصّة بالعالم أجمع في الواقع. وقد عبّأت مؤخراً قواها في سبيل حلٍّ الدولة الوحيدة في النزاع الشرق أوسطي. والدليل الملموس لهذا التطوّع هو تنامي عدد المسيحيين الإنجيليين الذين قرّروا الإقامة في الأرض المقدّسة.

وقد أُقيم تيكوا، وهو واحد من خمسة عشر مجمّعاً يهودياً وأرثوذكسياً متطرفاً، في منطقة تُدعى غوش ايتزيون. وتغرق تيكوا في الكتاب المقدّس وهي تقع على بعد ما يقارب سبعة كيلومترات من مدينة الخليل الفلسطينية في قلب الضفّة الغربية، والتي تسيطر عليها مجموعات مقاتلة من حماس والجهاد الإسلامي، على مسافة عشر دقائق فقط من القدس. ومنها سيكون قد مرّ إبراهيم وإسحاق حينما عادا من الخليل إلى جبل موريّة. وفي ذلك المكان أيضاً، كانت راعوث تلتقط السنابل بين حزم حقول بيت لحم، وهناك أيضاً، كان داود يرعى غنم والده قبل أن يطالب بمملكته. وأخيراً، هناك في المغاور العميقة، بحث المكابيون وغيرهم من المحاربين اليهود عن الملاذ.

اليوم، تندرج تيكوا بين أكثر المستوطنات إثارة للجدل سياسياً في إسرائيل. خلال السنة المنصرمة، جُرح أكثر من ستة عشر مقيماً بالرصاص، جروح أربعة منهم مميتة، على الطريق الرئيسي الذي يمرّ بعشرات القرى العربية قبل بلوغ الخليل. وقد أدّت ثلاث هجمات للإرهابيين في المستوطنة ذاتها إلى مقتل خمسة أشخاص: ثلاثة أطفال كانوا نائمين ووالديهما. والصحفيون والزوّار الآخرون الذين يغامرون في تيكوا مدعوون للتنقّل بسيارة مصفّحة.

والإسرائيليون الذي اختاروا العيش هناك هم إمّا أرثوذكسيون متطرفون وإمّا إيديولوجيون، أو من الفئتين في آنٍ واحدٍ، عقدوا العزم، كما يقول عضو سابق في الجماعة، على «أن يعيشوا حتى النهاية النبوءة المنسوبة للشعب اليهودي كما هي مدوّنة في الكتاب المقدّس، دون الأخذ بالحسبان أيّ قرار سياسي يتعلّق بهدم المستوطنات في عموم الأراضي الفلسطينية المحتلة». ومع أنّ تيكوا تنعت بالـ

«مستوطنة»، إلا أنّ المقيمين فيها يصرّحون، ساخطين، بأنّ هذه العبارة غير ملائمة لأنّهم لا يقيمون في «كاراڤانات مؤقّتة يمكن نقلها بسهولة». والحقيقة أنّ منطقة غوش ايتزيون تضمّ أكثر من عشرة آلاف ومساكنهم لم تُبنى على أنّها مؤقّتة.

ريبيكا دبليو أمريكية أدّت آلياه خاصّتها، وهي كلمة عبرية تدلّ على الهجرة إلى إسرائيل. وهي امرأة جميلة ذات عينين سوداوين وشعرٍ فاحمٍ، قرّرت الإقامة في إسرائيل بعد السعي إلى التخلّص قانونياً ودينياً من زواجٍ فاجعٍ. فُرِض العيش في تيكوا بعد أن استعادت بيكا- وهذا هو الاسم الذي مُنِح لها من قِبَلِ عائلتها وأصدقائها- «يقظة روحية». فقد أدركت فجأة، أنّه، لتغيير سلوكها وتقدير الدنيا، كان عليها الانخراط في بحثٍ سياسي وديني. تعيش بيكا في شقّة جميلة تشرف على منظرٍ ريفيٍّ. وهي تدير حضانة وتحترم، كجيرانها الأرثوذكس، الشابات وسواه من الأعياد اليهودية، وتتكلّم انكليزية مشبعة بكلماتٍ يديّةٍ[1]. ولأنّها تتمتّع بوضعٍ ماليٍّ ميسور، تقدّم أكثر من خمسة آلاف دولار شهرياً كإعانات للروس القادمين إلى تيكوا وإذا دعت الضرورة، تساهم في اقتناء المواد الطبية ولوازم الطرق التي تستخدم في انتشال ضحايا الهجمات الإرهابية من سياراتهم أو من الحافلات. في العام الماضي، وهبت شاحنة صغيرة مصفّحة لنقل الأطفال المعاقين إلى مدرسة متخصّصة في تل أبيب. وكما صرّحت في مقابلة حديثة: «لا يفيد المال في شيءٍ سوى القيام بشيءٍ من الخير، واليهود هم مَن اختارهم اللّه».

لو أنّ بيكا كانت يهودية أمريكية أتمّت آلياه خاصّتها للعودة إلى وطنها لما اندهش أحدٌ لذلك. ولكنّها في الحقيقة مسيحية إنجيلية اكتشفت يسوع في طفولتها المبكرة وبدأت في التكلّم بالألسن في سنّ المراهقة. هي ذاتها تنعتُ نفسها : «معمدانية المولد، إنجيلية بالرؤية مع ميلٍ قويٍّ إلى الكاريزماتية، وجمهورية مقتنعة». وفي إسرائيل، هي أيضاً من أشدّ أنصار اليمين الذي منحته، إبان الانتخابات، من وقتها ومالها، لأنّها تعارض خارطة الطريق وتؤيّد ترحيل الفلسطينيين من الضفّة وغزّة. ولديها صديقٌ مقرّب هو رالف ريد، المسيحي

---

(1) يديّة : لغة عبرية ألمانية ينطق بها يهود أوروبا الوسطى والاتحاد السوفياتي السابق -المترجم-

الإنجيلي والاستراتيجي الجمهوري الذي يدير كذلك Century Strategies، الشركة الاستشارية التي ابتكرت مخطّطاً لتعبئة القاعدة المسيحية لصالح إسرائيل. حينما طالبها بالمشاركة في مشروعه، أجهدت بيكا نفسها بلا حساب في سبيل إقناع أكثر من مليون مسيحيٍّ في الولايات المتّحدة بإرسال الرسائل إلى البيت الأبيض للاحتجاج على خارطة الطريق التي قدّمها الرئيس. ومن سخرية القدر أنّ بيكا لم تصدّق أنّه سيكون لهذه الرسائل أيّ تأثير حاسم على النتيجة النهائية لعملية السلام، إذ قالت: «الرئيس بوش مسيحيٌّ طيّب، وهو يعلم تمام العلم بأنّ ما يفعله لن يجدي، فكلُّ شيء مكتوب في الكتاب المقدّس. يعود للّه وحده أن يقرّر لأنّ جلاله هو من أورث أبدياً كلّ أرض إسرائيل للشعب اليهودي».

إنّ الذين لا يعرفون شيئاً عن الارتباط العميق للطائفة الإنجيلية بدولة إسرائيل لا يمكنهم فهم العاطفة والاندفاع اللذين يبديهما الخلاصيون لمكانة الشعب اليهودي. فامرأة مثل بيكا، تخاطر بحياتها يوميّاً في منطقة يمزّقها العنف والمواجهات، هي إنسانة يصعب فهمها، بل يتعذّر سبر أغوارها. وكما هو الحال بالنسبة لكلِّ ما يخصّ المسيحيين الإنجيليين، يوجد المفتاح في الكتاب المقدّس. فالجميع يتناول الكتاب المقدّس حرفياً، ويعتبرون أن الكتب المقدّسة معصومة. فدعمهم لإسرائيل يستند إلى الميثاق الإبراهيمي. ولذا المسيحيون الإنجيليون هم الأكثر عدداً ممن يواظبون سنوياً على زيارة الدولة اليهودية المحاصرة (مثلما كان يمكن توقّع ذلك، حيث لم تتراجع السياحة إلى هذه الدرجة في تاريخ البلاد) وبيكا ليست سوى واحدة من بين ما يقارب خمسة وعشرين ألف مسيحيٍّ إنجيلي مقيمين في البلاد بشكلٍ شبه دائم. في الواقع، إنّ فكرة جذب الإنجيليين إلى إسرائيل هي إستراتيجية طُرِحَت أصلاً من قبل الزعماء المسيحيين من أمثال بيللي غراهام وابنه فرانكلين وجيري فالويل ورالف ريد ويات روبرتسون. وعلى ما شرح غراهام الابن الأمر: «حتى تصبح قضية إسرائيل أولوية في نظرهم، نحثُّ من خلال التمويل، المسيحيين على زيارة هناك كي يطأوا فعلياً أرض إسرائيل ويروا الكتاب المقدّس يحيا. ولإيجاد دعمٍ هنا في أمريكا لإسرائيل وللشعب اليهودي، ليس هناك أيّ شيءٍ أفضل من هذا».

15

مع وضدّ اليهود

المسيحيّون الإنجيليون الذين يؤمنون بما هو مكتوب في رؤيا القدّيس يوحنا 15،9-: «فانفكّت قيود الملائكة الأربعة المتأهّبين للسّاعة واليوم والشّهر والسّنة حتى يقتلوا ثُلث البشر»- هم الخلفاء اللاهوتيون لجون نلسون داربي (1800-1882). في الواقع، كان على هذا الكاهن البريطاني أن ينشر الاعتقاد بأنّ المسيح سيعود عمّا قريب إلى الأرض وسيُهزم المسيح الدجّال أثناء معركة هرمجدون وسيقيم لألف عام مملكة اللّه المعلَنة. كما أنّه، وهو المعروف على أنّه «أبو علم لاهوت الخلاص[1]»، كان يؤمن بأنّ التاريخ يجري حسب تعاقبِ حُقَب محتّمة تُدعى بحقبِ خلاصية[2]، وأنّه وحدها عودة اليهود إلى إسرائيل ستجعل من الممكن عودة المسيح، مسبِّبة في الوهلة ذاتها دمارهم الخاصّ. أمّا العدد القليل الذي سينجو منهم فسيعتنقون المسيحية. المسيحية الإنجيلية ليست عقيدة أحادية الحجر، وإنما تقوم على مبدأ مشتركٍ لكلّ طوائف الحركة: القبول بالعهود التي قطعها اللّه للشعب اليهودي.

كان جون نلسون داربي مبشّراً سيء الحظّ وجب عليه هجرة موطنه الأمّ انكلترا ليقيم في أمريكا التي وجد فيها آذاناً أكثر إصغاءً بكثير لأقواله. فقد جاب

---

(1) أو الغفران، -Dispensation المترجم-

(2) تتمحور هذه الفكرة حول تصوّر أنّ الخلاص يتحقّق في نكبات عظيمة مثلما كان الحال مع خراب الهيكل والطوفان العظيم وصلب يسوع وبأنّ آخر حقبة للخلاص ستتحقّق بكارثة عظيمة يعود حينها يسوع إلى الأرض في مجيئه الثاني، وربّما في هذا محاكاة لمفهوم النّكبات السّبع التي يحملها الملائكة السّبعة الواردة في رؤيا يوحنا -المترجم-

البلاد، بين عامي 1859 و1877، في ستِّ جولات ليبشّر برؤيته لعالمٍ ينحدر نحو الانحلال والخراب الكاملين. كان مسيحيّو عصر الأنوار الذي يُعرَفُ بعصر ما بعد الألفية يعتقدون بأنّ الكائنات البشرية كانت مسئولة عن أفعالها الخاصّة وعن وجود مملكة اللّه، وبأنّ المسيح لن يعود إلى الأرض إلاّ بعد إقامة الألفية. كان داربي يبشّر، على عكس ذلك، بعقيدة جديدة سميّت قبل ألفية. تقول هذه العقيدة بأنّ البشر كانوا قد فسدوا لدرجة أنّ اللّه كان مهيّأً للتدخّل ولمعاقبة الجنس البشري برمّته. الذين آمنوا بفكرته كانوا يتشجّعون بالإيمان بأنّ اللّه سيعود إلى الأرض قبل إقامة مملكته بألف عام، لأنّ ذلك سيجعل الانتظار أكثر تحمّلاً، وقد باتت الحياة لا تُطاق بالنسبة لهم. ولمّا كانت أغلبية تلامذته فقراء ومعدمين، فإنّ الأمر هنا كان يتعلّق بسيناريو مؤاتٍ كان يعدهم بثوابٍ عادلٍ قائمٍ لا على الثراء أو النجاح بل على شيءٍ أكثر سهولة بكثير للانتظار - إيمانٌ صارمٌ ومطلق بيسوع المسيح وبكلامه مثلما هو مبيّنٌ بوضوح في الكتب المقدّسة.

كان داربي يَعِد بأنّ وحدهم المسيحيين الذين يتبعون الكتب المقدّسة بالمعنى الحرفي سينجون، أثناء المعانقة الأخيرة للعالم، من المحن والآلام التي سيكون على الكافرين أن يقاسوها أثناء هرمجدون. ما سيرضي الجماهير هو رفضه لأيِّ تفسيرٍ للنصّ التوراتي، لأنّ هذه المقاربة كانت بالنسبة إليها معقّدة وأخّاذة للغاية. في المكان والموضع المناسبين، كان داربي يبشّر بأنّه كان لابدّ للتنبؤات المفصّلة جدّاً للأنبياء وكتّاب أسفار الرؤيا أن تتحقّق كاملةً، بتعابير السرد التوراتي الذي كان يقسّم التاريخ إلى سبع حُقَب خلاصية منفصلة.

كان المسيحيون المظلومون الذين كانوا يلتحقون به عاجزين عن التفكير والتساؤل والتحليل. علاوة على ذلك، لم يكن لديهم الوقت للانشغال بذلك الترف لأنّ اهتمامهم الأكثر إلحاحاً كان إطعام أسرهم الجائعة. كان داربي يؤكّد لهم على الأقلّ بأنّهم، بعد كلِّ المآسي التي عانوها في هذه الدنيا، سيحظون، بفضل يسوع المسيح، بثوابٍ منصفٍ في الآخرة. كان لابدّ لهذين التيارين المختلفين– المسيحية الخلاصية والمسيحية التقليدية– أن يقودا إلى قطيعة نهائية بين الكنائس المسيحية، فصلت إلى الأبد البروتستانتيين عن المسيحيين الإنجيليين

والخلاصيين. منذ النصف الأوّل من القرن العشرين، بدأ البعض ينعتون أنفسهم بالأصوليين لكي يظهروا اختلافهم عن البروتستانتيين الليبراليين الذين، حسب رأيهم، يحرّفون العقيدة المسيحية. وبخلاف هؤلاء البروتستانتيين التقليديين، كان الأصوليون يريدون العودة إلى الأصول، الأمر الذي كان يعني، من بين ما يعنيه، أخذ الكتاب المقدّس بالمعنى الحرفي.

حسب داربي، سبق وان مرّ العالم بستٍّ من الحقَب الخلاصية السبع، التي كان يُذْكَر في عدادها الخراب الكبير[1] والطوفان العظيم وصلب يسوع المسيح. ودائماً حسب تفسيره، كانت الحقبة الخلاصية السابعة مهيّأة لتنقضّ على البشرية وكان عليها أن تكون الأكثر فظاعة والأكثر رعباً من كل ما سبقها. طلب من تلامذته الاستعداد لمجيء الشيطان إلى الأرض، الشيطان الذي كان سيخدع البشرية بإقناعها بأنّه اللّه وبقيادتها إلى مفاسد لا يمكن وصفها. بعد سبع سنوات من الشرّ المطلق، سيعود المسيح أخيراً ويواجه الشيطان على سهل هَرمَجَدُّون على أطراف القدس. أمّا وقد انهزم الشرّ، فسيفتتح المسيح الحقبة الخلاصية السابعة. وسيسود السلام والوئام حينها لألفِ عام قبل أن يأتي يوم الحساب ويكرّس نهائياً نهاية التاريخ. في سفر الرؤيا، والذي يدعى كذلك رؤيا القديس يوحنا، يوجد في الفصل 16 إثبات الطريقة التي ستنتظم بها المعركة بجفاف نهر الفرات الذي سيفتح الطريق لجيوش المسيح الدجّال لتدخل إلى إسرائيل، وفي مجدّو ستجري المعركة النهائية، معركة هَرمَجَدُّون.

إحدى أبرز ميّزات هذه الحقبة الخلاصية السابعة هي عودة المسيح إلى إسرائيل الجديدة التي تؤدي إلى هلاك اليهود الرافضين للاهتداء إلى المسيحية. ولأنّ الكتاب المقدّس لا يمكن أن يكون موضوع جدلٍ، يقبل كلّ المسيحيين الإنجيليين، من المواطن البسيط إلى رئيس الولايات المتّحدة، في الحال هذه النبوءة.

---

(1) خراب الهيكل -المترجم-

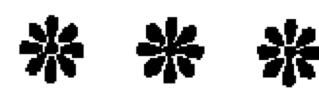
في عام 1993، صرّح جورج دبليو بوش لصحافيٍّ يهودي في Austin American Statesman، بأنّ، حسب دينه، «جميع من لا يؤمنون بيسوع المسيح، بمن فيهم اليهود، سيذهبون إلى الجحيم». ولسوء حظّه، أعادت الصحافة اليهودية نشر تصريحه، وحينما كان يسعى إلى منصب حاكم تكساس للمرّة الأولى عام 1994، نشرت منافسته التي كانت تشغل المنصب، الديمقراطية آن ريتشاردز، إعلانات في الصحف اليهودية تبرز ذلك الحديث. وقد أُعدَّ التدخّل السياسي الذي أعقب ذلك من قبل مارڤين اولاڤسكي. كان لابدّ لهذا الخلاصيّ أن يوحي إلى بوش «نزعته المحافظة الرحيمة»، المبنية على فكرة أنّه من الممكن المزج بين الدين الرحيم والنزعة المحافظة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ولا بدّ أن الرئيس بوش استمدّ أصول فلسفته السياسية من عمل هذا العلاّمة المسيحي، The Tragedy of American Compassion. إذ حالما فرغ من قراءة هذا العمل، طلب من كارل روڤ أن يدعو اولاڤسكي ليأتي للقائه، وفور اللقاء به، نشأت عند الحاكم هذه الرؤية عن مُحافَظة رحيمة.

قال اولاڤسكي: «إنّ شيئاً واحداً مؤكّداً: لابدّ من الإيمان بالمسيح للذهاب إلى السماء. اليهود لا يؤمنون بالمسيح، إذاً فهم لا يذهبون إلى السماء... ونقيض السماء هو الجحيم» لا أعتقد أنّ الحاكم بوش كان يريد التضارب مع اليهود. لم يفعل سوى استعادة القناعة الشعبية حول من يذهب إلى السماء ومن لن يذهب إليها».

عام 1998، حينما اُنتُخِب بوش للمرّة الثانية حاكماً لتكساس، أُعيد نشر تصريح بوش من جديد من قبل الصحف. وبينما كان يتهيّأ للسفر إلى إسرائيل، جاء نفس الصحفي الذي يعدّ التقارير لصحيفة Austin American Statesman، والذي كان من بين الصحافيين المجتمعين في مطار تكساس، وسأله: «ما هو أوّل شيءٍ ستقوله للإسرائيليين لدى وصولك؟» فردّ بوش مازحاً: «اذهبوا إلى الشيطان» كنايةً عن ملاحظته السابقة حول مصير اليهود الذين لا يؤمنون بالمسيح. وغنيٌّ عن التوضيح أنّ المجتمع اليهودي أُهين وأُضطرّ بوش، متضايقاً، لأن يبعث برسالة اعتذارٍ إلى ابراهام فوكسمان مدير رابطة بناي بريث Anti-Defamation League

رابطة مناهضة التشهير) كان يقول فيها: «يؤسفني أن أعلم بأنّ البعض قد انجرح...إنّي آسف للاضطراب الذي سبّبه تصريحي وأؤكّد لكم، كما للمجتمع اليهودي، على أعمق مشاعر الاحترام».

وقَبِل فوكسمان اعتذارات بوش. من جهة أخرى، وبغية إزالة أي غموضٍ حول الاعتذارات التي عبّر عنها بوش بخصوص تلك المزحة المشئومة، كان لابدّ له من أن يعقد مؤتمراً صحفياً أعلن فيه: «يقول لي ديني أنّه علي أن أرضى بيسوع المسيح منقذاً حتى أؤمّن خلاصي، وأعتقد أنني قلتُ بوضوح بأنّه لا يتوجّب على الحاكم أن يقرّر مَنْ سيذهب إلى السماء. أعتقد أنّ اللّه هو من يقرّر هذه الأمور، وليس جورج دبليو بوش».



حينما أصبح رئيساً للولايات المتّحدة، أظهر جورج دبليو بوش انتماءه للإنجيلية، ولكنّه حرص منذ ذلك على تجنّب مسألة المقصيين من الفردوس التي كان قد تناولها حينما كان حاكماً لتكساس. وفي كلّ مرّة يجري الحديث معه حول اليهود ومصيرهم في الآخرة، يردّ بنفس عبارات رسالته إلى فوكسمان. ولو أنّ بوش لم يكن قد اتّخذ ذلك القرار، لكان قد صعب عليه أن يبرّر لدى الجالية اليهودية اختياره للعديد من المستشارين أو أن يشرح لمساعديه المقرّبين رأيه حول المسألة. لنأخذ، على سبيل المثال، ريتشارد بيل وبول وولفوڤيتز أو ستيڤن غولدسميث، مستشاره للسياسة الداخلية، أو الناطق السابق باسمه، آري فلايتشر: بعدم تنفيذ الشروط اللازمة، سيكون جميع هؤلاء مستائين على الأقلّ حسب الكتب المقدّسة، أن يستاءوا من معتقدات معلّمهم.

لا تكمن المشكلة في معرفة ما إذا كان الحاكم السابق لتكساس والرئيس الحالي للولايات المتّحدة يملك سلطة قول مَنْ سيصل إلى السماء، أيّاً كان التواضع الذي أبداه في رسالته إلى فوكسمان منحنياً أمام عظمة اللّه... وكذلك لا يتعلّق الأمر بمعرفة ما إذا كان للّه سياسةُ قبولٍ تقصي اليهود.

المقلق في الأمر هو أن لدى أغلبية متزايدة من السياسيين والنواب والزعماء

الدينيين والمواطنين العاديين إيمان عميق يقودهم إلى القناعة بأنّ جماعة دينية كهذه هي أفضل أو أكثر «قداسة» من أخرى. ثمّ، هناك المشكلة المثارة من قبل البرنامج الإنجيلي الحقيقي الذي بموجبه يُعتَبر الشعب اليهودي شعب اللّه «المختار».

السياسيّون الذين يعملون تحت أمرة بوش في الإدارة الأمريكية الحالية والذين ليسوا مسيحيين خلاصيين، لديهم أيديولوجية منسجمة بما فيه الكفاية مع القناعات الدينية للمسيحيين الإنجيليين في سبيل إقامة علاقة قابلة للحياة هدفها الأوّل هو إزاحة العالم من الإرهاب الإسلامي. فيما يتعلّق بالدور الموكول إلى لليهود في نظرية نهاية الأزمان، أبدت الجالية اليهودية الأمريكية تسامحاً وامتناناً لليمين المسيحي على الدعم اللا مشروط لإسرائيل، وهي المعاملة التي تلاءم الطرفين، من وجهة نظرٍ دينية كما من وجهة نظر سياسية. حكماً، نجد هنا نموذجاً آخر من ميثاقٍ يمجّده الكتاب المقدّس، وبشكلٍ خاص في المقطع المذكور فيه أنّ «عدوُّ عدوّي صديقي».

ولمحو أثار أيّ مرارة قد يكون أصدقاؤه اليهود قد عانوا منها بشأن نظرية السَلب، صرّح المحترم جيري فالويل مؤخّراً: «نحن إلى جانب إسرائيل لا لأنّنا نعتقد بأنّها أكثر ذكاءً، أو لديها شيءٌ خاص أو محبوبة أكثر، وإنّما لأنّ اللّه اختار ابراهام لافتداء العالم أجمعين، وليس اليهود فحسب. بكلام آخر، نحن نساند دولة إسرائيل والشعب اليهودي من أجل تحرّرنا أيضاً، بما أنّ الشعب اليهودي هو مفتاح هذا التحرّر».

ومع ذلك، إبان الجدل العنيف الذي أثاره فيلم آلام المسيح، رأينا، في كامل المنطقة الواقعة تحت التأثير التوراتي من البلاد-جنوب/غرب وجنوب/شرق ووسط/غرب- على واجهات الموتيلات والمؤسسات والكنائس، بروز لافتات مضاءة تعلن: «إنّ اليهود هم مَنْ قتلوا ربّنا يسوع». وعندما نشرت Loving way United Pentecostal Church في دنڤر (كولورادو) أقوالٍ كهذه، جرى استجواب العديد من أعضاء الجمعية التقوية حول فحوى رسالة الحقد هذه. حينذاك، أدلى أحد الأشخاص بالتوضيح التالي: «لقد تباحثنا مطوّلاً في المشكلة، يبدو لي أنّه

لا بدّ من القول أنّ الفيلم التاريخي لميل جيبسون أشعرنا بأمرٍ: لقد آن الأوان أخيراً لكي يعترف اليهود بأنّهم قد قتلوا المسيح». وأضافت امرأة، عضو هي الأخرى في الخورنية: «كلٌّ هذا ليس موجّهاً ضدّ الشعب اليهودي. إنّها فرصتهم للتوبة والتسليم بيسوع في قلوبهم لكي يتمكّن أخيراً من القدوم إلى الأرض وقيادتنا حتى يوم القيامة».

جوان ماغنوسن، الذي يدير المنظّمة الإنجيلية جسور السلام، والتي يوجد مقرّها، كما ذكرنا، في القدس، يقدّر بأنّ «في أعقاب ألفي عام من المعاداة المسيحية للسامية، يودّ [أعضاء جماعته] تقديم ملاحظة وجيهة. [...] إذا ما عدنا إلى ماضي الكنيسة، يقول ماغنوسن، سينجم عن ذلك أنّه ليس لنا الحق في أن نقول للجالية اليهودية كيف عليها أن تتصرّف حيال ما تعتبره علاماتٍ على عداء مضمَرٍ للسامية. إنّنا نتفهّم قلقها. إنّ منظّمتنا منخرطة في نضالٍ طليعيٍّ لقيادة الكنيسة إلى أن تعي ماضيها الرهيب. حتى في أمريكا، من النادر أن تجد مواطناً من مواطنينا اليهود، لم يكن ضحيّة شكلٍ من أشكال معاداة السامية. هذا يعنني أننا، كمسيحيين، نبتهج لأن تكون قصّة الأناجيل مروية أحسن رواية، لأنّ الاقتباسات الصحيحة والأمينة من الوقائع التوراتية هي حقّاً نادرةٌ جدّاً. بعد اوشفايتز، يقع على عاتق المسيحيين، بخصوص الصلب، أن يكونوا بمنتهى الوضوح حول حقيقة أن يسوع اختار طواعية أن يهب حياته قرباناً. لا شكّ أن ميل جيبسون أعطى رؤية مؤثّرة للألم الذي كابده يسوع من أجل خطايا العالم، ولكن عليه أيضاً أن يحسّ بالواجب الذي يفرضه ما بعد اوشفايتز علينا، نحن المسيحيون. الفيلم بنفسه ينطوي على بعض القصور والعجز، بالنسبة لي على الأقلّ. فلم تُعالج حياة يسوع سوى بواسطة مشاهد خاطفة flashbacks، بحيث، بدون معرفة القصّة، نعوم في الفراغ».

لا يمكن أن يُتّهَم ماغنوسن بمعاداة السامية، ولكنّ رأيه في الفيلم كان مزعجاً لأنّه يتركّز على غياب المعارف الكتابية، بدلاً من إبطال الأساس المغلوط لهذا الفيلم المناقض للقصّة، مثلما فعل تشارلز كروتامير في صحيفة واشنطن بوست. فقد أشار إلى «أنّه من العبث سرد رواية الأناجيل كما يحلو لميل جيبسون

أن يفعله، إذ لا توجد نسخة واحدة فقط لرواية الإنجيل لآلام المسيح، بل أربع نسخ، ولا يمكن إهمال الخلافات بينها. والعروض السينمائية لهذه الواقعة تُعدُّ بالعشرات، من بازوليني إلى جيبسون مروراً بزيفيريللي. أمّا جيبسون، فيتناقض حرفياً مع رأيه المسبق الخاصّ به عندما يتكلّم على حقّه في تقديم رؤيته الفنية. رؤية فنيّة، هذا يعني تأويلاً شخصيّاً. والتأويل الشخصي لجيبسون مقذعٌ على نحوٍ خاصٍّ. فالواقع، أنّ ثلاثة من الأناجيل لا تذكر جَلدَ يسوع سوى في آيةٍ واحدة. أمّا الرابع فلا يذكر أيّ شيءٍ عن ذلك على الإطلاق. في فيلم جيبسون، يتمخّض ذلك عن عشر دقائق من الساديّة الأكثر إلحاحاً في تاريخ السينما على الإطلاق. لماذا عشر دقائق؟ لماذا ليست خمس؟ لماذا ليست اثنتان؟ لماذا ليس البتّة كما هو عند لوك؟ كلا، لقد اختار جيبسون بنفسه أن يسترسل في عشر دقائق كاملة».

وصف المبشّر الإنجيلي الأمريكي الشهير جيري فالويل الفيلم بـ السرد غير الملتبس لساعات يسوع الأخيرة، في حين أنّ المنظمات اليهودية اعتبرته، في الوقت ذاته، محض نتاجٍ معادٍ للسامية في إطار إظهاره لليهود كمطالَبين بصلب المسيح. ومع ذلك فإنّ فالويل هو أحد أولئك الإنجيليين الذين وقفوا إلى جانب إسرائيل والشعب اليهودي. يبقى أنّ جيبسون، في عيونه، لم «يفعل سوى محاولة استدراج الناس إلى أن يعوا الثمن المدفوع لقاء خلاصهم». وقد قال الدكتور أرغون كانر الذي يدرّس في جامعة فالويل (الجامعة الإنجيلية للحرية) Evangelical Liberty University: «حُشِرَت الكنيسة في الخزانة التي خرج منها اللوطيون». حسب فالويل، كان كانر يريد أن يثبت بأنّه من المقبول، من الناحية الاجتماعية، الهزء بالمسيحيين المحافظين وقذفهم مثلما كان يجري بالنسبة للمثليين قبل أن يثوروا. «في الواقع، نحن الجماعة الوحيدة في أمريكا التي تكون الهدف الدائم لهوليوود ولكبرى وسائل الإعلام الجماهيرية وللسياسيين المتشدّدين دون أن يكون هناك أدنى ردّ فعل». ودائماً حسب فالويل، لدى الثقافة الشعبية «مقتٌ شديدٌ للغاية للقيم اليهودية-المسيحية، وقد تجذّر هذا الموقف في البلاد. وحسب زعمه، هذا هو السبب في أن تكون النُصب التذكارية للوصايا العشر في خطّ تسديد [الاتّحاد الأمريكي للدفاع عن الحقوق المدنية] (الليبرالي جدّاً)

American Civil Liberties Union. خذوا حالة تلك العاملة في مكتبة بولينغ غرين في كينتاكي التي وجب عليها اللجوء إلى العدالة لاكتساب حقّها في وضع صليبٍ صغيرٍ على جيدها أثناء العمل. خذوا حالة تلك المرأة التي وجب عليها المثول أمام المحاكم لتنال الحق في وضع لافتة صغيرة تقول: «هنا، نصلّي 24 ساعة من 24» في HLM خاصّتها. لنأخذ الصليب الحديدي الذي خُلِّص من تحت أنقاض مركز التجارة العالمي الذي طلب الكُفّار «المصدومين» سحبه. خذوا تلامذة ويندسور في ڤيرجينيا الذين وجدوا أنفسهم يُمنعون من أداء أغنية دُنيوية لمجرّد أن عنوانها كان الصلاة. في كلِّ أنحاء أمريكا، يشعر المسيحيون بأنفسهم مضطّهدين ومهانين لسببٍ وحيد هو أنّهم اختاروا السير إلى جانب اللّه الحيّ».

والد ميل، هويتن جيبسون، في الرابعة والثمانين من العمر، وهو فخورٌ بالفيلم المثير جدّاً للجدل لابنه الذي علّمه في طائفة كاثوليكية متطرّفة تُدعى (العائلة المقدّسة) .Holy Family وقد اتّخذت هذه الطائفة مسافات من الكاثوليكية التقليدية ورفضت أيَّ انضواء تحت الأبرشية الكاثوليكية الرومانية. كما أنّ هويتن جيبسون معروفٌ برفضه للمحرقة: فقد أكّد مراراً بأنّ قسماً واحداً فقط من الملايين الستّة من اليهود في معسكرات الاعتقال قد قتلوا حقيقة. كما أنّه صرّح في مرّاتٍ عديدة بأنّ مركز التجارة العالمي دُمِّر بواسطة جهاز تحكّمٍ عن بُعد مُدارٍ من قبل «جماعات سرية» وليس من قبل القاعدة. وأخيراً، صرّح بأنّ الڤاتيكان الثاني ليس سوى مؤامرة ماسونية مدعومة من قبل اليهود، وأنّ جميع البابوات، منذ يوحنا الثالث والعشرين، «غير شرعيين». لو تأمّلنا قناعات جيبسون الأب بغضّ النظر عن البروتستانتية التقليدية والطائفة الإنجيلية لبدت كأفكارِ مُراجعٍ[1] مبالغ أو مجنونٍ يرى المؤامرات والمكائد في كلّ مكان. غير أنّ المسألة، وبعد أن رأى اليهود في الفيلم على أنّه معادٍ للسامية وذات طبيعة تحرّض على العداوات، غدت منذ صدور آلام المسيح، أكثر تعقيداً.

اعتبرته الطائفة الإنجيلية، التي تصرّح مع ذلك بحبّها للشعب اليهودي،

(1) من المُراجعة، وهي نزعة تدعو إلى إعادة النظر في أسس نظرية أو دستور-المترجم-

«حدثاً فريداً للإنسانية سيحثُّ على الهداية». تعتقد كولين لوازيل التي تعمل مع النائب العام في كونكورد (نيو هامشاير)، على سبيل المثال، أن «الناس سيرون في آلام المسيح رمزاً للحياة والمغفرة». لا شكّ أن الأمر يتعلّق هنا برأي شخصية لا تحظى بالكثير من التأثير ولا النفوذ. ولكن ليست هذه هي حال موريس هـ.شابمان، رئيس اللجنة التنفيذية لـ Southern Baptist Convention، الطائفة البروتستانتية الأهمّ في البلاد، الذي صرّح: «منذ أن شنّ [المحترم] بيللي غراهام حروبه الصليبية [للاهتداء إلى العقيدة الإنجيلية]، لم يحظَ أيّ حدثٍ، كما حظي هذا الفيلم، بالقدرة على تغيير مجرى حياة هذا العدد الكبير من الناس. وهكذا كان الرّبّ قد فوّض إلينا أمراً قد يمكنه تسريع اليقظة الروحية لهذه الأمّة».

من المستحيل مشاهدة الفيلم دون الاستنتاج منه بأنّ اليهود مسئولون عن موت المسيح. في البداية، يجعل جيبسون من بيلاطوس شخصية شريفة تسعى لمقاومة ضغوط الطائفة اليهودية التي كانت تطلب رأسه. ثم أنّ الفكرة المركزية لعمل جيبسون هي أنّه لأمرٌ صعبٌ أو على الأقلّ حسّاسٌ لكل فروع البروتستانتية والكاثوليكية القبول بقرارات الفاتيكان الثاني التي تعفي الشعب اليهودي من إثم كبيرٍ كهذا. في الحقيقة، بموجب العرض، يتمالكنا إحساسٌ بأنّ مسألة مسؤولية الشعب اليهودي في موت المسيح تبقى مطروحة.

لقد سبق وأُنتِجت العديد من الأفلام عن يسوع والتي لاقت ترحيباً كبيراً ولكنّها أساءت لليمين المسيحي، على سبيل المثال، في عام 1988، الإغواء الأخير للمسيح، حيث يظنّ يسوع بأنّه مغرَم ويعاني من جاذبية جنسية إلى مريم المجدلية، أو مسرحية تيرانس ماكنيللي، Corpus Christi، التي تجعله لوطياً. أمّا ميل جيبسون، فقد حذف من فيلمه أيّ إشارة إلى الشهوات البشرية للمسيح، والتي قد تفسح مجالاً لخلافٍ بغية قيادة الملايين من الناس إلى الأناجيل دون التفكير بالمضاعفات ذات الطابع العرقي.

لقد أظهر فيلم آلام المسيح مرّة أخرى بأنّه لا حاجة للكثير من النبش للتيقّن من أنّ المسيحيين-الذين لا يزعمون أنّهم من المؤيدين المتحمّسين للشعب اليهودي- لطالما كانت لديهم حياله مشاعر قلّما كانت جديرة بالاحترام. إلى

ذلك، ألقى الفيلم كذلك ضوءاً شاحباً على دوافع المسيحيين الإنجيليين- أولئك الذين يدّعون بأنّهم حلفاء وأصدقاء أوفياء للشعب اليهودي. ومع ذلك، يعتبرون اتّخاذ جانب هذا الشعب في النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني خياراً واضحاً، لأنّ العهدين القديم والجديد، اللذين يعترفون بهما، كليهما يعلنان بأنّ اليهود هم شعب اللّه المختار. ثمّة سبب آخر أكثر صلة بالموضوع: رغم كلّ العدوانية التي يُتّهم اليهود بإبدائها حياله، يبقى أنّ يسوع كان يهودياً تماماً. ولكن، ودائماً حسب العقيدة الإنجيلية، يتوقّف الإيمان بيسوع المسيح من قبل كائنٍ بشري بلقائه الشخصي به، اللقاء الذي يمكن له أن يحدث فجأةً في أيٍّ مكان، وفي أيّ لحظة، في الكنيسة، داخل السيارة، في البيت، أثناء العمل أو في الشارع. يقول الكتاب المقدّس ببساطة أن المكان والموضع ثانويّان، ولكن الجوهري في الأمر هو الولادة من جديد والمرور بـ «ولادة جديدة» ليكون المرء قادراً على أن يستقبل في ذاته «الطبيعة الإلهية للّه ذاته».

16

سيناريو لانقضاء الدهر[1]

في عام 2003، قدّرت (Christian Booksellers Association of America جمعية بائعي الكتب المسيحيين الأمريكية) المبيعات الإجمالية للأعمال الإنجيلية بـ 77.1 مليار دولار سنوياً، في حين كان إجمالي مبيعات لكامل قطاع الكتب 11 مليار دولار. أحد الأعمال الأكثر شعبية في أمريكا، الذي بيع منه أكثر من 55 مليون نسخة، كان جزءاً من سلسلة (Left Behind «المتخلّفون عن الركب») للكاهن الإنجيلي تيم لاهاي، حيث يذكر هذا الأخير، على شكل رواية، سيناريوهات مختلفة تمثّل الرؤية الإنجيلية للقيامة مثلما هي مذكورة في سفر الرؤيا 9. لقد أدّت أعمال لاهاي وكتّاب مسيحيين آخرين من نفس الطراز، والفيض المستمر للبرامج الإذاعية والتلفزيونية التي تبثّ رسالتهم التوراتية وتنامي عدد المواقع الالكترونية (Web)المسيحيّة، في المحصّلة، إلى تعزيز نظرية السلب في أمريكا المعاصرة. والمسيحيون الإنجيليون، في كلّ مكانٍ من البلاد، على قناعة أنّ الطائرات والسيارات والقطارات، حينما تحين الساعة، ستتعطّل فجأةً، وسيُدفَع الطيّارون والسائقون، باعتناقهم للمسيحية الخلاصية، إلى الأجواء بينما ستنطلق آلاتهم على غير هدى، وستنهار البورصة، وستتقوّض الحكومات. وسوف يدرك أولئك «المتخلفين عن الركب» بأنّهم مذنبون وأنّ المؤمنين الصادقين كانوا على حقٍّ. وحسب ما ترويه الكتب الإنجيلية وما تعلّمه مدارس الكتاب المقدّس عبر البلاد بأسرها، فإن الذين آمنوا بيسوع مخلّصاً سيُسمح لهم بمرافقته في رحلته

(1) أي نهاية الأزمان ومجيء يسوع المسيح -المترجم-

النهائية إلى السماوات، بينما سوف يُسجَن الآخرون على الأرض ويُقتلون في المعركة النهائية على الأرض. في عالم قيد التحوّل الدائم، حيث تتوقّف التطورات السياسية على العسكرية، ألّف المحترم لاهاي عملاً آخرَ أيضاً بعنوان (Babylon Rising يقظة بابل) حول الدور الذي سيلعبه العراق في الأحداث التي ستؤدّي إلى عودة المسيح. يرى الخبير في الأخرويات[1] في هذه المنطقة من العالم لا كمهدٍ للحضارة و «المكان الذي التقى فيه آدم وحواء في حديقة عدن» فحسب، بل وأيضاً كبؤرة لتجارب القيامة. يؤكّد لاهاي: «باختصار، ستتيح حرب تحرير العراق لهذه الأمّة، بلوغ مصاف القوّة العالمية. وإذ تظهر المنطقة إلى أيّ درجة هي مؤهّلة، سوف يتوخّى الشعب العراقي تطوير هويّة خاصّة، وستغدو بابل القديمة، في الأيام الأخيرة، للعالم نموذجاً مثل سويسرا، ستغدو بلداً محايداً».

في كتابه الثاني عشر والأخير من سلسلة (Left Behind، The Glorious Appearing المجيء المجيد)، الذي صدر في آذار 2004، يذكر تيم لاهاي عودة يسوع المسيح. يبدأ العمل في اللحظة التي تتهيأ فيها جيوش المسيح الدجّال لاحتلال القدس وينتهي بظهور يسوع الذي يأتي لإنقاذ العالم. وبما أنّه كان من الممكن ترقّبه، لعدّة أسابيع قبل صدوره، أعلن الناشرون وأصحاب المكتبات بأنّهم حقّقوا أفضل مبيعات العام وبأنّ المبيعات المتوقّعة قد تتجاوز مبيعات هاري بوتر مع أكثر من خمسين مليون نسخة.

منذ اعتقال صدام حسين، بات لاهاي أكثر قناعة بالدور الذي سيُختار في العراق أثناء الحوادث الطارئة لنهاية الأزمان. في لقاءٍ أجريته معه حديثاً، ذكر الفصلين 38 و39 من سفر حزقيال: «الأمّة العربية الوحيدة غير المدرَجة في عداد تلك التي ستقف ضدّ القدس حينما سيدمّر اللّه روسيا والعالم العربي، هي العراق». تقصد الكتب المقدّسة أنّ العراق سيحظى بمكانة ولكنّه لن يكون متورّطاً في ذلك الدمار الرهيب الذي سوف يحلّ المشكلة العربية إلى الأبد. هو اليوم شخصٌ مسيحيٌّ صالح لأنّ السلب على وشك الحدوث. ولكن مادام هذا التاريخ

(1) مجموع العقائد المتعلّقة بالعالم الآخر كالبعث والحساب-المترجم-

لن يأتي، لابدّ أن تبقى الإنجيلية نقطة التقاءٍ لكلّ المؤمنين.

في المباني الخاصّة بعائلة بوش في البيت الأبيض، توجد لوحة صنعت موضوعها من منتجات رخيصة الثمن وتتصدّر بيوت ملايين المسيحيين عبر البلاد بأسرها. نرى فيها رجلاً مشغولاً بجزّ العشب الأخضر من الأرض، وهو ينظر مذهولاً، بينما زوجته الإنجيلية «ساهية» من خلال نافذة في الطابق الأوّل.

وكالكثير من الصور الملموسة للوقائع الأسطورية، المشهد عبثي ولكنّ الواقعية التي يزعم تقديمها هي مصدر القسوة والفتن والمآسي.

* * *

كان جون نلسون داربي أوّل من تكلّم على «ما قبل الألفية» بما هي نظرية مسيحية جديدة، ولكن الأخوين ليمان وميلتون ستيوارت، بارونا النفط، ومؤسّسا Bible College في لوس أنجلوس، هما من تعود إليهما كلمة «الأصولية». فقد نشرا، في عام 1912، سلسلة من الأعمال في اثني عشر مجلّداً تحت عنوان The Fundamentals الأصليّون) وتضم تسعين مقالة كتبها العديد من اللاهوتيين البروتستانت. لم يكن الغرض من هذه الكتب التي وزّعت على ثلاثة ملايين قسّاً ومبشّراً في كلّ أنحاء البلاد نشر الإنجيل فحسب، بل وحثّ المسيحيين على العودة إلى المنابع، إلى الأصول، لقراءة الكتب المقدّسة وتفسيرها. كان ردّ فعل الزعماء الدينيين ورعاياهم على هذه النصوص إيجابياً للغاية، لاسيّما وأن الأخوين ستيوارت كانا ينكران أيّ انضمامٍ إلى الحداثة المقترنة، آنذاك، بالحِراك الفكري الذي كانت نظريتا التطوّر لداروين واللاّشعور التي دافع عنها سيغموند فرويد بحماسة تشكّلان جزءاً منه. عملياً، كان لابدّ لعبارة الأصولية أن تتأصّل بشكلٍ خاص في قاموس مفردات عامّة الأمريكيين مع قضية سكوبز.

درّس جون ت. سكوبز البيولوجيا في مدرسة ابتدائية في دايتون بولاية تينيسي التي كان من المحظور فيها قانونياً أيّ استناد إلى نظرية داروين في التطور. سكوبز الذي تحدّى قصداً القانون بغية اختبار حقّه في حرية التعبير، أُحيل إلى القضاء، الأمر الذي أتاح الفرصة لسيركٍ إعلاميٍّ بين «النخبة الفكرية» والأصوليين

المسيحيين. أمام القضاء، كان سكوبز فيه ممثّلاً من قبل كلارانس داراو، وولاية تينيسي ممثّلةً من قبل وليام جينينغز بريانت. وقد ذهب هذا الأخير، المرشح الجمهوري الخائب في الانتخابات الرئاسية لعام 1900 التي جابه فيها وليام ماك كينلي، إلى حدّ اتّهام داروين بالمسؤولية عن الفظائع التي ارتُكِبَت أثناء الحرب العالمية الأولى. وحسب ما قال: «لقد زعم الضبّاط الألمان بأنّهم قرّروا، بعد أن قرأوا داروين، إعلان الحرب والقتال حتى النهاية، حتى ينتصر الأقوياء وحدهم، مستعيدين بذلك نظرية داروين حول تطوّر الأجناس».

كان لابدّ أن ينتصر بريانت، ولكنّ داراو أرغمه، أثناء الاستراحة، على الاعتراف ببعض الوقائع التي أفادته في الهزء بمعتقداته. بدعوته أمام القاضي، نجح محامي الدفاع الشهير في أن يجعله يسلّم بأن عمر الكون أكثر من ستّة آلاف سنة وأنّ اللّه لم يخلق الكون في ستّة أيامٍ كما يروي سفر التكوين. في نهاية المرافعات، انتصرت الأصولية بفضل المسيحيين الإنجيليين والأصوليين، لأنّ القضية كانت تُغطّى يومياً من قبل صحف البلاد بأسرها. ولكن، في الوقت ذاته، تآلفت النخبة الفكرية بما فيه الكفاية مع هذا الحِراك الديني الجديد لفهم أنّه كان على النقيض من التطوّر الطبيعي للثقافة والتقدّم العلمي. وصف الكاتب الشهير هـ. ل. مينكن، مثلاً، الأصوليين بأنّهم «أكبر مصائب الأمّة» وبأنّهم «أعداء العلم والحرية الفكرية». واليوم، لا يزال الجدل يتواصل مع مشاكل أكثر تعقيداً بسبب تقدّم العلم والطب والتكنولوجيا.

تقول الأطروحة الأصولية أنّ كلّ ما يحدث فجأة له سببه، وأنّ كلّ حدثٍ يسبب ردّ فعلٍ بحيث يكون هناك لكلِّ شيءٍ سبب ونتيجة. ضمن هذا المنظور، لا يمكن أن توجد صُدَف لأنّ كلَّ شيء هو نتيجة للمشيئة الإلهية، أي لتدخّل اللّه في الشؤون الإنسانية. ولكن إذا كانت الأصولية تعتبر الكتاب المقدّس معصوماً، فإنّ المبشّرين الإنجيليين، كانوا يرون في الإيمان الشخصي الردّ على كلِّ مشاكل المجتمع الأدبية والأخلاقية.

أحبّ المحترم جيري فالويل، المعارض بشدّة لعلم التكوين، أي النظرية الداروينية، أن يروي النُكتة التالية. حينما كانت تدرس ابنته في كليّة الطب بجامعة

ڤيرجينيا، سُئِلَتْ، ذات يوم، كيف ستتماسك للحديث إلى طلابها عن تطور البشرية. وكمختصّة علمية ومسيحية خلاصية مؤمنة، هل ستكون لديها مشكلة مع نظرية داروين في التطوّر؟ وحسب فالويل، تخلّصت ابنته من الورطة «بامتياز». فقد ردّت، ببساطة، بأنّها شخصياً لا تؤمِن بالداروينية، ولكنّها سوف لن تجد أيَّ ضيرٍ في أن تطرح النظرية العلمية التي تجعل من الإنسان سليل القرد كمدخل للجدل حول وجهة النظر الدينية التي ترى بأنّ اللّه خلق البشرية. في الواقع، حتّى جيري فالويل نفسه لم يكن مع منع تعليم الداروينية في مدارس البلاد وخاصّة في ولاية جورجيا، التي تُبحَثُ المسألة فيها أمام المحاكم. فحسب رأيه، يعرّض منع نظرية ما تلقائيّاً مصير الأخرى للخطر. يقول فالويل: «حسب رأيي، ينبغي تدريس الاثنتين معاً لأنّه، في نهاية النهار، سيختار 80% من الأمريكيين اعتناق النظرية الخَلْقية».

أمّا جورج دبليو بوش، الذي اضطرّ، في مناسبات عديدة، إلى أن يدلي برأيه حول نظرية التطوّر لداروين، فقد ردّ: «لم يُتّخذ القرار بهذا الشأن بعد».



رغم الشغف المعلَن من قبل المسيحيين الإنجيليين لمكانة الشعب اليهودي، فقد علت أصواتٌ داخل الجماعة المسيحية لتشير إلى أنّه لا يمكن لتوقّعات الإنجيليين أن تتحقّق إلاّ على حساب اليهود. فالمحترم ك. ويلتون غادي، على سبيل المثال، مع هذا الرأي. فيقول غادي، الكاهن المعمداني ورئيس (التحالف بين الأديان) Interfaith Alliance، المنظمة الهادفة إلى تشجيع التسامح الديني والفصل بين الكنيسة والدولة: «التفسير الحرفي للنبوءة من قبل اليمين الديني يجعل من الحلِّ الكارثي للنزاع في الشرق الأوسط شرطاً لعودة المسيح. ليس هذا هو ما يمكننا تسميته بوجهة نظرٍ مؤيّدة لإسرائيل. بل أنّ موقفاً كهذا يدافع عن هداية اليهود الذين يعيشون في هذا البلد. يتكهّن اليمين الديني بوضعٍ لن تكون القدس فيه العاصمة الدولية لليهودية، وإنّما المركز الذي ستتحقّق فيه مملكة المسيح».

بالإضافة إلى غادي، هناك زعماء يهود بارزون لا يشاركون ابراهام فوكسمان أو آرييل شارون

التسامح الذي يبديانه.

ديڤيد روزين، مواطن بريطاني وحاخام أرثوذكسي عصري، خدم كمرشدٍ عسكريٍّ في الجيش

الإسرائيلي في غرب سيناء أثناء حرب 1973 قبل أن يصبح حاخاماً كبيراً في جنوب أفريقيا ومن ثمّ في ايرلندا. عاد، في عام 1985، إلى إسرائيل التي هو الآن ممثّلها الرسمي في الڤاتيكان.

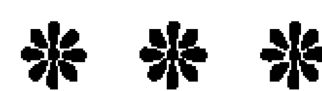
كما أنّه يدير جميع الأعمال الدينية البينية[1] لـ American Jewish Committee في القدس. وبصفته رئيساً لهذه الجمعية التي تضمّ خمسة عشر ديناً في ستين بلداً مختلفاً، نظّم روزين في العالم بأسره مؤتمراتٍ حول السلام والتفاهم بين الأديان، وخاصّة في مجال التعاون بين اليهود والمسيحيين. ومع الإقرار بتأييده لعلاقات وثيقة بين المسيحيين الإنجيليين واليهود، أبدى الحاخام روزين تحفّظه حيال البرنامج الأصولي المتعلّق بالشعب اليهودي، قائلاً: «إنّ علاقة المسيحيين الإنجيليين مع الشعب اليهودي متناقضة ظاهريّاً، فمن جهة، الإنجيليون متعلّقون بعمقٍ شديد بالكتاب المقدّس، وبالكلمات التي تشكّله، وبالأرض وسكّانها الذين يُظْهرون ودّاً شخصيّاً قويّاً للشعب اليهودي ولأرض إسرائيل. في هذا الصدد، هذا حسنٌ جدّاً بالنسبة لنا لأنّه من شأن كلّ هذا أن يقود إلى التزام إيجابيٍّ. ولكن، من جهة أخرى، يُعتَبَر الاعتقاد بأنّ الصادقين وحدهم سيذهبون إلى السماء للقاء يسوع في حين ستُشاهَد هنا على الأرض معركة هرمجدون ومقتل جميع اليهود الذين لا يعترفون بيسوع، سيناريو لا يمكنه أن يُطرِبَ يهودياً ولا أن يُبعِث الطمأنينة في نفسه».

كما أنّ ديڤيد روزين براغماتي بخصوص الموقف من المنظمات اليهودية

---

(1) العلاقات بين الأديان-المترجم-

الأمريكية التي عقدت تحالفاً مع المسيحيين الإنجيليين. يقول روزين: «المشكلة هي أنّها لا تستطيع أن تفوز على اللائحتين. ربّما ستتمكّن من تشكيل تحالفٍ مع الإنجيليين حول بعض المشاكل، ولكن لن يفضي هذا قط إلى اتّحادٍ». حسب رأيه، ما يدفع الجالية اليهودية الأمريكية إلى منح المال هو معاداة السامية. ويتابع قائلاً: «فيما يخصّ الخلاف الذي أثاره فيلم ميل جيبسون، فإنّه يؤجّج، بطريقة ما، معاداة السامية، ولكنّه يؤجّج أيضاً الخوف وسط الجالية اليهودية، الأمر الذي يُترجَم من خلال مساهماتٍ مالية. وفي المحصّلة، إذا كان الزعماء اليهود يشكون، من جهة، من معاداة السامية بغية جمع التبرّعات، فهم لا يستطيعون، من جهة أخرى، الإدّعاء بأنّ الطائفة الإنجيلية هي صديقتهم الفضلى وسندهم الأوفى. كما قلتُ، لا يمكنهم الفوز على اللائحتين». أمّا قبول إسرائيل الضمني بخصوص العلاقة بين اليهود والمسيحيين الإنجيليين، فيعتبر روزين بأنّه غير ناجم عن إدراكٍ مدروسٍ من طرف الإسرائيليين أو اليهود الأمريكيين، وإنّما هذا الموقف يلاقي التشجيع من قبل بعض الزعماء الإسرائيليين اليمينيين الذين يعتقدون بأنه من الممكن بلوغ النتيجة ذاتها حول الأرض انطلاقاً من معتقدات مختلفة. ويزعم روزين: «إذا كانت المنظمات اليهودية واقعة بين أيدي المسيحيين الإنجيليين، فذلك بسبب الموقف المتسامح لإسرائيل. فقد عزّزت هذه شعور الصداقة والمساندة. المثير في فيلم جيبسون هو أنّه لا يشجّع معاداة السامية أكثر من المواقع الإلكترونية المسيحية أو الأفلام الأخرى المتداولة في العالم، والتي تروي قصّة يسوع وكيف خُذِلَ وصُلِبَ. إنّ ردّ الفعل الوحيد المعادي للسامية المذكور في فيلم جيبسون يأتي من الجالية اليهودية نفسها، التي تتّهم المسيحيين بمعاداة السامية، الأمر الذي يؤمّن، بالمقابل، مزيداً من الهبات للوكالات اليهودية».



يخال غاري باور العضو المؤثّر في الطائفة الإنجيلية، والذي كان جزءاً من إدارة ريغان، أن سيناريو المسحيين الخلاصيين ليس فظّاً حيال الشعب اليهودي ولا يهدّد وجوده. فهو يعتبر أنّ إسرائيل والشعب اليهودي، بفضل جهوده وجهود

الملايين من المسيحيين الإنجيليين الآخرين في عموم البلاد، ستحظى بأمانٍ سياسيٍّ وماليٍّ أمتن من أيِّ وقتٍ مضى من ماضيهم العاصف.

علاوة على نشاطاته السياسية التي تشتمل على اختيار مرشّحين «نموذج ريغان» لأجهزة الدولة، يدير باور في واشنطن منظمة ليس لها هدف ربحي تسمّى (القيم العائلية) Family Values، والتي تتصرّف بميزانية سنوية من خمسة عشر مليون دولار. تُغيثُ هذه الجمعية أيّ مرشّحٍ لوظيفة عامّة يشاطرها مواقفها الأخلاقية من المشاكل الداخلية، ومما لاشكّ فيه على نحوٍ جوهريٍّ أكثر، رؤاه حول السياسة الخارجية. يقول باور، الذي عوّض عن قوامه النحيل بصوتٍ جهوريٍّ متقنٍ إبان الحملة الانتخابية الرئاسية عام 2000: «كثيراً ما يُطرَحُ علي السؤال، لماذا نحن، المسيحيون الإنجيليون، نقف إلى جانب إسرائيل؟. ولكن، لماذا لا نكون إلى جانب إسرائيل؟ لماذا لا نكون إلى جانب شعبٍ قال اللّه عنه: من سيبارك الشعب اليهودي سأباركه ومن سيلعنه سألعنه؟ هذا يكفيني، لا أحتاج إلى أيِّ سببٍ آخر».

اليوم في أمريكا، ترتكز العقيدة الجديدة على دعوة العالم اليهودي-المسيحي إلى التوحّد ضدّ الإرهاب الإسلامي الأصولي، الأمر الذي يعطي للزعماء اليهود الأمريكيين والإسرائيليين سبباً وجيهاً لعقد تحالفٍ مع اليمين المسيحي. المسيحي الخلاصي جورج دبليو بوش ليس أوّل رئيس أمريكيٍّ يتمسّك بمعتقداته الدينية العميقة. ولا هذه هي المرّة الأولى التي يجتاح فيها جوٌّ من التديّن المتطرّف عموم البلاد إلى حدّ الإضرار بسياستها الداخلية والخارجية. بيد أنّه هناك سؤالان لابدّ من الإجابة عليهما، إذا ما أراد المرء أن يفهم كيف ولماذا ابتعدت الولايات المتّحدة عن المبدأ الذي نظّم نشأتها. من هم بالضبط هؤلاء المسيحيين الورعين الذين يقيمون في البيت الأبيض أو في مزرعة من طابقين في كنساس سيتي بميسوري والذين حازوا على رؤيةٍ كهذه وحظوة كهذه في البلاد بأسرها؟ ولماذا غدت الحركة الإنجيلية على هذه الدرجة من الشعبية لدى الجماهير الأمريكية؟

منذ تأسيس البلاد، والمسيحيون الإنجيليون أو المسيحيون الخلاصيّون كانوا على الدوام موجودين في الولايات المتحدة على شكل حركة دينية هامشية. ومع

ذلك، لم تكن الحميّة الخلاصيّة messianique للأصوليين المسيحيين، على صلَة بخوفهم من الإسلام وحقدهم عليه، أشدّ مما هي عليه اليوم. وقد ساهمت العديد من الشخصيات الإنجيلية في فرض الحركة في جماهير المجتمع الأمريكي و، باختصار، على المسرح السياسي الداخلي والدولي. ولكنّه رجلٌ على حدة من أتقن أخذ مأساة قومية وتحويلها إلى نصرٍ سياسيٍّ لليمين المسيحي.

* * *

اكتشف جيري فالويل يسوع المسيح في 20 كانون الثاني 1953، في الكنيسة المعمدانية لبارك أڤينيو في لانشبورغ (ڤيرجينيا)، في الليلة ذاتها التي كان صديقه الوفي جيم مون ينال فيها الهداية. بعد ذلك بفترة وجيزة، كان على مون أن يشاهده كقسٍّ لكنيسة توماس رواد المعمدانية التي أسّسها في عام 1958. حينها، كانت الكنيسة مقامَةٌ في مصنعٍ للمياه الغازية أوقِفَ العمل فيه، ولم تكن تضمّ سوى حفنة من المؤمنين، سوى أن الجمهور كان قد تضاعف، في عام 1959، ثلاثة أضعاف ما كان عليه، وفي عام 1988، كانت تضمّ ثمانية عشر ألف عضواً وستّين قسّاً مشاركاً. اليوم، يتجاوز الدخل الإجمالي للكنيسة 160 مليون دولار سنوياً، ويعدُّ البرنامج التلفزيوني المتواصل لخدمتها («ساعة الإنجيل التقليدي») The Old Time Gospel Hour، البرنامج الديني الأقدم. وهو يلامس، كلّ يوم أحد، الملايين من «الأرواح التائهة» في العالم أجمع على 392 قناة تلفزيونية و600 محطّة إذاعية في الولايات المتّحدة وحدها. كما أنّه من السهل بلوغه على الموقع الإلكتروني لفالويل على مدار 24 ساعة.

من خلال تربيته في ڤيرجينيا من قبل آباء ينتمون إلى البرجوازية المتوسّطة، أصبح فالويل مسيحيّاً خلاصياً تحت تأثير والدته التي كانت، على حدٍّ تعبيره، «امرأة على قدر كبيرٍ من الرحمة». «بفضل صلوات أمّي، انقدتُ إلى أن أهِبَ قلبي للمسيح». ومع أنّه، باعترافه هو، كان يعاني من مشاكل تأديبية في المرحلة الثانوية لأنّه «لم يكن يعرف شخصيّاً المسيح أثناء سنواته المدرسية»، فإنّ حكاية اهتدائه هي من الحكايات الأكثر جاذبية. بعد سنواتٍ عديدة من قبوله ليسوع في

حياته، أقرّ فالويل بأنّه، وأثناء ما كان يتردّد على Mountain View Elementary School في فيرفيو هايغز بفيرجينيا، كان قد أحبَّ تلك المدرسة ولكنّه قد أُعجِبَ على نحوٍ خاص بالعقوبة الجسدية التي كان قد خضع لها (كان قد ضُرِبَ بعودٍ من الصفصاف على ساقيه العاريتين)، بل وزعم أنّ المعلّم الذي كان قد فرض عليه ذلك التأديب كان من «خيرة» من حظي به على الإطلاق. يقول فالويل متفاخراً: «لم تكن هناك (عصبة الدفاع عن حقوق المواطن) ACLU لتحميني، وما كان لأيِّ شخصٍ أن يعترض على سلطةِ معلّمٍ ولا أيِّ شخصٍ سواه».

بعد أن لقي المسيح، اشترى كتاباً مقدّساً وظلّ يقرأه يوميّاً إلى أن استظهر النص كاملاً. بعد شهرين، شعر بأنّ الربّ . «كان يقوده» نحو نوعٍ من «خدمة كهنوتية دائمة». بعد أربعة أعوام، في عام 1957، وقبل تأسيس كنيسته الخاصّة بسنة، أعلمه اللّه، حسب زعمه، أنّ قَدَرَه الحقيقي كان أن يصبح هو ذاته قسّاً. يشرح فالويل: «كان قلبي يتحرّق رغبة لخدمة المسيح، وفي المحصّلة، انخرطْتُ في Baptist Bible College لسبرينغفيلد في ميسوري لأعدّ نفسي لما كان اللّه ينتظره منّي». وحسب قوله، فإنه، خلال تلك السنوات التي قضاها في تلك المدرسة الكتابية، اللّه «قَلَب حياته تماماً». إذ يشرح فالويل: «خلال سنتي الدراسية الأخيرة، صلّيتُ بحماس ليمنحني اللّه الحكمة في معرفة ما عليّ أن أفعله في حياتي، وذات ليلةٍ، وبينما كنتُ أقوم بقطع مسافة ثلاثمائة كيلومتر، مثلما أفعل في كلِّ عطلة نهاية الأسبوع، لألتحق بالمعبد المعمداني في كنساس سيتي حيث كان يجري تمريني كقسٍّ شاب، حظيتُ بفرصتي. ففي تلك اللحظة الخاصّة من شهر أيار، قُبيل نيلي لشهادتي ببضعة أسابيع، أخبرني قسّ كنساس سيتي بأنّه سيتغيّب عن قدّاس يوم الأحد وسألني إن كنتُ أستطيع القيام بالعظة الصباحية في الكنيسة. لم أكن قد جازفتُ قطّ من قبل، وكان ذلك، حكماً، يرعبني. فصلّيتُ وصمتُ خلال الأسبوع وسألتُ اللّه أن يرشدني من خلال هذه العظة إن كان يريدني أن أكون قسّاً أم لا». في ذلك الأحد، أنقذ فالويل تسعة عشر روحاً آمنت بالمسيح. من بين الأشخاص المعنيين، كانت امرأة مسنّة أسرّت إليه بأنّها كانت عضواً مؤسّساً للكنيسة منذ أكثر من عشرين عاماً، ولكنّها أدركت للتوّ فقط، عندما

سمعته يقول بأنّها كانت تحظى «بولادة جديدة». ويتابع فالويل: «أخذتُ تلك الكلمات كإشارة من اللّه تخصّني، لترشدني إلى أنّ قدري الحقيقي هو أن أكون قسّاً وأن أنقذ أرواحاً».

عام 1962، تحدّى اللّه مجدّداً إلى جيري فالويل، ليقول له هذه المرّة بأنّ عليه أن ينقذ روح أمريكا. يروي فالويل: «في تلك الفترة، عام 1962 و1963، ألغت المحكمة العليا في الولايات المتّحدة الصلاة وقراءة الكتاب المقدّس في التعليم العامّ، بعد ذلك بعشر سنوات، عام 1973، على أثر قضيّة روي ضدّ واد، أصبح الإجهاض مشروعاً في البلاد، فيما يخصّني، كانت تلك القرارات تؤدي إلى إبعاد اللّه عن القلوب والعقول وملاحقة الأجنّة. على مدى قرنين، كنّا نُعتَبَر «أمّة مطيعة للّه»، وعلى حين غرّة، أسقطنا تماماً إله أبائنا المؤسّسين».

في بداية خدمته الدينية، لم ينخرط المحترم جيري فالويل سوى في القضايا الداخلية الأثيرة عند جميع المسيحيين الإنجيليين أو الأصوليين. وكان تبريره لذلك هو التالي: مادام العالم مذموماً، لم يحصل أن سعى إلى إشراك تلامذته في قضايا السياسة الخارجية ولا حتّى في الانتخابات القومية. وفي النهاية، وبسبب السلطة المتنامية ظاهرياً لأهل اليسار، السلطة التي أظهروها في احتجاجاتهم ضدّ الحرب في فيتنام، انتهى فالويل وزعماء إنجيليون آخرون إلى الاعتقاد بأنّ «الإنسانويين العلمانيين كانوا يدمّرون العالم»، وأنّه ما لم يتدخّلوا هم بأنفسهم (الإنجيليون) على نحو أكبر، لكانوا مسئولين بدورهم عن ذلك الزوال. صرّح فالويل: . «ما لم نتأهّب نحن المسيحيون للانخراط المتزايد في الدفاع الديني والأخلاقي عن العالم، سنكون بدورنا مسئولين بطريقة ما عن موت الديمقراطية وزوال القيم المسيحية».

كان لابدّ لهذا التغيّر في الفلسفة أن يضرّ بكلِّ المجتمع المسيحي الأمريكي. عام 1970، وفي عملٍ بعنوان (المرحوم الكوكب الأرضي العظيم) The Late Great Planet Earth، يعلن الكاتب المسيحي هال ليندساي أنّ «على المسيحيين أن يكتفوا برصد علامات نهاية الأزمان ووصول المسيح. لا ينبغي عليهم السعي إلى تغيير العالم وإنّما الأحرى بهم أن يتأمّلوا مليّاً في النبوءات المتضمّنة في

الكتاب المقدس». يتجلّى تطوّر فكره في عملٍ لاحقٍ، (هَرَمجدّون: الحساب المعاكس) Countdown to Armageddon والذي قال فيه: «إذا تمالكت أمريكا نفسها، فسيكون في مقدورها أن تبقى قوّة عالمية طيلة الألفية». وناشد فيه المسيحيين «أن يتصرّفوا وأن يتحمّلوا المسؤوليات التي تتحتّم على المواطن وعلى عضو أسرة اللّه». وأوصى بأنّه على الأمريكيين أن ينتخبوا «الرسميين والسياسيين الذين يحكمون لصالح تعاليم الكتاب المقدّس ويحدّدون سياستنا الداخلية والخارجية بما يحمي بلدنا ونمط حياتنا». وهذه كلمات تأملها كلُّ التجمّع المسيحي لأنّ كتبه بيعت بأكثر من 50 مليون نسخة، كاد قراءه أن يكونوا حصراً من المسيحيين الخلاصيين المؤمنين والمشبعين بالكتاب المقدّس.

تلبية لتلك الدعوة إلى سياسة مستوحاةٍ من الكتاب المقدّس، أسّس فالويل في عام 1977 (جامعة الحريّة) Liberty University، وهي مؤسّسة تعليمية إنجيلية عليا، و(«الأغلبية الأخلاقية») Moral Majority، والأكثر جوهرية بالنسبة لدوافعه، وهي جمعية للمفاهيم السياسية الدقيقة جدّاً الرامية إلى توسيع البرنامج الأصولي بغية أن ينخرط أنصاره على نحوٍ أكثر فاعلية في الحياة العامّة. تكفّل فالويل بمهمّة تأسيس جيشٍ من الشباب الذين سيكونون مع الحياة (أي ضدّ الإجهاض)، ومع الاخلاق المسيحية ومع أمريكا. وقدّم لذلك الحجّة التالية: أثناء القرن العشرين الصاخب، عرفت أمريكا حربين عالميتين والعديد من النزاعات المحدودة دون أن تفقد بسبب ذلك «جوهرها ولا روحها». في المقال، ودائماً حسب زعمه وأتباعه، كانت البلاد قد بدأت تفقد تلك الروح بمنع الصلاة في المدرسة وشرعنة الإجهاض وتجاوز نسبة الطلاق 50% ، ووجود ما يقارب مليون حالة حمل عند المراهقات، في حين، ورغم معارضة المسيحيين الإنجيليين، كانت تُعطى في المدارس العامّة دروساً في التربية الجنسية تشيد باستخدام طرق منع الحمل بدلاً من التعفّف. كما كان فالويل يستهجن تزايد تعاطي المخدّرات الخفيفة والقبول بنمط الحياة اللواطي والسحاقي، ومراقبة حمل السلاح، والاستغلال المتزايد من قبل هوليوود للعنف والجنس في التلفزيون كما في السينما. كما أنّ اليمين الديني كان ساخطاً من عزم القضاة والمحاكم على عدم

التمييز بين الأديان، بحيث كانت المسيحية تجد نفسها على قدم المساواة مع البوذية والإسلام وحتى اليهودية، الأمر الذي كان يعني بالنسبة لليمين الديني، الذي يرى أن جميع المعتقدات الأخرى زائفة، أن المسيحيّة كانت كذلك بدورها، بل كان القانون، يذهب إلى حدّ تقييد حق الآباء في معاقبة أبنائهم، في حين أنّ الكتاب المقدّس، حسب الأصوليين، يوصي بالعقوبة الجسدية، وبالتالي «من واجب أبٍ أن يعاقب نسله». ويعتبرون، بذلك، أنّ الدولة قد اغتصبت حرمة العائلة. الأخطر من ذلك هو أنّه حينما بدأ التعديل حول المساواة في الحقوق، المؤيّد للثورة النسوية، يصبح اقتراحاً قابلاً للحياة في أمريكا، اعتبر اليمين المسيحي إنّ الأمر كان يتعلّق هنا بإعادة إثارة الخلاف حول مبدأ الكتاب المقدّس الذي بموجبه يُكون مكان المرأة في البيت. وفي النهاية، حينما هدّدت («مديرية الضرائب») Internal Revenue Service بإلغاء الإعفاء الضريبي الذي تحظى به المدارس والجامعات الإنجيلية، رأى اليمين المسيحي في ذلك فتيل حربٍ مقدّسة.

كما أدرك المسيحيّون الإنجيليّون، في تلك الحقبة، أنّه كان رفض الرواية التوراتية لخلق الكون، والإيمان بالجحيم والفردوس وبالحياة بعد الموت، والفصل بين الشرّ والخير والقيم العائلية بغية تشجيع المساواة بين الجنسين وحماية البيئة والحريّة الجنسية والإجهاض والقتل الرحيم والانتحار وإعادة توزيع الثروات يعني بالنسبة لليمين المسيحي ببساطة أنّ الشيوعية ستنتهي بالتغلّب على فلسفة أمريكا. حتى الأمم المتّحدة، برأيهم، متورّطة في مؤامرة عالمية هادفة إلى إقامة حكومة اشتراكية كونية وحيدة، تعيد، في المحصّلة، تعريف البنية الأخلاقية للعالم.

وبالنسبة للطائفة الإنجيلية، هكذا كانت قد اندلعت حربٌ، حرب مقدّسة بين اللّه والشيطان.

مع ذلك، ومع موافقتهم على القول بأنّ أمريكا تُسرع الخطى نحو السّاعة، نحو هرْمجدون، فإن المسيحيين كان لديهم الشعور بأنّ انحلال القيم الأخلاقية المتضمّنة في الكتاب المقدّس كانت تؤدّي إلى يقظة روحية في البلاد، وان هذه

الأخيرة ستنتهي بالانطلاق إلى تغيير سياسيٍّ ملموسٍ وأنّ العالم سيتمكّن من أن يتخلّص من الشرّ. وبدل الاستغراق في الإحباط، وجد فالويل في ذلك عزاءً، قائلاً: «ينبغي ألاّ يهتمّ اللّه والمؤمنون به باستطلاعات الشعبية. علينا ألاّ نهتمّ سوى بأمرٍ واحدٍ، الرضا الإلهي».

بمهارته كزعيمٍ ديني معتَبَر ومحتَرَم، لا يكتفي فالويل بإثارة مشكلة الإجهاض والصلاة في المدرسة والإباحية. بل أعلن موقفه كذلك بخصوص دفاعٍ قويٍّ من شأنه أن يتحدّى نوايا السوفييت، الأمر الذي نمّى بالطبع الدعم لإسرائيل، التي تُعتَبَر كمعقلٍ للديمقراطية في تلك المنطقة المضطربة من العالم. وأصبحت الأغلبية الأخلاقية مباشرة نقطة الرسو لليمين المسيحي ورمز ردّ الفعل أو التمرّد ضدّ الوسط الراديكالي الذي كان الكثير من الأمريكيين يعتبرونه مضادّا للقيم الثقافية والدينية التقليدية للبلاد. ومع ذلك، علاوة على المسيحيين المقتنعين المنضمين إلى حركة فالويل، فإنّ الملايين من المواطنين، الذين قلّما يعتمدون على الدين ولكنّهم كانوا يخشون من انهيار عموم القيم الأخلاقية، أقرّوا في بعض ردود أفعالهم بالأغلبية الأخلاقية، ولا سيما الحقد على، والخوف من الشيوعية. إجمالاً، كان المقصود هنا بنفس الأشخاص الذين كانوا قد فقدوا كلَّ سيطرة على أطفالهم بسبب راديكالية الستينات، والذين كانوا، منذ حينها، يتّجهون نحو اليمين الديني الجديد الذي كانوا يعتبرونه ليس كمملكة للفضيلة وإنّما كوسيلة لعكس الاتّجاه، وللتمهيد لعودة إلى القيم العائلية. في الواقع، كان ذلك الأمل الوحيد لديهم في استعادة أطفالهم التائهين في المخدّرات وفي التمرّد على أمريكا. وبعيداً عن اعتبار أنفسهم مثل مناضلين لثورة يمينيّة، كانوا بالأحرى يرون في أنفسهم على أنّهم يشكّلون جزءاً من حركة تدعو للعودة إلى التقاليد.

في السبعينات، بدأ الصحافيون وغيرهم من وسطاء الوحي بالإشارة إلى نشطاء دينيين هابطين من السماء، كان هدفهم إدراج القيم اليهودية-المسيحية من جديد في الشعور الجمعي. وكان قد أُحسِن اختيار الوقت لأن الأمريكيين لم يكونوا قد خرجوا بعد من عقد الستينات المضطرب، والذي كان يجري البحث خلاله عن شخصيات بارزة للدفاع عن القضايا الاجتماعية مثل المعاشرة بلا زواج

والإجهاض والخيانة الزوجية والمخدّرات وحقوق اللواطيين والنساء وكذلك المُسالَمة. كان ماركس اللّه، وكانت، أثناء حرب فيتنام، الشيوعية والجماعية وتوزيع الثروات ورفض كلّ أحابيل النزعة الماديّة المتمثّلة بأمريكا قد بلغت ذروتها. في أواسط السبعينات، كانت الولايات المتّحدة في أزمة، على الصعيد السياسي وميزانيتها مثلما هي في أزمة على الصعيد الروحي. وكردٍّ فعلٍ على صخب الستينات، كان الناس مستعدّين لمقايضة رموزهم «الوثنية» بالأتقياء.

خلال سنوات السبعينات، راجت نظريات لاهوتية راديكالية شتّى. بالنسبة لبعض المسيحيين، كان لابدّ من إعادة النظر في المعتقدات التقليدية وقلبها رأساً على عقب. بالنسبة لآخرين الأمر على نقيض ذلك، لم يكن الأمر الجوهري كيفية التكيّف مع الحداثة وإنّما الأحرى كيفية مقاومة ضغوط الامتثالية. فبحثت الناس عن تعريفٍ عقلانيٍّ «النمطِ حياةٍ مسيحيٍّ». وبدل الجدال حول وجود اللّه، دعوا إلى إقرارٍ غير مشروطٍ بالكتب المقدّسة.

وهكذا عاد جون نلسون داربي إلى الموضة.

بالنسبة للمسيحيين الراديكاليين الذين توجّهوا نحو داربي، كانت أمريكا «الزانية العظيمة في بابل»، التي ذُكِرَت في سفر الرؤيا. فجرت العودة حينها إلى اللغة الكتابية أو الرؤيوية لتحديد المصائب المفترَضة للمجتمع: الفساد الجنسي أو المُتْعيّة أو الكفر أو التمرّد بشكلٍ عام. كانت الصحيفة الإنجيلية الراديكالية سوجورنرز، الصادرة إبّان الاحتجاجات ضدّ حرب فيتنام، تعتبر التاريخ صراعاً بين النور والظلمات. كان المسيحيّون الإنجيليون، الخلاصيّون والأصوليّون، مهيّئين لإعادة حقن جرعة مناسبة من الأخلاق في حياة الأمريكيين جميعهم، بالاستناد على التفسير الحرفي للكتاب المقدّس.

بيد أنّ الأحداث التي انصبّت على أزمة الرهائن لم تترك أثراً عميقاً سوى بعد فوات الأوان، ولم يكن من الممكن أنْ يُرى فيها ذروة كارثة سوى بالعودة إلى نقطة انطلاقها.

إذا كان الأمريكيون في حاجةٍ إلى براهين إضافية على صحّة مواعظ وأحكام

المسيحيين الإنجيليين، أو إذا كان لا يلزمهم سوى حدثٍ وحيدٍ لتغذية وإحياء هذه الهستريا بالكتاب المقدّس، و، باختصار، تعزيز صعود اليمين المسيحي على الصعيد السياسي، فإنّ أمانيهم أُستُجيبَت في الرابع من تشرين الأوّل 1979. ففي ذلك اليوم، اُفتُتح مقرّ السفارة الأمريكية في طهران، وإذ كان الانفعال في أوجه، رأى الكثير من الناس في ذلك إشارة من اللّه تدلّ على أنّ المعركة بين الخير والشرّ قد بدأت.

17

أمريكا الراكعة

في عام 1979، أثناء احتجاز الرهائن في السفارة الأمريكية في طهران، كنتُ أعمل لقناة سي بي اس التلفزيونية .CBS أتذكّر تماماً تلك اللحظة، لأنّ 4 أكتوبر 1979 كان يوم أحدٍ، اليوم الذي تُلعَب فيه واحدة من المباريات التي تُعدُّ السوبر بوول، المباراة النهائية لبطولة الولايات المتّحدة لكرة القدم الأمريكية. كان البعض من زملائي في العمل مجتمعين في شقّتي النيويوركية وكنّا نشاهد تلك المباراة التي لم نرَ نهايتها طبعاً، لأنّ الاستديو استدعانا ليبلغنا بأنّ سبعين أمريكيّاً قد احتُجِزوا. والذين ستستمرُّ مدّةَ أسرِهم 444 يوماً.

وعلى مدى أكثر من عام، غطّينا جميعاً بلا توقف تلك القضية وتابعنا الأحداث في إيران، متلهفين لمعرفة أنّ المفاوضات كانت بطريقة أو أخرى قد بدأت. وسرعان ما أدركنا أنّ 4 تشرين الثاني كان تاريخاً مهمّاً في إيران بسبب ذكرى مزدوجة: يوم الطالب والذكرى السنوية لبداية المنفى التركي لآية اللّه خميني، في عام 1964. وإحياءً لذكرى الحدثين، كان قد جرى الاستعداد لمظاهرة للطلاب والتي كان عليها أن تنطلق من جامعة طهران وتعبر المدينة من الشرق إلى الغرب حسب مسيرة تمرّ من أمام السفارة الأمريكية. وسرعان ما تحوّلت تلك المظاهرة إلى الأسوأ نظراً للمشاعر المعادية لأمريكا بفظاظة والتي أثارتها علاقات الصداقة الحميمة التي كانت تربط بلادي بالشاه. ففي اللحظة التي مرّ فيها الحشد من أمام السفارة ورأى العلم الأمريكي ثار الغضب والحقد: خلع المتظاهرون الحاجز المشبّك واحتلوا المبنى وهكذا بدأت المأساة.

* * *

عام 1976، انتُخِبَ جيمس ايرل كارتر الثالث رئيساً للولايات المتّحدة، وبعد شهرٍ من تنصيبه، أطلقت مجلّتا تايم ونيوزويك على عام 1976 تسمية سنة الإنجيليين. كان كارتر، الذي كان قد بدأ في الحياة كمزارع للفول السوداني، رسميّاً مسيحيّاً خلاصي ولم يكن يتوفّر على أيّ خبرة في الأوساط السياسية في واشنطن. كانت شقيقته روت كارتر ستابلتون كاهنة إنجيلية، وكانت تمارس عملية وضع اليدين على الرأس لشفاء الناس، بما فيهم أولئك الذين كانوا يتباهون برفضهم للّه. وهكذا زعم الدريدج كليفر، الرئيس السابق لبلك بانتيرز، مجموعة المناضلين السود الذين يعتبرون بأنّ وحدها الثورة ستتيح الوصول إلى المساواة العرقية ، زعم لقاء اللّه بمساعدة روت كارتر ستابلتون، أثناء منفاه في جنوب فرنسا. لاري فلينت، ملك الإباحية، على رأس إمبراطورية صحافية مصنّفة x، هو مهتدٍ آخر أعلن أمام الملأ بأنّه»شفي «على يدي شقيقة الرئيس. أخيراً، بول ستوكاي الذي كان في أعوام الستينات جزءاً من المجموعة الشهيرة من أغاني فولك بيتر وبول وميري، لقي بدوره اللّه بفضل ستابلتون.

في تلك الفترة، فُضحت الشخصيات العامة جراء إشاعات تخصُّ حياتهم الخاصّة، بينما تباهى السياسيون ببسط حياتهم الخاصّة ليظهروا بأنّهم كانوا فوق العيوب، أي بعباراتٍ أخرى كانوا جديرين أخلاقياً للحكم. في الوقت ذاته، بدأ العديد من رجال السياسة بتسريب معلومات إلى الصحافة عن الممارسات الجنسية والأخلاقية لخصومهم، متّهمين إيّاهم بأنّ لهم سلوكٌ مشين، الأمر الذي كان يخدش صورتهم وبالنتيجة أهليتهم لخدمة البلاد. لم تكن الممارسة القائمة على التدخّل الحشري في الحياة الخاصّة للشخصيات العامّة لنبش قَرارَتهم الأكثر سريّة بعيدة كثيراً عن المكارثية الأخلاقية التي كانت تغلب في الخمسينات، إبّان الحرب الباردة. وخرجت نساء من الخفاء ليروين التعدّيات الجنسية التي كنّ قد تعرّضن لها من قبل هؤلاء الرجال المعروفين والسَفَلة، أو العلاقات الغرامية خارج الزواج التي كانت لهنّ بهؤلاء الرجال. وقد قوّضت سمعة الكثير من الشخصيات وفُقِدَت وظائفهم، أحياناً بناءً على مجرّد تعريضٍ بهم أو إشاعةٍ حولهم. فيما يخصّ الأخلاق، رُفِعَ المستوى كثيراً إلى درجة أنّ البعض فقط

استطاع بلوغه. وفي الوقت ذاتهن بدأ السياسيون اليمينيّون يبدون آراءهم في القضايا الداخلية التي تعتبرها الطائفة الإنجيلية جوهرية، الطائفة التي كانت تضمّ فيما سبق قرابة 50 مليون عضواً وكانت تشكّل قوّة رهيبة يتّكلُ عليها أثناء الانتخابات.

كان الجناح العلماني من المجتمع مؤلّفاً، من بين آخرين، من اليساريين الذين كانوا قد صوّتوا للديمقراطي كارتر لأنّه كان مستقلاّ وغريباً عن نظام المحسوبية المحكمة لواشنطن، وعن نزعة الموالاة التي كانت منتشرة جدّاً في الحقل العامّ. بالنسبة لكلّ هذا القسم من السكان، كان الدين، حتى هذا النمط من المسيحية التي كان يعلنها، يبدو حلاً معقولاً لقيادة أمريكا إلى الرشد. بعد كلٍّ شيء، كان عقد الستينات عقداً مضطرباً حيث كانت النضالات الاجتماعية والسياسات هائجة. فكان كارتر يبدو أنّه يشكّل تغييراً ملائماً، برؤاه للسلام وباحترامه لحقوق الكائن البشري. ولكن حينما اقترب كارتر من نهاية سنته الأولى في السلطة، انقلب أصدقاؤه المسيحيون الإنجيليون عليه، مستاءين ومصابين بخيبة أملٍ جراء انحرافاته. من جهة، كانت سياسته الخارجية تسير في تعارضٍ مع الميثاق الإبراهيمي، وهو ما بات جليّاً حينما قاد مبادرة للسلام بين إسرائيل ومصر، أرغمت الدولة اليهودية على إعادة أرضٍ أستولي عليها أثناء حربي 67 و73، وهي صحراء سيناء. ومن جهة أخرى، كانت الإجراءات الداخلية بعيدة عن إرضاء اليمين المسيحي الذي اعتبر اهتمام كارتر بحقوق الإنسان وميوله الليبرالية، وخاصّة موقفه من حريّة الاختيار، أي دعمه للإجهاض، منافية لبعض معاييرهم الأخلاقية الأساسية.

طيلة فترة رئاسته، اهتمّ كارتر بتنمية حقوق الإنسان، ولكن أيضاً بما كان يسميّه»العلاقة الخاصّة «بين الولايات المتّحدة وإيران الشاه التي كان يطيب له أن يردّد بأنّها»حليفةٌ وواحة صداقة في ذلك الجزء المضطّرب من العالم «. كان الدعم الفاضح للشاه خطأً مزعجاً لأنّ هذا الأخير كان قد اُتّهِم بانتهاكاتٍ خطيرة للحقوق الإنسان وباضطّهاد جماعة دينية لم تكن تكفّ عن النموّ في البلاد. في 3 تشرين الثاني 1978، قبل عامٍ من أزمة الرهائن، مات ابن الخميني، مصطفى،

على نحوٍ غامضٍ، ولا شكّ أن ذلك كان على أيدي الشرطة السرية للشاه، جهاز السافاك. في 13 تشرين الثاني، طار الملك إلى الولايات المتّحدة للتباحث مع كارتر، تاركاً وراءه احتجاجات يومية للطلبة، أصبحت تزداد عنفاً وجرأةً. بعد عودته، ولما كانت الاحتجاجات تحتدم ضدّ النظام، قرّر كارتر أن يهبّ لنجدة الزعيم الإيراني، فقطع زيارة دولة كان يقوم بها إلى الهند، وذهب، في 31 كانون الأول 1978، إلى طهران حيث استمرّ في التعبير عن ودٍّ كبيرٍ للنظام.

جعل هذا الموقف كلّ فئات سكان إيران في حيرة وارتباك. اعتبر المسلمون الشيعة المتديّنون دعم كارتر للشاه منافياً للفكرة التي كانوا قد كوّنوها عن معتقداته: فقد كان بالنسبة للعالم أجمع، »قدّيساً «. كيف كان يمكن للرئيس كارتر أن يمنح دعمه للشاه، الذي كان يجابه الأغلبية الدينية الساحقة في البلاد؟ ولم يكن المواطنون العلمانيون المعارضون للنظام يفهمون بدورهم كيف كان يمكن لكارتر، الذي كان يجعل من حقوق الإنسان واحدة من الرهانات المهمّة لرئاسته، أن يغضّ الطرف عن المذبحة المنظّمة ضدّ المدنيين من قبل الشاه الإيراني. كان سؤالٌ مزدوجٌ يتردد على كلّ الشفاه: »لا نفهم كيف يمكن لرجلٍ متديّنٍ مثل كارتر، جعل من الدفاع عن حقوق الإنسان حجر الزاوية لإدارته، أن يدافع عن الشاه في حين أنّ هذا الأخير يزدري الدين ولا يكنُّ أيَّ احترامٍ لحقوق مواطنيه«.

لقد بدا الخميني، بالنسبة للأصوليين الإيرانيين، على أنّه الردّ الإسلاميّ على دكتاتورية كافرة مدعومة من الرئيس الأمريكي، في حين بدا كارتر، بالنسبة للعلمانيين، على أنّه مخادعٌ كان يدعم الشاه رغم سجّله الفظيع بصدد حقوق الإنسان.

وإذا كان ذلك حدثاً ساهم في جعل أمريكا الشيطان الأكبر، إنّه ذلك الذي حدث أثناء زيارة لكارتر إلى طهران في الشهر المحّرم الحرام عند المسلمين. فقد تجرأ الشاه، في تلك المناسبة، على حظر مظاهر الحداد التقليدية التي تنظّم لأربعين يوماً بعد وفاة. والحال أنّ المرحوم الذي لم يشأ الشاه أن يكرّمه شعبه هو مصطفى الخميني. في اليوم التالي، واحتجاجاً على ذلك، انتشر أكثر من أربعين ألف طالباً في شوارع مدينة قُم المقدّسة للمطالبة بإعادة العمل بدستور

1906 الذي كان يكفل حريّة التعبير. وعلاوة على ذلك، طلبوا إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين، وطالبوا بعودة آية اللّه خميني إلى إيران.

ولقمع الاحتجاجات الشعبية، فتح رجال شرطة الشاه النار على المحتجين، وقتلوا، في اليوم الأكثر دموية من تلك الفترة المضطربة، أكثر من سبعين طالباً. وقد ساد الاعتقاد في البلاد بأسرها بأنّه لولا دعم أمريكا لما كان الشاه قد نجا أبداً أو لما كان قد شعر بأنّه بما يكفي من القوة ليتحدّى الأغلبية المتديّنة المطلقة من السكان. لدى العودة إلى البيت الأبيض، ألقى كارتر خطاباً مؤثّراً أثناء احتفالٍ في واشنطن، حيث ألمح، مرّة أخرى، إلى»العلاقة الخاصّة «للولايات المتّحدة بإيران.

في شباط 1979، عاد آية اللّه خميني أخيراً إلى طهران وشرع في تأجيج السخط الشعبي الذي حوّله إلى معاداةٍ محتدّة لأمريكا. كان الشاه حينها يعاني من سرطانٍ منتشر، وحينما وصل إلى نيويورك بعد أن حصل من الرئيس كارتر على إذنٍ خاصٍّ للمعالجة من قبل أطباءٍ أمريكيين في مستشفى نيويورك، حثّ أية اللّه الأنصار ليتجاوزوا الهجوم الكلامي على الولايات المتّحدة إلى الفعل الملموس. بعد ذلك بتسعة أشهر كانت أزمة الرهائن تندلع.

* * *

بعد عدّة أيام من بداية قضية الرهائن، وأثناء الانقطاع عن تغطية الحدث لفترة وجيزة، كنت استقرّبت في مكتب التحرير خاصتي أخيراً وانكببتُ على تصفّح كومة الُصحف التي لم تكن قد فُتِحَت منذ تفجّر الأزمة. في تلك اللحظة، لم تكن الصور الاعتيادية للرهائن وهم معصوبي الأعين ويُطافُ بهم في شوارع البلاد هي ما صُدمتُ لها، وإنّما صورة منشورة على الصفحة الأولى لجريدة نيويورك تايمز، كان يُشاهَدُ فيها جيمي كارتر راكعاً في المكتب البيضاوي محاطاً ببعض مستشاريه المقرّبين، مع تعليقٍ: «الرئيس كارتر وحكومته يُصلّون من أجل تحرير الرهائن الأمريكيين».

وبذلك، لم يكن رئيس الدولة الأقوى في العالم يبدو في وارد استدعاء قوات المارينز أو الاتّصال بزعماء دولٍ أخرى بقصد تشكيل أيّ تحالفٍ لتحرير

السبعين موظّفاً في السفارة الأمريكية. وكنا نراه، بدل ذلك، قويّاً في إيمانه لإيجاد الوسيلة لكي يغيّر الوضع ويُعيد للبلاد كرامتها وللأسر أقاربها. كان أمرٌ مستَحدَثٌ يحدث في البلاد، بحيث كانت واحدة من الصحف الأكثر انتشاراً واحتراماً، والمعروفةِ باتّجاهها الليبرالي، وبدعمها للحزب الديمقراطي، تنشر صورةً للرئيس الأمريكي الساعي إلى تبديد الإذلال والصدمة بالصلاة. كان ذلك بالنسبة للشعب الأمريكي يعني أمراً وحيداً: إنّ رئيسهم كان يعتقد أنّ اللّه كان الردّ على ما كان قد أصبح مأساةً قوميةً. بالإضافة إلى ذلك، كان اللجوء إلى الدين لحلٍّ أزمةٍ سياسية قد فرض نفسه بطريقة ما في الوعي الجمعي. وكان ذلك دلالة خطيرة على تغيّرٍ عميقٍ جرى في مناخ البلاد بل وفي تركيبها. ولأنّه كان من المستبعَد جدّاً أن يمكن لذلك أن يظهر، كان الأمريكيون، العاجزون والمهانون، يلتفتون نحو اللّه والدين ليتمكّنوا من تخفيف مخاوفهم وإضفاء السكينة على أرواحهم. بعد ذلك ببضعة أسابيع سُمِعَت أصوات إنجيلية تدين شرور الإسلام وتشتكي، يؤيّدها في ذلك الكتاب المقدّس، من حربه الصليبية المستمرّة ضدّ النصارى. فصرّح دون ريتشاردسون، المبشّر المعروف جدّاً الذي كان قد عمل في بلدان إسلامية، قائلاً: «الآيات الحسنة للقرآن هي كالأطعمة التي يخلطها القاتل بالسمّ ليخفي طعمه المميت. من الأفضل البحث عن هذه الأغذية، خالية من السمّ، في الكتاب المقدّس».

يعود العداء بين المسيحيين والمسلمين إلى الحروب الصليبية، ولكن في القرن العشرين، بدأ البحاثة والقادة الإنجيليّون بذكر عددٍ كبيرٍ من الدوافع التاريخية والملموسة لتبرير اعتقادهم الراسخ بأنّ الإسلام كان يجسّد الشرّ. وحسب عقيدة مسيحيّة راسخة جدّاً في اللاّشعور الغربي: الإسلام، ومنذ سقوط بيزنطة وإعادة احتلال إسبانيا، هو الدين الوحيد الذي هدّد باستمرار، من خلال ثقافته وأدبه، وجود النصارى. بينما كان الرهائن قد اتّخذوا أسرى، زعم المسيحيّون الخلاصيّون بأنّ هذه الحالة كانت مثالاً ناجزاً على الهوّة بين العالم المسيحي المتمدّن والمبادئ البربرية للإسلام. على كلٍّ حال، رفض المسلمون المفهوم المسيحيّ لإلهٍ ثالوثيٍّ -الأب والابن والروح القدس -. لقد رفضوا العقيدة المسيحية التي تعتبر أن يسوع هو ابن اللّه. كما أنّ المسلمين أفظاظٌ يهوون

العنف، حتى أثناء حجّهم إلى مكّة، التي توفّى فيها أولياءهم الصالحون. ثمّة علامة شريرة أخرى، هي يوم الجمعة، يوم الصلاة الجماعية في المسجد، الذي كان قد فهمه المسيحيّون كيومٍ للغضب والهيجان، أمّا الصلاة بذاتها، فكان المسيحيّون مقتنعين بأنّ المسلمين يصلّون من أجل «كسب نقاط» وليس في سبيل التواصل مع اللّه.

خلال الأسابيع والأشهر التي تلت، بعد نهاية سوبر بوول بفترة طويلة وبينما كانت شعبية كارتر تنهار في الاستطلاعات، ظلّت صور الأمريكيين المقنّعين وهم يُجرجَرون من مخبأ إلى آخر تشكّل الصفحة الأولى من الصحف، والخبر الأول في التلفزيونات. وكانت الجماهير الحانقة للشبّان الملتحين وهو يرفعون قبضاتهم ويهتفون»الموت لأمريكا! «ثابتة أيضاً، أولئك الشبّان المتزمّتين الذين يجلدون بالسياط ظهرهم حتى الإدماء ولاءً لله وتسبيحاً باسمه. ومن ثمّ جاءت صورٌ أخرى تجذب كثيراً الجمهور الأمريكي الكبير: صورٌ وتقارير مصوّرة عن شاهٍ هزيلٍ مشرفٍ على الموت، محاطاً بأسرته التي كانت تقيم بأكداس حقائبها الفويتون في جناحٍ مع شرفةٍ لمستشفى نيويورك، ليُعالَج فيها من مرض السرطان الذي سيغلبه في النهاية. كانت تلك حكاية مؤثرة بكل العناصر التي أُولِعَ بها الأمريكيون: تبذير الثروات، مثير للشفقة، القسوة، الألم والموت المبرمج لزعيمٍ مطلق السلطة، والتي لم تكن تفعل سوى زيادة في توتير الحكاية. ثمّ كانت هناك صورٌ أخرى، صور زوجته الحسناء فرح ديبا التي بدت فجأة مهملة منهوكة كأيّة ساكنة ضواحي مع أطفالٍ صغارٍ وزوجٍ محتضرٍ، وهي تقارب ذكريات أفضل أيامها حينما كانت تظهر مزيّنة بالمجوهرات النفيسة جدّاً وجبينها مطوّق بتاجها المشؤوم.

بعض الصحفيين الأمريكيين، الأقلُّ ميلاً للإثارة والأقلّ اهتماماً»بالجانب الإنساني «للقصص، حلّلوا بعمق أكثر بقليل الممارسات اللا إنسانية لجهاز السافاك الذي كان قد عذّب وقتل الآلاف من الإيرانيين. وعلى أيّة حال، وبرؤية أو أخرى للمأساة، بدا أنّ كارتر كان عاجزاً بحيث استمرّت شعبيته بالتدهور بنفس السرعة التي كان فيها الإسلام الأصولي ينتشر في إيران وكانت العقيدة الإنجيلية المسيحية تتعزّز في أمريكا.

واحدة من المشاكل الكبرى التي طُرحت من جراء تغطية أزمة الرهائن كانت تكمن في أنّ المواطن الأمريكي العادي لم يكن يدرك حقّاً أهمية الثورة الإسلامية في إيران وكذلك لم يكن يفهم إلى أيّة درجة كانت الولايات المتّحدة قد اعتبِرَت عدوةً ينبغي مقاتلتها. بالنسبة لغالبية الناس، كان الأمر يتعلّق، مرّة أخرى، بحليفٍ سقط في أيدي ديكتاتوريةٍ (آية اللّه). حينها لم نُدرك بأنّه كان بإمكان المرء أن يموت في سبيل اللّه. لم تكن المعتقدات الأصولية لأولئك الذين أطاحوا بالشاه وأهدافهم السياسية النهائية تبدو وكأنّها تهديدٌ مباشرٌ لأمريكا. أمريكا التي كانت، بالنسبة لها، تبقى الشيوعية هي التي تجسّد الشرَّ بحيث أنّ ثورة مندلعة من قبل أصوليين إسلاميين كانت غريبة ومبهمة للغاية كي يمكن أخذ الحذر منها. بالنسبة للأغلبية الشاسعة من السكان كان الصراع الرئيسي يستمرّ في التلاعب في أوروبا الوسطى وحتى بعض المتتبّعين الحاذقين للسياسة في أمريكا شقّ عليهم توقُّع بل وحتى تصوّر توريطات ثورة إسلامية في الطرف الآخر من العالم. وتكمن سخرية القدر طبعاً في أنّه بإدخال الإسلام الأصولي في البلاد، شجّعت الثورة الإسلامية في الوقت ذاته، كردٍّ فعلٍ، بروز المسيحية الأصولية في الولايات المتّحدة.

ولسوء الحظ، لم تجد صلوات الرئيس كارتر نفعاً لا له ذاته ولا للرهائن ولا لأسرهم ولا للبلاد في حلِّ الأزمة، ولا ساعدت حتى في حياته السياسية. فبعد فشل الصلوات والعديد من المحاولات العسكرية لإنقاذ الرهائن، رأى فالويل وسواه من المسيحيّين الإنجيليّين المؤثّرين بأن الوقت قد حان للانخراط بفاعلية في الانتخابات الرئاسية القادمة لعام 1980. مثلما صرّح بذلك جيري فالويل حينها: «... الرئيس كارتر مسيحيٌّ صالح، ولكنّه لم يقرأ الكتب المقدّسة جيّداً ليدرك المكانة الجوهرية الآيلة لإسرائيل وللشعب اليهودي في المخطّط الإلهي، ولم يُدرك على نحوٍ خاصٍّ التهديد الذي يشكّله الإسلام على النصارى» .

بعد بضعة شهورٍ من تلك الصدمة النفسية الجماعية التي أصابت البلاد برمّتها، دخل اليمين الديني رسميّاً في الحلبة السياسية عازماً على أن يجعل من أمريكا «قدساً جديدةً».

قبل عدّة أشهر من بداية الحملة الرئاسية لعام 1980، أظهر استطلاعٌ

لمؤسّسة غالوب أنّ أمريكياً من أصل كل ثلاثة أميركيين كان قد صار إنجيلياً وأنّ ما يقارب 50% كانوا يعتبرون الكتاب المقدّس معصوماً وأنّ أكثر من 80% كانوا يرون في يسوع شخصية إلهية. كما أنّ الاستطلاع كشف أنه كان يوجد في البلاد 1300 محطّة إذاعية وقناة تلفزيونية إنجيلية، كانت برامجها تُتابَع من قبل 130مليوناً من المستمعين والمشاهدين وأنّ الأرباح السنوية ارتفعت من 500مليون إلى عدّة ملياراتٍ من الدولارات.أحد الأصوليين البارزين، مؤسّس ومدير القناة المسيحية، Christian Broadcast Network ، بات روبرتسون، التقط حينها الإذاعة ليذيع: «الدينا ما يكفي من الأصوات لقيادة هذا البلد!».

وستثبت بقية الأحداث ذلك.

كان ذلك عهداً فريداً بالنسبة لأمريكا، لاسيما بالنسبة للذين كانوا يرون في كارتر أحد الزعماء الأكثر تديّناً الذين انتخبتهم البلاد على الإطلاق. لم يكن يُفهَم العداء المفاجئ من اليمين المسيحي لواحدٍ من أهله. ولكن تلك كانت الحالة، ووقع اختيار اليمين على رونالد ريغان، الممثّل السابق الذي كان قد أثار الكثير من الإعجاب كحاكمٍ لكاليفورنيا والذي كان يؤمن بالتنجيم أكثر من إيمانه بالكتاب المقدّس. علىً كلٍّ حال، كان رجلاً لطيفاً ورشيقاً وطموحاً وهي الصفات التي قادته، إضافة إلى موهبته كممثّل، إلى إيجاد الكلمات الدقيقة لجذب جماعة من الناخبين تزداد تمثيلاً.

* * *

إد ماكاتير، الذي يُعتبر على أنّه «عرّاب» اليمين المسيحي في أمريكا، هو شخصيّة هامة أخرى جابهت الرئيس كارتر ومارس رأيه تأثيراً واسعاً على الطائفة الإنجيلية. كما فرض ماكاتير نفسه، مع المحترم مايك ايفانز كزعيم لحركة (مهمّة إزاء اليهود) Mission to the jews، وهو المشروع الإنجيلي الذي كان يرمي إلى هداية اليهود إلى المسيحية، ولكنّه آثر أن يكون معروفاً كخبيرٍ في شؤون الشرق الأوسط ومعدّ لمآدب الفطور الوطنية من أجل الصلاة. وهذه الأخيرة طُرِحَت خلال المؤتمر السنوي لـ (National Religious Bradcasters مسئولي المحطات

الإذاعية الدينية القومية) والتي كان لابدّ لها من أن تمارس تأثيراً سياسياً واسعاً على نتيجة الانتخابات الرئاسية. أثناء حديث أدلى به لي حديثاً من منزله في تينيسي، صرّح اد ماكاتير: «منذ البداية، أدركتُ بأنّ الرئاسة كانت حملاً ثقيلاً للغاية بالنسبة لكارتر، وبأنّه لم يكن يتوفّر على منكبين عريضين يكفي ذلك الحمل. لم يُدرك قط كيف كان يجب أن يُدير بلداً مثل أمريكا كما لم يدرك بأنّ ولاية سياسية أيّاً كانت هي ممنوحة من اللّه ومستلهمة منه».

اليوم، لا يزال إد ماكاتير، وهو في السادسة والستين، محلّ احترامٍ شديد وسط الطائفة الإنجيلية. وكمؤسّسٍ مشتركٍ مع جيري فالويل لمنظمة الأغلبية الأخلاقية، كان هو مَن عبّأ الحركة الإنجيلية ليجعل منها القاعدة الأكثر نفوذاً وقدرة داخل الحزب الجمهوري. في الوقت الراهن، يدير (الطاولة المستديرة الدينية) Religiuos Rountable التي أسّسها أيضاً: وهي منظمة ذات هدف غير ربحي تثبّت صوت وبرنامج العمل الإنجيلي في الداخل بقدر ما على الصعيد الدولي.

وبمرحه وألفته وذاكرته النشيطة التي لا تخطئ أسماء الناس والطُرَف التي تخصّهم، يثير ماكاتير في الحال الودّ والانجذاب. ومع إقراره بأنّه لم يُتّهَم قط بال»التواضع«، يسارع إلى القول بأنّه يشعر بتواضعٍ شديد أمام الكتب المقدّسة التي تشكّل حافزه الرئيسي في الوجود. خلال حديثٍ جرى بيننا في تشرين الثاني 2003، عرّف نفسه على أنّه»مسيحيٌّ خلاصي سافِر، مولَع بالكتاب المقدّس، اقتيدَ في سنّ الرابعة عشرة إلى كنيسة ميتودستية (منهجية) من قبل رجلٍ مات سكيراً للاستماع إلى الإنجيل: كسبتُ تجربة تماثل تجربة القديس بولص على طريق دمشق. لم أكن حينها سوى مراهقٍ ولكنني أُنقذْتُ من قبل يسوع الذي بات ربّ حياتي وسيّدها».

إبّان الحرب العالمية الثانية، أُنقِذت حياة ماكاتير للمرّة الثانية لأنّه كان أحد الناجين القليلين من USS St. Law، الباخرة الأولى التي أُغرِقت من قبل الطيارين المقاتلين الانتحاريين Kamikazes في المحيط الهادئ بالقرب من الفيليبين. تابع ماكاتير قائلاً:»قال يسوع إن أبناء هذه الأرض سوف يعرفون ولادة ثانية، ولكن

أحياناً يعتقد الناس في هذه الدنيا بأنّهم أكثر مكراً من أولئك الذين يعيشون في مملكة اللّه. بعد النجاة في الحرب، درستُ القانون لبعض الوقت، ثم اقتحمتُ ميدان المبيعات، وكنت أنال، كلّ عام، جائزة أفضل بائع عندProcter & Gamble . وفي النهاية، أنا مَنْ درّبت المستخدَمين وغالباً ما فتحتُ عيونهم وقلوبهم للّه».

وإلى ماكاتير يعود الفضل كذلك في تقديم جيري فالويل إلى المرشّح رونالد ريغان، الذي أعدّه للانتخابات الرئاسية. حسب ماكاتير، لأنّ فالويل كان يعرف ريغان وكان قادراً على»مساعدته في الولوج تماماً في قالب الرئاسة «سمح بدعم الأغلبية الأخلاقية لترشيحه والذي تمكّن بذلك من الفوز على جيمي كارتر. والواقع، لو أنّ هذا الأخير لم يكن قد رفض عروض كتلته الانتخابية الإنجيلية، لكان ماكاتير قد واجه صعوبة أكثر بكثير في الوصول إلى غايته. يبقى أنّ ريغان تعلّم الدرس سريعاً، إذا لم تكد أن تمضي عدّة أيام على تقرّب ماكاتير وفالويل منه حتّى بدأ بإطلاق تصريحاتٍ مستوحاةٍ من الكتاب المقدّس. فقد صرّح رئيس المستقبل: «الخلاص ليس خلاص إسرائيل فحسب، وإنّما خلاص العالم أجمع بما أنّ خلاص العالم يرتبط بخلاص إسرائيل». كان حاخاماً أرثوذكسياً متطرفاً من حركة غوش في إسرائيل، إليعازر ڤالدمان، أوّلُ مَنْ صرّح:

«الخلاص ليس خلاص إسرائيل فحسب، وإنّما خلاص العالم أجمع. ومع ذلك فخلاص العالم يرتبط بخلاص إسرائيل. من هنا يأتي التأثير الثقافي والروحي والأخلاقي الذي نمارسه على العالم أجمع. ستكون البشرية كلّها مبارَكة حينما سيستقرّ شعب إسرائيل على كامل ترابه»

حسب ماكاتير، كانت اللحظة الأكثر حسماً في علاقته مع ريغان هي الاجتماع الذي نظّمه في إطار الحملة الانتخابية في دالاس (تكساس). ولأنّ منظّمته، Religious Rountable، ذات هدفٍ غير ربحي وبالتالي غير قادرة على دعم مرّشحٍ سياسيّ رسميّاٍ، اضطرّ ماكاتير لأن يدعو المرشَّحَين الطامعين بالرئاسة إلى تقديم نفسيهما للجماعة. وهو الاختبار الأساسي للمرشّح الذي كان بحاجةٍ إلى إقناع الطائفة الإنجيلية بانتخابه لرئاسة الولايات المتّحدة. كان الحضور يقتصر على المسيحيين الإنجيليين الذين كان عدداً كبيراً منهم ينتمي للحزب الديمقراطي

الديكسوني[1] أو الجناح اليميني المتشدّد في الحزب الجمهوري. في مجال السياسة الداخلية، كان هذا الجناح معارضاً للإجهاض ولحقوق اللواطيين والنساء ولمراقبة حمل السلاح. كما أنّه كان يرفض قوانين التعديل الأوّل المتعلّقة بالفصل بين الكنيسة والدولة وكان يؤيد الصلاة في المدرسة. والأمر الأكثر دلالة أيضاً هو أنّ هذه المجموعة كانت وطنيّة بعمق وكان لديها إحساسٌ، أكثر رهافة بالتأكيد من بقية البلاد، بمسئولية كارتر في أزمة الرهائن- الحادثة المزعجة التي كانوا يعتبرونها «الإهانة الأكبر لأمريكا يومها».

خلال تلك المقابلة ذاتها، كان لابدّ أن يذكر ماكاتير الأحداث التي أدّت إلى ما دعاه «الموت السياسي لكارتر» : «قرّر كارتر الذي كان هو نفسه مسيحيّاً خلاصيّاً عدم حضور ذلك التجمّع لأنّ مستشاريه قالوا له بأنه عليه أن يرضي الجماهير بدلاً من «مداهنة الناس الذين في معسكره الخاص». فتلقّيتُ اتّصالاً من أحد أولئك المستشارين والذي قال لي بأنّهم لا يرغبون في أن يُحسبوا على اليمين المسيحي. كان كارتر قد أنتُخِبَ في المرّة الأولى بفضل المسيحيين الإنجيليين. وكنا قد رأيناه في العمل لعدّة سنوات، وبعد رفضه لدعم الإجراءات المتّخذة ضدّ الإجهاض أو للتصريح ضدّ فصل الكنيسة والدولة أو دعوة المسيحيين الإنجيليين إلى البيت الأبيض، أدركتُ بأنّه سوف لن يتدخّل لصالحنا. لم يكن هناك أيُّ حقدٍ حياله، بكلّ بساطة كان هناك خيبةُ أملٍ كبيرة عندما رأينا بأنّه لم يكن يحسن التصرّف لحماية اللّه وبلده».

استنادا؟ بشكلٍ أساسي، إلى عمله في مجال حقوق الإنسان وإلى سلوكه حيال إسرائيل، أخذ ماكاتير وأصدقائه على كارتر مساهمته في قيام «النظام الأكثر قمعاً في التاريخ المعاصر»: «مع الخميني في إيران، سمح كارتر بقيام النظام الأكثر شمولياً والذي أصبح هو نفسه مَنْ موّل لاحقاً في العالم برمّته الإرهاب ضدّ الولايات المتّحدة والذي لا يزال يواظب على فعل ذلك اليوم».

---

(1) نسبة إلى منطقة ديكسون المعروفة بتشدّد ناخبيها -المترجم-

وإذا كان كارتر رفض دعوة ماكاتير، فإنّ ريغان قبِل بالحضور إلى دالاس أمام الممثّلين الرئيسيين للطائفة الإنجيلية. يقول ماكاتير: «بناءً على نصيحتي حضر ريغان إلى تجمّعنا. الأمر الذي أتاح له ليس فقط أن يعبّر عن امتنانه واحترامه لحشدٍ يناهز عشرين ألف مسيحيّاً مولعاً بالكتاب المقدّس، بل وأيضاً أن يصرّح بجملةٍ كنتُ قد كتبتها والتي سمحت له، باختصار، أن يفوز بالانتخابات». قبل دخوله إلى المسرح ببضعة دقائق وبعد أن قدّم له ماكاتير مطالعةً دقيقة وردّد معه العبارات الدقيقة التي يجب أن تُقال، اقترح الصلاة معاً. «قلتُ له بأنّه سيكون من المناسب الاستهداء بالرّبّ وأجاب السيد ريغان: «طبعاً! يا إد، هيا بنا». فشكّلنا حلقة، هو وأنا وخمسة أو ستّة الواعظين الإنجيليين، ضممنا أيادينا إلى يدي ريغان وتضرّعنا إلى الله لأن يبارك هذا الرجل ويهدي مواطنينا جميعاً لكي ينتخبوه على رأس البلاد. «أدرك رونالد ريغان، الذي لم يكن قد جاهر أبداً بالانتماء إلى الإنجيلية ولا بميلٍ خاصٍ نحو هذه الحركة، وبفضل صديقه ومرشده السياسي إد ماكاتير، بأنّ المجموعة التي كان قد توجّه إليها كانت تمتلك أحد المفاتيح الأساسية لبلوغ البيت الأبيض .

عندما انتهت الصلاة، تقدّم رونالد ريغان على المسرح وانتظر انتهاء التصفيق والتهليل. حينما استعادت القاعة الصمت، حدّق في الحضور وأطلق الكلمات التالية التي كان إد ماكاتير قد أعدّها له: «أعلم أنّكم لا تستطيعون مساعدتي لأنّكم منظّمة ذات هدفٍ غير ربحي، قال الرئيس القادم، ولكنني أساندكم أنتم ومعتقداتكم» .

حسب إد ماكاتير، ثارت حينها في القاعة عاصفة من الهتافات والتصفيق. إذ يقول: «في تلك اللحظة، عرفتُ بأنه كان يمكن لدورنا أن يكون حاسماً شريطة تجميع أصوات الديمقراطيين وكلّ الإنجيليين الذين كانوا، حينذاك، أكثر من مليون في البلاد».

وبغية تعزيز مساندة المسيحيين على نحوٍ أكثر، عرِفَ ريغان، المعَدّ من قبل ماكاتير، بدقّة بماذا يردّ على أسئلتهم. حينما رفع كاهنٌ إنجيليّ يده وسأله عن شعوره حيال مسألة الصلاة في المدرسة، ردّ الرئيس المستقبلي: «سوف لن ينجح

أيُّ شخصٍ في إقناعي بأنّه من السيئ لأطفالٍ يافعين أن يصلّوا في حَرَمِ مدرستهم. «فثار الحضور وهاج. وحينما سأله قسٌّ آخر عن معارضته للإجهاض، أجاب: »حسناً، الأشخاص الوحيدون المؤيّدون للإجهاض الذين التقيت بهم من قبل هم أولئك الذين سبق أن وِلِدوا».

ربّما كانت ردود ريغان تفتقر للعمق أو اللباقة الفكرية، ولكنّها بالتأكيد لم تكن مجرّدة من الشعور. بالإضافة إلى ذلك، نجح ريغان، ببساطة عباراته، في أن يمسّ شغاف قلوب المسيحيين الخلاصيين أجمعين.

في ذلك اليوم أيضاً، اجتهد القادة المسيحيّون بلا حساب في سبيل انتخاب مرشّحين من طراز ريغان في عموم البلاد، رجالٌ ونساءٌ مقتنعون بضرورة تقليص دور الدولة، وبتخفيض الضرائب، وبتقديم دعم حيوي لإسرائيل الكبرى. الذين درسوا عمله صرّحوا بأنّ القيم التي كان يجسّدها لم تتغيّر أبداً بعد انتقاله إلى البيت الأبيض ودفعت عنّه باستمرار تهم «الخمول الذهني «الموجّهة إليه .

أمّا المعجبين به، فقد رأوا فيه على الدوام الرئيس المحافظ بامتياز والذي له ثلاثة أهداف: هزيمة الشيوعية، وخفض الضرائب وإنهاض الاقتصاد. وحسب رأيهم، نجح تماماً في هذه المشاريع الثلاثة.

18

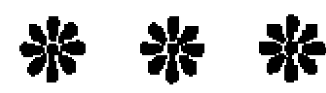
إحياء إسرائيل

حمل سياق أزمة رهائن 1979، وسياق تحريرهم غداة تنصيب الرئيس ريغان إلى فالويل وماكاتير البراهين التي كانوا يحتاجونها لإقناع البلاد بأنّ ريغان كان حقّاً يتمتّع بالبركة الإلهية. بعد ما يقارب عشر سنوات من ذلك التاريخ، استمرّ ريغان، الذي أشرف على تفكّك الاتّحاد السوفيتي، في مداهنة الطائفة الإنجيلية. فصرّح، معبّراً عن رأيه بلهجة مرموزة، بأنّ انهيار الاتّحاد السوفيتي كان «انتصار اللّه على الملحدين».

في لقاء حديثٍ، صرّح لي المحترم فالويل بجلاء بأنّ رونالد ريغان كان قد «عزّز قوانين اللّه في أمريكا»: «...ربّما لم يكن الرئيس ريغان مسيحيّاً خلاصيّاً كما نتصوّر، ولكن كانت لديه فطرياً أخلاقٌ دينية جلبت، في المحصّلة، العزّة والصلاح والطّهارة للشعب الأمريكي». كما أنّ تأثير فالويل وماكاتير على الرئيس بشأن النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني كان مهمّاً جدّاً. ففي لحظة محدّدة، بُعيد الانتخابات الرئاسية، أدلى فالويل بالتعليق التالي: على الولايات المتّحدة ألاّ تنضمّ إلى أيّ ضغطٍ محتَمَلٍ لتوليدِ سلامٍ لا يكون دائماً وعادلاً ومطابقاً للكتب المقدّسة. منقاداً من قبل فالويل ومسيحيين إنجيليين آخرين، أعلن الرئيس ريغان دعمه لحكومة مناحيم بيغن اليمينية، بما في ذلك قراراتها بعدم تقديم أي «تنازلٍ إقليمي». في الواقع، أصبحت العلاقات بين اليهود والمسيحيين الإنجيليين حميمة جدّاً خلال أعوام الثمانينات بحيث خابر رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن، بعد قصف إسرائيل للمفاعل النووي العراقي في عام 1981مباشرة، جيري فالويل حتى قبل أن يتّصل برونالد ريغان. وحسب فالويل، طلب منه بيغن أن يتوسّط لدى

صديقه الطيّب السيد ريغان وأن يشرح له بأنّ ما قد يبدو على أنّه «هجومٌ غير مبرّر» ضدّ العراق هو في الحقيقة ليس سوى ضربة دقيقة تهدف إلى تحييد مفاعله النووي. في تلك السنة ذاتها، تلقّى جيري فالويل وسام جابوتنسكي الرائع الذي مُنِحَ له من قبل إسرائيل عرفاناً بالجميل لدعمه للدولة اليهودية.

طيلة سنوات حكم ريغان، دأب الليكود على توثيق العلاقات مع قادة اليمين المسيحي الأمريكي الذي كان يدعم علانية سياسته الاستيطانية في الضفّة الغربية وقطاع غزّة، كما دعم في عام 1982، الغزو الإسرائيلي للبنان. العلاقات الحميمة لفالويل بإدارة ريغان حثّته على دعوة موشيه آرينز، الذي كان حينها وزير الخارجية الإسرائيلي، ليبدي رأيه خلال المؤتمر السنوي الخامس للأغلبية الأخلاقية في القدس. خلال مداخلته، وصف آرينز الحرب في لبنان بـ «النصر العظيم ليس لإسرائيل فحسب بل وللعالم الحرّ بأسره».



بعد شهرٍ من نشر تيودور هرتزل، مؤسّس الصهيونية الحديثة، لكتابه الدولة اليهودية، في عام 1896، قام وليام هـ. هيشلر، مرشد سفارة بريطانيا العظمى في ڤيينا، بزيارته. من وجهة نظر المحترَم، كانت الخطّة المقتَرَحة من قبل هرتزل لوطنٍ يهوديٍّ في فلسطين دليلاً ملموساً على أنّ النبوءة التوراتية بشأن عودة اليهود إلى الأرض المقدّسة ستنصبّ على المجيء الثاني للمسيح.

في الواقع، كان هيشلر يستمدّ من سنوات إلهامه من تعاليم جون نلسون داربي. في بداية علاقتهما، ارتاب هرتزل من محاوره الذي كان يشكّ بأنّه يغذّي مشاعر معادية للساميّة. ففي الحقيقة، حاول هيشلر مراراً إقناع هرتزل أو، على الأقلّ، حمله على أن يدرج اللّه في مفهومه للدولة اليهودية. ومع ذلك، بقي هرتزل وفيّاً لقضيته الصهيونية المستندة على المثال الاشتراكي. وفي النتيجة، طوّر الرجلان علاقات صداقة متينة، وبصفته وصيّاً على ابن دوق بادن الكبير، قدّم هيشلر المساعدة لهرتزل في إقامة صلاتٍ مع الطبقة النبيلة الأوروبية. من بين الوجهاء الذين التقى بهم هرتزل، كان يُذكر القيصر غيّوم الثاني الذي، ومن دون

أن يدعم أبداً الصهيونية رسمياً، ساعد على نحوٍ خاص هرتزل ليوطّد مصداقيته لدى غيره من رؤساء الدول الأوروبيين المؤثّرين وكذلك وسط الجالية اليهودية. واستمرّت تلك الصداقة إلى حين الموت المبكر لهرتزل في السن الرابعة والأربعين. وبينما كان يحتضر، استدعى هذا الأخير هيشلر إلى قرب سريره وهمس في أذنه: «أوصل شعلة الصهيونية إلى العالم المسيحي».

حين تأسيس دولة إسرائيل، أعرب العديد من اللاهوتيين الإنجيليين عن خيبة ظنّهم عبر التأكّد من أنّ الآباء المؤسِّسين للبلاد كانوا قد تجاهلوا عمداً الوعود التوراتية للّه إلى الشعب اليهودي. فعودة اليهود كانت، بالنسبة لهم، قبل كلِّ شيء شأن ديني، على علاقة بشكلٍ خاص بالمجيء الثاني للمسيح. بعد أسابيع قليلة من ذلك التأسيس، أوردت نيويورك تايمز الكلمات التالية للمحترم بيللي غراهام: «[...] إنّ الأمّة الإسرائيلية الجديدة أعجوبة غير أخلاقية، لأنّ إله إسرائيل ليس شريكاً في هذا التأسيس السياسي». ونسب غاري بورج، وهو مسيحي إنجيلي آخر، مناهضته للصهيونية إلى تلك اللحظة من عام 1948: «لتستند هذه الأمّة إلى استمرارية ما مع إرثها التوراتي، كان عليها في الحقيقة أن تشير إلى اللّه». في كتابه Israel in Prophecy إسرائيل في النبوءات) جوت والفورد يقول: «[...] تكوّنت الأمّة الإسرائيلية بكلِّ صفات أمم الأرض: فلديها حكومتها ونظامها البريدي والمصرفي وعملتها، ولكن بدون اللّه. تجمّع الإسرائيليون لتكوين أمّة، ولكنّهم قاموا بذلك دون إله إسرائيل».

إلاّ أنّه، وبمرور الزمن، بدأت خيبة الأمل الناجمة عن غياب اللّه أثناء إقامة دولة إسرائيل، والذي لم يكن يستند رسمياً إلى النصّ التوراتي، بالتّلاشي. فقد أُثير شعور العالم الإنجيلي المسيحي سريعاً بالتأكّد من أنّ الحكومات الإسرائيلية، وان كان مفهوم الصهيونية، في الأصل، محض سياسي، لم تكن تتشكّل سوى بتقديم تنازلاتٍ للأحزاب الدينية. في النتيجة، كانت الشرائع الدينية التي تحكم الحياة اليومية في إسرائيل. وكما كان يمكن التوقّع، فإنّ عدداً متزايداً من المبشّرين الإنجيليين الأمريكيين اهتمّوا بالطريقة التي اتّبعها الزعماء الإسرائيليون لوضع الدين في قلب المجتمع. لا شكّ أن العلمانيين كانوا يعارضون حشر الدين

في كلِّ مجالات الحياة، ولكن مع ذلك كانت الغلبة للسلطات الدينية، ونجحت، على سبيل المثال، في منع عرض أفلام سينمائية تُعتَبَر مهينة للمشاعر الدينية للمسيحيين. وزاد من بهجة الطائفة الخلاصيّة التأكّد من أن اليهودية لم تكن الدين الوحيد المفروض في البلاد. فقد أُنشِأت وزارة للدين بأقسامٍ مختلفة مكلّفة بالعلاقات مع الطوائف الدينية المسلمة والمسيحية والدرزية.

فأخذ العديد من الزعماء الإنجيليين الأمريكيين في البحث عن كثب في النظام الإسرائيلي، عازمين على أن يستوحوا من هذا النموذج لترسيخ تأثير الدين في الولايات المتّحدة. ولذلك، كان عليهم أن يتأكّدوا من أنّ البرامج الدينية في إسرائيل كانت بالتأكيد ذات تأثيرٍ حاسمٍ على المسائل الدينية، ولكن أيضاً في مجالات مثل المالية والتعليم وسياسة الإسكان والهجرة. وقد نجح الأرثوذكس اليمينيين حتى في الحصول من الدولة على إعانات مالية للمدارس الدينية (yeshivot) وكذلك لأجل التعليم الديني في النظام المدرسي العلماني. بالنسبة للمسيحيين الإنجيليين، إذ كانت القيمة الرمزية لكلِّ ما كان يجري في إسرائيل أكثر قوّة منها في أمريكا، كانت المحكمة العليا تحجّم بشدّة الدور العام للدين في الحياة اليومية، لاسيما عبر الإجراءات الخاصّة بالإجهاض والصلاة في المدرسة. اعتبر المسيحيّون الإنجيليّون، وهم ربّما يرون في ما كان يحدث في الشرق الأوسط تصديقاً لإيمانهم، أنّ تطوّر الوضع الداخلي للولايات المتّحدة كان عملاً من الشيطان.

في أعوام الستينات، احتدمت الحرب الباردة وشهدت حرب فيتنام تصعيداً. وتجابهت إسرائيل والعالم العربي بحماية متبادلة من أمريكا والاتّحاد السوفييتي. ومع ذلك، بالنسبة لليمين المسيحي كان دعم الدولة اليهودية أكثر بكثير من مجرّد اتّخاذ موقفٍ سياسيٍّ. في عام 1967، حينما هزمت إسرائيل الجيوش العربية إبان حرب الأيام الستّة، مستولية على القدس وسواها من الأراضي من «الأرض التوراتية لإسرائيل»، رأى المسيحيّون الإنجيليّون في ذلك علامةً على أن الأيام الأخيرة كانت قريبة. منذ نشوء إسرائيل في 1948- النشوء الذي وصفه أتباع حركة البرنامج الإلهي بـ «أهمّ علامة على قيام الساعة»، بل بالعلامة الكبرى-، لم تكن

حماسة المسيحيين الأصوليين قد بلغت قطّ تلك الذرى. في الولايات المتّحدة، حتى العلمانيين، الذين أصابهم الذُهان الهذياني جراء التهديد السوفيتي، هلّلوا لذلك الانتصار، معتبرين أنّ الدولة اليهودية كانت آخر معقلٍ للديمقراطية في تلك المنطقة المضطربة من العالم. في الواقع، سادت الغبطة العالم بأسره. أخيراً وبعد اضطهادٍ لليهود على مدى ألفيتين، أخذت الكنائس الواحدة تلوى الأخرى تبدي ندمها وتتعهّد بأن تعترف في تعاليمه بـ «تحالف اللّه الأبدي مع الشعب اليهودي»، و«مساهمة اليهودية في الحضارة العالمية وفي العقيدة المسيحية».

في عام 1973، انتصرت إسرائيل مرّة أخرى على الجيوش العربية في حرب كيبور، وتضاعفت الهجمات الإرهابية التي ارتكبتها جماعات راديكالية موّلها ودرّبها الاتحاد السوفيتي ضدّ المصالح الأمريكية في العالم بأسره. فبات تعاطف جميع المسيحيين الإنجيليين مع إسرائيل أكبر بكثير. وللأسباب المعلنة بصوت أعلى، وقف العلمانيون مرّة أخرى إلى جانبها. وسط الطائفة المسيحية، وحدها الكنيسة البروتستانتية التقليدية أبدت معارضتها وبدأت، كردٍّ فعلٍ على الانتصارين الكبيرين لعام 1967 و1973، تنقلب ضدّ الدولة اليهودية. في الوقت نفسه، وبينما كان المسيحيّون الإنجيليّون يستمتعون برؤية النبوءات التوراتية الخاصّة بإسرائيل وهي تتحقّق، وبينما كان الكاثوليك يشرعون في النظر إلى الشعب اليهودي نظرة أكثر إيجابيّة، شوهِدت واحدة من أشرس الحملات تُثار ضدّ الإسرائيليين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. إذا كان المسيحيّون الإنجيليّون يرون في الدولة اليهودية مقدّمة للمجيء الثاني للمسيح إلى الأرض، مثلما كانت الكتب المقدّسة تبيّن ذلك، فإنّ البروتستانت التقليديين أشفقوا على مصير الشعب الفلسطيني الذي أصبح الضحيّة الجديدة المضطّهَدة، مهجّراً من بلدٍ بدا فجأة كقوة احتلالٍ قائمة على الضفّة الغربية وفي غزّة. وحينها دعت الكنيسة البروتستانتية الليبرالية إلى ما كانت تسمّيه «لاهوت التحرير». بالنسبة لها، كانت إسرائيل قد فقدت، بمرور السنين، حالة الضحيّة ولم تعد المحقرة سوى ذكرى غابرة. في الواقع، خلال الجدل حول المصير المأساوي لليهود أثناء الحرب العالمية الثانية، كانت الكنائس البروتستانتية التقليدية في الولايات المتّحدة تعتبر بأنّها هي التي

كانت قد هزمت النازيين وبالتالي لم تكن ولا بأيِّ شكلٍ من الأشكال، حتى في أوروبا، مسئولة عن الإبادة المنظّمة للشعب اليهودي.

في عام 1975، تبنّت الأمم المتّحدة قراراً يعتبر الصهيونية حركة عنصريّة. علاوة على ذلك، كان الليكود، الحزب اليميني يحكم في إسرائيل بمساعدة نسبة قويّة من الطائفة الأرثوذكسية، الأمر الذي لم يساعد على تغيير صورة إسرائيل في العالم، والتي كانت منذ ذلك الحين صورة أمّة عنصرية. كانت البلاد قد أنشِئتْ على أساس الصهيونية العلمانية، ولكن الإسرائيليين بدؤوا شيئاً فشيئاً، في مواجهة العار المرمي عليهم من قبل المجتمع الدولي، بالانطواء على ذاتهم ليحموا أنفسهم وبالتالي التمسّك بالتوراة وبحقّهم السياسي. في الولايات المتّحدة، استدارت الجالية اليهودية، بحثاً عن حلفاء جدد، تلقائيّاً نحو المسيحيين الإنجيليين الذين كانوا يمينيين سياسيّاً. ومثل الأرثوذكس في إسرائيل، كانوا يرتابون منذ الأبد من الإسلام وكانوا يعارضون أيَّ إرجاعٍ للأراضي التوراتية إلى الفلسطينيين. بسبب صِلاتهم الدينية والسياسية، تقارب اليهود والمسيحيّون الإنجيليّون على نحوٍ أكثر في نهاية السبعينات وأوائل الثمانينات، وساعد مسيحيّون إنجيليون، على عداءٍ شديدٍ للشيوعية، اليهود في معركتهم من أجل تحرير اليهود السوفييت وتسييرهم نحو إسرائيل. يعود المثال الأوّل على النفوذ الذي كان يحظى به المسيحيّون الإنجيليون لتغيير القانون أو إقرار التعديلات إلى عام 1974، أثناء تبنّي تعديل جاكسون/ ڤانيك على الدستور. فكان ذلك النصّ ينصّ على تقليصٍ للمبادلات بين الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفيتي الرافض لمنح رعياه اليهود الحقّ في الهجرة بحرية إلى إسرائيل.

أمّا الطائفة البروتستانتية، فقد اعتبرت هجمات الحادي عشر من أيلول في نيويورك وواشنطن مجرّد تعبير إضافي لغضب العالم العربي حيال دعم الولايات المتّحدة لإسرائيل. كان هناك حتى بعض الأمريكيين، وبالتأكيد الكثير من الفرنسيين وسواهم من الأوربيين، يقولون بأنّ الاحتلال الإسرائيلي في الضفّة وقطاع غزّة كان يشكّل جزءاً من تداعياتٍ مأساويّة للعنف الذي انصبّ، باختصار، على هذا العمل الانتقامي ضدّ أمريكا.

في الشرق الأوسط، وطيلة سنوات الثمانينات، كان الأمريكيّون شهوداً على العديد من الأحداث المفصلية التي نمّت الإحساس التعصّب الديني- ان حدث ونسوا أزمة الرهائن في إيران. إبان الحرب في لبنان، شاهدنا صور الانتحاريين وهم ينقضّون بالشاحنات والسيارات المفخّخة على قواعد قوات المارينز الأمريكية والسفارات والمراكز السياحيّة. من جهة أخرى، أختُطِف مراسلون وصحافيون وجامعيّون من قبل حزب الله، المنظّمة الإرهابية الإسلامية المتطرفة. أخيراً، أثناء الحرب الإيرانية-العراقية، شاهدنا صور جنودٍ إيرانيين يحملون في رقابهم مفتاح السماء، عاقدين العزم على الموت في سبيل ربّهم ليخلدوا في الجنّة. أصبح التعصّب الديني، ببطء ولكن حثيثاً، مرادفاً للإسلام الراديكالي، والذي كان جنوده الشبّان مصمّمين على تدمير الحضارة الغربية مانحين حياتهم فداءً في سبيل الله. في الشرق الأوسط المدفوع إلى صدارة المسرح، بدأ اتّصال مباشر يقوم بين المسيحيين الإنجيليين والسكان اليهود في إسرائيل. للمرّة الأولى، كان المقصود رغبة «السير على الأرض التي كان يسوع قد سار عليها» أكثر منه علاقة مجرّدة مصدرها الكتاب المقدّس. ففي عام 1982، نشرت (رابطة مناهضة التشهير) Anti-Defamation Leagueكتاباً بعنوان (المعاداة الحقيقية للساميّة في أمريكا) The Real Anti-Semitism in America، كان يدافع عن تحالفٌ وثيقٍ بين اليهود والمسيحيين الإنجيليين مستنتجاً أنّ عداء الطائفة البروتستانتية التقليدية كان يشكّل تهديداً خطيراً للغاية بالنسبة لليهود الأمريكيين. كان بنيامين نتنياهو، السياسيّ الإسرائيليّ اليميني الذي شغل منصب رئيس الوزراء لفترة وجيزة، من بين أبرز صنّاع التقارب بين اليمين الديني الأمريكي واليمين الإيديولوجي الإسرائيلي، ومن ثمّ بين الجماهير العلمانية في البلدين. في عام 1983، وصف نتنياهو الأردن بفلسطين (الشرقية) ملمّحاً إلى أنّ الدولة الفلسطينية الأكثر قدرة على الحياة لم تكن الضفّة الغربية وقطاع غزّة وإنّما المملكة الهاشميّة ذاتها. كان الكلام جريئاً، بيد أنّ اليمين الإسرائيلي كان قد سبق وطرح نغمة أنّ الأردن، بنسبة 90% من سكانه ذي الأصول الفلسطينية، كانت الدولة الأكثر منطقية للشعب الفلسطيني. وفي الحال، ارتفعت شعبية نتنياهو ليس داخل حزبه اليميني، الليكود، وفي أوساط الأرثوذكس الإسرائيليين فحسب، بل وبين المسيحيين اليمينيين في

الولايات المتّحدة. مع ذلك، حينما جرى الحديث عن تقريب اليهود الأمريكيين الأكثر ليبرالية من المحافظين، كانت السمة العبقرية لنتنياهو في إيجاد موقفٍ توافقيٍّ حول التهديد العالمي للإرهاب الإسلامي. في الواقع، كان اليمين الديني الإيديولوجي في إسرائيل واليمين العلماني يشتركان مع أغلبية سكان أمريكا في السعي للدفاع عن الذات ضدّ الهجمات الإرهابية المرتَكَبة من قبل الجماعات الإسلامية المقاتلة. من جهة، كان المقصود تأمين عمق استراتيجي أو إرث التوراتي في تحديد حدود البلاد، و من جهة أخرى، تأمين الحماية للمصالح الغربية بشكلٍ عام في أجزاءٍ أخرى من العالم. في عام 1988، حينما شرعت الولايات المتّحدة في حوار مع منظمة التحرير الفلسطينية (OLP)، عبّر عددٌ متزايد من اليهود الأمريكيين عن استهجانهم بحجّة أن البلاد كانت قد أصبحت هدفاً لهجمات مخطّطة من قبل هذه المنظّمة. باختصار، لقيت معارضة نتنياهو لأيٍّ اعترافٍ أمريكيٍّ بالـ (OLP)، أنصاراً وسط الطائفة الإنجيلية، التي كانت تضمّ حينها سبعين مليون عضواً. وهكذا، كان الإرهاب الملاط الذي وحّد كلّ الأطراف والسبب الرئيسي لهذا التحالف غير اللائق بين الطوائف الإنجيلية ويهود الولايات المتّحدة. خلال الفترة الممتدّة من 4 تشرين الثاني 1979 إلى 11 أيلول 2001، أظهرت أمريكا جدارةً. في ظلّ إدارة رونالد ريغان، هُزِمَت الشيوعية، وإبان الازدهار الاقتصاديّ المفاجئ في الثمانينات، شاهدنا ولادة جيلٍ جديدٍ من المسئولين الشباب الطموحين، وهم كوادر شابّة حيوية ربحوا في البورصة الملايين من الدولارات. أمّا وقد كان الاقتصاد معافى والشيوعية كانت قد هُزِمت، كان أعضاء الطائفة الإنجيلية يحلمون بشيءٍ أكثر إثارةٍ من الأصولية المتزمّتة والتقوى المكافحة التي يبشّر بها جيري فالويل وأنصاره. حينه، حظي الإنجيليّون الذين كانوا يظهرون على شاشات القنوات التلفزيونية في ذلك العقد بشعبية مذهلة في عموم البلاد، فعزوا ذلك جزئياً إلى فحوى رسالتهم. فكانت محاجّتهم الأولى هي أنّهم كانوا يتبعون طريقاً للإنصاف، وبالتالي كانوا على حقٍّ ويستحقّون نيل حصّتهم من الثروات التي تفيض بها البلاد. بعبارات أخرى، سيكون على اللّه أن يغدق عليهم بدايةً ببعضٍ من كلّ الخيرات الملموسة التي تجعل الحياة أفضل. كانت تلك الحقبة حقبة إسرافٍ، وعندما أصبحت وول

ستريت رمزاً للثراء الفجائيّ الجذّاب، لم يشأ المسيحيّون الإنجيليون البقاء بعيدين بينما كان الآخرون يغدون من أصحاب الملايين بين ليلةٍ وضحاها ويصبح الاستهلاك التفاخري التسلية الوطنية. خلال أعوام الثمانينات، تزايد عدد المنضوين إلى الكنائس الإنجيلية وسطيّاً بـ 8% خلال خمس سنوات، وذلك، في جزءٍ كبيرٍ منه، بفضل التطور المدهش للإنجيلية المتلفَزة، الذي روّج المسيحيّة وتحكّم بها ونشرها في البلاد بأسرها. في الواقع، إبان إدارة الرئيس ليندون بينز جونسون، تماماً بعد اغتيال جون ف. كينيدي، اشتهرت الإنجيلية المتَلْفَزة في أركان البلاد الأربعة. مموّلين بملايين الدولارات المجنية من لدن التلاميذ الأوفياء للزعماء الكاريزميين الذين كانوا يلقون المواعظ من على القنوات الإذاعية والتلفزيونية في نهاية الستينات وأوائل السبعينات، انجرّ المبشّرون الإنجيليّون إلى جدالٍ سياسيٍّ حامي الوطيس بدعمهم الحرب في فيتنام وبمماثلتهم للوطنية بالإيمان باللّه. فجأةً، بات اللّه محسوساً وسهل المنال في ساعات الإصغاء العظيم، باقتحام المبشّرين للصالونات المسيحية للبلاد بغية حمل الناس على الهداية وشفائهم، ونقل كلام الرّبّ إلى الآلاف من مشاهدي التلفزيون.

19

خفايا التلفزة الإنجيلية

يعود بلوغ المبشّرين الإنجيليين بيوت الأمريكيين إل عام 1934، التاريخ الذي أنشأ فيه (مجلس الكنائس) Council of Churches ، المجموعة الممثّلة للطوائف البروتستانتية الرئيسية، شبكته لوحدات البثّ الإذاعي. إذ كانت المحطّات العامّة للإذاعة والتلفزة تتردّد في أن تبثّ على موجاتها برنامجاً مسيحيّاً بحيث أُقيمَت، للمرّة الأولى، محطات دينية منفصلة موجّهة إلى الجمهور الواسع. وسرعان ما أدركت الطائفة الإنجيلية أنّ عليها، لنقل رسائلها عن طريق وسائل الإعلام الالكترونية، أن تجذب المستمعين لكي يساهموا ماليّاً في المشروع. لدى انطلاق المشروع، لم يكن الرجال الذين كانوا يقومون بالتبشير بالإنجيل في الإذاعة والتلفزة مقبولين تماماً، ولكنّهم نجحوا في كسب احترام أترابهم لأنّ اعتناق الأرواح للمسيح كان نشاطاً يساوي مجموع مبيعاته عدّة ملايين من الدولارات.

كانت ايمي سامبل ماكفرسون (1944-1899) واحدة من المبشّرين الأكثر شهرة في تلك السنوات الأولى، كانت مادونا زمانها. كما كانت واحدة من أوائل المبشّرين، وبلا أدنى شكّ أوّل امرأة في سنوات الثلاثينات والأربعينات نشرت رسالتها الدينية في البلاد بأسرها. ومع أنّها موسومة في الأصل كاهنة معمدانية، وانتقلت فيما بعد إلى الكنيسة العَنْصَرية وأصبحت رائدة لتوسّط الإنجيلية، إلاّ أنّها أيضاً أوّل مبشّرة ترى نفسها متّهمة بسوء السلوك الجنسي. وكامرأة جذّابة وجميلة، متزوّجة ومطلّقة لمرّتين، كان لديها عددٌ كبير من العشاق في أوساط السينما الهوليودية، الأمر الذي كلّفها أن تُعتبَر كرمزٍ للجنس للحركة الإنجيلية/ العَنْصَرية

في أمريكا. كانت ايمي سامبل ماكفرسون تعلم جيّداً كيف تستخدم وسائل الإعلام للوصول إلى غاياتها. في لحظة من لحظات عملها، دبّرت بنفسها عملية اغتصابها. بعد أسابيع من اختفائها، عُثِر عليها «تائهة حائرة على أحد شواطئ كاليفورنيا». وفي النهاية، اتّضح بأنّها لم تكن قد اُختُطِفَت أبداً، وإنما كانت قد اختفت لتتمتّع ببعض «اللحظات الحميمة» مع عاشقٍ متزوّجٍ، بعيداً عن الجمهور والصحافة. كما أن ماكفرسون كانت معروفة بعمليات الشفاء التي كانت تجريها أثناء قداديسها الدينية في كنيسةFour Square Gospel Church ، التي كان مقرّها في معبد أنجلوس في لوس أنجلوس بكاليفورنيا، التي أسّستها والتي لا تزال موجودة حتى الآن. وخلال عملها، جمعت الإنجيلية الحسناء، بفضل مواهبها كشافية، ثروة تقدّر بمئات ملايين الدولارات.

في أيامنا هذه، غدت الحركة اليسوعية في الولايات المتّحدة عملاً ضخماً، مع مجموع مبيعات سنوية مقداره أربعة مليار دولار.

إبان أعوام الثمانينات، حينما كانت الإنجيلية المتلفزة مدفوعة نحو النجاح، أصبح العديد من المبشّرين مشهورين وأحياناً معروفين بتصرفاتهم الجنسية الطائشة واختلاساتهم المالية. من بينهم جيمي سواغارت الذي كانت خصوصيّته الشفاء على الموجات والذي كان يدّعي إنقاذ مائة ألف روحاً أسبوعياً، ملقياً كلمات مهينة على نحو خاص للكنيسة الكاثوليكية الرومانية وللمثليين جنسياً وللمحكمة العليا. ولكن ورقته الرابحة المفضّلة كانت بلا شكّ انتزاع من كان يستمع إليه من رتابة حياتهم. ولذا كانوا يظلّون أوفياء له ويمنحون الهبات لخدمته الكهنوتية المتلفزة والتي تجاوزت، في أوجّ مجده، مائة وخمسين مليون دولار سنوياً. كانت اجتماعاته للصلاة مسلّية، لأنّه كان يأسر انتباه المشاركين وهو يروي بأنّه كان يعرف عن تجربة ما هو الفقر والبؤس، وبالتالي كان يمكنه أن يفهم حرمانهم وكبتهم الخاصّ وآلامهم. كما كان يهاجم الزنا والإباحية وأظهر نفسه، على الأقلّ في بداية عمله، شريفاً، خاصّة لدى كشفه لصحافة معلّمه الخاصّ على الأحوال المالية لخدمته الكهنوتية المتلفزة. إلا أنّ سواغارت انتهى بالعار، بعد أن أكتُشِف بأنّه كان يلتقي باستمرار مومسات في فندق صغيرٍ خرِبٍ في لويزيانا وبأنّه كان

دائم التعلّق بالأفلام الإباحية. واحدة من المومسات التي عاشرها انتهت إلى الكتابة لمجلّة Penthouse وروَتْ، بواسطة دمغة كبيرة من ستّة أحرف، مغامرتها مع الكاهن الإنجيلي بالتفصيل. فانقلبت وسائل الإعلام مباشرة ضدّه، وكذلك جمهوره. بعد أن وبِّخ من قبل أترابه، و«جُرِّد» لعام واحدٍ، هبطت إمبراطوريته المالية إلى أربعة ملايين ونصف من الدولارات سنوياً، وانخفض عدد المشاهدين الدائمين بنسبة 80%.

اورال روبرتس كاهن إنجيليٌّ آخر كان يشفي عبر الإذاعة. أسّس في عام 1965 جامعة اورال روبرتسفي تولسا بولاية أوكلاهوما بعد تلقّيه ما دعاه «أمراً من اللّه». كانت هذه الجامعة مخصّصة لإعداد الأجيال المستقبلية من الكهنة الإنجيليين التلفزيونيين للتبشير وهداية أرواحٍ جديدة إلى العقيدة الإنجيلية. روى روبرتس، الذي لم يمضِ سوى سنتين في مرحلة التعليم العالي درس خلالهما الكتاب المقدّس، روى، في عام 1980، بأنّه كان قد تراءى له في رؤية مسيحٌ يحثّه من ارتفاع ثلاثمائة متراً على جباية تبرّعاتٍ لبناء ما سوف يصبح (مركز مدينة الإيمان الطبّي والبحثي) خاصّته .City of Faith Medical and Research Center كان المركز، الذي فتح أبوابه في عام 1981، يعاني باستمرار من صعوبات مالية. في آذار 1986، حينما أصبحت المشاكل المالية متعذّرة الحلول، أعلن روبرتس لجمهوره من مشاهدي التلفزة بأنّه كان قد تحدّث مباشرة إلى اللّه، وبأنّ جلاله كان قد أخبره بأنّ سوف «يُستدعى إلى الحظيرة» (بكلامٍ آخر سيموت) ما لم ينجح في جباية ثمانية ملايين دولار حتّى 31 آذار 1987. في الأوّل من نيسان، انضمّ من جديد إلى الإذاعة ليعلن لمستمعيه الأوفياء بأنّ الملايين الثمانية قد جبيتْ وأنّ حياته أُنقِذَتْ. بعد ذلك بفترة وجيزة، في عام 1987 نفسه، زعم بأنّه كان قد بعث أمواتاً وبأنّه سيعود بعد مماته ليسود الأرض إلى جانب يسوع المسيح. وأكّد ريتشارد ابن روبرتس، الذي هو اليوم في عداد خدمته الكهنوتية بأنّه شاهد والده يبعث طفلاً من بين الأموات. ورغم المعجزات التي يتفاخر بأنّه اجترحها، والمال الذي جمعه «بنعمة اللّه»، فقد كان نشاط المركز الطبي مكلفاً جدّاً بحيث أنّه انتهى إلى الإغلاق عام 1989.

السلوك الجنسي الطائش لجيمي سواغارت أو الإدّعاءات الغريبة لأورال روبرتس تبقى أمراً تافهاً إلى جانب مآثر جيم وتامي بيكر، الأكثر شهرة من جميع الإنجيليين التلفزيونيين.

سمّى آل بيكر خدمتهم الكهنوتية Praise the Lord (PTL) أي «احمدوا الرّبّ»)، على الشبكة السلكية التي تُرسل متن شارلوت في كارولاينا الشمالية. كان (PTL) هو كذلك اسم خدمتهم الكهنوتية المتلفزة التي سرعان ما جمعت أتباعاً من أرفع مراتب المجتمع. وقد شارك صناعيّون وممثّلون ورياضيّون ونجوم إعلام وسياسيون بطيبة خاطر إلى جانب تامي وجيم في تلك البرامج الدينية. كان أوّل سياسيّ محافظٍ دعم علانية(PTL) بعد إجازة علاقاته مع اليمين المسيحي الأصولي الجديد هو السيناتور جيسي هلمز. كان لابدّ لهذا الجمهوري الجنوبي، الذي اشتهر بمواقفهما التمييزية بعد أن فُرِض الاندماج في البلاد بزمنٍ طويل، أن يستخدم المنبر الديني لـ Praise the Lord (PTL) ليشنّ الحرب ضدّ فرض الضرائب على المدارس الخاصّة وانسحاب القوات الأمريكية من كوريا الجنوبية وليدافع عن كلّ القضايا السياسية والاجتماعية الأخرى المدعومة من قبل الحركة المسيحية. وكان لابدّ لتلامذة تامي وجيم بيكر من إرسال ملايين الدولارات التي استخدمت بشكلٍ خاص في تمويل الزينة النفيسة لتامي وباروكاتها وكذلك مساكنهم الخارقة المزيّنة بالمرمر وبثريّات من الكريستال تحاكي ثريّات قصر ڤيرساي وأثاثٍ منزليٍّ شبيه بأثاث لويس الرابع عشر.

الغريب في الأمر، مع أنّ شذوذهم وانحرافهم معلوم، يولع بهم الأنصار والأتباع، مفتونين بتلك الصيغة الخاصّة من الإنجيلية عن الاستهلاك القائم على مبدأ أنّ «اللّه يحبّ الناجحين». كان المحرومون والطبقة الدنيا والمنبوذون يجدون في ذلك وسيلة للهروب من رتابة حياةٍ لا خلاص منها. ولكن أكثر ما كان يدعو للدهشة هو أنّه حتى الفقراء الذين لا يملكون في سبيل معيشتهم سوى المعونة الاجتماعية أو أجرٍ زهيدٍ كانوا يرسلون اشتراكهم إلى تامي وجيم. إضافة إلى أنّ PTL كانت تتلقى كذلك هبات كبيرة من الميسورين والمشاهير. وهكذا بات جيم وتامي بيكر رمز الرأسمالية واقتصاد السوق على الطريقة الأمريكية. ولكن، في

الوقت ذاته، قادا الجماهير إلى اللّه مبشّرين بأنّ الإيمان هو السبيل الأفضل لبلوغ السعادة الأبدية التي قوامها أن يحيط المرء نفسه بكلّ الرفاهية التي يمكن للمال أن يوفّرها.

ومع ذلك، انتهت حركت آل بيكر بنزع القناع عنها وانكشاف أمرها كحركة احتيال كبير.

في عام 1989، جرت ملاحقة جيم قضائياً بتهم تتعلّق بالفساد والاختلاسات المالية. هطلت القصّة على عشّاق الفضائح وأصبحت تسلية في عموم البلاد. صُدِم اللا إنجيليون واشمئزّوا من السوقيّة المذهلة للزوجين، لكن جمهورهما الوفيّ، الذي أرعبه هذا السقوط السريع والمحزن، أُصيب باستياءٍ من أن تُقطَع صلة آل بيكر بالعليّ القدير بقرارٍ من مجرّد مشرّعين فانين.

غطّت وسائل الإعلام القومية والعالمية توقيف جيم، والنوبات الهستيرية لتامي والفضيحة الجنسية التي أعقبت ذالك حينما انكشف أنّه كان لبيكر مغامرة حامية مع واحدة من السكرتيرات في كنيسته. ليس نمط الحياة الباذخ لهذا الرجل ولا نزوعه إلى حثّ الملايين من المؤمنين المشاهدين للتلفزيون الإنجيليين على إرسال المال لتمويل قطار الحياة الباهظ الثمن للزوجين هو ما كان يزعج العدالة، ولكن الأحرى واقع أنّ بيكر، بعد أن بُوغِت مع سكرتيرته، استخدم أموال الكنيسة لشراء صمتها. حينما اقتيد جيم مكبّلاً مقيّد الرجلين، مطأطأ الرأس تجري الدموع على خدّيه، أصبحت تامي امرأة كئيبة مجروحة متأثّرة أشدّ التأثّر. بفرطٍ في التغنّج والحسرات، وبغيابٍ كليٍّ لعزّة النفس، ظهرت في مرّات لا تُعدّ ولا تُحصى على الأقنية القومية، وقد خطّطت المسكرا (الكحلة) السوداء السائلة على أهدابها الزائفة خدّيها واستحال لون شعرها الأشقر المنفوش بالأصابع مجعّداً باهتاً. بصوتها القاطع الذي كان يهدر من الأطلسي إلى الهادئ، استحضرت يسوع وأقسمت بأنّ زوجها لا بدّ وأنه سيُبرّأ. ففي مقابلة مقزّزة على نحوٍ خاصّ، ادّعت السيدة بكر أنّ جيم كان ضحيّة لمعتقداته مثلما كان المسيح قد عذّب على الصليب.

وفي المحصّلة، أُرغِمَت تامي على بيع المجوهرات والسيارات والفِراء

والمساكن. لكنّ الجمهور الأمريكي هبَّ تماماً مثلما كان قد فعل عندما وقع جيمي في المصيبة، لأنّه كان محبّاً جدّاً لنموذج اليقظة الروحية والتقرّب إلى اللّه الذي كان آل بيكر ينقلونه إليهم صباح كل أحد من خلال موقعهم على (الكيبل)[1].

حتى بعد أن غادر جيم بيكر المسرح الروحي إلى جوف سجنٍ كاليفورني، ظلّت مليارات الدولارات تنصبّ في صناديق الخدمات الكهنوتية المتلفزة الأخرى التي لا تزال مواظبة على عملياتها. وهذا يبرهن على أنّ عدداً كبيراً من الأمريكيين كانوا بحاجة للإصغاء إلى ما كان يرويه هؤلاء المبشّرين الإنجيليين، وللاعتقاد بأنّهم كانوا يشفون المرضى أو يبعثون الأموات أو يحوّلون حياة البؤس والحرمان إلى حياة رخاءٍ وثراء. والحال أنّ الرسالة التي كانت تهيمن عند كلّ هؤلاء المبشّرين الإنجيليين هي أنّ اللّه هو الحلّ لجميع المشاكل الاقتصادية لكلِّ إنسان. مثلما كان بات روبرتسون يقول: «في ملكوت اللّه، ليس هناك لا ركود ولا قلّة في أيِّ حالٍ من الأحوال».



كان الرئيس جيمي كارتر من الحشمة والنزاهة بحيث لم يحاول محاباة أولئك الذين كانوا يشاطرونه معتقداته الدينية. ولكنّه أيضاً كان من السذاجة بحيث لم يستشعر التأثير السياسي الذي كان يمكنهم أن يحوزوا عليه. في الحقيقة، ومع أنّه كان مسيحيّاً خلاصيّاً، كان لديه صلات أكثر بالبلاغة البروتستانتية التقليدية عندما شرعت في الاستناد على اللاهوت التحريري والواجب الديني في تحرير مضطَهَدي العالم أجمع. كان المسيحيّون الإنجيليّون يعتقدون أنّ «نهضة» دولة يهودية كانت تمهيداً للمجيء الثاني ليسوع على الأرض. وإذ لم يكن البروتستانت يشاطرونهم هذا المعتّقد، لم يكن لديهم أيٌّ دافعٍ ديني للسعي إلى الحفاظ على هذه الدولة. ولذا اعتُقِدَ أنّ كارتر لم يكن يحترم العقيدة الإنجيلية. في الواقع، كانت الطائفة البروتستانتية التقليدية تقبل بالخطاب الذي طرحه المسيحيّون الفلسطينيّون،

(1) خدمة إعلامية تقوم على الاشتراك بـ Cable وهو سلك تلغرافي -المترجم-

ولاسيما خطاب الكاتب والمفكّر الراحل إدوار سعيد. كان سعيد يتكلّم، في كتاباته ومؤتمراته، على «عملية صلب الشعب الفلسطيني» المستمرّة وحقيقة أنّ العرب المسيحيين الذين يعيشون في إسرائيل والضفّة الغربية كانوا «المؤمنين الحقيقيين وأنّ كنيستهم هي الكنيسة المسيحية الحقيقية». كان سعيد يقول أنّ «حقيقة أن يكون المسيحيّون الإنجيليون شديدي التأييد للإسرائيليين وشديدي التعلّق بالشعب اليهودي لا تعني أنّ المسيحيين الفلسطينيين لا يتعذّبون على أيدي محتليهم».

وعلى غرار ردّ فعل الإسرائيليين، ارتكز ردّ الفعل الإنجيلي على القول بأنّ زعماء فلسطينيين من أمثال ياسر عرفات جعلوا باستمرار من مصائب العرب المسيحيين «أداة دعاية» ضدّ الاحتلال الإسرائيلي، في حين أنّ الحقيقة هي أنّ المسيحيين الفلسطينيين عانوا على أيدي أخوانهم المسلمين أكثر مما عانوه من الاحتلال المزعوم.

وجراء هذا الانشقاق داخل الكنيسة البروتستانتية، وجدت الجالية اليهودية نفسها تشاطر المسيحيين الإنجيليين هدفاً مشتركاً: الدعم المتواصل لدولة إسرائيل. ومع ذلك، كاد اليمين المسيحيّ أن يكون معارضاً لجميع المواقف الأخرى للجالية اليهودية، الليبرالية تقليديّاً بخصوص قضايا مثل حقوق اللواطيين والنساء والفصل بين الدين والدولة والإجهاض. وإذا كانت قد استسلمت لميولها الاجتماعية والثقافية ورفضت مقدّمات المسيحيين الإنجيليين، فإنّ هذه الجالية لابدّ وأنّها ستجد لزاماً عليها القبول من خلال البروتستانت بدعم حقوق الفلسطينيين، بما فيه الحقّ في الحصول على دولة. إذاً، كان الأمر يتعلّق هنا بمعضلةٍ حقيقيّة أكثر منه بعنوانٍ.

تعتقد الطائفة الإنجيلية أن الحلّ القائم على دولتين مستبعَدٌ مطلقاً، وأنّ الأرض التوراتية لإسرائيل الكبرى تمتدّ من الفراتِ إلى صحراء سيناء. في المقابل، يعتبر بروتستانت أوربا الموجودين في الأرض المقدّسة أنّ لليهود الحقّ في العيش في الخليل وفي كل الأنحاء الأخرى للضفّة الغربية لنهر الأردن، بما في ذلك أجزاء الأراضي الفلسطينية التي يعتبرها اليهود والمسلمون مقدّسة، ولكن

أيضاً للفلسطينيين الحقّ في الإقامة في تل أبيب ويافا ورام اللّه وكل الأماكن الأخرى الخاضعة للسيطرة الإسرائيلية بنفس الحقوق التي لليهود. بعباراتٍ أخرى، في حين أنّ المسيحيين الإنجيليين مع ترحيل الفلسطينيين من إسرائيل والضفّة الغربية وقطاع غزّة، يعتقد البروتستانت أنّه لابدّ من «صَهْر» كلِّ الأديان والثقافات فيها.

اليوم أيضاً، لا يزال ذلك الانشقاق مستمراً، حتى في إسرائيل حيث أنَّ كلَّ طائفة فيها متأصّلة جدّاً وتركّز بشدّة على مواقفها.



جاء ديفيد بارسونز من كارولاينا الشمالية حيث نشأ وسط أسرةٍ من معمدانيي الجنوب. إنّه رجلٌ وسيمٌ ومثقّف وفكهٌ، يؤثّر سرده للطريقة التي اكتشف بها يسوع أشدّ التأثير حتّى على الذين لا يؤمنون بالمعجزات. طيلة فترة طفولته، كان بارسونز يعرف بأنّ والدته كانت عاجزة وأنّها سوف تموت بمرضٍ عضالٍ في القلب والأوعية الدموية. في سنّ الحادية عشرة كان يعدّ الطعام للأسرة كلّها وكان يهتمّ بأخوته الصغار. حينما لم تكن والدته مضطرة لالتزام السرير، كان وقتها مقسّماً بين المنزل والمستشفى حيث كان الأطباء الواحد تلو الآخر يقولون لها بأنّه لم يعد بإمكانهم أن يفعلوا أيَّ شيءٍ لها. «لقد قالوا عملياً لوالدتي، التي كانت بالكاد تبلغ حينها الثلاثين من العمر، أن تعود إلى بيتها وتموت بهدوءٍ في سريرها». في نيسان عام 1971، أُخبِرَت العائلة بأنه لم يعد لهذه المرأة سوى شهرٍ واحدٍ تعيشه. ويتذكّر بارسونز ما حدث بعد ذلك مباشرةٍ. كان نائماً في الغرفة التي يتشاركها مع أخويه. كانت والدتهم، بدون علمهم، قد نجحت في الذهاب إلى كنيسة إنجيلية حيث كان يجري فيها قدّاساً لشفاء المرضى. يروي بارسونز: «أتذكّر أنّه كان لدي دوام المدرسة في الصباح التالي، وأنّ والدتي دخلت الحجرة، وشرعت تقفز على السرير وتبكي وتروي كيف أن يسوع شفاها».
وحسب قول بارسونز، أكّدت أمّه بأنّ يسوع، بعد جمع كلّ الألم الذي كان في جسدها، أخرجه من خلال القفص الصدري، من أسفل الجهة اليسرى. «الآن،

وهي في الستين من عمرها، أكثر شباباً مما كانت عليه في الثلاثين من عمرها وتسافر عبر العالم بأسره. بالنسبة لي، كان ذلك تحوّلاً حاسماً. اليوم، لازالت والدتي تعيش، وأنا شاكرٌ في ذلك ليسوع».

بعد دراسته للقانون، التحق بارسونز بمكتبٍ مهمٍّ للمحاماة في كارولاينا الشمالية، وفي خلال بضعة سنوات، أصبح شريكاً صغيراً فيه. كانت قائمة زبائنه مؤثّرة، وما لم يكن مع مدراء مشاريع أو منهمكاً في إعلام شركاتٍ حول OPA المعادية، كان يقوم بنزهة على يخت المكتب ويصطاد السمك في خليج ستريم، أو كان يذهب بالطائرة الخاصّة لنفس المكتب ليمارس رياضة التزلّج، مصطحباً باستمرار موظّفين شباب موعودين مثله بمستقبل جميل وبنساءٍ حسناوات. كان بارسونز ميسوراً على المستوى المادي ومؤمناً بكونه رُقي شريكاً قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين، ومع ذلك لم يكن راضياً، فيقول: «كانت حياة مدهشة، ولكن مع ذلك كان لدي شعورٌ بأنّه كان عند اللّه مشاريع أخرى لي. كنتُ أعلم أنّه ما لم أذهب للإقامة في إسرائيل، فسأندم على ذلك حتى آخر أيامي». بدأ بارسونز بقضاء عُطَلِه في ذلك البلد. أثناء زيارةٍ له، انفجرت قنبلة، وبينما كان يُسرِع نحو مكان الهجوم ليحاول مساعدة الجرحى، وجد نفسه إلى جانب امرأة هولندية، مضيفة على الخطوط الجوية KLM، هذه كانت قد وصلت إلى إسرائيل في أعقاب رؤيا تأمرها أن تقوم، باسم المسيحيين جميعهم، بكفّارةٍ عن المحرقة. وطيلة خمس سنوات، حافظوا على الاتّصال فيما بينهم والتقوا دوريّاً في القدس.

في عام 1990، قرّر بارسونز ترك مكتب المحاماة، وبيع منزله والانطلاق إلى حياةٍ للمرغوبين أكثر. ثم ذهب إلى واشنطن وبدأ بالعمل مع Christian Israel Public Action Campaign (CIPAC)، اللوبي المسيحي الإنجيلي الداعم لإسرائيل في العاصمة. منذ حرب الخليج في عام 1991 وحتى مؤتمر مدريد للسلام الذي أفضى، باختصار، إلى اتفاقيّات أوسلو، قضى بارسونز كامل وقته في محاولة تعبئة الناس ضدّ مؤتمر السلام لأنّه كان يعتقد أنّ «إسرائيل ستكون في خطرٍ لو أُقيمتْ دولة عربية أخرى على أحد حدودها». كما كان بارسونز مقتنعاً بالتورّط في

مغامرةٍ. فيشرح: «البعضُ مدعوون للامتثال للأوامر، ولكن أنا تلقّيتُ الأمر من اللّه في أن أتورّط في إسرائيل الحديثة».

في الفترة التي بدأ فيها بارسونز بقضاء عُطَلِه في إسرائيل، كانت مجموعة من المسيحيين الكاريزماتيين القبألفيين، بقيادة مالكولم هيدينكز وتيموتي كينغ، مشغولة بتأسيس منظّمة تُدعى (International Christian Embassy in Jerusalem السفارة المسيحية الدولية في القدس). وإذا كان الدافع الأوّل لذلك دينيّاً، فكان المقصود أيضاً اتّخاذ موقف رسمي ضدّ (قانون حول القدس) Jerusalem Bill، المتّخذ في عام 1980، والذي كانت نتيجته دفع أكثر من 12 بلداً إلى نقل سفاراتها من القدس إلى تل أبيب لإظهار دعمهم لقيام دولة فلسطينية تكون عاصمتها القدس الشرقية. قدّر مدير قسم تنمية الحجاج في وزارة التجارة والسياحة الإسرائيلية بأنّه من أصل 250000 زائر أمريكي إلى إسرائيل، منذ عام 1980، كان 10000 منهم من السياح المسيحيين الذين كانوا يزورون المواقع التوراتية ليهودا والسامرة في الضفّة الغربية. في تلك المرحلة، شوهِد في عموم الولايات المتّحدة ظهور مكتبات إنجيلية كانت تعرض جدولاً واسعاً من الأعمال الداعمة لفكرة أنّ من يمكنهم القبض على جذور العقيدة المسيحية هم وحدهم أولئك الذين يملكون معرفة صحيحة بالديانة والشعب اليهوديين. بدأ نوع جديد من الولع باليهودية ينتشر وسط الطائفة الإنجيلية وأقام الكثير من هؤلاء المسيحيين الخلاصيين في إسرائيل ليؤسّسوا فيها منشآت تتيح دراسة اللغة العبرية والإلمام بالديانة اليهودية. استمرّ هذا الاهتمام العطوف بالاتّساع طيلة سنوات السبعينات والثمانينات ومن ثمّ تعزّز بنزعة أخرى: تكاثر الأعمال حول قيام الساعة. وقد أعلن هيدينغز المدير الدولي الحالي للمنظمة بخصوص جهودها: «عندما افتتحت السفارة في عام 1980، كان موقف اليهود حيال المسيحيين يثير مشكلة، إذ كان اليهود يخشون بأنّنا نريد تغيير دينهم بدل أن يفهموا، كما هو الحال الآن، بأنّنا ببساطة نحاول أن نُظهر وجهاً آخر ليسوع دون إكراهٍ ولا تخويف. هدفنا هو أن نفتح بهدوء الطريق ليسوع ليتمكّن اليهود ذات يوم من استقباله بغبطةٍ».

أخيراً، راح ديفيد بارسونز يعمل في السفارة المسيحية الدولية في القدس

كمحرِّرٍ لمختلف منشوراتها، ومنذ فترة قصيرة كناطقٍ باسمها. وبفضله تأصّلت السفارة في أوروبا بمجملها، وتمتلك الآن مكاتب وممثلين في ثمانين بلداً.

صرّح مالكولم هيدينكز، مبشِّر السفارة في الخليج، بشأن موقف السفارة الخاصّ باعتناق اليهود للمسيحيّة: «لا تعنينا هداية الشعب اليهودي. إنّ ذلك شأن من شؤون اللّه، وهذا سينتهي إلى النجاح لأن كلّ شيءٍ يرتبط بيسوع في هذا الشأن. ليست مهمّتي إدانة الذين لا يرون في يسوع المخلّص، وإنّما هذه المهمّة مفروضة على الروح-القدس، التي ستُحْسِنُ القيام بها. أمّا مهمّتي أنا، فهي أن يكون لي علاقة متزايدة القوّة مع اللّه».

بارسونز ومالكولم هيدينغز وتيموتي كينغز هم جميعاً أصدقاء مقربين من الرئيس بوش والنائب توم ديلاي ونيوت غينغريتش. وبصفته مديراً للسفارة وكاهناً عَنْصَرياً، جاب هيدينغز العالم بأسره في مسعى منه لحمل الحكومات على تغيير رؤيتهم السلبية لإسرائيل بسبب الإجراءات المتّخذة فيها للسيطرة على السكان الفلسطينيين. وكخطيبٍ بليغٍ، قدّم الكتاب المقدّس لزعماء الدول الذين التقى بهم كوثيقةٍ تاريخية وأخبرهم بأنّه يجدر عدم اللعب بأمن إسرائيل بسبب «السجل البائس للفلسطينيين» يقول هيدينغز: «الرئيس بوش رجل مخلص، وبفضل السماء رجلٌ يقرأ الكتاب المقدّس. نصلّي لكي ينتهي هو والزعماء الآخرون إلى أن يدركوا إلى أيّة درجة أخفق الغرب تقدير مطامع الإسلاميين. أحاول إقناع الرئيس والزعماء الآخرين للدول بأنّه، ما لم نحاول التغلّب الآن معاً على المشكلة الإسلامية، لن يكون هناك قط سلامٌ في العالم».

خلال تلك المقابلة ذاتها، التي جرت قبل يومٍ واحدٍ من مغادرته إلى واشنطن للقاء توم ديلاي، لم يخفِ هيدينغز بأن الغرضَ من رحلته كان «إغراق» خارطة الطريق. كما كانت لديه النيّة في الذهاب إلى البيت الأبيض متأبّطاً عدّة ملايين من تواقيع المسيحيين الإنجيليين والزعماء اليهود الأمريكيين البارزين التي تنقض «مبادرة» الرئيس للوصول إلى اتفاقية سلام إسرائيلية-فلسطينية. كانت تلك العريضة تضمّ أيضاً تواقيع زعماء العديد من المنظّمات اليهودية الكبيرة مثل (رابطة مناهضة التشهير) و(الآيباك AIPAC، اللوبي اليهودي الأوّل في واشنطن،

و(مؤتمر الرؤساء) و(اللجنة اليهودية الأمريكية) التي تعرف تماماً السلطة الكامنة التي تمتلكها الجماعتان-المسيحيين واليهود- لممارسة تأثير على السياسة الخارجية الأمريكية.

كان هيدينغز وبارسونز وأولئك الذين يهتمّون بالسفارة مقتنعين، أيّاً كانت نتيجة الانتخابات الرئاسية، بأنّ مخطّط اللّه، في نهاية المطاف، هو الذي «سيتفوّق، وسيتصالح اليهود مع يسوع وسيعيشون بسلامٍ داخل حدودهم». ويشرح بارسونز: «ولكن الصراع الحالي بشأن الأرض يسبّب، حتى في الميثاق الإبراهيمي، نزاعاتٍ على الحدود لأنّ اليهود لم يؤمنوا بعد بيسوع. نودّ أن نعتبر أنفسنا كخدمة كهنوتية للتشجيع مهمّتها تشديد عزم الشعب اليهودي حينما يحتاج إلى ذلك وتذكيرهم بالوعود التي قطعها اللّه لهم. نحن نعلم بأنّه يواجه عدوّاً فظّاً ونعلم بأنّ الشعب الإسرائيلي هو الذي عليه إيجاد الحلّ. إنّه يملك الأهلية لاستعادة اللّه ولا ينبغي عليه الاعتماد على الولايات المتّحدة لمنع هولوكوستٍ جديدٍ، لأنّ الوحيد الذي يمكنه منع ذلك، والوحيد الذي يمكننا جميعاً أن نعتمد عليه، هو اللّه».

ضمّت العمارة التي توجد فيها السفارة المسيحية الدولية في القدس، والتي هي عبارة عن مسكن سابق لأسرة فلسطينية مقتدرة وثريّة، ضمّت كذلك سفارة ساحل العاج وسفارة تشيلي في عهد بينوشيه. وهي عبارة عن بناءٍ مهيبٍ من الغرانيت والجصّ. وقد أتى كادرها الوظيفي من أمريكا واسكندنافيا وانكلترة واستراليا وكندا وأمريكا الجنوبية. وهم يعملون بمرحٍ وسط صيحات «هلّلويا» و«احمدوا الرّبّ». وقد وُضِعت زياراتهم لنهر الأردن من أجل احتفالات التعميد وأفلامهم وأعمالهم التوجيهية، التي تعلّم المسيحيين محبّة الشعب اليهودي وحمايته باعتباره «شعب اللّه المختار»، تحت علامة «الأعمال الحسنة». الشعار الذي ينظّم حياتهم ويلقّنونه لأتباعهم هو أنّه لا يكفي «الانتشاء بالنبوءات» وأنّه «لا يفيد في شيءٍ الانشغالُ بالمواعظ والانكبابُ على الأفكار اللاهوتية حول إسرائيل». المهمّ بالنسبة لهم هو أتباع اشعيا 1، 40، الذي يفسّرونه كدعوة إلى العمل: «عزّوا، عزّوا شعبي!» إنّ أعضاء السفارة، بعيداً عن حصر الذات

بالمجاهرة بحبّهم للشعب اليهودي أو بزيارة الأرض المقدّسة للسير على خطى يسوع، منخرطون في أعمالٍ ملموسة، من قبيل تسهيل نقل المهاجرين اليهود من العالم أجمع والتبرّع بجزءٍ هامٍّ من ميزانيّتهم السنوية البالغة ثمانين مليون دولار لبرامج وأنشطة ذات طابعٍ اجتماعيٍّ وسياسيٍّ في إسرائيل.

بحذرٍ شديد، يلاحظ ديفيد بارسونز أنّ محبّة المسيحيين الإنجيليين ومساندتهم للشعب اليهودي ليست محض إيثار. «أريد أن أشاهد إتمام الوعود المقطوعة للشعب اليهودي ولهذه الأرض لأنّ ذلك يخصُّ عقيدتي. ما لم يفِ اللّه بوعوده لإسرائيل وللشعب اليهودي، وإذا كان هو نفس اللّه الأمين الكريم، كيف سيمكنني أن أنتظر منه أن يحترم ميثاقه معي بما أنّني مسيحي؟» يجيب بارسونز بنفسه على سؤاله متابعاً: «سوف لن يحدث هذا من تلقاء نفسه. في الجوهر، اللّه هو مَنْ يفي بالتزاماته. وبكوننا هنا كمراقبين، كشهود، أو بصلاتنا في هذه الخدمة الكهنوتية للتعزية، سنكون هنا أيضاً عندما سينفّذ اللّه وعوده لإسرائيل وللشعب اليهودي. هذا هو الجانب الحسن من النبوءة. إنّ عدداً كبيراً من المسيحيين مسكونون بجانبها المظلم، ولكن هناك شيءٌ ما في وعود اللّه لإسرائيل واهبٌ جدّاً بالنسبة للإيمان». حول مسألة معرفة ما إذا كان لابدّ للشعب اليهودي أن يؤمن بيسوع ويعتنق المسيحيّة لكي يعود المخلّص، أدلى بارسونز بالتعليق التالي: «لا تكمن المشكلة في هداية اليهود أيّاً كان ذلك. المشكلة هي أنّ على اللّه أن يفي بوعده. وهذا سهلٌ مثل ذلك. الهداية، على كلِّ حالٍ، هي جزء من المشروع الإلهي. لا تقع على عاتقنا هدايةُ أيٍّ كان. إنّ اللّه يحبُّ العالم، ولكنّه اصطفى إبراهيم ليخلّص هذا العالم، وليس اليهود فقط، فعندما ندعم دولة إسرائيل والشعب اليهودي، فذلك أيضاً في سبيل خلاصنا نحن. الشعب اليهودي هو مفتاح هذا الخلاص. هناك الكثير من اليهود الحكماء والحاخامات الذين يدركون مثلنا بأنّه، حينما يكون اليهود في المنفى، لا تستطيع الأرض أن تُعطي ثمارها. حينما يكونوا بعيدين عن هذه الأرض، يكون ذلك، على ما يقول العهد الجديد، أنّهم قد «عوقبوا بسببي، لكي يتعلّموا السير بتواضعٍ أمامه والخضوع له»». في النهاية، سوف يردّ اللّه لليهود لأنّهم الشعب المختار، لأنّه اختار القدس وسيختارها من

جديد لينصب فيها عرشه. غالباً ما يأتينا أعضاء الجالية اليهودية ويحاولون حثّنا على مقاومة خارطة الطريق. فأقول لهم كلّ هذا عن اللّه، أقول لهم بأنّه سوف لن يسمح بإلحاق أيّ أذى بالشعب اليهودي شريطة أن يؤمن اليهود بيسوع، بحيث يجيبوا بسرعةٍ حينما يطرحون على أنفسهم أسئلةً. هذا هو أساس الصهيونية المسيحيّة». أحد أطراف المعادلة في هذه المنطقة المضطربة من العالم، هو بالتأكيد الشعب الفلسطيني وهذه هي النقطة التي حولها انحرف مسيحيّون إنجيليون مثل بارسونز عن الكنيسة البروتستانتية التقليدية. «يعتقد المسيحيون بأنّه يجب أن تستولي إسرائيل على سوريا والأردن لأنهما تشكّلان جزءاً من الوعد التوراتي. نحن نعتقد بأنّه من أجل ذلك لا بدّ من انتظار الألفية، عندما سيحكم المخلّص هنا في القدس. لا تنسوا أنّ مملكته مملكةُ سلامٍ ولكن ستكون له كذلك قبضةٍ من حديد وهو مَنْ سيحدّد الاتّجاه. ولكن بانتظار ذلك، على إسرائيل أن تحيا وفق المبادئ التي ثبّتها اللّه. قال الرّبّ: "إذا سرتُم في اتجاهي ستكونون قد كوفئتم، ولكن ان ابتعدتم عنّي، سيكون هناك ثمنٌ تدفعونه." لابدّ أن يفضّ اليهود خلافهم مع يسوع».

20

حفلةٌ في القدس

أندرياس غريفن قسٌّ بروتستانتيٌّ ألماني يدير كيبوتز نيس آميم Nes Ammim في الجليل. هذا الاسم الذي يعني حرفياً «معجزة الأمم» مقتَبَسٌ من الكتاب المقدّس، من نبوءة اشعيا. والكيبوتز الذي نتحدّث عنه كان قد أُسّسَ على مبدأ بموجبه ينبغي أن يقبل اليهود والمسيحيّون ببعضهم البعض بشكلٍ متبادلٍ دون أن يكون الموضوع هو الهداية. كان تمويله قد أُمِّنَ حينها من سويسرا عبر شركة زيورخ أغا، التي بقيت داعمه الرئيسي. المساهمون فيه هم بمعظمهم من المسيحيين الألمان والسويسريين والهولنديين. في البدء، كان المبدأ الأساسي هو التالي: كان على الكالفينيين المصلحين الأوروبيين أن يقيموا ملجأً آمناً يمكن فيه لليهود والبدو والمسلمين والدروز والمسيحيين والأوروبيين المهاجرين العمل والعيش معاً. كان على المسيحيين المجيء إلى نيس آميم لفترة محدودة بغية أن يلمّوا باليهودية وبتاريخ المسيحيين واليهود. يشرح القس غريفن: «ليس فقط بسبب ما هو مكتوب في الكتاب المقدّس بل أيضاً بسبب العلاقات الأليمة بين هذين المجتمعين في الماضي، أي بالنسبة لليهود، ألفا عامٍ من الازدراء المسيحي».

الخلافات بين ديفيد بارسونز وأندرياس غريفن ليست مجرد لاهوتية بل أيضاً بدنية، وهي صارخة في هذا المجال. ففي حين أنّ بارسونز خطيبٌ وسيمٌ ومهذّبٌ وأنيقٌ يرتدي دائماً قميصاً رياضيّاً (بولو) وينتعل حذاء موكاسان من ماركة غوتشي Gucci، ينتعل غريفن نعالاً ثقيلة من الجلد وستراتٍ من النايلون. علاوة على أنّه بطيء وفي منتهى الحذر. ويهتمّ، في علاقته بالشعب اليهودي، بمبدأ السويّ سياسيّاً لدرجة أنّ الكنيسة القائمة في قلب الكيبوتز لا تحتوي لا صليباً ولا تمثالاً

ليسوع المسيح. يشرح القسّ غريفن: «كنيستنا دارٌ للصلاة تُعتَبَر كمعبدٍ صاحبيٍّ[1]. الرموز الدينية الوحيدة التي لدينا هي النوافذ الاثنتي عشرة في كلّ جانبٍ من جوانب البناء والاثنتي عشرة بلاطة الصغيرة المزخرفة على المنبر، التي تجسّد القبائل الاثنتي عشرة لإسرائيل والقديسين الاثني عشر». ويضيف القسّ: «خلال القداديس الربانية ليوم الأحد، لا يُذكر المسيح أبداً لكي لا نسيء إلى «أصدقائنا اليهود»». ويقول: «يسوع يسكنُ في قلوبنا. وفي النتيجة، ليس من الضروري أن نكشف عقائدنا. نضعُ جانباً معتقداتنا الدينية الخاصّة لأنّ الشعور بالذنب الذي نعانيه يحثّنا على أن نكفّر عن أخطائنا ونستدركها حيال اليهود الذين قُتِل آباؤهم وأجدادهم أثناء الحرب».

يعتبر المسيحيّون الإنجيليّون بأنّهم ليسوا مسئولين بشكلٍ من الأشكال عن المحرقة لأنّ الكنيسة الكاثوليكية والمسئولين الأوروبيين هم الذين ساهموا في تلك المأساة، سواءً بالإهمال أو بالتشويه. على العكس من ذلك، لا يغسل أندرياس غريفن ومالكي نيس آميم أيديهم من ذلك، ويجعلون من واجبهم عدم السعي إلى هداية الشعب اليهودي إلى دينهم: «نحن، في نيس آميم، نثابر على شرح وتعليم ماهية المحرقة للذين يأتون، لكي يعودوا بهذه المعرفة إلى ألمانيا وهولندا ويشاطروها الآخرين». ويوضّح القسّ غريفن: «ولكن وحدهم الألمان الذين أعمارهم بين 25 و45 سنة يُقبلون عندنا، أي الذين لم يكن بإمكانهم المشاركة في المجزرة التي راح ضحيتها ستة ملايين من اليهود في أوروبا. بالنسبة لنا، من المستحيل محاولة هداية اليهود لأنّهم هم من تعلّم المسيحيون من خلالهم الإيمان باللّه. إنّ استحضار المحرقة هو جانب هامٌّ للغاية لنشاطاتنا. المشاركون هم بشكلٍ أساسيٍّ من الشباب، الذين يأتون من ألمانيا وسواها من البلدان الأوروبية، أثناء العطل المدرسية، ليقوموا بتطوّعٍ مدنيٍّ أو يتعلّموا معرفة اليهود وإسرائيل والمحرقة، ولكن ليس من المسموح لهم أنْ يبقوا لأكثر من ستِّ سنوات». ويقرُّ القسّ غريفن، منذ فترة، بأنّه تتزايد صعوبة جذب شبابٍ أوروبيين إلى نيس آميم بسبب الموقف

---

(1) الصاحبيّة: شيعة بروتستانتية تدعو إلى السلام والبساطة وحبِّ البشر -المترجم-

النقدي للصحافة حيال إسرائيل. «يعتبر الأوروبيون على الدوام أنّ الفلسطينيين هم المضطّهَدون، وهذا أصبح خطيراً على نحوٍ متزايد لأنّه، وبما أنّه قد مضى أكثر من ستين سنة على المحرق، بقي القليل جدّاً من الناجين وقريباً سوف لن يعود هناك ناجون». أمّا أولئك القادمين، فغالباً ما يُفاجأ القسّ غريفن بجهلهم لما حدث إبّان الحرب. «أسألهم على الدوام إن سمعوا الكلام الذي يُحكى على المحرقة والردّ يكون على الدوام بالإيجاب. ولكن، في الحقيقة، لا يعرفون الشيء الكثير عن وجهة نظر الإسرائيليين أو اليهود حول المسألة. وبالتالي أركّز على هذا الجانب عندما أحدّثهم عن الفظائع المرتكبة ضدّ الشعب اليهودي».

اللامبالاة حيال المحرقة المذكورة من قبل القسّ أندرياس غريفن وتردّد بعض الأوروبيين في المجيء إلى نيس آميم بسبب لنقل الجور الذي يمارس ضدّ الفلسطينيين تثبت استمرار نوعٍ من المعاداة للسامية الكامنة عند البروتستانت الذين يستمرّون في الانتماء إلى «لاهوت التحرير». في الواقع، يزعم هؤلاء الأخيرين بأنّهم يعارضون إسرائيل لأنّ الصهيونية هي مرادفة للعنصرية وليس لأنّهم معادون لليهود. وهكذا، فإنّهم بالاستناد إلى الإنصاف وإلى نفورهم من «الأبارتيد» (نظام الفصل العنصري) يجعلون توبيخاتهم لإسرائيل مقبولةً. الأمر الذي يؤكّد ويسوّغ شرعية القرار المتّخَذ من قبل الأمم المتّحدة في عام 1975 والذي كان يعتبر رسمياً الصهيونية حركة عنصريّة.

وإذا كان قد شقَّ على الطائفة البروتستانتية التقليدية ونيس آميم جذب سيّاح وزوّار إلى إسرائيل بسبب الوضع السياسي الراهن الذي يجعل من هذا البلد قوة احتلالٍ عنيفة ومن الفلسطينيين ضحايا، فإنّ الحال لم يكن كذلك بالنسبة للسفارة المسيحية الدولية في القدس.

في الواقع، تستقبل هذه المنظّمة، مرّة واحدة في العام، أثناء عيد المِظال، عدّة آلافٍ من المسيحيين الإنجيليين الذين يأتون في رحلةِ حجٍّ إلى القدس، مموّلين غالباً من قبل الكفلاء الإنجيليين الخاصّين أو من قبل الكنائس الإنجيلية المنتشرة عبر البلاد.

* * *

تستقبل السفارة المسيحية الدولية في القدس، سنوياً، إبّان عيد المِظال الذي يناظر عيد سوكوت اليهودي، الآلاف من المسيحيين الإنجيليين القادمين إلى الأرض المقدّسة للمشاركة في المراسم. يسافر معظمهم على حساب مختلف المنظمات الإنجيلية في بلدهم التي تقدّم تكاليف الطائرة والفندق لكي يتمكّنوا من «السير على خطى يسوع» ويزدادوا قناعة بأهمية ضمان بقاء الدولة اليهودية.

جان موريسون امرأة جذابة ذات شعرٍ قصير وتضع نظارتان، وهي مسيحيّة إنجيلية ورعة، وقد دمجت معتقداتها الدينية بالتزامها السياسي على الأرض. تعلو شفتيها ابتسامة دائمة وهي تذكر أنشطتها وقناعاتها.

تشرح موريسون بأنّها، مهنيّاً، تكتب مواضيع لها علاقة بالاعتداءات الجنسية، وعلى المستوى السياسي، تصوّت لأيِّ مرشحٍ يعارض إنشاء دولة فلسطينية. تقول موريسون: «إسرائيل قديرة في نظري لأنّها الدولة الوحيدة التي وعد اللّه بها شعباً. لقد اختار اللّه أن تقوم على هذه الأرض، وأن يولِد فيها ابنه وأن يجعله فيها يحيا وفيها يموت. لقد جعل من الشعب اليهودي شعبَه وما من أحدٍ سوف يستطيع أن يغيّر في ذلك شيئاً لأنّ هذا تحالفٌ أبديٌّ لا يزال مشروعاً اليوم وسيبقى كذلك إلى أبد الآبدين».

حينما سافرت موريسون إلى إسرائيل من أجل عيد المِظال، كانت تلك المرّة الأولى التي تغادر فيها الولايات المتّحدة، وقالت بأن تلك الرحلة كانت «اللحظة الأكثر تأثّراً وقوّة في حياتها». «كل ما اعتقدته فيما مضى أخذ فجأةً مظهراً مختلفاً. يوجد على هذه الأرض صفاءٌ خاصٌ لا يوجد مثيلٌ له في أيّ مكانٍ من العالم. حينما نزلتُ من الطائرة اجتاحني شيءٌ غير منتَظَر. هنا، كل تجربة تأخذ معنى خاصّاً. إسرائيل بلدٌ صغيرٌ وجميل، سياسيّاً، يدور كل ما في العالم حول هذا البلد. هنا بدأت وانتهت الحروب كلّها، وقد اندهشتُ بها. وهنا أيضاً، وجدت روحي الطمأنينة. ومع أنّه يسودها صخبٌ كبيرٌ سوف لن ينتهي إلاّ في اللحظة التي ينزلُ فيها المخلّص على جبل الزيتون، هناك مع ذلك في هذا المكان نوعٌ من السلام لا مثيل له في الدنيا».

بعض الفظائع والجروح التي كانت لأحداث الحادي عشر من أيلول 2001

لم تجعلها سوى أكثر ثقة في عقيدتها وفي علاقتها مع الشعب اليهودي. مثلما أظهرت شرعية احتقارها الفطري للإسلام. تقول: «بعد 11أيلول، في كلِّ مرّة كنتُ ألتقي فيها إسرائيلياً، كان يسألني ان كنتُ أمريكية وكان يؤكّد لي مباشرة بأنّه سوف لن يلحق بي أيُّ أذى، ولا بالأمريكيين الآخرين وطبعاً بالبلاد برمّتها. بل كانوا يقولون لي بأنّهم سيصلّون من أجلنا. في المقابل، في كلِّ مرّة كنتُ أتحدّث فيها إلى عربيٍّ، كان يقول لي بأنّنا، أي الولايات المتّحدة، نلنا ما كنّا نستحقّه. الفرق الكبير بين العرب واليهود هو أنّ العرب يحوّلون أطفالهم إلى قنابل بشرية ويرسلونهم ليموتوا ويقتلوا الآخرين، بينما لدى اليهود فكرة مختلفة عن الحياة. إنّهم يعتبرون بأنّه من المهمّ إنقاذ الحيوات والعيش بسلام. بالنسبة للعرب، ليس للحياة أيّ قيمة، بينما هي بالنسبة لليهود ثروة نفيسة».

منذ عودتها من إسرائيل، تجوب جان موريسون الولايات المتّحدة واضعة بصفة شبه رسمية مساعيها الحميدة في خدمة الدولة اليهودية. وألزمت نفسها بواجب كشف ما أسمته «حقيقة» النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني لأصدقائها الإنجيليين. حينما التقيت بها، خلال مراسمها، كان تتحدّث بتأثّرٍ عن تجاربها، وخاصّة عن لقاءها المباشر بيسوع المسيح. «حينها قال لي يسوع: «يا يوحنا، لقد سرتُ في الجليل وفيه تحدّثتُ إلى تلامذتي. هناك، استطاعوا أن يعرفوني، واستطعتُ أن أعرفهم». كان ذلك لا يصدق، ولكن، كمسيحيّة، منحتني حقيقة رؤية إسرائيل والحديث مباشرة إلى يسوع الرغبة في أن أشرح، لدى عودتي إلى الولايات المتّحدة، لكلِّ من كنتُ التقي بهم بأنّهم لا يعرفون الحقيقة بشأن ذلك البلد. حقّاً لا يعرفونها. الناس هناك يقولون بأنّ الهدوء عاد حينما مرّت بضعة أسابيع بلا هجوم. في الواقع، ليس هناك من هدوءٍ حقيقي لأنّ الناس يتساءلون دائماً متى ستنفجر القنبلة القادمة. الأمر مثلما هو في أمريكا، حيث تُحبِط قواتنا الأمنية يومياً هجماتٍ انتحارية. ففي إسرائيل، الحال هكذا كلّ الوقت. إذاً، أشرح للناس الحقيقة وأطلب منهم الصلاة من أجل الشعب اليهودي لأنّ اللّه يقول بأنّه يجب الصلاة من أجل السلام في القدس. شخصيّاً، أصلّي لأجلهم لأنّني أحبّهم كثيراً. ولكنني دوماً أصلّي للعرب أيضاً. يعتقد بعض المسيحيين أنّ هناك نوعٌ من

الغشاوة على عيون اليهود لأنّهم لم يؤمنوا بعد بيسوع، ولكن ماذا نقول عن العرب، إنّ شيئاً من الدين هو ما يدفعهم إلى القتل. إنّ دينهم هو ما يعلّمهم الكراهية».

ثمّة مسيحيٌّ إنجيليٌّ آخر يسافر إلى إسرائيل في السنّة مرّة واحدة لأجل عيد المِظال: إنّه كارليل أندرسون، المحاسب في نيو هامشاير، والذي بدوره، حينما يتكلّم على إسرائيل، يتكلّم على لقائه الشخصي بيسوع، فيقول: «كان الرّبّ دائماً إله النعمةِ والمغفرة، وهذا للأسف الشديد ما لا يعرفه الناس. لدي أصدقاء يعملون مع الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين. ذهب رجلٌ، حاضرٌ دائماً في صلواتي، إلى تلك المخيّمات وحاول قول الحقيقة للفلسطينيين واستدراجهم إلى الاعتراف بيسوع». ويقرُّ أندرسون بأنّه «مناصرٌ متحمّس للرئيس بوش» ويتابع أندرسون: «الآن لدينا في البيت الأبيض مَنْ يفكّر بأعلى الحزام، وهذا، كما تعلمون، هامٌّ جدّاً. كما انني أعلم بأنّ بوش يميل إلى إسرائيل. عندما حظيتُ بمقابلة يسوع بالقرب من بحيرة طبريا والحديث إليه، أكّد لي بأنّ كلّ شيء سيجري كما يقول الكتاب المقدّس في حزقيال، وبأنّه سيردّ الشعب إلى اللّه، وسيعين الشعب هنا في العودة نحو اللّه. ولكن يسوع نبّهني أيضاً بأنّ بوش ليس إلاّ رئيساً، إنّه ليس ملكاً ولا إلهاً. وفي النتيجة، لا يمكنه أن يكون كاملاً ولا أن ينجز كلّ ما قاله الكتاب المقدّس. «كما يخال كارليل أندرسون أنّ، خلال سنواته الواحدة والستين، كان معظم الرجال الذين انتخبوا رؤساء للولايات المتّحدة، باستثناء كارتر»، يميلون إلى الشعب اليهودي». «شخصياً، أعتقد بأنّ الرئيس بوش، ومهما فعل سعياً إلى تسوية النزاع، يعلم في ضميره أنّ العرب سوف لن يفوا بالتزاماتهم أبداً. ولكن، رغم كلّ شيء، يمنحهم الفرصة. لا أعرف الرئيس بوش شخصيّاً، ولكنني أشكّ بقوة في أن يكون مقتنعاً بإمكانية اتفاقية سلام. وإذا كنتُ أنزعجُ ممّا يطرحه أحياناً للمثليين الجنسيين في بلادنا، من حقيقة أنّه لا يدين تصرّفاتهم السيئة، فأنّني أدرك بأنّه، حينما يقول بأنّه رئيس الجميع، لا يمكنه بكلِّ بساطةٍ أن يفضّل البعض ويلفظ الآخرين».

يكاد جميع المسيحيين الإنجيليين أن يستطيعوا تلاوة الكتاب المقدّس آية بآية

ويقولوا بدقة من أين جاءت هذه العبارة أو تلك. ومع ذلك لديهم فكرة غامضة بما فيه الكفاية عن التاريخ وعن السياسة الخارجية الأمريكية، لدى الحديث في ذلك. تلعب ريتا أنجيلا، السكرتيرة في مدرسة ثانوية في ليكزينغتون بولاية كينتاكي، دوراً وسط الحركة الإنجيلية يتجاوز دور شركائها في الدين الأكثر نفوذاً. حينما وصلت مجموعة من الطلبة من الصومال إلى مؤسّستها لفصلٍ واحدٍ في إطار التبادل، اكتشفت لنفسها «مهمّة حقيقيّة». تحدّثت، واقفة على جبل الزيتون وهي ترنو والعبرات في عينيها، والمدينة القديمة في الأسفل، عن رحلتها إلى إسرائيل وعن الطريقة التي تحاول بها ترسيخ القيم المسيحية في ذهن كل مَن تلتقي بهم في بلدها الولايات المتّحدة. تروي أنجيلا: «لقد شعرتُ بأنّه كان من واجبي إنقاذ هؤلاء الصبيان المحكومين بالمكوث في الجهنّم أبديّاً. فنشرت قائمة بما يجب القيام به وما يجب الامتناع عنه لقيادة هؤلاء الشبّان إلى الهداية. عدم مقاربتهم جماعة. عدم قيادتهم إلى الكنيسة لأنّهم سيعتبرون الأناشيد والتصفيق احتفالا. دعوتهم لتناول الطعام في البيت. إعطاءهم بسكويتاً وشوكولا. إخبارهم بأنّهم إن كانوا يريدون الخلاص، عليهم الإيمان بيسوع. ليس واجبنا ببساطة جعل أحدهم مسيحيّاً. بل هو أيضاً تعليمهم محبّة المسيح». غير أنّ محبّة المسيح، عند أنجيلا، غالباً ما تكون ملطّخة بالأحكام المسبقة حينما تتكلّم على العرب. إذ تقول: «لا أظنّ أن لديهم قلبٌ أسود. ببساطة، الأمر يتعلّق بما لُقِّنو. إذا عرفتم الإسلام، ستعلمون بأنّه ليس هناك سوى صنفين من البشر: أولئك الذين على الحقّ، تقريباً، والآخرون. أهل الكتاب، أي المسيحيّون واليهود، لهم قلبٌ موجّه نحو المحبّة والسلام، في حين أنّ العرب مشبعين بالقرآن الذي يبشّر بالعنف والكراهية».

ثمّ انطلقت أنجيلا في حديثٍ حول التاريخ السياسي للعلاقات بين اليهود والأمريكيين والتي اطّلعت عليها، حسب أقوالها، من خلال «قراءة كتب التاريخ والاستماع إلى واعظها الإنجيلي في بلدها». وتابعت: «بدراسة تاريخ العلاقات بين إسرائيل وأمريكا، نتأكّد من أنّ هذه الأخيرة لم تكن دائماً أمينة ولا مستقيمة مع الشعب اليهودي. وبالتالي، هناك عقبات لا بأس بها ينبغي تذليلها. وأفضل ما

يمكن فعله هو المرور بمؤسّسات من قبيل السفارة المسيحية الدولية في القدس. حينما لم يكن أحدٌ يريد وضع سفارته في القدس، هؤلاء المسيحيون والمسيحيّات هم من قالوا بأنّه يجب أن يكون هناك حضورٌ مسيحيٌّ في المدينة». ولكن لدى سؤالها عن الاحتلال الإسرائيلي للضفّة وقطاع غزّة، أعطت تفسيراً اعتبرتُه منطقياً وذا صلة بالحدث: «الأرض كانت قد مُنِحَتْ لإسرائيل في إطار اتفاقية فيرساي، ومن قبل الناتو والأمم المتّحدة. ولا تنسوا أنّ 77% من هذه الأرض قد مُنِحَت للفلسطينيين. إن بلدهم يُدعى الأردن. مع ذلك، وفي نهاية المطاف، وجد الإسرائيليون أنفسهم مع 23% فقط من الأرض، أي الجزء الواقع إلى الجانب الشرقي لنهر الأردن. الجميع يتحدّث عن احتلال الضفّة وقطاع غزّة، ولكنّ الضفة الغربية لنهر الأردن مُنِحَت في الأساس لإسرائيل. لقد استوليَ عليها أثناء حرب 1967، ثمّ جاء حسين [العاهل الأردني] ليقول بأنّه سيضمّها. انظروا كم دولة عربية يمكنها استيعاب هؤلاء الناس. ولكنّها إن فعلت ذلك، لما كان هناك مخيّمات للاجئين لكي يظهروا للعالم كم تسيء إسرائيل معاملة الفلسطينيين. إنني على قناعة بأنّهم هم (الفلسطينيون) يُبقون شعبهم في الأسر. وهذه القناعة لا تنجم عن التقارير التي قرأتها، وإنّما أخذتها من المبشّرين الذين تحدّثتُ إليهم والذين التقوا الفلسطينيين في تلك الأمكنة. حقدهم موجّهٌ ضدّنا. ستلاحظون بأن السكان العرب لا يكرهون زعماءهم الذين يملكون ثروات بملايين الدولارات المخفية في البنوك الخارجية. بالمقابل، سيكرهون الأمريكي العادي الذي يعمل ويشتري بيتاً صغيراً يعيش فيه رغداً، أو يكرهون الإسرائيليين لأنّ لديهم عملٌ في إسرائيل. ورغم كلّ هذا الحقد، حينما يمرض أطفالهم يسرعون جميعاً إلى المستشفيات الأمريكية أو الإسرائيلية لأنّ قادتهم لا يريدون أن ينفقوا كل ملايينهم لكي يجهّزوا مستشفياتهم ويجعلوها أكثر فاعلية. المحزن في الأمر، هو أنّه سوف لن يكون هناك سلامٌ مادام الشعب الفلسطيني لا يريد أن ينظر إلى الأمور بلا خوف». زعمت ريتا أنجيلا بأنّ لديها القدرة على رؤية ما وراء المظاهر بالنسبة للإسرائيليين بقدر ما بالنسبة للفلسطينيين. وتقول بأنّها تشعر بما لديهم حقيقة «في الروح». وأردفت: «الإسرائيليون قساةٌ ظاهرياً، ولكن تلك القسوة سرعان ما ترتخي، ولا يلزم الكثير من الوقت للتغلّب عليها، وحينما يجري التغلّب عليها، يصبحون دمى طيبة القلب

nounours[1]. عند الفلسطينيين، تبيّن لي عكس ذلك تماماً. في البداية يكونون ودودين جداً جداً، ويدعونك لشرب الشاي معهم، وأمورٍ كهذه. ولكن حينما يرون بأنّهم لم يتمكّنوا من انتزاع أيّ شيءٍ منكم، يتصرّفون وكأنّهم لم يعرفوكم قط. ويجب الاعتراف في نفس الوقت بأنّ الفرق بين العرب واليهود يتعلّق على نحوٍ خاص بعملية التوجيه التي يخضع لها الأطفال العرب. إنّ الدين [الإسلامي] هو مَنْ يعلّم العربَ القتلَ والكراهيةَ». ثمّ روت أنجيلا قصّة بدت أنّها تبرّر وجهة نظرها: «لدي صديقٌ عربيٌ مسيحيٌّ يعمل في مخزنٍ للتذكارات في المدينة القديمة. وفي نفس القطاع من المدينة، هناك أخَوان عضوان في حركة حماس، لديهما أيضاً حانوتٌ هناك. ذات يوم، دخلتُ إلى مخزنهما، وحينما سمعاني أتكلّم الإنكليزية وقلتُ لهما بأنني أمريكية، قال لي أحدهما: «أنتِ مجرمة!» وعندما سألته لماذا يقول أشياءً كهذه، سألني ان كنتُ قد صوّتتُ لجورج بوش. وحينما قلتُ له: بنعم، أجابني بأنّه لذلك السبب أنا مجرمة، لأنّ بوش يقتل العرب. «توقفّت أنجيلا برهةً، وشرعت في ابتسامة خفيفة. «أحياناً أتكلّم كثيراً وهذا يسبّب لي هموماً، ولكنني أجبته بأنّه على حدِّ علمي لا جورج بوش ولا أيّ أمريكيّ أخر أرسلوا أناساً محاطين بالمتفجرات ليقتلوا أناساً آخرين مثلما يفعله الفلسطينيّون. فأمسكني من فوق طاولة المتجر، ولكنه أفلتني بعد ذلك».

وكغيرها من المسيحيين الإنجيليين الذين كانوا في القدس بمناسبة عيد المِظال، التقت ريتا أنجيلا يسوع وجهاً لوجه: «كنتُ في طبريا عندما أيقظني اللّه، في الساعة الثالثة والنصف صباحاً، ليقول لي بأنّه يريد أن يكلّمني على ضفّة البحيرة، وبأنّ حياتي، ان كنتُ أريد اللحاق به، سوف لن تعود هي. طبعاً، نهضتُ حينها ونزلتُ إلى البحيرة. بالتأكيد كان يسوع هو من كلّمني. مدّ يده إليّ هكذا، ومشيت، ولم يكن يفعل سوى إشباعي بكلماتٍ عن الأرض والشعب، ولم أكن أنجح في متابعة الكثير من الأمور. في اليوم التالي، حينما عُدتُ إلى القدس، قال لي الدليل بأنني كنتُ على وشك أن ألمح أنوار المدينة. حينها

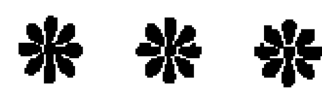
(1) دمية أطفال على هيئة دبّ - المترجم-

أجهشتُ بالبكاء. شعرتُ بأنّ اللّه كان معي من جديد وازددتُ انفعالاً. قلت له: «ما الذي يجري الآن؟ لقد رأينا أنفسنا قبل قليل على ضفّة البحيرة. لا أفهم ما يحدث». لكن الحقيقة هي أن اللّه، ومنذ أن صرتُ في هذا البلد، منحني الرغبة في الإنشاد».

أثناء احتفال افتتاح العيد، في 12 تشرين الأوّل 2003 مساءً، كرّم رئيس الوزراء آريل شارون خمسين سائق سيارة من شركة ايجيد Egged الذين يخاطرون، على حدّ قوله، يومياً بحياتهم على جبهة هذه الحرب التي يشنّها الإرهاب في إسرائيل. وطالب بيني إيلون، وزير السياحة في حكومة شارون وأحد أوائل أنصار ترحيل الفلسطينيين من الضفّة والقطاع، المشاركين بفتح قلبهم ومحفظتهم لتقديم منحة لسائقي ايجيد. كان مالكولم هيدينغز، مدير السفارة المسيحية الدولية في القدس أكثر مباشرةً، فقال للمسيحيين المحتشدين: «حينما أتيتم، وضِعَ لكم قلمٌ وسندٌ. نريد أن نعرف مَنْ أنتم. نريد أن نعرف عنوانكم الدقيق. أملئوا إذاً السند وأعيدوه إلينا، سواءً بإيداعه في الدلو المخصّص للتبرّعات أو لاحقاً في غضون الأسبوع. ثمّة على الورقة قسمٌ ثانٍ في غاية الأهمية. تواجه إسرائيل أزمة اقتصادية خطيرة جدّاً، وعلينا نحن المسيحيون أن نساعدها بصلواتنا، وأيضاً بتبرعاتنا. علينا أن نساهم في تمويل البنى التحتية وأن نمنح الهبات لسكّان هذا البلد كلّما أمكننا ذلك. وثمّة حاجةٌ للكثير من الأموال. ومثلما يمكنكم التأكّد من ذلك، فإنّ الحياة مكلفة للمهاجرين، ولكنّها أيضاً ليست رخيصة لأولئك الذين يعيشون هنا. فنرجو منكم أن تقدّموا على الجزء الثاني من السند وعداً بمنحةٍ. حدّدوا ما يمكنكم فعله طيلة السنة. ساعدوا السفارة المسيحية الدولية في مساعدة إسرائيل. ندعو كلَّ واحدٍ منكم إلى الصلاة وإلى التأمّل وإلى تفتيش جيوبه جيّداً. فلنشكر الربّ معاً لأنّه أنعم علينا بالوفرة في الوجود». في تلك اللحظة، مرّ حُجّابٌ على الحضور مع دلاءٍ سوداء. وبدأت موسيقى أخّاذة بالدوي، وشرع رجالٌ بقلنسوة وخمار الصلاةِ في الهورا، الرقصة اليهودية التقليدية، بينما كانت شيكاتٌ وبطاقاتٌ ونقودٌ تنهمر في الدلاء.

بعد التبرّعات، توجّه ايهود أولمرت، نائب رئيس الوزراء في حكومة شارون

[رئيس الوزراء الحالي ـ المترجم]، إلى المجموعة ولم تفعل كلماته سوى أنّها زادت من الهيجان الديني الذي كان قد أخذ الجميع. صرّح أولمرت في مداخلته: «القدس هي جبل الهيكل. لمرّتين في تاريخنا، فقدنا جبل الهيكل. والحال أنّ هذا المكان هو قلب الوجود اليهودي والولايات المتّحدة تعلم أنّ القدس لا يمكن أن تكون سوى عاصمة وحيدة وموحّدة وغير قابلة للتقسيم. لن يكون هناك أساسٌ آخرٌ للتطورات السياسية المقبلة. لا أعتقد أنّ يكون الإسلام مؤيّداً للإرهاب، ولكن مجموعات الإرهابيين هذه المنتشرة في العالم أجمع تفسّر دينها بعبارات العنف والتطرّف. من غير الممكن رؤية الأمور بخلاف هذا. ينبغي محاربة الإرهاب بكلّ الوسائل. لا يمكننا محاربة الإرهابيين بالكلمات. إذاً، يجب القيام بما هو المفروض فعله». بعد ذلك، وخارج صالة المؤتمر، تحدّث أولمرت عن الالتزام الدائم لمنظمات مسيحية كبيرة بحماية وجود إسرائيل: «ليس هذا هو الأساس الوحيد، ولكنّه أساسٌ هامٌ للغاية لوجودنا، وهذا أمرٌ أكيدٌ. أمريكا مجتمعٌ مسيحي، ومن بين جميع أمم العالم، هي الأكثر التزاماً بالدفاع عن وجود دولة إسرائيل».



جينا مسيحيّة إنجيلية، وهي إمرأة عادية تعيش في منطقة ريفية من نيوجيرسي. ومع أنّها في الثلاثينات من عمرها، فإنّ وجهها متغضّن من التعب ويديها محمرّتان وتالفتان من جراء الأعمال الشاقّة. ولدى جينا، المتزوّجة من رجلٍ بلا عمل منذ أربعة أعوام، ثمانية أطفال، أنجبت سبعة منهم والثامن تبنّاه زوجها مؤخراً. وكعددٍ متزايدٍ من المسيحيين الخلاصيين، تعلّم جينا أطفالها في البيت وتدرّسهم المواد الأساسية الملزمة التي تُضاف إليها دراسة في غاية الصرامة للكتاب المقدّس. خلال الوقت الذي يتبقّى لها بعد صيانة البيت وتسلية زوجها ورعاية أطفالها وتعليمهم، تشغل جينا أيضاً وظيفة متواضعة كخادمة في استراحة مجاورة. مع ذلك ورغم جميع الصعوبات المالية التي تعانيها هي وأسرتها طيلة سنين، تدفع بأمانة شهرياً جزءاً يسيراً من مواردها الشحيحة لمنظّمة تُدعى (على أجنحة العقبان) .On the Wings of Eagles وتخصّص هذه المؤسّسة التي يديرها

الحاخام الأرثوذكسي الأمريكي يشيل اكستاين، والمسيحي الإنجيلي ريتشارد لاند، جزءاً من ميزانيتها البالغة مائة مليون دولار لتوجيه اليهود الروس نحو إسرائيل. تقول جينا: «لقد ألهمني اللّه محبّة الشعب اليهودي، وأنا أعلم بأنّها نفس المحبّة التي يكنّها جلاله لهذا الشعب. أتمنّى من كلِّ قلبي أن يجد هؤلاء الناس وأرضهم السعادة من لدنه، لأنّه يشاء ذلك وتكهّن به».

وهي واقفة في ذلك المساء بين الحضور، دسّت جينا يدها في جيبها حينما دنت الدلاء السوداء. حينما سُئِلت عن التضحية الشخصية التي تمثّلها مساهمتها الشهرية لليهود الروس، اكتفت جينا بالقول بأنّها ستودّ لو أنها تستطيع فعل المزيد: «أدفع شهرياً لمكتب أجنحة العقبان. ومن خلال الرجل الذي يدير هذا المكتب أعرفُ احتياجات الشعب اليهودي. ويكاد كلّ ما أدفعه شهرياً- وهو ليس كثيراً لأنني أملك القليل جدّاً، ولكنني على الأقلّ أدفع بانتظام- أن يُخصِبَ أرض إسرائيل». حتماً، جينا ليست ضليعة في السياسة ولا في واقع دقائق النزاع الإسرائيلي- الفلسطيني، ولكنّه، ومن خلال دينها، تعرف وتدرك أنّ للّه مخطّطٌ للشعب اليهودي ولأرض إسرائيل. «لا شكّ أنّ هذا المخطّط هو مخطّط إنقاذ العالم أجمع لأنّ اللّه أوحى بنفسه للشعب اليهودي أوّلاً واليهود هم الذين سيبلغون هذا الوحي إلى الأمم».

كان من بين الحضور في ذلك المساء، سالي وايريك باترسون، وهما من المسيحيين الإنجيليين من لوس أنجلوس الذين جاءوا إلى إسرائيل للمشاركة في الاحتفالات. وبخلاف جينا، كانا مدركَين جداً للإسهامات السياسية التي يمكن أن يوفّرها دعمُ رئيسٍ أمريكيٍّ لدولة إسرائيل.

أثناء لقائنا في القدس، بدا واضحاً أن إيريك هو من يقود الزوجين. كان طويلاً له شعرٌ أسودٌ وعيناه بلون الأزرق الفولاذي. كان دائماً يلحُّ بالنظر على حراسه، تمتلئ نظرته بالحرص والحذر. زوجته سالي قصيرةٌ شقراء لها عينان مألوفتان ودامعتان وصوتٌ خفيضٌ مهزوز. بالنسبة لإيريك، ليس ذات أهمية كبيرة أن يكون رئيس الولايات المتّحدة ملتزماً بالكتاب المقدّس أو ملحداً، شريطة أن تكون إسرائيل على رأس أولوياته لأسبابٍ تخصّ الكتاب المقدّس أو سياسية.

واقع أن يكون جورج دبليو بوش في البيت الأبيض يجعله أكثر تفاؤلاً من جهة نواياه. «نتمنى أن يكون في نيّة من سيفوز عليه، أيّاً كان، دعم إسرائيل. من وجهة نظرٍ سياسيةٍ وطبعاً في صالح إسرائيل التي نعتبرها ديمقراطية حقيقية، وهو ما ليس حال الكثير من البلدان في المنطقة. نحن ندعم حقّ إسرائيل في الوجود وندعم كفاحها من أجل الأمن. وكمسيحيين مثلما نحن خلاصيّون، نرى أيضاً المسألة من زاوية تعود للكتاب المقدّس بما أنّ هذه الأرض تخصّه إلى الأبد وأنّ جميع الصراعات وإراقة الدماء التي عليها أن تعانيها ليست سوى مرحلة من العملية. حسب النبوءة، سينتهي كلّ هذا بالتسوية، ونحن نعتقد، مستندين على الكتب المقدّسة، بأنّ إسرائيل ستكون بلا ريب أرض الشعب اليهودي».

سالي تشاطر زوجها أفكاره، ولكنّها أكثر ميلاً إلى بناء شعورها على الكتاب المقدّس. تقول: «إذا كانت هذه الأرض ستصبح دولة أخرى تخصّ أحداً آخر، فسوف لن يتوافق هذا مع ما نؤمن به، ما قيل بوضوح في الكتاب المقدّس. هذه الأرض كانت قد وُهِبَتْ للشعب اليهودي من قبل الرّبّ. إنّنا نثمّن إيمانه (إيمان بوش). إنّنا سعداء بمعرفتنا أنّ هذا رجلٌ يقرأ الكتاب المقدّس. بالنسبة لنا نحن المؤمنون، هذا في غاية الأهمية. نريد أن يدعم بوش إسرائيل، هذا لا يثير أدنى شكّ. في بلدنا، وكلّما استطعنا ذلك، حينما تكون هناك مظاهرة مؤيّدة للإسرائيليين أو مناهضة للفلسطينيين، نذهب إليها لنشارك فيها وندلي بمساهمتنا. وفي حياتنا اليومية، نتحدّث إلى الناس ونبدي لهم شعورنا ونقول لهم بأنّنا نؤمن بما تقوله الكتب المقدّسة بشأن إسرائيل والشعب اليهودي». يقول إيريك وسالي باترسون بأنّه لو كان الرئيس بوش توقّف عن دعم إسرائيل لأزعجهم ذلك أعظم إزعاج. تقول سالي: «بالتأكيد لا يسعى الإسرائيليّون إلى قتل الأطفال الفلسطينيين، بخلاف القنابل البشرية الفلسطينية». يقاطعها زوجها ويضيف: «لليهود علاقة خاصّة باللّه، اللّه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهذا يشكّل جزءاً من قدرهم، بما أنّهم كانوا قد انتشروا في الأركان الأربعة للدنيا. على مدى ألفي سنة، حُرِموا من الأرض، وقد أُعيدوا إليها بأعجوبة وأسّسوا وطناً. وكلُّ هذا كان مكتوباً في الكتاب المقدّس. هذه عملية طويلة لم تبلغ نهايتَها بعد. نحن نؤمن بأنّه

يجب الصلاة من أجل كلّ القادة، بما فيهم رئيسنا، لأنّه لن يكون هناك سلامٌ مادام يسوع لن يعود إلى الأرض. كلّ الذين يضعون عقباتٍ أمام إرادة اللّه، أيّاً كانت، سيُعاقَبون. نحن لا نعتقد بأنّ اليهود بلغوا الكمال، لا أحد كذلك. ولكن اللّه سيحاول العمل معهم روحياً لكي تنضمّ أغلبية اليهود إلى المخلّص لدى عودته إلى الأرض. أيّاً قرّر يسوع أن يفعل، ثمّة أمرٌ مؤكّد: سوف يجلب السلام. العديد من المسيحيّين يعتقدون أن كلّ ذلك سيتحقّق سريعاً جداً، بل وبالنسبة للبعض خلال السنوات المقبلة. أعتقد بأنّه سينبغي الانتظار بضعة عقود بالتأكيد، ولكن الحدث سيحدث قبل مماتي».

ثمّ شرح إيريك باترسون بأنّه مقتنعٌ بأنّ جورج دبليو بوش مسيحيٌّ صالحٌ، محترِمٌ للكتاب المقدّس، ولكنّه يعلم أيضاً بأنّ بوش محاطٌ بأشخاصٍ «مؤيّدين للعرب في وزارة الخارجية، وكمسيحيين، يقول باترسون، يمكننا رؤية ذلك. الرئيس خاضعٌ من كلّ الجهات لضغوطٍ متعدّدة ولكننا نعلم أنّ هناك الكثير من الزعماء المسيحيين الذين يلتقون به أو يتحادثون معه من خلال المؤتمر الهاتفي ليشرحوا له الأطروحة الصهيونية التوراتية. وبالتالي أعرف أن ذلك يساهم في جعل موقفه معتدلاً ويتيحُ له التأمّل. يبقى أنّه أحياناً ينحاز إلى جانب أعداء إسرائيل بشكلٍ خطير وهذا يثير مشكلةً لنا».

ظاهرياً، تبدو دوافع المسيحيين الإنجيليين صادقة. غير أنّ الرغبة الجامحة للجالية اليهودية ولإسرائيل برمّتها في إيجاد أكبر عدد ممكن من الحلفاء تجازف بإبهارهم وبإعاقة تقويمٍ دقيقٍ وصحيحٍ لهذه الدوافع على المدى البعيد.

21

زواج مصلحة

مع احتلال السفارة الأمريكية في طهران وما تلاه من احتجازٍ للرهائن، والهجمات الإرهابية في نيويورك وواشنطن في أيلول2001 والهجمات الانتحارية في إسرائيل، حجبت محاربة الإرهاب كلّ المسائل الأخرى التي خلقت في السابق توتّرات بين اليهود والمسيحيين الإنجيليين. إلى عهدٍ قريب، كانت المصالح الإسرائيلية في واشنطن ممثّلة من قبل منظمات يهودية غالباً ما كان أعضاؤها من الديمقراطيين. ومن خلال تحريض المسيحيين الإنجيليين، الذين يشكّلون للرئيس بوش كتلة انتخابية أساسية، على الدفاع عن إسرائيل، أمِل زعماء الحركة، باعترافهم هم، في جذب الجالية اليهودية، الديمقراطية إلى الآن على نحوٍ واسع، إلى الوقوع في المعسكر الجمهوري.

في الكابيتول، في مجلسي النواب والشيوخ، استُخدِم كلُّ شيء في سبيل فصل محاربة الإرهاب العالمي عن النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني. ورفض ضيوف الكابيتول، بأغلبيتهم الساحقة، مماثلة الإرهاب الفلسطيني ضدّ إسرائيل بالهجمات الإرهابية الدولية المرتَكبة من قبل الإسلام المتشدّد ضدّ الولايات المتّحدة أو غيرها من الأهداف الديمقراطية أو الغربية. مع ذلك اعتبرت آنيت لانتوس، زوجة النائب توم لانتوس والمسيحية الخلاصية، مثلها مثل زوجها أنّ قتال الأمريكيين في أفغانستان أو العراق وهجمات مدريد هي من نفس طبيعة إرهاب الدولة الفلسطينية ضدّ إسرائيل، وبالتالي يجب أن تُعتَبَر مثيلاً لها، حتى بالنسبة لأولئك الذين لا يبالون بالكتاب المقدّس بشأن الشعب اليهودي أو إسرائيل. وآنيت لانتوس، مستندة على عقيدتها المسيحية الخلاصية، مقتنعة بأنّه ليس للرئيس بوش

وآرييل شارون أن يهتمّا بخارطة الطريق الخاصّة بالشرق الأوسط لأنّ الفلسطينيين أنفسهم سوف لن يحترمون الالتزامات التي تفرضها عليهم. تؤكّد آنيت: «كلّ هذا إرادة من اللّه، وليس مفاجئاً أن يحمي يسوع الشعب اليهودي ودولة إسرائيل. إنّه هو من يرعى رفض الفلسطينيّين التخلّي عن الإرهاب حتى تعجز خارطة الطريق عن السير قدماً، حتى وان كان من المتعذّر عليهم أن يدركوا أنّ أعمالهم الإرهابية ضدّ اليهود تنقلب في النهاية عليهم». ثمّ تهزّ كتفيها قائلة: «على كلٍّ حال، هذا مكتوب في الكتاب المقدّس».

تؤكّد تامي س. التي صلّت بالألسن أمام فندقي في واشنطن، إيمانها بالكتب المقدّسة من خلال الشرح التالي: «أؤمن بأنّ اليهود هم شعب اللّه المختار، ولكن حسب لاهوتنا، سيتمّ القضاء على معظمهم. إنّ اللّه هو من يقول هذا ولستُ أنا. لستُ مسئولة عن مصير الشعب اليهودي. هذا لا يعني أنني لا مبالية لما سيحلُّ به. وإنّما ببساطة، وحسب خطّة اللّه، أولئك الذين سوف لن يؤمنون بيسوع سيُقتَلون».



الآن، إنها مشكلة أكثر أهمية من احتمال قتل اليهود لدى عودة المخلّص. في الحقيقة، لطالما صُدِمَ اليهود الأمريكيون بموقف اليمين المسيحي من الإجهاض وحقوق اللواطيين ومراقبة حمل الأسلحة وفصل الكنيسة والدولة وسواها من القضايا الداخلية الحسّاسة. إلى عهدٍ قريب، كانت أفكار اليمين المسيحي حول هذه القضايا تثير الطائفة اليهودية الليبرالية تقليدياً.

حينما استقبل الرئيس كلينتون الزعيمين الفلسطيني والإسرائيلي على مرج البيت الأبيض، في أيلول 1992، لتوقيع اتفاقيات أوسلو للسلام، انحاز بعزمٍ إلى عدم دعوة النواب المتدينين إلى الاحتفال. إذ أن الفكرة كانت أنّ أخذ البعد الديني للصراع في الحسبان سوف لن يفعل سوى التشويش على وضعٍ هو بالأساس معقّد، الصراع الذي هو في الأصل صراعٌ إقليمي بين حركتين قوميتين- الصهيونية والعروبة. ومع ذلك، لم تكفي جهود زعماء الدولة في سبيل إقصاء النواب المتديّنين من المحادثات لإخفاء المكانة التي اكتستها هذه الزاوية الصغيرة

من الأرض ولا تزال تكتسيها بالنسبة للأديان التوحيدية الثلاث المنحدرة من السلالة الإبراهيمية- اليهودية والمسيحية والإسلام. كما بقي للتحديد إن كان الصراع يقوم على رهانٍ محض إقليمي وليس أخذاً بالثأر. من الواضح أن أخذ النزاع الإسرائيلي-العربي في بعده الوحيد التاريخي أو السياسي لم يفعل سوى تهييج المتشدّدين في الأديان الثلاثة. السؤال الذي يُثار اليوم هو التالي: تورّط المسيحيين الإنجيليين على مستوى آخرٍ غير المستوى الديني والتاريخي هل سيساعد في حلّ النزاع أم أنّه على العكس من ذلك سيُعيقه؟ والجواب إيجابيٌّ أو سلبي وفق ما إذا كان المرء يؤيّد هذا الطرف أو الآخر.

وأيّاً كانت الدوافع، فإنّ الأمم المتّحدة والاتحاد الأوروبي يقدّمان دعماً سياسيّاً وماليّاً للفلسطينيين. وأيّاً كانت الدوافع، هنا أيضاً، فإنّ المسيحيين الإنجيليين يساعدون الاقتصاد الإسرائيلي ويشكّلون جماعة ضغط في واشنطن لصالح الدولة اليهودية، بغية تغيير رأي المشرّعين الخاصّ بالوسائل العسكرية المستخدَمة من قبل هذا البلد لمحاربة الإرهاب. السؤال الذي يطرحه المرء على نفسه عادة بخصوص العلاقة بين الجالية اليهودية الأمريكية التقدميّة تقليديّاً والمسيحيين الخلاصيين المتشدّدين هو معرفة لماذا الطائفة اليهودية وأغلبية من الأرثوذكس والعلمانيين في إسرائيل مستعدّون لغض الطرف عن اتّخاذ مواقف سياسية ومستندة إلى الكتاب المقدّس للمسيحيين الإنجيليين. لماذا يتزايد عدد اليهود الذين يعلنون تأييدهم لاستمرار هذا التحالف القوي رغم التفاوتات الدينية والأخلاقية العميقة بين الطرفين؟ وسوف يمكننا الردّ بالسؤال لماذا القيادة الفلسطينية مستعدّة للتضحية بالآلاف من الفلسطينيين بتركهم يُفسَدون في مخيمات اللجوء هذه بينما قدِّمَت العديد من العروض لإنشاء مساكن لهم وتحسين ظروف حياتهم؟ لماذا لم تُحسّن المستشفيات وغيرها من الخدمات العامّة منذ إقامة السلطة الفلسطينية في الأراضي المحتلّة وعلى الرغم من مليارات الدولارات التي انصبّت في الحسابات المصرفية الخاصّة لياسر عرفات؟

من الجهتين، الجواب على هذه الأسئلة هو مزيجٌ من الاستخفاف والبراغماتية.

القيادة الفلسطينية ترفض خلق صورة جديدة لشعبها تأخذ مكان صورة أطفالٍ جوعى في المخيّمات، ومراهقين غاضبين محرومين من التعليم، ورجالٍ ونساءٍ أصحّاء عاجزين عن تأمين معاش أسرهم ، وصورة فلسطينيين يفضّلون الموت في ريعان العمر، بينما قد تستطيع أن تعطي لكلٍّ واحدٍ إمكانية تحقيق طموحاته الشخصية والمهنية.

كما أنّه لابدّ من البراغماتية وسط كلٍّ الجالية اليهودية عندما يجري الحديث عن بقاء إسرائيل. لاسيما في وقتٍ يقلّ فيه أصدقاء إسرائيل في العالم وتعيش أزمة اقتصادية خطيرة ناجمة عن الانتفاضة الجارية للفلسطينيين. ويجري في كلٍّ مكان تعديل طابع الأولويات وإعادة تعريف البرامج. وبذلك، يتساءل اليهود، في الوقت الذي للمسيحيين الإنجيليين الحقّ في الإيمان برؤيتهم لـ «القيامة»، ان كان لهم بدورهم الحقّ في الاعتقاد بأن السيناريو المتوقّع ليس السيناريو الصحيح.

مع ذلك، هناك أمرٌ مقلقٌ تماماً وغير صحيٍّ في هذا التحالف بين اليهود والمسيحيين الإنجيليين، وقضية ميل جيبسون دليلٌ واضحٌ على ذلك.

تيد هاغارد مسيحيٌّ إنجيليٌّ آخر ذو مكانة سياسة جيدّة، يدير (الجمعية القومية للإنجيليين) National Association of Evangelicals، يساند إسرائيل بسبب إيمانه بالكتب المقدّسة. ومع ذلك، وكمسيحيٍّ خلاصي، لا يعلن تأييده لفيلم جيبسون فحسب، بل أطلق تحذيراً مبطّناً للجالية اليهودية، مصرّحاً : «إسرائيل تخضع الآن لضغوطٍ شديدةٍ، والمسيحيون الإنجيليون هم حلفاؤها الحقيقيون الوحيدون. وهذا النقد (لفيلم آلام المسيح) من قبل الزعماء اليهود نقدٌ لا أساس له لأنّهم يجازفون، من أجل فيلم، بفقدان محبّة ما يقارب ملياري مسيحي». حينما سألته إن كان يجب أخذ كلامه كتهديدٍ، أجاب في الحال: «تعليقاتي ليست تهديداً وإنما الأحرى هي دعوة للتعقّل، فبعض المسيحيين العاديين يوشكون على أن يروا في هذه الاعتراضات الرفض القاطع من قبل اليهود لأيّ فيلمٍ عن يسوع».

غالباً ما يُتّهَم ابراهام فوكسمان، مدير رابطة مكافحة التشهير، الذي يلاحق أيَّ فعلٍ أو قولٍ معادٍ للسامية ضدّ الجالية اليهودية، بـ «إفراطٍ في التنبّه» في الاتّهامات بالعداء لليهودية الموجّهة ضدّ جماعاتٍ أو أفرادٍ. أثناء لقاءٍ حديثٍ في

مكتبه بالمقرّ النيويوركي للمنظّمة، شرح أسباب تسامحه بالنسبة للبرنامج الإنجيلي. «يتعلّق الأمر هنا بعقيدتهم وإيمانهم، ومهمّتي ليست تغيير رأيهم في السماء والجحيم، ولا الجدال معهم لمعرفة ما إذا كان سبق وجاء المخلّص أم لا، أو إذا كان كلّ الذين لم يؤمنوا بيسوع المسيح سيقتلون في نهاية التاريخ. لدي اهتمامات أكثر عُجالةً وأولّها ما يحدث في هذه الدنيا. المسيحيون بأغلبيتهم أصدقاؤنا وحلفاؤنا لمساندة إسرائيل. وهذا يشغلني أكثر بكثير من معرفة ما إذا كان اليهود سيتمكّنون أم لا من بلوغ السماء».

بطريقةٍ ما، من المفيد أنّ الجالية اليهودية اختارت ألاّ يكون ردُّ فعلها قاسياً على فيلمٍ حظي باهتمامٍ عالميٍّ يشجّع معاداة السامية. كما أنّه من المفيد أنّها لم تأخذ على محمل الجدّ التصريحات الإنجيلية التي تقول بأنّ اليهود الذين سوف لن يهتدوا سيُقتَلون في نهاية الأزمان. أخيراً يجب الابتهاج بأنّ الطائفة الإنجيلية، باستثناء بعض الكنائس العَنْصَرية والأبرشيات الهامشية للمسيحيين الخلاصيين، لم تشن، لمرّة أخرى، حرباً صليبية ضدّ اليهود بسبب قتل المسيح. ومع أنّ أصواتاً ارتفعت وسطها وحتى أحياناً داخل الجالية اليهودية لدحض تهم المعاداة السافرة للسامية أو تُهَم تحريف التاريخ الموجّهة ضدّ الفيلم، يبقى أنّ الفرضية الأساسية للعقيدة المسيحية الأصولية ليست حنونة حيال اليهود. ففي الواقع، حتى قبل أن يُعرَض أيّ فيلمٍ من هذا النمط بفترة طويلة، راجت في الدوائر الإنجيلية تصريحاتٌ ملتبسةٌ في أحسن الحالات ومعادية للسامية في أسوأها.

كان لابدّ للتقارب بين اليهود والمسيحيين الإنجيليين أن يعاني من واقع أنّ المحترم بيللي غراهام كان قد تبادل والرئيس السابق ريتشارد م. نيكسون، أثناء حديثٍ خاصٍّ معه في عام 1972، تصريحات معادية للسامية. هذا الحادث أثّر في ترسيخ القناعة عند العديد من اليهود بأنّ المسيحيّين الإنجيليين يكنّون الإعجاب لدولة إسرائيل أكثر منه للشعب اليهودي. وتجد الجالية اليهودية نفسها أمام خيارٍ صعبٍ نتيجة عجزها عن فهم موقف المسيحيين الإنجيليين النابع من الكتاب المقدّس بشأن إسرائيل والذي كان يشتبه بأنّه معادٍ للسامية، ولإدراكها بأنّ الكنيسة البروتستانتية التقليدية كانت ترفض دعم إسرائيل.

هناك واعظٌ إنجيليٌّ بارزٌ آخر عوتِبَ على غموض تصريحاته حول إسرائيل والشعب اليهودي: إنّه بات روبرتسون مؤسّس التحالف المسيحي وشبكة البث المسيحية، القناة المسيحية التي يشاهدها اليوم 59 مليون أسرة أمريكية. كما أنّ روبرتسون، المرشّح الذي لم يحالفه الحظ في ترشيح الحزب الجمهوري أثناء الانتخابات الرئاسية لعام 1988، والذي لديه ميول عَنْصَرية ظاهرة، هو مصدر الطريقة المربح جداً للبث التلفزيوني الإنجيلي الذي يتيح لعدّة ملايين من الأمريكيين عبر البلاد متابعة عددٍ كبيرٍ من عِظات أيام الأحد. وفي النهاية، هو مَنْ أسّس «نادي الـ 700» الذي لا يمكن الانضمام إليه إلا من خلال دفع رسم تسجيل من سبعمائة دولار.

لطالما اعتبر روبرتسون نفسه صديقاً لإسرائيل، والدولة اليهودية من جهتها كافأته في تموز 2002 بمنحه «جائزة الصداقة» خاصّتها.

بيد أنّ ما فعله أو كتبه في الماضي يتناقض مع الحب الذي يُظهره للشعب اليهودي في السياق الكتابي (نسبة إلى الكتاب المقدّس-المترجم-) بقدر ما في الحياة اليومية. ففي كتابه (النظام العالمي الجديد) New World Order، يشير إلى وجود رابطة سرّية أُسّست من قبل المصرفيين الأوروبيين في القرن التاسع عشر الذين، حسب زعمه، موّلوا اغتيال ابراهام لينكولن. ودائماً حسب هذه النظرية، سيكون حاخامٌ شيوعيٌ هو مَنْ سيكون، مع كارل ماركس»،اللجنة الثلاثية الأضلاع»، آل مورغان، سلالة المصرفيين الأمريكيين، والمصرفيين البريطانيين، قد موّل من قبل الـ KGB[1]. بالنسبة لروبرتسون، تتواطأ هاتين الرابطتين الكافرتين في سبيل وضع العالم تحت سيطرة إبليس.

في نقده لذلك الكتاب الرائج في عام 1991، الذي نُشرَ في New York Review of Books، قال الكاتب والمفكّر مايكل ليند: «يستند روبرتسون على نحو واسعٍ جداً على الأعمال الكلاسيكية الكبيرة لمعاداة السامية مثل بروتوكولات

(1) جهاز الاستخبارات السوفييتي-المترجم-.

حكماء صهيون. وتشكّل أفكاره عن المصرفيين والثوريين اليهود حجر الزاوية في نظريته عن المؤامرة».

على نحوٍ أعمّ، مع أنّ روبرتسون حازمٌ جدّاً حيال واقع إنّه لا ينبغي أن تتخلّى إسرائيل عمّا يعتبرها الأراضي التوراتية في الضفة الغربية وغزّة، فإنّه غالباً ما ألمح إلى الشيوعيين اليهود وإلى الرأسماليين اليهود وإلى ميل الشتات اليهودي الدولي إلى المؤامرة_ وهي شبيهة بالاتّهامات التي كانت تنتشر بسرعة فيما مضى في أوساط اليمين الأوروبية عشية الحرب العالمية الثانية. في الواقع، يبشّر بانتظام من على شبكته (CBN) بأنّه سيكون على الشتات اليهودي الدولي في نهاية الأزمان إما أن تُباد وإما أن تهتدي.

ثمّة عنصرٌ آخر يشكّل عبئاً ثقيلاً على سمعة روبرتسون هو الكشف المترافق بإشاعات واتّهامات وبراهين دامغة عن إمبراطوريته المالية التي تبلغ مليار دولار والتي أقامها على أسسٍ احتيالية بوضوح.

على سبيل المثال، استغلّ الإعفاء الضريبي الذي يتمتّع به التحالف المسيحي، ليس لدعم المرشحين السياسيين فحسب بل وكذلك لتنمية إمبراطوريته الصناعية للڤيتامينات، كالو-ڤيتا. حينها كان مديرٌ سابقٌ للشركة قد صرّح بأنّ بعض العمليات المالية لشركة كالو-ڤيتا كانت قد دُعِمَت من قبل مكتب روبرتسون، تجاوزاً على القوانين، الدينية والعلمانية، التي تحكُم أيَّ كيانٍ اقتصادي. ولدى مواجهته بهذه التُهَم، دافع روبرتسون عن نفسه متذرّعاً بأنّ القناة المسيحية لم تكن قد فعلت سوى أنّها اقترضت رأسمالها الأوّلي من كالو-ڤيتا.

ومع ذلك لم يكن تدهور كالو-ڤيتا هو ما جعل هذه المزاعم علنيّة وسبّب في النهاية فسخ التحالف المسيحي، وإنّما موعد روبرتسون مع موظّفٍ في البنك الاسكتلندي. ظاهريّاً، أطلق البنك الاسكتلندي، وهو واحدة من أقدم المؤسسات المالية للعالم الأنكلو-ساكسوني، عملية عبر الانترنت إلى الولايات المتّحدة بغية جذب زبائن جدد. والشخص الذي اختاروه لإدارة هذه العملية الخاصّة لم يكن سوى بات روبرتسون الذي كان قد وصل إلى ملايين الدولارات من مؤمنيه المسيحيين. كانت حجّة البنك الاسكتلندي بسيطة. كان لدى روبرتسون القدرة على

إبهار الملايين والملايين من المؤمنين المتحمّسين لاقتلاع المال منهم عبر جعلهم يصدّقون بأنّه كان على اتّصال مباشرٍ مع اللّه. كان روبرتسون بطلَ البيع، فليبع يسوع أو ڤيتامينات أو ساعاتٍ من البث على قناته المسيحية. ولكن حينما انتهى البنك الاسكتلندي إلى تعيين روبرتسون كرئيسٍ لشركتها المشرفة، نشرت صحيفة الأوبزرڤر The Observer البريطانية سلسلة من التحقيقات الموقّعة من قبل صحافيين مختصّين بالتقصّي، من بينهم غريغ بالاست، وهو صحافيٌّ ماهر وعنيد كان لديه الجرأة على كشف الأعمال المريبة لبات روبرتسون. وكانت النتيجة هي أنّ روبرتسون لم يستقل من البنك الاسكتلندي فحسب، بل وقدّم استقالته من التحالف المسيحي أيضاً. وفي كانون الأول 2001، أنتُخِبَت روبرتا كومبس، النائبة السابقة لمدير المنظّمة، بالإجماع لتحلّ محلّ روبرتسون، والذي كوفِئَ بدوره بلقب «رئيس متقاعد». السيّدة كومبس، ذات الشعر الأشقر المائل إلى اللون النحاسي، والدائمة الاعتناء بزينتها، والتي تحظى بتدابير إبداعية، امرأةٌ لا تُنسى. وهي على رأس منظّمة مسيحية يمينية تضم أكثر من مليوني عضو، لم تكن، مثل سلفها بات روبرتسون، شخصيّة جاذبة ومبهِرة. فبعض زعماء اليمين المسيحي في واشنطن، حيث مكاتب التحالف المسيحي فيها، اعتبرها «حمقاء وعديمة الإحساس وشديدة الغرور». تقول امرأةٌ تدير منظمّة إنجيلية في واشنطن عن السيدة كومبس وزياراتها إلى إسرائيل بأنّها لا تملك «على الإطلاق أيّة فكرة عن التعقيدات السياسية للنزاع الإسرائيلي-الفلسطيني، ولكنّها تفضّل دعوة المصوّرين لكي يخلّدوها محاطَة بأطفالٍ إسرائيليين أو فلسطينيين تعانقهم أمام عدسات المصوّرين».

وعلى نحوٍ غريب، بات روبرتسون وروبرتا كومبس، بطرقٍ مختلفة وكلٌّ منهما بأسلوبه ومستوى ثقافته، نموذجيّان لهذا النوع الجديد من الإنجيليين التلفزيونيين الذين نالوا الشهرة والثروة في الولايات المتّحدة.

فيما يتعلّق باليهود، بات روبرتسون ليس الإنجيليّ الوحيد الذي كان موقفه غامضاً. حتى جيري فالويل الذي يُعتَبَر «أحد أكثر المتحمسين المساندين (المسيحيين) لإسرائيل وللشعب اليهودي في العالم»، أسرّ ذات يوم إلى كاتب

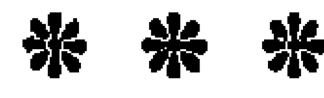
سيرته ميريل سيمون، مؤلّف جيري فالويل واليهود Jerry Falwell and the Jews»، بأنّهم [اليهود] عميانٌ روحيّاً ويحتاجون بشدّة إلى إيجاد مخلّصهم ومنقذهم».

وما أن مرّت أسابيع عديدة بعد إذاعة آخر سلسلة من تسجيلات ريتشارد نيكسون في المكتب البيضاوي حتّى تحمّل بيلي غراهام كامل المسؤولية عن ملاحظاته المعادية للسامية بخصوص اليهود. الأمر الذي لم يمنع ابنه ووارثه فرانكلين غراهام من الحنث السريع بتوبة والده، مؤكّداً بأنّ التصريحات كانت قد وضِعَت خارج سياقها، وأنّها كانت تقصد «التقدميّة»، وليس اليهود.

ما هو الفرق بين اعتذارات غراهام وتبرير ابنه من جهة، والإهانات العنصريّة الموجّهة من قبل فالويل وروبرتسون إلى الإسلام غداة هجمات الحادي عشر من أيلول 2001 من جهة أخرى؟

المشكلة الحقيقية للعداء المتصاعد للسامية من لدن الطائفة الإنجيلية، ولاسيما في عمل ميل جيبسون، يمكنها أن تتلخّص على أنّها نتيجة. فليس أمراً ذي شأنٍ كبير أن يعتبر المسيحيّون الفيلم معادٍ للسامية. فإذا كان المسيحيّون الإنجيليّون أصدقاء حقيقيين للشعب اليهودي ولإسرائيل، عليهم أن يأخذوا في الاعتبار ردود فعل الجالية اليهودية على هذا الفيلم. ولكن الكثيرين يعتقدون أنّ الصهاينة المسيحيين، منذ البدء وحتى إعلانهم لمحبّتهم لليهود، يعتبرون باستمرار هؤلاء الأخيرين كممثّلين صامتين، أو، أسوأ من ذلك، كملحقاتٍ أعدّها على خشبة المسرح المخرج الذي هو اللّه. ومع ذلك خلقت البراغماتية المقترنة بالمصاعب الخطيرة للأزمة في إسرائيل وبالإرهاب الإسلامي في العالم ظروفاً ملائمة لكي تطوي المجموعتان الصفحة وتنسيان الحوادث العارضة وشكوكهما المتبادلة. بالتأكيد، لم تستحسن الجالية اليهودية الأمريكية قط أغلبية المواقف الإنجيلية المتّخذة حول المسائل الاجتماعية، ولكنّها تنازلت عن برنامجها الخاصّ للسياسة الداخلية لتضمن الدعم غير المنقوص من قبل المسيحيين لإسرائيل. أمّا الطائفة الإنجيلية، فلم تتصرّف بخلاف ذلك وتساهلت مع البرنامج الليبرالي لليهود بدل أن يقبل هؤلاء الأخيرين بمعتقداتهم المنسوبة إلى الكتاب المقدّس. يقول

البعض إنّ هذا الاتّحاد قُدَّ في السماء، وآخرون يعتقدون، بخلاف ذلك، أنّه صُنِع في الجحيم.



بفضل حملةٍ علاقات عامّة جيّدة التمويل ومدعومة من قبل سياسييّن لهم مكانة جيّدة في العاصمة الفيدرالية، من أمثال اليوت ابرامز النائب السابق لوزير الخارجية، والحاخام الأرثوذكسي البارز دانييل لابين مدير منظّمة Toward Tradition نحو التقاليد) التي مركزها في ولاية واشنطن، حاول المحافظون الجدد إقناع اليهود بأنّ اليمين المسيحي ليس معادياً للسامية، وأنّه فضلاً عن ذلك الحليف الأوفى لإسرائيل، المرفوضة اليوم من قبل الجزء الأكبر من أوروبا والعالم العربي. منذ عام 1994، كانت منظّمة نحو التقاليد قد موّلت ظهور سلسلة من اللوحات الإعلانية في صحيفة نيويورك تايمز .New York Times واحدة من تلك الإعلانات كانت موقّعة من قبل ابرامز وديكتر وأكثر من سبعين شخصية أخرى من المحافظين الجدد، كانت تتناول دفاع اليمين المسيحي ضدّ انتقادات المجموعات اليهودية وكانت تسعى إلى إقناع الجالية اليهودية بالتغلّب على ريبتها وشكوكها حيال المحافظين المسيحيين المنضوين إلى الحزب الجمهوري. مجموعة يهودية أخرى من المحافظين الجدد في الولايات المتّحدة اشترت مساحة في نفس الصحيفة بغية مباركة الجمهوري الإنجيلي اليميني، نيوت غينغريتش، أثناء انتخابه الظافر في عام 1994زعيماً للأغلبية في مجلس النواب. كان الإعلان، الموقّع من قبل ابرامز وآخرين، يتمنّى له « Mazal Tov» ويكرّر مساندته للعمل المطروح من قبل غينغريتش»، العقد مع أمريكا».

مؤخّراً وفي بلاغ صحفي بتاريخ 20 حزيران 2002، دعا الحاخام لابين اليهود إلى الدفاع عن اليمين المسيحي والكفّ عن مساندة المنظمات اليهودية التي تهاجم بمنهجية المنظمات الإنجيلية المسيحية. بكلمتين، كان لابين يدعو أبناء دينه إلى التغلّب على تحفّظاتهم حيال برنامج السياسة الداخلية لليمين المسيحي محبّة لإسرائيل، لأنّ الدولة اليهودية في خطر بينما حقّ الإجهاض أو مراقبة حمل

الأسلحة نقاط من الممكن مناقشتها. وأصبح شعار «اعتنوا بذويكم!» شعارَ قسمٍ كبيرٍ من الجالية اليهودية. ومع أنّهم من أوائل المدافعين عن الموقف الإنجيليّ حيال إسرائيل، فإنّ ابراهام فوكسمان والحاخام لابين وبعض الآخرين لم يتصرّفوا قط بمفردهم. عام 2000، كان هذا «الانفراج» بين المسيحيين الإنجيليين واليهود قد استقرّ جيّداً، بحيث أنّ مجموعة هامّة من الحاخامات والباحثين اليهود المؤثّرين وقّعوا إعلاناً لاهوتيّاً يدعو اليهود إلى الكفّ عن تنمية الخوف والريبة حيال النصارى والاعتراف بالجهود المبذولة من قبل الكنيسة منذ المحرقة لإصلاح العقيدة المسيحية الخاصّة باليهودية. هذا الإعلان كان بعنوان: Dabrou emet، وهو تعبيرٌ توراتيٌّ يعني «تبادلوا الكلمات الصادقة». وقد نُشرَ في لوحاتٍ إعلانية مدفوعة الأجر في نيويورك تايمز وبالتيمور صن، ومن ثمّ نُشِرَ من قبل (Institute for Christian and Jewish Studies معهد الدراسات اليهودية والمسيحية)، المنظمة البيدينية[1] المستقلّة في بالتيمور.

يتحدّث البند الأول من هذه الوثيقة عن التطور غير المسبوق للعلاقات بين اليهود والمسيحيين. وفي مقطعٍ لاشكّ أنّه الأكثر مدعاة للخلاف، قيل إنّ: «النازية لم تكن ظاهرة مسيحية». كما نجد في هذه الوثيقة عدداً من الأفكار العامّة بخصوص الدّيْنَيْن، من قبيل أنّ اليهود والمسيحيين يجلّون اللّه ذاته، ويخضعون للكتاب ذاته، العهد القديم، ويقبلون بالمبادئ الأخلاقية للتوراة. وقد كُتِبَ في البند الثاني أنه آن الأوان لليهود لكي يطّلعوا على المساعي المسيحية لتكريم اليهودية، بما أنّ أتباع الدينين يعبدون ربّ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وبما أنّ مئات ملايين الأفراد قد دخلوا «من خلال المسيحية» في علاقة مع إله إسرائيل.

العقبة الرئيسية أمام هذه الدعوة للتسامح والمحبّة هي أنّ العديد من الزعماء اليهود الأمريكيين، مع دعمهم لإسرائيل، مرتبطون على نحوٍ وثيق ببرنامج ديمقراطيٍّ تقدميٍّ بخصوص السياسة الداخلية. وقد شرع الحاخام لابين وبعض الأصوات الأخرى المسموعة جيّداً وسط الجالية في حثّ اليهود على التراجع عن

(1) أصل الكلمة، بين دينية، وتُعنى بالعلاقة بين الأديان-المترجم-

عادتهم في قسم الولاء لأيّ نقطة من البرنامج السياسي للحزب الديمقراطي الذي لم يكن دائماً الحليف غير المشروط لإسرائيل في النزاع الفلسطيني. خلف إعلاناتٍ من هذا القبيل يختبئ غرضٌ ذو طابعٍ محافظٍ جديدٍ متوقّعٍ منذ أمدٍ طويل: القيام بقدر ما هو ممكن لقلب الصوت اليهودي الديمقراطي على نحوٍ واسع نحو المعسكر الجمهوري.

المقصود هنا هو هدفٌ يجازف بأن يكون حاسماً وتترتّب عليه نتائجٌ جسامٌ بالنسبة لنتيجة الانتخابات الرئاسية لعام 2004.

* * *

ياشييل اكستاين حاخامٌ أرثوذكسي ومؤسّس (الجمعية الدولية للمسيحيين واليهود) International Fellowship of Christians and Jews ، التي تتّخذ من القدس وشيكاغو مقرّاً لها. يُعدُّ اكستاين، في الأوساط اليهودية، شخصية مثيرة للجدل بسبب تساهله مع سيناريو أصدقائه المسيحيين بخصوص«قيام الساعة». أثناء مقابلة في مكتبه بالقدس، سُئِل عن سبب رفضه إدانة الطائفة الإنجيلية بخصوص معتقداتها حول المصير النهائي للشعب اليهودي: «بالنسبة للمسيحيين الإنجيليين، التبشير بالإنجيل في قلب العقيدة. حينما يقبلون بالتعاون معنا، لن يخطر لهم

قطّ فكرة أن يطلبوا منّا التنكّر لمبدأ رئيسيٍّ من شابات. وبالتالي، من جهتنا، ليس لنا الحقّ في أن نطالبهم بالتخلّي عن شيءٍ جوهريٍّ بنفس القدر بالنسبة إليهم. ولذا أحاول إيجاد سُبلٍ تتيح لهم الوصول إلى أغراضهم مثلما يستنتجونها من الكتاب المقدّس، دون أن يصدموا حساسيّتنا كيهودٍ. ما يعتقد به أصدقائي المسيحيّون هو أنّهم، بتمجيدهم إسرائيل، لا يبدون محبوبين، وإنّما يكملون رسالتهم العظيمة بالإقرار بأنّ اليهود هم شعب اللّه المختار. إنّنا نتحدّث عن سبعين مليون من الإنجيليين البالغين الذين يشكّلون عدداً هامّاً من الأصدقاء والحلفاء لإسرائيل».

يعتقد البعض من أقرانه وزملائه أنّ الإعلان التلفزيوني على شكل جدالٍ بين الحاخام اكستاين والعديد من الأقطاب الإنجيليين من أمثال رالف ريد وفرانكلين

غراهام وجيري فالويل، مسيءٌ للهوية اليهودية. في الواقع، الرسالة التي يحاول الحاخام اكستاين تمريرها حينما يشارك في البرامج الربّانية في شبكة القنوات المسيحية، هي أنّه طالما ليست لحاخامٍ أرثوذكسي مشكلة مع المصير الآيل للشعب اليهودي حينما سيعود المخلّص، إذاً على جميع اليهود أن يقبلوا بهذا المصير مثلما هو محدّدٌ في الكتب المقدّسة. أثناء تلك المقابلة ذاتها، أقرّ الحاخام اكستاين بأنّ منظمته «لا تسعى إلى الردّ على التأويلات حول قيام الساعة عندما يلتمس في التلفزيون دعماً مالياً من جميع المسيحيين الإنجيليين»، حتى وان كان مرجع هذه التأويلات نبوءة العهد الجديد، التي تعلن موت كلٍّ الذين سوف لن ينضموا إلى يسوع. من بين المسيحيين الإنجيليين الذي يتعاون معهم اكستاين عن قرب، يُذكَر رالف ريد، المسئول معه عن الميزانية السنوية للجمعية الدولية للمسيحيين واليهود، التي تُقدّر بمائة مليون دولار والتي تشكّل حوالي عُشر مجموع الأموال الناتجة سنويّاً من الجماعات المسيحية الإنجيلية في العالم بأسره (ولاسيما في الولايات المتّحدة). يصدر هذا المال عن قاعدة تزيد على ثلاثمائة ألف مانح من بينهم ألف يهودي فقط. بعبارات أخرى، الطائفة المسيحية الإنجيلية هي التي تموّل 99% من الإسهامات في .IFJC حسب رالف ريد، بدأ أعضاء الطائفة بالاهتمام بالجانب المالي للمسألة حينما جاء الحاخام اكستاين يطلب مساعدة في سبيل تحرير يهود الاتّحاد السوڤيتي السابق. يقول ريد: «حينها مسّ اكستاين وتراً حسّاساً. ففي الواقع، كان الاتحاد السوفيتي في الثمانينات يمثّل بالنسبة للمسيحيين الإنجيليين المسيح الدجّال. وبالتالي هذا ما حقّق، تقريباً ضربتين بحجرٍ واحدٍ. كان الحاخام اكستاين الأوّل والوحيد الذي وجد الطريقة لتحويل المحبّة المجرّدة التي كان المسيحيّون يكنّونها لإسرائيل إلى مَسْكوكاتٍ ونقودٍ راجحة. أدرك أنّه إذا كان سبعون مليون من المسيحيين الإنجيليين لا يريدون أو لا يستطيعون صرف ألف دولار من أجل الذهاب إلى إسرائيل، فإنّه بالمقابل كان من الممكن دفعهم إلى أن يمنح كلٌّ واحدٍ دولاراً لدعم هذا البلد».

يقرّ الحاخام اكستاين دون أدنى تحفّظ بأن الأموال المجتباة من قبل منظمته في الولايات المتحدة والموزّعة لاحقاً في إسرائيل تصدر بشكلٍ خاص من الطائفة

المسيحية. كما أنّه يقرُّ بأنّه، إن كان يتعاون على نحوٍ وثيق مع رئيس الوزراء الإسرائيلي، فإنّ «قوّته الكبيرة» تعود إلى عدم اتّخاذه قط موقفاً من السياسة الاستيطانية لحكومته. كما أنّه لا يبدي رأيه أبداً في الموقف الإنجيلي الأمريكي المتعلّق بالإجهاض أو بالصلاة في المدرسة أو بأيٍّ قضية حسّاسة أخرى. «حتى عندما كان لنا مكتب في واشنطن، كنّا نركّز جهدنا على المجالات التي كان هناك تماثل في الآراءِ حولها. على سبيل المثال، في السنة الماضية، خصّصنا، هنا وفي الاتحاد السوفيتي السابق، عشرين مليون دولار، بوساطة واحدة من منظّماتنا التي تُدعى أجنحة العُقبان، لنقل الروس إلى إسرائيل». في الواقع، اُعتُبِرَت هجرة اليهود السوفيت في بداية التسعينات كتحقيقٍ لآمال الخلاص، وعلى نفس الدرجة من أهمية أحداث 1948 و1967. «أحد أوجه عملنا الخيري هو التكفّل بتمويل منظمة تُدعى اشعيا 58 المختصّة بمساعدة اليهود المسنّين الذين لا يمكنهم الذهاب إلى إسرائيل ولكنّهم يحتاجون إلى دعم مالي وإلى أدوية وألبسة. هنا، لدينا منظمة حرّاس إسرائيل التي تموّل المشاريع الخاصّة بالعنف الزوجي والاغتصاب والفقر عموماً. في السنة الماضية، موّلنا 113 مشروعاً مختلفاً بدءاً من نساء تعرّضن للضرب وحتى التدريب المهني لحوالي ثلاثة آلاف أثيوبي ليتمكّنوا من العمل هنا. يشتمل عملنا على منح المسيحيين الوسائل الملموسة والمعبّرة لمباركة إسرائيل والشعب اليهودي».

إنّ ما يعلنه اكستاين مشروعٌ ملتبس ولا يمكنه أن يكون لا سياسيّاً تماماً: إنّه مشروع إحياء منظمة Stand for Israel مع رالف ريد لتأمين الدعم السياسي للدولة اليهودية في جميع البلدان. يقول اكستاين: «وهنا كانت لدينا مشكلة صغيرة، لأن رالف ريد يتعاون مع إدارة بوش كمستشارٍ للرئيس، كما أنّه زعيم الحزب الجمهوري في جورجيا. وبالتالي من الواضح أنّه لا يستطيع أن يسير ضدّ خارطة الطريق. وبما أنّه يعمل هنا، حاله كحالي، مع رئيس الوزراء، أنا كذلك قد لا يمكنني إلغاء خارطة الطريق هذه، حتى إذا كنت أريد ذلك. إذاً، بطريقةٍ ما، حتى إذا وضعنا الأيديولوجية جانباً، فإنّنا لسنا مستقلّين كلياً».

خلال السنوات العشرين الأخيرة، كان آفي غرانوت، مستشار الرئيس

الإسرائيلي، إلى جانب الحاخام اكستاين في شتّى المظاهرات المنظّمَة في عموم أمريكا لجمع الأموال. كتب غرانوت الذي كان أيضاً أوّل من حظي بشرف إدارة دائرة شؤون المسيحيين في السفارة الإسرائيلية في واشنطن: «خلال أعوام الثمانينات، كان المسيحيّون الإنجيليّون يصلّون من أجل إسرائيل. في التسعينات، استمرّوا في الصلاة من أجل إسرائيل ولكنّهم أيضاً بدؤوا في منح المال للوافدين الجدد من روسيا. الآن، لدينا الصلاة والمال وكذلك Alyah روسيا والعالم أجمع. علاوة على ذلك، يساند أصدقاؤنا المسيحيّون اقتصاداً عاجزاً بفعل الإرهاب ويساعدون ضحايا الهجمات الإرهابية في استعادة دورة حياتهم. وقد كان ردّ فعل أصدقائنا المسيحيين هكذا لأنّه كان لديهم أخيراً شيءٌ ملموسٌ يمنحونه ولأنّ هذا، على كلٍّ حال، ما هو مكتوب في الكتاب المقدّس».

كما أنّ الحاخام اكستاين والسيد ريد، وبوساطة منظمتهما، ساهما في تمويل الحملات الانتخابية للسياسيين الإسرائيليين اليمينيين، ودُعيا بانتظام إلى اجتماعات التعليمات في البيت الأبيض. ولدى سؤاله عن تورطه السياسي، قدّم السيد ريد الشرح التالي: «نحن في التحالف المسيحي نؤمن بأمّة مسيحية وبعالمٍ مسيحي. ومع ذلك، ربّما كنّا فاقدين للإحساس بالأهوال التي عرفها الشعب اليهودي. المال الذي نجمعه لإسرائيل يُستَخدَم كذلك في تمويل مرشّحين سيحرصون على ألاّ يتم التفريط أبداً بأرض إسرائيل في إطار اتفاقية سلام مع الفلسطينيين. سنفعل كلّ ما بوسعنا كي لا يكون اليهود بعد الآن موضوعاً للكراهية والتمييز».

في تموز 2003، دُعي اكستاين وجيري فالويل وبات روبرتسون وبيني هين، وأحد إنجيليي التلفزيون الأكثر شهرةً وكاريزماتيةً قادماً من كاليفورنيا، إلى البيت الأبيض للقاءٍ مع كولن باول وكوندوليزا رايس. والجميع يعلم في واشنطن أن، من بين جميع مستشاري بوش، باول ورايس هما من أشرس أنصار خارطة الطريق لإقامة السلام في الشرق الأوسط. نظّم الاجتماع بمبادرةٍ من رالف ريد وكارل روف اللذان اعتبرا من الأساسيّ أن تتمكن الشخصيات المدعوّة من طرح وجهة نظرها على باول ورايس بهدف السعي إلى جعلهما يغيّران رؤيتهما إلى أيّ محاولة

للصلح مع الفلسطينيين. ولدى سؤال هين، المسيحي العَنْصَري الذي يتكلّم بالألسن، عن الطريقة التي جرى عليها الحديث، ردّد ما يقوله في بداية ونهاية كلّ واحدة من عظاته المتلفَزة التي يتابعها أسبوعيّاً خمسة وعشرون مليون شخصاً: «الذين يحبّون إسرائيل، إذا تكلّمنا سياسيّاً، هم الذين لديهم تأثير على الإدارة الحالية. واليهود الذين يحبّون يسوع هم الذين لديهم تأثيرٌ على مصيرهم الخاصّ».

كان الحاخام اكستاين أكثر دقّةً. فحسب قوله، اجتمعت جميع الظروف لتعرف أمريكا اللوبي الأقوى في تاريخها ولكن يجب أن ينسى اليهود اختلافاتهم مع الطائفة المسيحية وأن يقرّر المسيحيون أن يجعلوا من إسرائيل الأولوية في برنامجهم للسياسة الداخلية. ويشرح: «هذه تسوية. لقد استثمر المسيحيّون بثقل في إسرائيل، وهذا يعني أن خطر الإرهاب الإسلامي أكثر أهمية بالنسبة لخلاصنا المشترك من خياراتهم في السياسة الداخلية».

22

الصهيونية المسيحية

كما يمتلك شريك الحاخام اكستاين، رالف ريد شركة استشارية، (Century Strategies استراتيجيات القرن) والتي أعدّت خطّة لكسب دعم القاعدة المسيحية. وهكذا، وعن طريق الجماعات الدينية، حشد السيد ريد أكثر من مليون مسيحي في عموم البلاد لكي يوجّهوا رسائل إلى البيت الأبيض للاحتجاج ضدّ خارطة الطريق التي تبنّاها الرئيس جورج دبليو بوش. علاوة على ذلك، دعت إعلانات في الصحف ودعايات في عروض الإذاعات المحافظة اليهود والمسيحيين إلى تجاوز خلافاتهما التاريخية وإلى التجمّع في لحظة حرجة بالنسبة لإسرائيل. صرّح ريد في مقابلةٍ : «لدى المسيحيين إمكانية أن يمارسوا من خلال صوتهم التأثير الأكبر الذي كانت دائماً تخضع له السياسة الخارجية منذ نهاية الحرب الباردة. إنّهم يغيّرون مركز ثقل الجماعة المناصرة لإسرائيل لجرّه إلى حضن المحافظين الجمهوريين».

لا يخشى غاري باور أن يخضع الرئيس بوش، مثلما فعل كارتر في السابق، للضغوط السياسية الخاصّة بإسرائيل ويدير ظهره لمعتقداته الدينية شارحاً سبب ذلك : «بوش رئيس للأمريكيين بكلّ أجناسهم وأديانهم ويتّخذ كلّ التدابير التي تبدو له من شأنها أن ترضي جميع الناخبين. ولكنّ إيمانه بالكتاب المقدّس عميقٌ جدّاً ويعلم أنّه مهما فعل فإنّ خطّة اللّه ستتغلّب عليه. ولذلك ليس أمراً ذي أهمية كبيرة أن يكون بوش رئيساً للولايات المتّحدة لأنّه قبل كلّ شيء مسيحي إنجيلي، وهو، بما هو كذلك، يدرك أنّ كلّ شيء مقدّرٌ من قبل اللّه».

وكدليلٍ على التزامه حيال إسرائيل، يبعث باور يومياً بمائة ألف رسالة إلى

مسيحيين إنجيليين من أركان البلاد الأربعة ليطلب منهم ممارسة الضغط على البيت الأبيض لكي يدعم إسرائيل. «خلال فترة من أطول الفترات، أرسلتُ رسائل إلى أصدقائي المسيحيين طالباً منهم بوضوح أن يعلموا الرئيس بأنّ تعليقاته حول الطريقة التي تدافع بها إسرائيل عن نفسها ضدّ الهجمات كانت مخالفة لعقيدته الخاصّة حول الإرهاب». يُفصح باور بأنّه طلب من كل مَن أرسل إليه بأن يبعث إليه بنسخة من الرسالة الموجّهة بناءً على طلبه إلى البيت الأبيض. يقول باور: «كنت على قناعة من أنني سوف أخسر الكثير من أنصاري لأنّهم يعشقون الرئيس ويعتبرونه كواحدٍ من ذويهم. ولكن في اليوم التالي، تلقّيت نسخاً من أكثر من خمسة وسبعين ألف رسالة مبعوثة من قبل مسيحيين إنجيليين من عموم البلاد. وكانت كلّ واحدة منها تبدأ كالتالي: «إلى رئيسنا العزيز. السيد الرئيس، لقد عملنا من أجلك، وعائلتي وأنا ندعو لك يومياً بالراحة والهناء. مع ذلك، أُعلمكم بحزنٍ بالغٍ بأننا، فيما لو واظبتم على هذا النمط من الضغط على إسرائيل، سوف لن نكون إلى جانبكم في عام 2004». في اليوم التالي، أثناء مؤتمرٍ صحفي في البيت الأبيض، كان السيد بوش ينعت رئيس الوزراء آرييل شارون بأنّه «رجل سلام»».

يعلم باور أنّ بوش على إيمانٍ عميق ولكنّه يعلم أيضاً بأنّه، منذ هزيمة كارتر الذي رُفِضَ لتولي ولاية ثانية، من غير الوارد بالنسبة لرئيسٍ أمريكي أن يتصوّر بأنّ بإمكانه أن يصرف النظر عن موقف اليمين المسيحي من النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني.

منذ خمسة وعشرين عاماً، حافظت قيادة الليكود على علاقة خاصّة مع اليمين الإنجيلي المسحي في الولايات المتّحدة. في أيلول 2004، اجتمع ايهود أولمرت نائب رئيس الوزراء ببات روبرتسون وبالإنجيلي مايك ايڤانز لإطلاق حملة تُسمّى «صلاةٌ من أجل القدس». كان الغرض من ذلك تجنيد أكثر من مليون مسيحي من أجل «الصلاة يومياً لكي تكون القدس في سلام». بعد شهرٍ من ذلك، كان أولمرت يقف إلى جانب النائب في الكونغرس والمسيحي الإنجيلي توم ديلاي في مظاهرة «المسيحيّون المتضامنون مع إسرائيل»، المنظّمة من قبل التحالف المسيحي في واشنطن.

صرّح ديلاي حينها أمام الآلاف من الأشخاص المحتشدين: «هذا الأسبوع، تدافعون تماماً عمّا نؤمن به وتقفون علانيةً إلى جانب يسوع المسيح». ثمّ تابع أولمرت القول: «إنّ الله معنا. إنّكم معنا».

إذا كان إخلاص الدعم المتحمّس من قبل المسيحيين الإنجيليين للدولة اليهودية مفهوماً بكلّ جلاء، فإنّ التراصف غير المسبوق لإدارة بوش إلى جانب مواقف إسرائيل، قائمٌ، من جهته، على فكرة أنّ هذا البلد ليس الوحيد الذي يعاني من أهوال الإرهاب والهجمات الانتحارية. ولسوء الحظ، فإنّ العالم برمّته من الآن فصاعداً قابلٌ لأن يُصاب بتلك الهجمات مثل تل أبيب أو القدس. مباشرة بعد هجمات الحادي عشر من آذار 2004 في مدريد، ارتفعت أصواتٌ في الاتحاد الأوروبي والشرق الأقصى لتقول بأنّه لن يعود هناك مبرّرٌ سياسي للإرهاب وأنّه لا يمكن لأيّة حركة ثورية أو تحررية أن تشرعن قتل المدنيين الأبرياء. إذا كان العالم المتمدّن يعتبر بأنّه لا يمكن لأيِّ سببٍ سياسيٍّ أن يجيز للجماعات الإرهابية السرّية استخدام الخوف والابتزاز للانتصار لقضيّتها أو لتدمير بلدانٍ تختلف عنها في فلسفتها أو نظامها السياسي أو دينها، فبالتالي لا يمكن أن يشكّل النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني استثناءً للقاعدة.

مع ذلك، ومهما كان دعمهم لإسرائيل وشدّة موقفهم ضدّ الإرهاب، لدى المسيحيين الإنجيليين دوافع غير مقبولة من قبل أشخاصٍ عديدين يشاطرونهم نفس الخيارات حول بعض المسائل الجوهرية المتعلّقة بحقوق الإنسان. لفهم اليمين المسيحي، لابدّ من الإشارة إلى أنّ الطابع الديني للقيادة اليهودية والتدابير المتّخذة لصالح الشعائر المسيحية في الأرض المقدّسة لم تكن أبداً من بين انشغالاتهم المهمّة. بالنسبة للصهيوني المسيحي، كان هدف المشروع على الدوام هو إعادة الشعب اليهودي إلى أرض إسرائيل. غير أنّ الوضع يتعقّد حينما تجري مقاربة التحالف بين الصهاينة المسيحيين والفرع اليهودي الأرثوذكسي من المجتمع الإسرائيلي، أو حقد وضغوط نفس هذا المعسكر الأرثوذكسي حينما يتعلّق الأمر بوضع حدودٍ للنشاطات التبشيرية للصهاينة المسيحيين. مع ذلك، عادت أقليّة لا يُستهان بها من هؤلاء الصهاينة إلى إسرائيل للمساعدة في إحياء عبادة دينية أصيلة

في صهيون. بالنسبة للعديد من المسيحيين الإنجيليين، هذا يعني بأنّه، في الوقت المناسب، سيُعاد بناء الهيكل - المقدّمة التي لابدّ منها، بالنسبة للكثيرين، لعودة المسيح. من الصعب التفكير كيف سيمكن لهذا أن يحدث ما لم يترك اليهود ممارستهم الدينية للانضمام إلى يسوع. تتّخذ العنصرية أشكالاً شتّى. إذا كان المسيحيّون الإنجيليون اتّخذوا جميعاً الموقف ضدّ الإسلام المتشدّد، فقد فعلوا ذلك أيضاً ضدّ اليهود، حتى وان راعوهم أكثر، عندما حاولوا علانية أو عبر طرقٍ ملتوية تحويلهم عن دينهم. بشكلٍ عامّ، يعتبر المسيحيّون الإنجيليّون ممارسة اليهودية أكثر أساسيّة بالنسبة لتوقّعاتهم الكتابية من الدور المنسوب للمسلمين في سيناريو قيام الساعة. يخال كلارانس ڤاغنر، الكاهن الإنجيلي على رأس منظمة جسور السلام، أن حرباً لا مثيل لها في التاريخ تجيش اليوم في العالم بأسره. يقول ڤاغنر: «في البداية، سعى المسيحيّون واليهود لمعرفة ما إذا كانوا، بطريقة ما، قد سبّبوا عبر أعمالهم هذه الهجمات الإرهابية الإسلامية. ولكن حينما توجّهوا نحو الكتاب المقدّس، أدرك المسيحيّون الإنجيليّون بأنّ هذه المصيبة الجديدة التي وقعت على الإنسانية ليست مرتبطة بخطاياهم وإنّما بنبوءة للكتاب المقدّس مكتوبة من قبل اللّه بنفسه. حينها جمعوا قواهم لمحاربة الشرّ. وكلّف اليهود ليكونوا حراس وحماة الأرض المقدّسة وجعلوا منها بلداً يمكن للبشر أن يعيشوا فيه بطريقة مشرّفة. وكمسيحيّ، لم أشعر بأنّني مضطهّد وإنّما على العكس من ذلك محتَرَم. على الرئيس بوش أن يتمسّك بوضوحٍ ودون خشية بموقفه ضدّ الإرهاب الإسلامي بل أن يحاول أن يبرهن أنّ حملته ليست موجّهة ضدّ العرب وإنّما ضدّ حفنة من القتلة، العاملين تحت راية الإسلام. اليوم، وحدهم اليهود والمسيحيّون ينتسبون إلى الكتاب المقدّس، ولابدّ لهم من إيجاد سبل التوحّد ضد هذا التهديد».

حسب ڤاغنر الذي جاب طيلة السنة مدن أمريكا الشمالية لتعزيز الدعم لإدارة بوش وإيجاد المعونات السياسية والمالية لإسرائيل، لم تبدي الجماهير اليهودية والمسيحية قط مثل هذه الحماسة منذ احتجاز الرهائن في 1979. «أثناء رحلتي الأخيرة، كان التحوّل مذهلاً. في سينسيناتي وسكرامنتو وبورتلاند وسياتل، ولكن

أيضاً في كندا، في ڤانكوڤر وتورونتو وڤاينيبيغ، شاهدتُ تحوّلاً ملحوظاً في التصرّف، حتى عند المسيحيين واليهود الأكثر تقدميّة بعض الشيء. إنّهم نفس أولئك الذين كانوا يؤكّدون أن الأمريكيين قد نسوا خطر الإسلام بعد تحرير الرهائن في طهران عام 1980. ولكنّهم من جديد، بعد الحادي عشر من أيلول، في حالة تأهّب ويدركون بأنّ قوى الشرّ ذاتها، التي بقيت نائمة ما يقارب عشرين عاماً، دخلت من جديد حيّز العمل، بتصميم على أن يهاجموا بعنف كلّ ما يهمّنا. بين هاتين اللحظتين، كان الناس يعيشون على كوكبٍ خيالي، مقتنعين بأنّه إذا كانت إسرائيل وحدها ستتغيّر، لتوجّه العالم برمّته نحو الأفضل. الآن، يدركون أنّ إسرائيل كانت ضحيّة القوى التي أشاعت الإرهاب في أمريكا وإسبانيا. بل ربّما يخشون ممّا ينتظرهم، بما أنّ أمريكا وبقية العالم يمكن أن يكون مواجَهين بنفس الهجمات التي تواجهها إسرائيل، وإن بنسبٍ أقلّ مما هو الحال مع إسرائيل. ومهما يكن، فثمّة أمرٌ مؤكّد: كل بلد لن يهادن الإرهاب الإسلامي سيستمر في العيش تحت التهديد، وهذه المرّة لا يجب اتّهام إسرائيل لأن إسرائيل لطالما قالت: «نحن آسفون، نحن موجودون وليس لدينا النية في أن نزول لكي نرضيكم». هذا يعني أن إسرائيل ستكون مهدّدة طالما لن تزول، وإن لن يستطيعوا محو أمريكا من الخارطة، فإنّ الإرهابيين الإسلاميين مقتنعون، خطأً، بأنّ الخوف سيتملّك الأمريكيين لجهة إرسال قواتٍ إلى الخارج أو التصرّف بطريقة ما لإيقاف توسّع الأصولية الإسلامية. الرهان كبير وأثبتت الأحداث الأخيرة بلا لبس أنّنا نحن الأمريكيين والإسرائيليين لا ننوي التقهقر مثلما فعل الإسبانيون».

* * *

رون ناشمان، النائب السابق في الكنيست عن كتلة الليكود، هو محام مختصّ في المالية والقانون الدستوري والنظام القضائي الإسرائيلي. كما أنّه مقتنع بشدّة بضرورة إقامة مستوطنات دائمة في الأراضي المحتلّة، لأسبابٍ لأمنية، والمطالبة بالأراضي المتنازَع عليها. في عام 1978، كان ناشمان، الذي يصفه أصدقاؤه وزملاءه بالحالِم، يحلم ببناء مدينة كبيرة في قلب الضفّة الغربية. وهكذا ذهب، مع تسع وثلاثين عائلة أخرى، ليقيم على الروابي التي تقع على مبعدة ما

يقارب أربعين كيلومتراً شرق القدس.

خلال السنوات الأولى، أُقيمت مساكن مؤقّتة وشرعت الأسَر الأربعون في بناء مجمّعٍ سكني. خلال كلّ أعوام سنوات الثمانينات، زار ناشمان الولايات المتّحدة لجمع الأموال فيه من أثرياء الجالية اليهودية الذين انضمّوا إلى رؤيته ومنحوا ملايين الدولارات لبناء المساكن والأرصفة والمدارس وأخيراً العديد من المصانع والمستشفيات. الآن، رون ناشمان هو عمدة آرييل، وهي مدينة مستقلّة تماماً بسكانها البالغ عددهم أكثر من سبعين ألف نسمة. تتوفّر آرييل على جامعة وقطاع صناعي وتشكّل مكتب العاصمة المحليّة لجميع البلدات التابعة التي ترتبط بها في مجال الوظائف والرعاية الطبية والتعليم. بيد أنّ السمة البارزة لمدينة آرييل، وفي السياق السياسي الراهن، هي أنه، منذ عام 1995، لم يعد مانحوها الرئيسيون اليهودَ الذين كان ناشمان قد طالبهم بالأموال في البداية. الآن المساعدة التي تتلقّاها تأتي من منظمة Faith Bible Chapel في دنفر (كولورادو)، التي يديرها القسّ جورج موريسون وزوجته شيريل.

آل موريسون هم من المسيحيين الإنجيليين الذين تبنّوا مدينة آرييل في إطار عملٍ يهدف إلى تشجيع إقامة علاقات إيجابية بين المسيحيين الصهاينة والإسرائيليين المصمّمين على العيش في المستوطنات الدائمة في كلّ الضفة الغربية. ليس جورج وشيريل مسيحيين صهيونيين وإنجيليين متحمسين فحسب، بل ويديران واحدة من أكبر الكنائس الإنجيلية في البلاد والتي تضم أكثر من 125 ألف عضو وتجمع سنوياً أكثر من عشرة ملايين دولار لتمويل آرييل. يزور آل موريسون، في السنة مرّة واحدة، هذه المدينة رفقةَ كورال كنيستهم. يغنيّ أعضاءه، وهم يرتدون الزّي العسكري الإسرائيلي، بالعبرية لكلّ السكان المحليين. وفي عداد النشاطات الجماعية الأخرى، يأتي المؤتمر السنوي لجمعية الخلاصيين اليمينيين الذكور الذين يُدعَون Promise Keepers حراس الوعد). بهذه المناسبة، يلتقي الأعضاء ليجدّدوا العهد الذي قطعوه ليسوع على أن يعتبروه «صديقهم الأوفى»، وليدافعوا عن تعاليم الكتاب المقدّس، التي توصيهم بمساندة إسرائيل وباحترام القيم العائلية في بيوتهم وأن يتّخذوا موقفاً متشدّداً من أيّ سياسي

ديمقراطي أو جمهوري يدافع عن حقوق اللواطيين وعن تحرّر المرأة وعن التربية الجنسية في المدارس أو يشيد بالصلح مع البلدان العربية. اقترح رون ناشمان أن ينعقد في آرييل منتدى الربيع لحرّاس الوعد. بهذه الفرصة، سيتمكّن المشاركون من تجديد أمنياتهم في الزواج بحضور العديد من الحاخامات الأرثوذكس وسيساهمون في بناء الجدار الفاصل الذي يتعرّج مساره عبر الضفة الغربية، بغية ضمّ مدينة آرييل. بالنسبة لهم، العمل الجسدي في الأرض المقدّسة ليس سوى رمزاً سامياً «لارتباطهم الأبدي بالشعب اليهودي». كما أنّ آل موريسون ساهموا في جباية الأموال الضرورية لبناء هذا الجدار بمبلغٍ إجمالي يقدّر بمليار دولار، خاصّة في سبيل الجزء الذي يحيط بمدينة آرييل.

أثناء مقابلة أجريت معه، أكّد ناشمان أنّ البرنامج الديني لمحسنيه الإنجيليين ليس مزعجاً على الإطلاق لأنّهم وعدوه باجتذاب أكثر من خمسة آلاف مهاجرٍ روسيٍّ سنويّاً خلال السنوات الثلاث الأخيرة، الأمر الذي يوشك أنّ يغيّر بعمق الواقع الديموغرافي لهذه المنطقة المضطربة. يقول: «من السهل توجيه النقد، حينما لا يأتي المرء إلى هنا ولا يدرك الدور السياسي والديني الذي يلعبه بناء مدنٍ مثل آرييل في كامل يهودا والسامِرة [الاسم التوراتي للأراضي الفلسطينية المحتلة]».

في وقتٍ كان رون ناشمان يحاول تمويل آرييل، رفضت منظّمة United Jewish Appeal النداء اليهودي الموحّد) في الولايات المتّحدة وغيرها من المنظمات اليهودية منح أموال لمشاريع المساكن الواقعة في الضفة الغربية، على الجانب الآخر من الخط الأخضر. في المقابل، ذهبت الأموال المجتباة من قبل المسيحيين الأمريكيين إلى مستوطنات الضفّة مثل آرييل. يخمّن رون ناشمان أنّ زهاء ثلثي المستوطنات اليهودية لا تزال تتلقّى مساعدةً من الصهاينة المسيحيين. فمنذ آذار 1981، كانت جماعة إنجيلية في كاليفورنيا تُدعى High Adventure المغامرة الكبيرة) مستعدّة لتمويل مراسلٍ تلفزيونيّ في جنوب لبنان لدعم الميليشيات اللبنانية المدعومة من قبل الإسرائيليين. عام 1992، أثناء الحفلة الحادية عشرة لفطور الصلاة المسيحي الدولي في القدس، جرت محاولة الكشف

عن استثمارات مالية في إسرائيل من جانب مؤتمرٍ جامعٍ لمستثمرين محتَملين وصندوق مشترك للتوظيف. كما كان قد جرى حثّ المسيحيين الإنجيليين على الاستثمار في البلاد من خلال تملّك أسهم من International Christian Investment Corporation. يتذكّر ناشمان تلك الحقبة، ورحلاته عبر الولايات المتّحدة وزياراته للكنائس الإنجيلية والمباحثات التي أجراها مع المسئولين الاقتصاديين والدينيين، كلّ ذلك في سبيل جمع الأموال لمدينة آرييل: «أتذكّر إلقائي خطاباً أمام ستمائة قسًّا في لوس أنجلوس. آنذاك التقيتُ أيضاً بستيف فوربس، الذي كان مرشّحاً لرئاسة الولايات المتّحدة، وكذلك جيري فالويل. وكعضوٍ في الكنيست، مثّلتُ ذات مرّة بنيامين نتنياهو الذي لم يكن بمقدوره أن يحلّ في أمريكا، وأثناء تلك الرحلة قدّمتُ مقترحاً إلى الطائفة الإنجيلية. قلتُ لهم بأنّه لا يكفي الإيمان بالعهد القديم والصلاة من أجلنا. وإنّما عليهم أن يقيموا رابطاً حقيقيّاً مع البلاد. فسألوني ما العمل في سبيل ذلك. حينها قلتُ لهم: " يكفي زرع شجرةٍ وهذه الشجرة شجرتكم. وثمّ تأتوا وتتأكّدوا من أن هذه الشجرة قد أعطت ثماراً وأنّ هذه الثمار لكم. هذه مسألة أشبه بتربية طفلٍ. ومن ثمّ في زيارتكم المقبلة ستتأكّدون من أنّ الكروم قد أثمرت" . زوّد هؤلاء المسيحيّين قطعة أرض وزرعوا كرمةً في جبال السامِرة. وهذا يكتسي، بالنسبة لهم، قيمة روحية عظيمة. هذه هي الفكرة التي أعطيناها للطائفة الإنجيلية. خلال جزءٍ من تلك الزيارة، ذهبتُ إلى كولورادو سبرينغز لألتقي الدكتور دوبسون الواعظ الإنجيلي الذي يدير منظمة Focus on the Family. إنّه نافذٌ للغاية في أمريكا، وأثناء ما انتظاري في الممرّ، شاهدتُ جنرالين يخرجان من مكتبه، كانا قد جاءا لإقناعه بمعارضة دخول النساء إلى الجيش الأمريكي. تخيّلوا، الحكومة التي ترسل ثلاث جنرالات للحديث إلى مسيحيّ إنجيلي، هذا يدلّ على النفوذ الذي كانوا يملكونه، حتى في ذلك الحين».

حينما طلب الأموال لتمويل بناء مساكن في الأراضي الفلسطينية، حرِص ناشمان أن يوضّح للمسيحيين الإنجيليين بأنه لا يريد التورّط في قضايا داخلية من قبيل الإجهاض. يشرح: «هذا ليس بلدي. كان يكفيني رؤية فرنسا المجتاحَة من

قبل مسلمي شمال أفريقيا، أو، حينما كنتُ في لندن في أُكسفورد ستريت، تخيّل ونستون تشرشل، وأنا أرى المسجد، يتقلّب في قبره». أمام المسيحيين الإنجيليين الذين يأخذون الكتاب المقدّس بالمعنى الحرفي، ويعرفون ما عليها علاقتهم الدينية بالشعب اليهودي، اقتنع ناشمان بعمق بأنّ الأمر يتعلّق هنا بـ «هبة من اللّه». «في كلّ مرّة تأتي مجموعة من المسيحيين إلى هنا في آرييل، ألتقي بهم شخصياً وأقول لهم بأنّهم سفراءُنا. وحينما يعودون إلى بلادهم أطلب منهم أن يقولوا لأبناء دينهم بأنّه، في الكتاب المقدّس، ليس هناك ذكرٌ لا للأراضي المحتلة ولا للضفة الغربية ولا لغزّة».

ربّما يكون ناشمان رؤيوياً، ولكنّه أيضاً براغماتي وحينما قام جورج وشيريل موريسون ذات سنة بحجّ، إلى آرييل، استقبلهم كضيوفٍ ملكيين. يقول ناشمان: «هؤلاء الناس غمرونا بكرمهم، ونعلم بأننا سوف لن نتمكّن من أنّ نعترف بصنيعهم إلا بأن نجعلهم يعلمون كم نحن متأثّرون بجهودهم وبجهود رعاياهم وكم نحن نقدّرهم». وكإشارة على الامتنان، يزور ناشمان في العام مرات عديدة في دنڤر كنيسة موريسون التي يشارك فيها بقداديس ويصلّي من أجل المؤمنين الإنجيليين لكي «يستمر قلبهم في حثّهم على دعم آرييل ويساعدوا في عودة المخلّص». إن تمنّي ناشمان لأصدقائه ومحسنيه المسيحيين أن يروا عودة المخلّص «لا يكلّف شيئاً ويمنحهم الشعور بأننا نحن اليهود لا نشكّك في معتقداتهم الكابية».

هناك مظهرٌ آخر لهذه العلاقة الغريبة بين سكان آرييل و Faith Bible Chapel، وهو التأثير السياسي الذي يحظى به جورج وشيريل موريسون في الولايات المتّحدة. فهما من الشخصيات البالغة الأهمية التي لها صلاتٌ وثيقة مع الممسكين بزمام السلطة وسط الحزب الجمهوري. في الواقع كانا مَن نظّما في عام 2002 مسيرة في واشنطن لمليون مسيحيٍّ للمطالبة بنقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس. في مقابلة خصّتني بها في الربيع الماضي أثناء زيارتها آرييل، ذكرت السيدة موريسون أنّ للرئيس بوش علاقات متميّزة وودية للغاية مع مغنية إنجيلية معروفة عضو في أبرشيتهم وكذلك مع مسيحيين إنجيليين آخرين

مرموقين. ثم أعلنت بصراحة بأنّ الرئيس يعلم بالتالي بأنّه لو أوجب الاستخدام الكامل لخارطة الطريق أو ألغى بناء الجدار الأمني، فإنّ اليمين المسيحي سوف لن يصوّت له عام 2004. وشرحت: «هذا لا يعني أننا سنصوّت للمرشّح الديمقراطي. ببساطة، سنمتنع عن التصويت». أو بكل بساطة، مثلما أشار زوجها إلى ذلك»،سوف لن نرسل شبابنا المسيحيين للردّ على الهاتف والقيام بتوظيفات مستورة في مختلف مقرّات QG الحملة الانتخابية. أو ربّما سنقدّم مرشّحنا الخاص المسيحي لنفهم الآخرين جيّداً بأن ما يقدم عليه (الرئيس) غير مقبول بالنسبة لنا بتاتاً». في المساء حينما زرتُ آرييل والتقيتُ شيريل موريسون، كانت قد نظّمت عرضاً موسيقيّاً لمندوبي الجالية اليهودية. شرعت جوقتها بالغناء باللغة العبرية التي كانت سرّ محبّة الجالية اليهودية لإسرائيل ومساندتها. عموماً، حينما تحلّ المجموعة في البلاد وتجول على المستوطنات، يرتدي أعضاؤها، كما قلنا، الزيّ العسكري الإسرائيلي، الأمر الذي يغدو أكثر إثارة بالنسبة لمواطني الدولة اليهودية. في ذلك المساء، كانت كلّ حقائب المجموعة قد فُقِدَت بحيث استمرّ المغنّون بالظهور وهم يرتدون ببساطة الجينز والقمصان. يبقى أنّ تقديمهم أثار عاصفة من التصفيق وأذرف الدمع من عيون الحضور أجمعين. بعد ذلك، سأل ناشمان، الذي كان بدوره متأثراً دامع العينين، الحضور: «ما هو المشترك بين هذه العلاقات الإنسانية، هذا التأثّر، وهذا الإحساس العميق والسياسي المستعد للانتقاص من قيمة هذه الأرض؟»

بسبب الطابع الخاصّ جدّاً للبرنامج السياسي والديني للمسيحيين الإنجيليين من جهة، ومن جهة أخرى، بسبب الطريقة الحيوية للغاية التي تستجيب بها الجالية اليهودية الأمريكية برمّتها حينما يتعلّق الأمر بحماية إسرائيل، بذل الكثيرون كنوزاً من التخيّل سعياً لإيجاد أشكالاً جديدة ومبتَكَرة لدعم الدولة اليهودية.

23

هداية اليهود

اليوم في الولايات المتّحدة يعلّق مسيحيّون إنجيليّون يتصرّفون بموارد مالية لا محدودة إعلانات في كلّ مدن البلاد مع رسائل سياسية في غاية الوضوح تبيّن لسكانها كيفية التصويت على مسائل دقيقة جدّاً في السياسة الداخلية أو الخارجية. هذه المؤسّسات الثريّة نفسها للمسيحيين موّلت كذلك رحلات إلى الأرض المقدّسة لتتيح للمسيحيين الإنجيليين أن يتأكّدوا بأنفسهم من الطابع التوراتي لدولة إسرائيل.

هربرت زوايبون، هو أحد المؤسّسين والمدير الحالي لمنظّمة تتّخذ من نيويورك مقرّاً لها وتُدعى (الأمريكيون في سبيل إسرائيل آمنة) Americans for a Safe Israel. زوايبون رجلٌ بسيط قصير سمين يمنح الإطار الوردي لنظارتيه لوناً وردياً لعينيه. إنّه يهودي، ولكنّه أيضاً صهيوني متحمّس نشيط جدّاً يعتبر قيام دولة إسرائيل أمراً غير واردٍ بالنسبة له، أيّاً كانت الظروف. وللترويج لوجهة نظره، يتعاون زوايبون على نحو وثيق مع مراتب الحركة الإنجيلية في الولايات المتّحدة وتلقّى منها في الواقع جزءاً هاماً من تمويله علاوة على ما يمنحه أعضاء الجالية اليهودية، وأنصار حلّ الدولة الوحيدة في النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني.

ريتشارد لاند، المسيحي الإنجيلي ورئيس (Ethics and Religious Liberty Commission لجنة الحرية الدينية والأخلاق) في Southern Baptist Convention واد ماكاتير»،عرّاب» اليمين الديني، انضمّا إلى زوايبون في عام 1992 لتنظيم وتمويل رحلات إلى الأرض المقدّسة للمسيحيين الخلاصيين في أمريكا البعيدة لكي يتمكّنوا من معاينة تحقيق الكلام التوراتي بأنفسهم ميدانيّاً. لم يكن المقصود

منحهم ببساطة «إمكانية السير على خطى يسوع»، ولكن أيضاً جعلهم يدركون غرض المجموعة، أي عدم التخلّي عن شبرٍ واحدٍ من الأرض للفلسطينيين. يشرح زوايبون: «كانت رحلة ملية بالتأثّر والانفعال لأنّه بالنسبة لمعظم زوارنا إلى إسرائيل، كانت تلك المرّة الأولى التي كانوا يكتشفون فيها مجمّعات يهودا والسامِرة مثل شيلو وتيكوا وبيت إل، مستوطنات تقع في قلب الأرض المتنازع عليها. أتذكّر كاهناً أنتيليّاً دخل إلى وسط الكنيس الجديد ليحصي النوافذ الزجاجية ويرى إن كانت متوافقة مع وصف الكتاب المقدّس. يجب ألاّ ننسى أنّ هؤلاء الناس يأخذون الكتاب المقدّس حرفياً وبالتالي ليس هناك هامش محتَمل للخطأ». انشغل زوايبون مع ريتشارد لاند واد ماكاتير بمشروعٍ مكلفٍ قوامه وضع إعلانات في كامل البلاد تعلن إلغاء خارطة الطريق. يشرح زوايبون: «إنّها موضوعة في كولورادو وأركنساس وميسوري وتينيسي وفيرجينيا الغربية وتكساس ونيو مكسيكو وجورجيا وحتى في بالتيمور لأنّها قريبة من واشنطن ولأنّه من المحظور وضع اللافتات الإعلانية في العاصمة لأنّها مقرّ الحكومة الاتحادية. وتطلب اللافتات من الذين لا يعرفون الميثاق الإبراهيمي الصلاة لكي يحترم الرئيس بوش تحالف اللّه مع إسرائيل. نقول لهم أن يصلّوا من أجل أن تزول خارطة الطريق وأن يصوّتوا كما يجب حتى لا نتخلّى عن شبرِ أرضٍ للفلسطينيين».

يعتقد غاري باور أن هناك «مصلحة مشتركة» وأن هناك بين كلّ شرائح السكان أناسٌ سيصوّتون لمرشّحٍ على قاعدة التزامه حيال إسرائيل. ويشرح: هذا ما قلته لبعض اليهود الأمريكيين الذين لديهم رؤى تقدّمية في بعض المسائل الاجتماعية. ببساطة لابدّ أن نكون متّفقين على أن نكون مختلفين على بعض الأمور، لأننا سوف لن نغيّر لا نحن ولا الآخرون مواقفنا. ولكن مع هذا، يجب ألاّ تمنعنا خلافاتنا عن العمل معاً من أجل قضية أمن إسرائيل. قبل عدّة أشهر دُعي باور من قبل حاخامٍ ليعبّر عن رأيه في كنيسٍ في غريت نيك، لونغ ايسلاند، الحي النيويوركي الذي يكاد سكنته أن يكونوا حصراً من اليهود. يقرّ باور بأنّ الجو كان مضطرباً ذلك المساء حينما صعد إلى المنصّة. يقول باور: «نهض حاخام من بين الحضور وصرخ بأنّني كنتُ ضدّ زواج اللواطيين والإجهاض.

ولكن أغلبية الجمهور هبّت لنجدتي. كانوا يتحادثون فيما بينهم لمعرفة ما إذا كانت هذه المسائل أهمّ من ضمان بقاء إسرائيل. المسألة بسيطة جدّاً: الالتزام حيال إسرائيل يعني التوحّد ضدّ الإسلام».

وكأغلب المسيحيين الإنجيليين الآخرين، يعتبر غاري باور أنّ إسرائيل هي، في الشرق الأوسط، البلد الوحيد الديمقراطي الذي فيه للمواطنين كلمتهم ليقولوها وحقّهم في التعبير عن اختلافهم.

«إسرائيل محاطة ببلدان يقودها دكتاتوريون وأفظاظٌ وطُغاة وفي حالة العربية السعودية ستة عشرة ألف من أبناء العمومة. وبالتالي لا أدرك لماذا من الصعب على بعض مواطنينا أن يروا أين تكمن مصالحنا القومية».

كما يموّل زوايبون إعلانات لاصقة على السيارات، والتي تبيّن جوهرياً نفس الرسالة، حول إسرائيل وحول معارضة قيام دولة فلسطينية. يوضّح زوايبون: «نحن لا نبحث عن نزاعات ولا نتّهم الرئيس. نحن نطالب الناس ببساطة أن يصلّوا وأنا مقتنعٌ تماماً بشرعيّة هذا المسعى. مَنْ باستطاعته الادّعاء بأنّه هناك وسيلة أفضل؟. سنويّاً، يمرّ الملايين من الأشخاص أمام واحدة من لوحاتنا الإعلانية الموجودة خلف سيارة تعرض واحدة من إعلاناتنا اللاصقة».

يدّعي زوايبون أنّ اللّه قد ساعده بجلاء مع زملائه في تحقيق هذا المشروع لأنّ التعرِفة الجارية لإعلان على لوحة هو ثمانمائة دولار شهرياً. «ضاعفوا الرقم بعشر أو اثنتي عشرة ولاية ولحملة من ثلاثة أشهرٍ فقط، سيبلغ هذا زهاء ثلاثين مليون دولار». بالنسبة لزوايبون قد يختلف إله الإنجيليين عن إلهِهِ، بيد أنّه هو ذاته حينما يكون الموضوع هو الميثاق الإبراهيمي. «إنّ اللّه هو من جعلني ألتقي بكاهنٍ أسودٍ من تينيسي والذي كان أيضاً أحد مدراءClear Channel ، وهي شبكة من المحطّات الإذاعية الإنجيلية. إنّه هو مَنْ اكتشف أنّه لم تكن للصق الإعلانات غاية تجارية وإنّما كان الأمر يتعلّق بالخدمة العامّة بحيث أنّ التعرِفة الأوليّة انخفضت فجأةً من ثمانمائة دولار إلى مائتي دولار شهرياً. هكذا، وبميزانيتنا، أصبح لدينا فجأة خمسون لوحة بدلاً من اثنتي عشرة فقط، وبما أنّ كلّ منطقة مستقلّة وتُدار من قبل شخصٍ مستقلٌ يتّخذ القرارات بمفرده، فقد انخفضت تكلفة

اللافتات في بعض المناطق إلى خمسين دولاراً شهرياً».

اليوم، هناك أكثر من ثلاثمائة لوحة إعلانية في أكثر من عشرين ولاية، أغلبها مموّلة من قبل Apostolic Congress المؤتمر البابوي) وهي المؤسّسة التي تضم جميع الكنائس البابوية في البلاد والتي تضمّ أكثر من خمسة عشر مليون عضو.

يمكن للمسيحيين الإنجيليين أن يكونوا على ثراءٍ فاحشٍ أو فقرٍ مدقع وأن يستسلموا لممارساتٍ معقولة أو يتصرّفوا بالطريقة الأكثر غرابةً. ولكن عند جميعهم نفس الاعتقاد، ألا وهو أنّهم متساوون أمام يسوع المسيح وأنّ رسالتهم هي نشر كلامه.

علاوة على منظمات مسيحية تقليدية تزدهر في إسرائيل ومنظمات سياسية أمريكية كبيرة مساندة للدولة اليهودية، هناك أيضاً العديد من المنظّمات المسيحية التي تتّخذ من الولايات المتّحدة مقرّاً لها ولديها مكاتب في إسرائيل تدافع عن المواقف المتطرفة وغالباً ما تنذر أتباعها بالكوارث. البعض من هذه المجموعات تموّل أيضاً الكثير من الزمر الأرثوذكسية المتشدّدة لليمين في إسرائيل، والتي تشتري أراضٍ فلسطينية في الأراضي المحتلة وتُقيمُ فيها مجمّعات يهودية ومسيحية.

(اليهود من أجل يسوع) Jews for Jesus، هي نموذجٌ لمنظمة مقيمة في الولايات المتّحدة وإسرائيل ولها مكاتب في كلّ أوروبا وفي الشرق الأوسط، ومهمّتها الظاهرة هي إقناع اليهود بالإنجيلية ولكنّ برنامجها السريّ أكثر سياسياً. ولكن هذه المنظّمة، التي تأسّست من قبل روزين، الحاخام السابق الذي أصبح كاهناً معمدانياً، والمموّلة بميزانية تفوق ثمانين مليون دولار سنوياً، نمّت عدد أعضائها، تحت إدارة القس روزين، بأكثر من 50% منذ بدايتها في2000 عند اندلاع الانتفاضة الحالية. في مقرّه الدولي بسان فرانسيسكو، لدى الحاخام السابق ديڤيد بريكنر، المدير الحالي لمنظمة اليهود من أجل يسوع، في مكتبه لوحةٌ يمكن للمرء أن يقرأ فيها: «اليهود من أجل يسوع، تأسّست في عام 32 م. في عام قريب». حسب قوله، ليس للمنظّمة ممارسات مهينة، مثلما تُتّهَم: «لا نريد أنّ

نهين ولكن إذا ما شعر الناس بالإهانة من رسالتنا، فليس بوسعنا أن نفعل شيئاً. في كلّ الأحوال، يكفي أن أقول «أنا يهودي وأؤمن بيسوع» حتى يُثار خلافٌ».

يقول بريكنر أنّ المنظمة تتّصل مع اليهود عبر البريد الإلكتروني وتطرح درساً حول المسيحية المشخصَنة تبعاً لاهتمام كلّ شخصٍ بالاهتداء. ويقول بأنّ المسيرة مطبوعة بطابع الحصافة والرزانة وليست جبرية إطلاقاً. الأمر الذي أتاح للناس «أن يقولوا نعم أو لا في كلّ مرحلة».

أصبحت شابّة أمريكية يهودية اعتنقت الإنجيلية عضواً في منظمة يهود من أجل يسوع بعد إقامتها في إسرائيل، ثمّ انسحبت منها لأنّها زعمت بأنّهم كانوا يعلّمونها بأنّ «كَفَرة كانوا يراقبونني لكي يسحقونني». وقالت بأنّ المنهاج اشتمل على «تعقيم التفكير». ذات يوم، سألت المرأة الشابّة، التي انشغلت بإيداع كلّ نقودها وكذلك أجرها الشهري لدى المنظّمة، أين ذهب المال وسمعت جواباً بأنّه كان يُستَخدَم في تنظيم «طرد الفلسطينيين من أراضي اليهود». قدّمت منظمات إنجيلية متطرفة أخرى منحاً عينية ونقدية لإسرائيل، شريطة أن يحضر المنتفعون بها «حلقاتَ بحثٍ تدريبية» إنجيلية.

منظّمة (إسرائيل حبيبتي) Israel My Beloved ، منظّمة مسيحيّة مقرّها في الولايات المتّحدة وكذلك في إسرائيل، والتي لديها صلاتٌ وثيقة بفرانكلين غراهام وتقدّم حلقات بحث ودروس على كامل الأرض الأمريكية وكذلك في يشيفوتات yeshivot إسرائيل. ارتكز عملها الرئيسي على المساكن والغذاء والألبسة وتمويل للعناية الطبية للإسرائيليين المحتاجين وللمهاجرين الجدد، شريطة أن يتعهّدوا باعتناق المسيحيّة. جرت مراسيم التعميد في نهر الأردن مرّتين في العام. منظمة (خيمة الصحراء)[1] Wilderness Tabernacle، هي منظّمة أخرى مقرّها في كيبوتز آلموغ الواقع في صحراء يهودا. يديرها راندال سميث، الواعظ المسيحي الكاريزماتي الذي قدّم جلسات دراسية وحلقات بحثٍ مخصّصة كذلك للمساعدة

(1) كناية عن خيمة اليهود سابقاً -المترجم-

في اعتناق اليهود لليهودية. اقتنت هذه المنظّمة أرضها منذ عشر سنوات وأجّرت القسم الأعظم منها للمقيمين اليهود في الكيبوتز. كما يتصرّف الدكتور سميث بأموالٍ وضعت تحت تصرّفه من قبل بات روبرتسون وشبكة القنوات المسيحية الذين يقدّمون منافع مالية لليهود الذين يقبلون باعتناق المسيحية. من المهمّ أن نلاحظ أنّ الحكومة الإسرائيلية اليمينية لا تطبّق قانون 1977 الذي يحظر التبشير أو تقديم منافع مادية للحثّ على تغيير الدين. من جهة أخرى، يحظى مشروع قانونٍ أحدث ينصّ على منع توزيع الوثائق الإنجيلية بفرصة ضئيلة لكي يمرّر في البرلمان الإسرائيلي.

أندريا بينز مسيحيّة خلاصية أصلها من ماديسون في ويسكنسون. منذ سنتين، يرسلها والداه في الصيف لكي تعيش وتعمل في كيبوتزٍ على مقربةٍ من مرتفعات الجولان. برفقة إحدى عشر فتاةً من عمرها واثنا عشرة صبيّاً، قضت شهرين وسط المقيمين الدائمين في الكيبوتز ، تعمل في الأرض وتشارك بالتناوب في أعمال المطبخ وتحمّل الشاحنات قبل انطلاقها إلى أسواق الخضار وتجرف وتجزّ المرج وتنخرط في أيِّ نشاطٍ جسدي أخر يخطر ببال المنظّمين. لهؤلاء الشبّان قاسم مشترك هو أنّهم جميعاً مفرطون في السمنة يزيد وزنهم على مائة كيلو غرام، وهو الشرط اللازم للمشاركة في البرنامج العمل/الصحّة/الروحانية. في ماديسون تشكّل المجموعة جزءاً من منظّمة تُدعى (التنحيف من أجل يسوع) Dieting for Jesus، وهو ناد يساعد المراهقين الذين يعانون من مشكلة السمنة على فقد كيلواتٍ بمساعدة نظامٍ إنجيليٍّ يرتكز على مراقبة جراية الحُريرات المتناولة وعلى الصلاة. جاءت الفكرةً من ربّة أسرة في ماديسون قارعت طيلة حياتها البدانة. في الواقع، خلال سنواتها الثماني والثلاثين، اكتسبت وفقدت واستعادت، كما تقول، وزن «شخصٍ مستقلٌ كاملٍ».

بذلت ايما بينسون كلّ جهدها: راقبت وزنها، صامَت، جرّبت كلّ الأنظمة الغذائية الرائجة، استشارت أطبّاءً وصفوا لها مَقْطَع الجوع. بل ذهبت إلى حدّ ربط المعدة وإلى محاولة الانتحار. وأثناء ما كانت تعود إلى المستشفى جراء جرعة زائدة من تايلينول Tylenol زارها يسوع. تروي بتأثّر: «هناك في غرفتي في

المستشفى. كان يرتدي لباساً أبيضاً بالكامل وكان لديه سمّاعة حول رقبته. كان شعره مضموماً تحت طاقية خضراء، مثلما يرتدي الأطباء في التلفاز. كنتُ أبكي. فاقترب يسوع منّي، وجلس إلى السرير وقال لي بأنّ آلامي كانت قد انتهت لأنّه سبق وافتدى نفسه في سبيل كلّ آلامنا. قال لي بأنّ الشيء الوحيد الذي كان عليّ أن أفعله لكي أنحف كان الصلاة لأكتسب القوّة وبأنّه سيبدّد كلّ جوعي».

ما أن خرجت بينسون من المستشفى حتى نشرت رأيّاً في الجريدة وعلّقت لافتاتٍ في المدينة بأسرها وفي كنيستها لتعلن عن تأسيس رابطة جديدة للتنحيف تحت رعايتها. كانت تتعهّد بإنقاصٍ حاسمٍ للوزن بواسطة «نظام مصمّم من قبل يسوع بذاته». وسرعان ما جمعت زهاء عشرين شخصاً من بالغين ومراهقين كانوا يأتون إلى منزلها في الأسبوع مرّتين وهناك، كانوا يجتمعون في السرداب ويصلّون ويتجادلون فيما كان يسوع يتناوله ليكون في أحسن حالٍ ويؤدّي «مهمّته في الدنيا». تزعم بينسون أنّ الجرعة الغذائية التي تنصح بها محسوبة وفق نظامٍ أعطته إياها سلفتها وهي موصوفة لضحايا جلطة قلبية في مستشفى جامعيٍّ في ماديسون. «حينما أُصيب صهري بجلطة، أعطاهم اختصاصيّو التغذية في المستشفى هذا النظام الغذائي الفقير بالشحوم والغنيّ بالبروتينات». ولكن مثلما يعرف الجميع، النظام الغذائي وحده لا يجدي دائماً. تقول بينسون: «فقمتُ بتسهيل الأمر. أوّلاً، يجب على كلّ مشتركٍ في الاجتماعات أن يسلّم حياته ليسوع. بدايةً، كان قسّي حاضراً، كان يتحدّث عن يسوع مبشّراً به ويهتمّ بكلّ الذين لم يؤمنوا به بعد في قلوبهم. وما أن يفعلوا ذلك حتى أعدهم بأنّهم سيفقدون من وزنهم».

وإذ تقتفي خطى المدمنين المجهولين حيث المسمّمون والمدمنون «يفوّضون أمرهم لقوّة فائقة» كانت الاجتماعات تستوجب بُعداً إضافياً. فكان على المشاركين إعداد نظام غذائيٍّ مقدّر خصّيصاً ليسوع، ولبلوغ ذلك، كانوا يتزوّدون بالوثائق ويقرؤون الكتاب المقدّس لكي يحدّدوا أيّة أغذية وحبوب كانت جاهزة «في الوقت الذي كان فيه يسوع على الأرض». تشرح بينسون: «لم أكن أقول بأنّه من الخطيئة الابتعاد عن النظام الذي كان يسوع يصفه لنا، ولكنني كنتُ أوضح بأنّ الغشّ إثمٌ».

نتجت فكرة قيادة المجموعة كلّ صيف إلى إسرائيل بشكلٍ طبيعي عن الإيمان الذي كان ينعش حياة بينسون ومجموعتها المتعلّق بهذا البلد واختياره. تسأل بينسون الهيئة: «هل من مكانٍ آخرٍ يمكن للمرء أن يتمرّن فيه على نحوٍ أفضل وأن يأكل باعتدالٍ سوى في الأرض المقدّسة؟ وفي الوقت نفسه نشاهد اليهود في أعمالهم في الكيبوتز». اليوم تضمّ الجمعية أكثر من ألفي عضو وتستمرّ في التوسّع، مموّلة في جزءٍ كبيرٍ منها بدفعات وأقساط الذين انضمّوا إليها لفقد الوزن ومن قبل أنصار الفكرة القائلة بأنّ التنحيف من أجل يسوع ليس إلاّ وسيلة إضافية «للوصول» إلى الرّبّ.

* * *

هناك مسيحيّون إنجيليون آخرون يتميّزون بالتكلّف والوقار واللطف، ملؤهم الثقة والحسم وفي غاية التحفّز، ولكن لكلٍّ منهم تجربته الخاصّة في الخلاص، الذي هو سبيلهم لتجنيد أعضاءٍ جدد. البعض منهم يملكون ويديرون محطات إذاعية مسيحيّة أو يكتبون الأعمال التي تحقّق أفضل المبيعات مثل توم لاهاي، في حين أنّ آخرين من المؤمنين البسطاء الذين يمارسون واجباتهم الدينية. يعملون في مؤسسات، أو هم من الأطباء والمحامين والمحاسبين والممثلين والمغنّين والرسّامين والأساتذة والسياسيين أو يزاولون أعمالاً في مراكز أخرى محترمة.

أحدهم هو جورج دبليو بوش.

24

اللّه في البيت الأبيض

إحدى المواهب الفذّة للرئيس بوش تكمن في تأثيره على الطائفة الإنجيلية برمّتها بكلمات قليلة جدّاً، ولكنّها كلمات مزوّدة بطاقة رمزية مهمّة.

ينتمي المسيحيّون الإنجيليّون إلى كلّ فئات المجتمع وهم متنوّعون في مظهرهم ووعيهم كباقي سكان المناطق المدينية أو الريفية للبلاد. ما يميّزهم أو يسمح لهم بأن يتعارفوا في الحال، هو مسارعتهم إلى إعلان علاقتهم الخاصّة بيسوع بلهجة واثقة وبتغييراتٍ في نبرة الصوت تكشف مباشرة عقائدهم. بالنسبة إلى إنجيليٍّ»،الوجود بين أصدقاء«، يعني الوجود مع أشخاصٍ لهم نفس المعتقدات الدينية والذين سيحظون بامتياز النجاة من محن يوم القيامة. مع ذلك، ولعدم ترك أنفسهم يُخدَعون من قبل سياسيين لا يفكّرون سوى بمنصبهم لدى السعي إلى الصوت المسيحي، يطرح المسيحيّون الإنجيليّون عدداً من الأسئلة في سبيل» تمييز المؤمنين الصادقين من الأدعياء المحتالين».

يُتّهم الرئيس بوش بكونه جاهلٌ، غير قادرٍ على تكوين جملة متماسكة ، وبتقديم تفسيرات خاطئة أو باختلاق الكلمات. بيد أنّ محنّكٌ للغاية في استعمال لغة المسيحيين الإنجيليين. حينما يجد نفسه في حضرة مجموعة مسيحيّة خلاصيّة، يحسن الردّ عليهم وطرح كلّ المسائل القابلة لجعله يحظى بتقديرهم العالي. يقول المحترم فالويل عنه:» لقد عرفناه مباشرة كواحدٍ من أهلنا لطريقته الفريدة في الحديث. إنّه مؤمنٌ بوضوح، حتى وان لم يكن دائماً مدركاً لعمق إيمانه. ربّما يحصل له أن ينسى بين الفينة والأخرى ما هو مكتوبٌ في الكتاب المقدّس».

من عادة السيد فالويل أن يسأل كلّ مرشّحٍ كيف سيتصرّف لإقناع الربّ بقبوله

في السماء. حينما رأى جورج بوش الأب، الأنكليكانيّ، نفسه يُطرَح عليه ذلك السؤال من قبل مجموعة من المسيحيين الإنجيليين خلال الحملة الانتخابية الرئاسية لعام 1988، ردّ:»سأقول ببساطة للرّبّ بأنني أحسنتُ التصرّف طيلة حياتي على الأرض وبأنني فعلتُ أفضل ما لديّ لتنفيذ تعاليمه. «وبالنسبة للمسيحيين الإنجيليين لم يكن ذلك هو الجواب المناسب.

حينما وجب على جورج دبليو بوش أن يجيب على هذا السؤال أمام نفس المجموعة من المسيحيين الإنجيليين أثناء الحملة الحالية لإعادة انتخابه، جرت تحيّته بالصفير والابتهاج والآمين والتهليل وهتاف حماسيٍّ وقوفاً. فقد قال: » أعلم أننا جميعاً من الخُطاة، ولكنّني آمنت بيسوع مخلّصاً. أنا أعرف ما يعنيه أن يكون المرء مع اللّه«.

الواعظ الإنجيلي جيمس روبيسون الذي ظهر في التلفزيون وقاد سابقاً حروباً صليبية في الملاعب ليقنع الناس بإدخال يسوع إلى حياتهم، يقدّم حالياً برنامجاً إذاعياً مسيحيّاً في دالاس. قُبيل انطلاق الحملة الانتخابية الرئاسية لعام 2004، بعد أن عُلِم بأنّ جون كيري كان قد جمع باسمه أصواتاً تكفي لنيل ترشيح الحزب الديمقراطي، تلقّى روبيسون ذات يوم أحدٍ اتّصالاً هاتفياً من مؤمنٍ يسأله إن كان يمكنهما الصلاة معاً. كان هو جورج دبليو بوش الباحث عن المساعدة من جديد قبل الإقدام على» السباق الشاقّ «الذي كان ينتظره. قال له روبيسون بأنّه ينبغي عليه ألاّ يأمل في امتلاك الأجوبة المناسبة لكلّ المصائب التي كانت أمريكا تعانيها، وصلّيا معاً عبر الهاتف وسألا اللّه أن يمنح الرئيس» الهدوء والثقة والحكمة لكي يبدي رأيه أو يلتزم الصمت حينما يستدعي الأمر، وكذلك الرصانة الضرورية لاتّخاذ القرارات الصائبة باسم اللّه والشعب الأمريكي «.

إبّان الحملة الانتخابية الأولى، كان الرئيس بوش قد اعتمد على الوعّاظ وعلى الكتاب المقدّس مثلما على مستشاريه. حينما سُئِلَ عن فرصة ظهوره كمرشّح، طلب من مجموعاتٍ من القساوسة أن يصلّوا من أجله. وقال كاهنه المنهجي في دالاس بأنّ بوش حينما يذكر الآن المسيح في خطاباته، ليس صادقاً فحسب بل ويمتلك حماسة وإيمان المؤمن المهتدي. وهو يفسّر الإنجيل حسب

القديس ماتيو، أعلن بوش مراراً لجماهير غفيرة في البلاد:» سوف لن أسعى إلى انتقاد نقائصكم القليلة إذا كانت نقائصي أخطر وأكبر. «إنّه يحبّ هذه الجملة لأنّها تذكّره بأنّ جميع البشر خطّاءون. أما صحوته الدينية، فيصفها بأنّها «اللحظة الأكثر حسماً في حياته«، مسارعاً إلى الإضافة بأنّه لم يكن سوى «آثم متواضع».

مؤخّراً، صرّح أحد الكهنة المساعدين للكنيسة المنهجية بأنّ الرئيس هو زيليغ وودي آلن للأديان لأنّه» معتدلٌ غير دوغمائي «. في المقابل، يرى معمدانيو الجنوب في بوش مؤمناً صادقاً بينما بالنسبة إلى تشارلز كولسون، ماكر ووتر غيت المعتنق للإنجيلية أثناء إقامته في السجن والصديق المقرّب للرئيس، جورج دبليو بوش هو» واحدٌ من أهلنا».



في الثامن والعشرين من كانون الثاني 2004، وقبل أربع وعشرين ساعة من الانتخابات الأولية للحزب الديمقراطي في أيوا، زار هاوارد دين، أحد الطامحين إلى ترشيح الحزب الديمقراطي في السباق إلى الرئاسة ، الرئيس السابق جيمي كارتر. رفض هذا الأخير دعم مرشّحٍ ديمقراطي، ولكنّه كان من الواضح أنّه يتحدّث منذ وقتٍ طويلٍ عن علاقاتٍ وديّة وحميمة مع دين. واقفاً إلى جانبه أمام الصحافة، ذكر كارتر بأنّ دين، أثناء حملته الانتخابية الرئاسية الأولى في عام 1976، كان قد عمل كمتطوّعٍ في» مَلء المظاريف «. قال بأنّه ودين كانا يدافعان عن نفس القيم الأمريكية، وبأنّهما كانا معارضين للحرب في العراق، وأنّ دين كان قد رافقهما هو وزوجته، في نفس ذلك الأحد، إلى الكنيسة، وكانوا قد حضروا درس التعليم المسيحي الذي كان قد أعطاه في الكنيسة. وفي ختام حديثه، وضع الرئيس السابق يده حول كتف دين وقال للحشد من مؤيديه القادمين ليهتفوا له في مدينته بلانز بجورجيا:» هاوارد دين مسيحيٌّ مثلنا».

في الولايات المتّحدة، تطوّر سلوك رجال الدين من مختلف المشارب بحيث بات من الصعب التمييز بين سياسيٍّ وواعظ. لقد عزّز الدين والأخلاق سيطرتهم على أمريكا وولّد جيلاً من المرشّحين الذين يدركون بأنّه، لكي يُنتَخَبوا، لابدّ لهم

من أن يقنعوا الناخبين بأنّ اللّه يشغل حيّزاً هاماً في حياتهم الخاصّة وفي برنامجهم السياسي. قالت امرأة جالسة إلى طاولة مطعمٍ صغير غير بعيدٍ عن منصّة الفول السوداني حيث ظهر جيمي كارتر وهاوارد دين، بأنّها كانت» واثقة من أنّ الرئيس بوش كان مسيحياً أفضل من هاوارد دين».

المنافسة التي ينصرف إليها المرشّحون لمنصبٍ سياسي لكي يقنعوا الناس بارتباطهم باللّه لا تكون دون تشبيه السباق بتخدير المصارعين. في حين يمكن للرياضيين بصعوبة أن يحرموا أنفسهم من تناول المخدرات لتحسين بنيتهم الجسدية لأنّ خصومهم لا يتردّدون في تحدّي الممنوعات للفوز، لا يمكن للسياسيين الامتناع عن استذكار اللّه حينما يُكثر منافسوهم الإحالات إلى العليّ القدير.

وسط الحملة الانتخابية المسعورة للانتخابات التمهيدية، خسر هاوارد دين أخيراً لأنه، يقول البعض، اتّخذ هيئته كواعظٍ معمدانيّ من الجنوب لجذب الحشود إلى درجة أنّه لم ينفر المؤمنين الصادقين فحسب بل وأرعب المؤيدين الأكثر علمانية أيضاً. بيد أنّه النموذج الممتاز للسياسي الذي لم يهتم قط بإظهار إيمانه أو غيابه الإيماني قبل أن يقع اختياره على البيت الأبيض. كل ما كان يُعرَف عنه وعن معتقداته، هو أنّه كان طبيباً وبأنّه كان قد تعرّف إلى زوجته، الطبيبة هي الأخرى، في الكليّة وأنّهما كانا قد قررا، بعد زواجهما، باتفاق مشترك أن يتركا أطفالهما أحراراً في اختيار الدين، دين والدهم أو دين والدتهم. دين أنكليكاني وزوجته جوديث ستاينبرغ يهودية. ولكونهما متعلقان جداً بعقائدهما الخاصّة، قرّرا ارتياد الكنيسة الموحّدة، عائلياً، الكنيسة التي بدت لهم كتسوية مثالية. بعد ذلك بسنوات، حينما صارا في سنّ الاختيار، آثر ابنتهما وابنهما اليهودية. طبعاً، تزامن تحمّس دين المفاجئ للإنجيلية مع اللحظة التي بدأ فيها منافسوه بالتعبير عن آرائهم- بمزيدٍ من النجاح- كمبشّرين، وبالتأكيد على أنّ اللّه والدين كانا جزءاً أساسياً من حياتهم وكانا لا غنى لهم عنهما لقيادة الأمة الأمريكية.

الرهانات الدينية لهذه الانتخابات هي أرفع حتى مما كانت عليه في عام 2000، لأنّ مديري الحملات الانتخابية للحزبين لم يكونوا يدركون، حينذاك،

مدى الصعود المذهل للمسيحيين الإنجيليين. هذه المرّة، يعلم كارل روڤ، الذي حمل جورج دبليو بوش إلى البيت الأبيض وبقي مستشاره السياسي الرئيسي، أنّه ليس هناك ما هو أكثر أهمية للفوز بانتخابات 2004 من صوت المسيحيين الإنجيليين». برأي، في العالم المسيحي، يقول الناس من الآن فصاعداً في نفسهم بأنّ كون المرء مسيحياً يعني إمّا أن يكون إنجيلياً وإمّا أن يكون علمانياً. الصوت المسيحي هامٌّ لأنّه في النهاية، ما لم يكن المرء إنجيلياً، فما جدوى اللعب بورقة اللّه؟ «

«ورقة اللّه» تهمّ الديمقراطيين مثلما تهمّ الجمهوريين، حينما يؤكّدون بأنّ وحدهم المسيحيّين الإنجيليين هم مسيحيّون حقيقيون. المرشّح الديمقراطي لرئاسة الولايات المتّحدة، جون كيري، كاثوليكي وفي الواقع هو أوّل كاثوليكي يُحتَفَظ به من قبل أحد الحزبين الكبيرين منذ جون ف.كينيدي في عام 1960. أثناء عهد هذا الأخير، كان العالم مختلفاً وكان الأمريكيون يخشون من أن تموّه سلطة الكنيسة مبدأ فصل الكنيسة والدولة المنصوص عليه في الدستور. ولكن جون كير، ولأسباب أخرى عديدة في هذه الانتخابات، مرشّحٌ كاثوليكيٌّ من طراز خاصٌ جداً. أوّلاً، وكأغلبية السياسيين أو الشخصيات المشهورة»،اكتشف» في مرحلة متقدّمة من حياته ووظيفته بأنه يهودي في نسبه. كانت، مادلين أولبرايت، سفيرة البلاد لدى الأمم المتّحدة في ظل إدارة كلينتون، واحدة من أنشط الدبلوماسيين أثناء المفاوضات الحسّاسة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، والتي أسفرت عن اتفاقيّات أوسلو. إلاّ أنّها لم تعلم إلاّ في نهاية ولايتها بأنّ عائلتها، التشيكوسلوفاكية الأصل، كانت يهودية. ومثله مثل أولبرايت، اكتشف جون كيري حديثاً بأنّ جديه لوالده كانا يهوديين. حسب الظاهر، كان جدّه، المولود في النمسا في عام 1873، يُدعى فريتز كوهن واتّخذ اسم كيري في عام 1902عندما اعتنق الكاثوليكية. بعد ذلك بعام، هاجر بلاده ليقيم في بوسطن التي تزوّج فيها بامرأة كانت هي الأخرى قد انتقلت من اليهودية إلى الكاثوليكية. ومع ذلك، لم تنفعه حقيقة كونه مسيحياً لهذا، ففي نظر المسيحيين الإنجيليين، فردٌ من شعب اللّه المختار، وارتكزت استراتيجيتهم أكثر على التذكير بمعارضته للنزاع العراقي،

الذي يرمز بالنسبة إليهم إلى الحرب ضدّ الإرهاب بشكلٍ عام. أما الكاثوليك الذين كان يفترض بهم أن يكونوا الأكثر ميلاً للمطالبة به كواحدٍ منهم وللتباهي بواقع أنّه ليس سوى العضو الثاني من طائفته الذي يبلغ قمم السياسة، فهم أيضاً يكادون أن يكونوا بأسرهم منتقدين له. في مقابلة نُشرت في مجلّة Vogue في آذار 2003، كان كيري يقول: «علينا [الديمقراطيون] أن نبرهن بأننا نحن أيضاً مؤمنون ونؤدي واجباتنا الدينية».

ومع ذلك، يعاني كيري من مشكلة. فالأساقفة الكاثوليك الرومان يتحدّثون الآن عن وجوب أن يلتزم سياسيٌ كاثوليكي بعقيدة كنيسته بخصوص الإجهاض والقتل الرحيم وزواج المثليين، وكذلك بخصوص الكثير من القضايا التي تكتسي أهمية قصوى في الحملة الانتخابية الحالية. لا يصعب على جورج دبليو بوش، الذي يتودّد إلى المسيحيين الإنجيليين ويعلم أنّ قوّته تأتي من اليمين، أن يتمسّك علانية بمعارضته للإجهاض وللقتل الرحيم وللعلاقات الجنسية بين الأشخاص من نفس الجنس. في المقابل، ومع أنّه كاثوليكي، فإنّ جون كيري تقدمي وبالتالي مرغمٌ على التودّد إلى اليسار إن أراد أن يحظى بأدنى فرصة للفوز. مع ذلك، وبإقراره بتقدميّته، يألف كيري نفسه في صراعٍ مباشرٍ مع الكنيسة الكاثوليكية التي تعتبر بأنّه هو وجميع أعضائها عليهم «الالتزام المطلق بمواجهة أيّ قانون ينال من الحياة البشرية». حتى أنّ ريموند ليو بورك، مطران سانت-لويس، أدلى مؤخراً بالتصريح التالي حول المواقف السياسية لكيري: «سأكون مضطراً لاستبعاده من تناول القربان، سيمكنني أن أمنحه البركة، ولكن ليس القبول به في تناول القربان».

حينما وصل جون ف.كينيدي، أوّل رئيسٍ كاثوليكي، إلى البيت الأبيض، كان الإجهاض غير شرعي في جميع الولايات الخمسين، ولم تكن العلاقات بين الأشخاص من نفس الجنس رهاناً سياسياً. مع تطوّر التكنولوجيا العلمية وتقدّم الطبّ، الحاصلين في الستينات، وجد كيري نفسه في الموقف المزعج بوجوب أن يبدي موقفه لا من مشكلة الإجهاض فحسب بل ومن مشكلتي قطع الحمل في مرحلة متقدّمة والبحث على الخلايا الجذعية. في الواقع، صوّت كيري باستمرار

ضدّ القيود الخاصّة بالإجهاض في مرحلة متقدّمة من الحمل في ماساشوسيت، ولأنّه حتماً المرشّح الديمقراطي، حتى وان لم يُسمّى رسمياً بعد كذلك، فقد صرّح منذ الآن بأنّه سوف لن يقترح مرشّحاً (معارضاً للإجهاض) Pro Lifeللمحكمة العليا. بالتأكيد، تكمن سخرية الأمر في أنّ، مرّة أخرى، يبلغ الرياء في صفوف الذين يتباهون بإيمانٍ لا يلين درجة مرعبة. وإذا كان تشدّد المسيحيين الإنجيليين تلقّى ضربة في الثمانينات بسبب الفضائح الجنسية والمالية، فإنّ الصرامة الأخلاقية للكنيسة الكاثوليكية، التي ترفض التهاون حيال صيانة الحياة والعفّة قبل الزواج، تأثّرت أكثر بالعديد من أمور الانحراف الجنسي التي لوّثت طبقتها الخاصّة. مع ذلك وأيّاً كانت الوقائع والتصوّرات المقترنة بصورتهم الأخلاقية، فإنّ المرشَحين بوش وكيري كليهما جعلا من اللّه-كلٌّ بطريقته- رفيقهما الرئيسي على اللائحة في هذه الانتخابات. وبذلك، وعلى غرار آل غور في عام 2000، سيجد جون كيري نفسه في مواجهة منافسٍ- جورج دبليو بوش- أقام علاقة مديدة مع يسوع-المسيح. علاوة على واقع أنّها كانت الأكثر إثارة للنزاع والأكثر حرجاً في تاريخ البلاد، كانت الانتخابات السابقة أيضاً الانتخابات التي شغل فيها اللّه الحيز الأكبر خلال المائة سنة المنصرمة. إبان حملة 2000، كانت إلين كامارك، مستشارة آل غور، قد صرّحت: «هذه المرّة، سيستعيد الحزب الجمهوري اللّه من جديد». الآن، وبينما حملة 2004 على أشدّها، يؤكّد تيري ماكوليف، (رئيس اللجنة القومية الديمقراطية) Democratic National Committee : «هذه المرّة، اللّه في معسكرنا». في ظلّ ضراوة المعركة بين الأحزاب، والعبء المؤثّر للمشاكل والتنافس الغريب بين دينين لا يلينان يأتي تهديد الإرهاب الإسلامي ويُضاف إلى كلّ ذلك والذي سيحثّ، باختصار، الناخبين على اختيار المرشح الأكثر جدارة في تحرير البلاد من الخوف.

* * *

ومثلما كان الحال في انتخابات 2000، كُلِّفَ جيري فالويل من قبل الرئيس بوش بجمع أصوات اليهود والمسيحيين الإنجيليين من حول اسمه. صرّح فالويل في مقابلةٍ معه: «لقد سمح التحالف الجديد بين اليهود والمسيحيين المحافظين

بخرق الصوت اليهودي الذي كان فيما مضى ديمقراطياً على نحوٍ واسع، وبضمٍّ، وبشكلٍ خاصّ، الناخبين اليهود الشباب الذين، وبسبب مقاربتهم الأكثر محافَظَة للمشاكل، خاب أملهم من قبل البرنامج الليبرالي». قلّما تغيّرت المعتقدات التي كان يبشّر بها المحترم جيري فالويل منذ السبعينات منذ تلك الفترة. فالمسيحيّون الإنجيليون مقتنعون على الدوام بأنّ رسالة يسوع-المسيح هي وحدها تهمّ العالم المعاصر، وأنّ اللّه خلق الإنسان على كمال صورته، بالتالي، لا يمكن للإنسان أن يُنقَذَ سوى من خلال اعترافه بأنّ يسوع مات في سبيل خطاياه. حسب العقيدة الإنجيلية، الخطيئة التي تسبّبت بنقص الإنسان هي ظهوره لحظة نجح الشيطان في إفساد البشرية. إنّ سقوط الإنسان حدث في حديقة عدن، السقوط الموسوم بغياب «حالة الكمال الإلهي النقية» هذه، ولا يمكن للتكفير الوحيد الممكن عن الخطيئة الأصلية أن يتمّ سوى من خلال التضحية الصرفة المنزّهة عن أيّ خطأ التي شكّلها صلب يسوع-المسيح. ومثل المحترم جيري فالويل، يؤمن المبشرون الإنجيليون أيضاً بأنّه فقط في اللحظة التي تقرُّ فيها البشرية أجمع بأنّ يسوع مات في سبيل خطايا الإنسان، سيتمكّن المسيح من العودة إلى الأرض كمخلّصٍ، وافتداء العالم.

وإذا كانت البرامج السياسية لجورج دبليو بوش وجون كيري تختلف في جوهر قناعاتهما الدينية، فإنّ الاستراتيجيات التي يستخدمانها في الحملة لمداهنة اليمين المسيحي متشابهة للغاية، لاسيما في ولايات الجنوب. يشير المحللون السياسيون إلى أنّ الجدل حول المعتقدات الدينية هو رهانٌ جوهري لاستدراج ناخبي تلك المنطقة. إن عدد أولئك الذين يعتبرون بأنّه لا ينبغي الفصل بين السياسة والدين يتزايد فعلياً. حسب استطلاع لشبكة ABC وصحيفة واشنطن بوست نشر في كانون الثاني 2004، يعتقد 48% من سكان الجنوب أنّه على الرئيس أن يبني خياراته السياسية على قناعاته الدينية، مقابل 40% على المستوى الوطني و28% للشرق. الدعم السياسي الأساسي لبوش يوجد في الجنوب. ولذلك، ما فوق خط مازون-ديكسون، ينضمّ الجمهوريون، بخلاف أترابهم في الشمال الشرقي، إلى العقيدة السياسية للسيد بوش. هذه العقيدة تلقى شعبية في الجنوب

لأنّها، حسب تعريفٍ دقيقٍ للغاية أعطي لها، تمزج بين «ثلاث تقاليد قديمة لمنطقة ديكسون، وهي النزعة العسكرية والأصولية البروتستانتية والعنصرية». حسب مايكل ليند، يؤلّف البيض في الجنوب «أساس الثقافة العسكرية الأقوى في الولايات المتحدة وكذلك الأكاديميات العسكرية منتشرة في الجنوب كما هي كليات العلوم الإنسانية في انكلترا الجديدة. من الصراع الخفّي لعام 1798 مع فرنسا إلى حرب فيتنام، من حرب الخليج الأولى إلى المبادرة الراهنة للمشاركة في المعركة، دعم الجنوب جميع العمليات العسكرية التي قامت البلاد بها، مهما كان السبب، وأيّاً كان الخصم».

في استطلاعٍ لمؤسسة غالوب أجري في آب 2003، ظهر أنّ 95% من سكان الجنوب كانوا مؤيدين لغزو العراق، في حين أن، في استطلاع مماثل أجري في باقي مناطق البلاد، 45% فقط من الأشخاص الذين سئلوا كانوا يؤيّدون الحرب ضدّ ذلك البلد. لا ريب أنّ بوش قد أغرى هذه المنطقة من الولايات المتّحدة، الحائزة، قبلاً، على حق حمل السلاح وعلى شعائر البسالة والبطولة والاستحسان وتمجيد العمل العسكري، والمعارضة للإجهاض ولكلّ التطورات العلمية الأخرى المتعلّقة باستخدام وإتلاف الأجنّة لأغراضٍ تجريبية. ولكن انتصاره الأكبر يتمثّل في دفعه للمشاكل الأثيرة لدى المحافظين المتدينين، والتي لا تزال هامشية حتى الآن، إلى صدارة المشهد السياسي. إذاً لكون الجنوب منطقة حساسة من حيث المبدأ بالنسبة إلى جون كيري، فمن الطبيعي أن يكون قد اختار كنائبٍ له على القائمة سيناتور كارولينا الشمالية، جون ادواردز. فخلال الانتخابات العامّة الأخيرة، ظلّ الجنوب معضلة للديمقراطيين، واستطاع جون كيري، أثناء الانتخابات التمهيدية، أن يثبت بأنّ جون ادواردز، خصمه آنذاك، كان، كمتحدّرٍ بأصله من تلك المنطقة، يمتلك رؤية واقعية للمسألة، مثلما أظهر ذلك تدخّله في كنيسة أفرو-أمريكية في كولومبيا بكارولينا الجنوبية. كان لا بدّ لادواردز، في تلك المناسبة، متوجّهاً إلى المئات من سكان الخورنية، أن يقول: «في بيت الربّ هذا، نحن نعلم بأنّ السلطة التي يمكننا الاعتماد عليها هي بحوزة الله والمسيح. ولكن السلطة موجودة أيضاً في هذه الدنيا، على هذه الأرض التي

خلقها اللّه. تذكّروا أن يسوع قد قال: «ادفعوا، إذاً، ما لقيصر لقيصر، ومااللّه للّه»»، في إسنادٍ إلى عظة الربّ بخصوص الفصل بين ما هو ديني وما هو دنيوي. وتابع ادواردز: «في الظروف السياسية التي نمرّ بها، هناك سلطة أخرى، سلطة ليست لا بعظمة ولا بقوة سلطة يسوع، ولكنّها سلطة لها أهمية في عالم السياسة وعالم القيصر».

لقد أحسن جون كيري الاختيار. فقد أدرك جون ادواردز بأن السياسة تشتمل التسوية بعد الآن على الوقوف عند المسائل التي تحظى بالأولوية على سواها. اليوم، الأولوية هي الكلمة/المفتاح للسياسية الأمريكية، لعدم الخلط مع التسوية. الفرق بين الكلمتين، لا أحد يدركه أفضل من اليمين المسيحي أو هؤلاء المنطلقين في السباق الحالي إلى رئاسة ونيابة رئاسة الولايات المتّحدة.

منذ عقود، يشكّل المسيحيون الإنجيليون بأكملهم جماعة ضغطٍ ويتظاهرون ويعارضون العدالة بشأن كلِّ المسائل الأخلاقية التي كانت ولا تزال القاعدة المتينة لحركتهم. حتى الآن، غالباً لم تنجح جهودهم لتمرير قوانين تشرعن الصلاة في المدرسة، وتحظر الإجهاض أو تسوّي نقاطَ خلافٍ لصالحهم. بالمقابل، نجحوا في انتخاب سياسيين ينتمون إلى قيمهم مع، سيطرة جمهورية، بالنتيجة، على مجلسي الشيوخ والنواب ومحكمة عليا تتّسم باليمينية وطبعاً رجلٍ في البيت الأبيض يشاطرهم معتقداتهم ومحاطٌ بمستشارين وموالين يحرصون على ألاّ تتزعزع هذه المعتقدات. بيد أنّ انتخاب مرشّحين مؤيدين لليمين المسيحي ليس سوى نصف انتصار. بل يجب أن يفرض هؤلاء المرشحون القوانين التي تلبّي رغبات هذا اليمين، الأمر الذي لا يكون تلقائياً ولا مؤكّداً سلفاً.

أمّا السياسيون والمرشحون العلمانيون، فهم يعلمون، أيّاً كان الالتزام الذي يتّخذونه في برامجهم الليبرالية، بحماية حقوق جميع المواطنين، بأنّه لابدّ لهم من مداهنة اليمين المسيحي والتمسّك على نحوٍ واضحٍ بعلاقتهم الخاصّة مع اللّه إن أرادوا أن يحظوا بأدنى فرصة لانتخابهم. كما أنّهم يعلمون أنّ فرض برنامجٍ إنجيليٍّ، على عموم البلاد، له قوة القانون سوف يوقع حزبهم في الفوضى.

ومع أنّها تُطبخ على نارٍ هادئة في قدر المسيحيين الإنجيليين منذ عقود، فقد

فرضت فكرة أنّ على الأولوية أن تنتصر على التسوية نفسها على عموم المسرح السياسي. ولكن انتقالها من اليمين المسيحي إلى اليسار حديث العهد.

منذ بعض الوقت كان اليمين المسيحي يعتقد أنّ التسوية على جزءٍ من قناعاته الاجتماعية والأخلاقية والتركيز على تلك القابلة لأن تُؤخَذَ بعين الاعتبار من قبل المشرعين كان من شأنهما أن يؤمّنا له مساندة قطاعٍ من علمانيي البلاد. ولم يحصل إلاّ بعد تحقيق كل أمانيهم السياسية بانتخاب واحدٍ منهم للرئاسة - جورج دبليو بوش- أن أدركت أوساط اليمين بأن تغيير القانون لا يتبع ذلك تلقائياً وأنّهم من خلال إيلاء الأولوية لمعتقداتهم الدينية سوف ينالون على الأقلّ ضمان رؤية بعض آمالهم تتحقّق.

يمكن لمأساة الحادي عشر من أيلول أن تُعتَبر أيضاً بشكلٍ ما كنقطة إيجابية لليمين المسيحي. فقد عدّل هذا الحدث جوٌّ البلاد في جزءٍ كبيرٍ منه. بعد الآن، سيسود التشدّد والدين وسيكونان مقبولين، بدلاً من أن يُنظَر إليهما باحتقار أو ببساطة ينسبان لمجموعة من المتشددين دينياً المخبولين. كما أثارت هجمات الحادي عشر من أيلول الذكريات الأليمة عن أزمة رهائن 1979، وأُريدَ، استعادياً، أن يُرى فيها الإشارة المنذرة بهذه المأساة المرعبة. فجأة، أدرك اليمين المسيحي بأنّه كان من الممكن تغيير ذهنية أمريكا ونسيجها انطلاقاً من وقائع أخرى تأويلها ثابت للكتاب المقدّس وللعقيدة التي بموجبها لا يمكن أن يكون الكلام الإلهي محلّ نزاعٍ أو تأويل. باستغلالهم لخوف الأمريكيين من تهديدٍ إرهابيٍّ خارجي، تمكّن المسيحيون الإنجيليون من إرغام الناس على جعل الأمن القومي أولوية أكثر أهمية من القوانين المعارضة للإجهاض أو المؤيّدة لإقامة الصلاة في المدرسة. كان ذلك رهاناً من جانبهم أقلّ ما يكون حكماً سهلاً بافتراض أنّ كلّ الأمريكيين كانوا مستعدّين لوضع أمنهم الخاصّ أمام بعض الحريات المدنية التي قد تتعرّض للخطر من قبل بعض القوانين في المستقبل البعيد.

بالنسبة للأمريكيين جميعهم، متدينين أو غير متدينين، ديمقراطيين أو جمهوريين، الخطر المباشر هو الإرهاب، وبالتالي، الرهان الأهمّ الذي

سيصوّتون عليه، هو الأمن القومي. بسبب تعميم هذه الحالة النفسية في البلاد، كان من المتوقّع أن الديمقراطيين بدورهم سيمنحون الأفضلية للأولوية على حساب التسوية. فجأةً، اتّخذ الإجهاض والصلاة في المدرسة وكلّ القضايا الأخلاقية الأخرى مظهراً تجريدياً أكثر مقارنة مع خطر الموت والهلاك على أبواب أمريكا الواقعي للغاية. بعد الآن، وأيّاً كان حزبهم، ينتظر الناخبون من المرشحين أن يولوا الأولوية للأمن القومي بينما قضايا مثل الاقتصاد والبطالة والصحّة والضمان الاجتماعي هي من الانشغالات التابعة للحقوق المثبّتة وغير القابلة للتصرّف لجميع المواطنين. يدرك جميع السياسيين بأنّه من غير الممكن أبداً التراجع عن هذه الحقوق. بيد أنّ العنصر الجديد الذي نتج عن إيلاء الأولوية للأمن القومي، هو اللّه، ويتحسّب الأمريكيون جميعهم، حتى الذين لا يؤمنون باللّه، لأن يشكّل اللّه جزءاً من فريق مرشّحٍ.

بالنسبة للمسيحيين الإنجيليين، اللّه هو الشرط الأوّلي لأيّ أمنٍ لأمريكا. أمّا العلمانيون فيعتبرون أنّ اللّه هو ضمانٌ إضافي لتستمرّ أمريكا في الوجود. بالنسبة للمعسكرين، لم يعد اللّه فكرة أو عقيدة تقسّم البلاد بما أنّ الأمريكيين قد دمجوا حقيقة أنّ عدوّهم يستخدم إلهه الخاصّ في محاولة هدم نفس هذه القيم اليهودية-المسيحية التي أُسّست عليها الأمّة. والنتيجة هي: فيما عدا استثناءات نادرة، قلّما يوجد فارق بين الخطابات السياسية للديمقراطيين والجمهوريين في الحملة الانتخابية الرئاسية الحالية.

بمواقفه الدينية، يمثّل جون ادواردز في آنٍ واحدٍ ملايين الأمريكيين الذين يؤمنون بالقيم المسيحية وأولئك الذين يطالبون بالفصل بين الكنيسة والدولة. بالنتيجة، السيناتور قادر على التأثير في كلتا هاتين المجموعتين، الأمر الذي يشكّل ورقة رابحة حيوية لرأس القائمة في السباق إلى الرئاسة، جون كيري. يُضاف إلى ذلك أن كيري، المنحدر من أسرة راقية في بوسطن، والمتعلّم في المدارس الخاصّة، والذي وقف القدر إلى جانبه، يحتاج إلى شريكٍ يوازن المسلك المتكبّر والصعب على نحوٍ غامضٍ لشخصيته. في حين أنّ جون ادواردز، على العكس من ذلك، جذاب ولديه روح شبابية وأساليب صادقة، وقد وِلِدَ في

عائلة كادحة من الجنوب، وهو، من بين جميع الطامعين إلى الرئاسة أو نيابة الرئاسة، أكثر من يتقرّب إلى المواطن الأمريكي العادي. ثمّة سمة أخرى تجعله أكثر جاذبية عند سكان الجنوب وعند أولئك الذي باتوا يشكّلون أغلبية كبيرة في المعسكرين الديمقراطي والجمهوري: لا يخفي ادواردز بأنّه قد وِلد في عائلة معمدانية، وبأنّه عمّدَ في كنيسة معمدانية في الجنوب ولم يصبح منهجياً (ميدوديست) إلاّ بعد قرانه بزوجته اليزابيت عام 1977. حول هذه النقطة، يتعادل وجورج دبليو بوش، إذ أنّهما عضوان من رعايا الأبرشية المنهجية، الأمر الذي يعني أن مراتب هذه الطائفة البروتستانتية لا تستطيع أن تطرح للمناقشة أوصافهم الدينية الخاصّة. للوهلة الأولى، تكون الطريقة التي يقارب كلٌّ منهما بها الإيمان مختلفة. كان ادواردز على الدوام كتوماً حيال معتقداته في حين أن جورج دبليو بوش استغل، طيلة فترة عمله، إيمانه لتسجيل النقاط وتخزين الأصوات. ويفضّل ادواردز، الأكثر «تحفّظاً» حيال الدين وإيمانه الشخصي، إبداء رأيه حول اللامساواة والمعيار المزدوج السائد في أمريكا، وحول رغبته في مساعدة الفقراء للحصول على نفس الامتيازات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي يحظى بها الأثرياء. وهذا موضوع مألوف لديه لأنّه أدرك تماماً الهوّة التي تفصل بين نصفَي المجتمع الأمريكي.

لدى ادواردز كل ما يلزم لكي يتوجّه إلى الهامشيين والعاطلين عن العمل لأنّ والده كان يعمل في معملٍ في روبينس بكارولينا الشمالية، المدينة الجنوبية الصغيرة التي كانت غالبية سكانها يكدّون لساعاتٍ طويلة في مصنعٍ للنسيج. كما يمكن لجون ادواردز أن يتباهى بكونه أوّل مَن دخل الجامعة من بين أفراد عائلته، حيث كان من الطلبة المميّزين في كلية القانون فيها. ولأنّه لا يرغب في إدارة ظهره لجذوره المتواضعة ومدركٌ باستمرار للتفاوت بين الأثرياء والفقراء في الولايات المتّحدة، كرّس كلّ عمله لمساعدة الأسر الشبيهة بأسرته التي غالباً ما تكون ضحايا شركات التأمين والمحامين المقتدرة. يصفه الجمهوريون، اليوم، على سبيل السخرية بـ «مطارد سيارات الإسعاف» لأنّ مكتبه للمحاماة كان مختصّاً بقضايا الأضرار الجسدية. يبقى أنّه يُعتَبَر ويُعرَف في الجنوب كرجلٍ اهتمّ بالفقراء

وبضحايا المعيار الاجتماعي المزدوج. مع ذلك، هناك لحظة حيث لم يشغل مصير المعدمين المكانة الأولى في حياته. ففي عام 1996، وقعت عليه المصيبة بغياب نجله البكر، واد، الذي قُتِل في حادثٍ سيرٍ أرعن. ومثلما وجب عليه، اقتحم الإيمان حينها من جديد حياته، وكملايين الأمريكيين الذين توجّهوا فطرياً إلى اللّه والمنطقة خلال اللحظات العصيبة، انضمّ إلى صفوف المسيحيين الخلاصيين.

في عام 1998، ترشّح جون ادواردز إلى انتخابات مجلس الشيوخ في كارولينا الشمالية وفاز بها بسبب برنامج منصبٍّ على تحسين النظام الصحّي والنظام المدرسي وعلى حماية الحريات المدنية، ولكن بشكلٍ خاصّ لأنّه كشف لناخبي هذه الولاية تجربته كمسيحيٍّ خلاصيّ. كان الأمر يتعلّق هنا بتحوّلٍ في حياته الخاصّة بقدر ما في حياته السياسية. في الواقع، لم يكن بوسع جون كيري أن يعثر على رفيقٍ في القائمة ممثّلاً لأفضل الأوراق الرابحة سوى بهذا المزيج الفريد من الوعي الاجتماعي والدين. يرى المسيحيّون الإنجيليون في ادواردز واحداً منهم ونتاجاً جنوبياً ديمقراطياً محافظاً، وان كان شعبياً. بالنسبة للعلمانيين يتفوّق عزمه في حماية الفقراء وأبناء الطبقة الوسطى على انتمائه إلى الإنجيلية.

«... في حياتي الشخصية، لعب الإيمان دوراً جوهرياً، وبالتأكيد لحياتي الشخصية أثرٌ حاسمٌ وقويّ على حياتي السياسية»، هكذا صرّح، في كانون الأول 2003، السيناتور ادواردز، الذي كان حينها مرشّحاً لترشيح الحزب الديمقراطي للانتخابات الرئاسية. إذاً، كان ادواردز يعلم، مثلما علِمَ طيلة حياته المهنية السياسية، ومثلما اكتشف كلّ من دخل المجال السياسي، أنّه لابدّ للّه وللدين أن يكونا محور الخطاب لكلِّ مرشّح يريد الفوز. «أعتقد أن اللّه يستجيب للصلوات»، صرّح ادواردز لصحيفة واشنطن بوست في 7 آب 2001. وفي 28 كانون الأوّل 2003، خلال توقّفٍ له أثناء حملته في سيدني بارك في كارولينا الجنوبية، قال: «أنتم تعلمون أنّ الربّ موجودٌ هنا». ومع ذلل، كان الصوت الإنجيلي بعيداً عن أن يكون في متناوله لأنّ جون ادواردز يؤيّد الإجهاض، الموقف الذي لا يتهاون معه اليمين المسيحي الذي ينعت الآن قائمة الجونَين كيري وادواردز بالقائمة

«المناصرة للإجهاض». الأخطر في الأمر بالنسبة للطائفة الإنجيلية هو أنّ جورج ادواردز صوّت لصالح السماح بالإجهاض «في مرحلة متقدّمة من الحَمل»، وهذه واحدة من المسائل الأكثر تعقيداً في الحملة الحالية. بالمقابل، صوّت ادواردز لصالح القانون الوطني لمكافحة الإرهاب Patriot Act، ولصالح غزو العراق. ومع ذلك، اتّهم جون آشكروفت بـ «قضم الحريات المدنية بذريعة حماية أمريكا». في حزيران 2000، صوّت جون ادواردز لصالح توسيع تعريف «جريمة الكراهية» ليشتمل على الميول الجنسية، ولكنه أبدى معارضته للزواج اللوطي.

وفي بادرة جلية حيال ناخبيه في الجنوب، صوّت لصالح عقوبة الإعدام ولكنّه أيضاً صوّت لصالح حق حمل السلاح، وهو ما كان يخالف تماماً موقف أيّ ديمقراطيٍّ تقدّمي.

علاوة على هذه المواقف المتناقضة من العديد من القضايا، الورقة الرابحة الأهمّ لادواردز في الصفّ الديمقراطي هي بلا أدنى شكّ حقيقة أنّ فهمه للأولويات، من جهتي المسرح السياسي، لا مأخذ عليه. أكثر حتى من كيري، يعلم ادواردز أنّ الأولويات في أمريكا قد تبدّلت في هذه الحقبة الاستثنائية حيث يكاد الخوف من الإرهاب يتقدّم على كلّ اعتبارٍ آخر. تأييد الإجهاض لم يفعل سوى صبّ المياه في طاحونة الحملة الإعلامية التي يشنّها اليمين المسيحي، في حين أنّ معارضة مراقبة حمل السلاح ستخلق بل شك انشقاقات في صفوف الديمقراطيين. بيد أنّ جون ادواردز، بتأييده القانون الوطني وغزو العراق، وبقوله للناس أنّ اللّه إلى جانبهم حينما يتعلّق الأمر بضمان حُرمة البلاد، يقف على قدم المساواة مع خصومه الجمهوريين.

اليوم في أمريكا، تبدأ علامة الربط هذه بالإيمان العميق باللّه وتنتهي بالالتزام العميق أيضاً بحماية البلاد من آفة الهجمات الإرهابية الإسلامية. في الحالتين، الانشغال بالأمن القومي بالنسبة للمعسكرين أولوية لا تترك أيّ مكانٍ للتسوية.

خلال حملة عام 2000، ومن ثم مباشرة بعد «خطابه حول حالة الاتّحاد» في كانون الثاني 2004، سُئِلَ جورج دبليو بوش عمّن كان الفيلسوف السياسي الذي كان أكثر إعجاباً به، فكان ردّه: «المسيح، لأنّه غيّر حياتي». أثناء مقابلة

خصّني بها بعد انتخابه مباشرة، في مزرعته في كراوفورد بتكساس، ذكر بالنّص السؤال الوجودي المدوّن على سوارٍ خاصٍ يضعه الآلاف من الشبّان المسيحيين في معاصمهم: WWJD (What Would Jesus do?: ماذا سيفعل يسوع؟)، قبل أن يقول: «الإيمان محور حياتي». كلّما اقتربت انتخابات 2004، ظلّ جورج دبليو بوش يؤكّد بأنّ اللّه قد أخبره مباشرةً بأنّه هو الأثير عند جلاله لرئاسة الولايات المتّحدة، فقد صرّح في كانون الأول 2003: «لقد اختارني اللّه لكي أكمل هذه المهمّة للأمريكيين جميعاً، ديمقراطيين كانوا أم جمهوريين، مسيحيين كانوا أم يهود، في المحصلة أنا في عُهدةِ جلاله». في كانون الثاني 2004، أضاف الرئيس بوش: «أعتقد أّن اللّه يعلم بأنني فعلت أفضل ما لدي، ولكن فقط لأنني سلّمتُ قيادي ليسوع- المسيح».

25

زلزال الحادي عشر من أيلول

عام 1992، بعد انتخاب بيل كلينتون رئيساً للولايات المتّحدة، شاهد اليمين المسيحي تأثيره الروحي والمالي ينخفض إلى أدنى درجاته. وإذا كان المسيحيّون الإنجيليّون مقتنعين بأن الإبليس شخصيّاً قد جاء يقيم في البيت الأبيض فإنّ الأغلبية الساحقة من السكّان، ولاسيما أبناء الطبقة المرفّهة، رأوا في كلينتون واحداً من ذويهم وأعجبوا بجانبه الشابّ والطموح والمرح. ثمّ كانت هناك زوجته هيلاري، السيّدة الأولى للبلاد، التي كانت ماهرة ومتحرّرة ومستقلّة، نجحت بوسائلها الخاصّة في أن تحجز لنفسها مكاناً تحت الشمس. مع ذلك، كانت السيّدة كلينتون بالنسبة لليمين المسيحي نقيض الزوجة الصالحة والأم الفاضلة. وأكثر من أيّ وقتٍ مضى، بذل اليمين المسيحي كلّ طاقاته سعياً لإعادة أمريكا إلى المعايير الأخلاقية المحدّدة بعد قضية الرهائن في عام 1979 وانتخاب رونالد ريغان الذي أشرف على انهيار الإمبراطورية السوڤيتية الكافرة. مثلما صرّح جيري فالويل مؤخّراً: «في المحصلّة، كان لهذه الأحداث المسؤومة، وصول كلينتون إلى البيت الأبيض على سبيل المثال، تأثيرٌ صحيّ، اليقظة الروحية لشبابنا الذين أجّج اللّه مشاعرهم والمتحرّقين رغبة في تغيير أمريكا». حتّى حينما ضمن كلينتون من خلال الاستطلاعات شعبية واسعة، لم يتحرّج جيري فالويل، فقال: «لم ينشغل يسوع المسيح قط بالاستطلاعات ولا بالشعبية. كان اهتمامه الوحيد الظفر برضا اللّه. والحال أنّ كلينتون لا يحظى برضا الرّبّ!»

مرّة أخرى، أحداث الشرق الأوسط حدّدت المناخ في الولايات المتّحدة انطلاقاً من عام 1996، حين كان شيمون بيرس رئيساً لوزراء إسرائيل بعد اغتيال

إسحاق رابين. حينها أعلن Third International Christian Zionist Congress المؤتمر العالمي الثالث للصهاينة المسيحيين) : «حقائق اللّه مطلقة ومكتوبٌ أنّ الأرض التي وعد جلاله شعبه بها لن تُقسّم... سترتكب الأمم خطأً إضافيّاً باعترافها بدولة فلسطينية على أيّ جزءٍ من (ايريتز) Eretz إسرائيل». بعد ذلك بفترة قصيرة، حينما هزم نتنياهو بيرس في انتخابات 1996، نشرت السفارة المسيحية الدولية في القدس تحقيقاً يُظهر أنّ أغلبية المسيحيين في إسرائيل وفي الأراضي المحتلّة- من موارنة وكاثوليك وأشوريين وأقباط وأرمن وإنجيليّين- كانوا يساندون نتنياهو لأنّه كان ضدّ المسلمين. والغريب أنّ ذلك التحقيق أشار أيضاً إلى أنّ ثلاثين ألف مسيحياً كانوا قد صوّتوا لصالح، نتنياهو وهو ما كان يشكل بالضبط العدد الذي أتاح له الفوز. كان لدى المسيحيين الإنجيليين ذاكرةٌ، وكان نتنياهو قد حظي، منذ أكثر من عقدٍ من الزمان، بمحبّتهم.

في عام 1987، اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الأولى، الانتفاضة التي كانت ستهزّ السكان الإسرائيليين. حينها، شرعت الجالية اليهودية الأمريكية في النظر في فكرة «الأرض مقابل السلام» وبالتالي، قيام دولة فلسطينية في الضفّة الغربية لنهر الأردن وفي غزّة.

حينما أُعيد انتخاب كلينتون في عام 1996، كان فالويل قد أسّس قبل ذلك اللجنة القومية The National Committee، بمنبرها المخصّص ليقظة وإعلام وتعبئة المحافظين الدينيين لمواجهة «الانحلال الأخلاقي والروحي للأمّة». تحت رعاية اللجنة القومية، جاب فالويل البلاد لتنظيم تجمّعات وطنية ملهمة، حول موضوع «يحافظ اللّه على أمريكا». في الوقت ذاته، أصدر النشرة الشهرية National Liberty Journal، التي يقرأها أكثر من 250 ألف زعيماً دينياً والتي كانت تهدف إلى تحذير وإعلام العناصر المحافظة والمتديّنة في أمريكا من الرأي المبتسر «لوسائل الإعلام التقدميّة» التي كانت تشجّع على التخلّي عن القيم التقليدية العظيمة. فجأةً، استطاع المسيحيّون الإنجيليّون الذين كانوا يبشّرون بالقيم المسيحية، يساندهم الكتاب المقدّس، ويساندون فكرة دولة وحيدة في الشرق الأوسط، أن يتأكّدوا، عياناً، بأنّ يسوع كان رمز الخير، بينما كان

Allah اللّه(*)) يجسّد الشرّ كلّه.

في أيلول 2000، اندلعت الانتفاضة الثانية في كامل الضفّة الغربية وقطاع غزّة. وبرّرت الهجمات الانتحارية للإرهابيين الفلسطينيين بالقرآن الذي يجعل من الواجب على المسلمين أجمعين -رجالاً ونساءً وأطفال- تحرير أرضهم. واستمرّت المفاوضات برعاية الولايات المتّحدة دون أن تسفر عن أيّ شيء، وقدّمت تنازلات عن أراضٍ ورُفِضَت وبوحِثت بينما كانت المجزرة تستمر ورفض المستوطنون اليهود الأرثوذكس المتطرّفون، المدعومين بشكلٍ أساسيٍّ من قبل المسيحيين الإنجيليين، التنازلَ عن شبرٍ واحدٍ من الأرض اليهودية مستمدّين حججهم من العهد القديم. بانخراط المسيحيين الإنجيليين وحضورهم المادّي في الأرض المقدّسة، اتّخذ الصراع بعداً دينيّاً إضافياً يعيق إنشاء دولة فلسطينية. كما أنّهم ساهموا، دون أن يشاءوا ذلك، في إسقاط الوسيلة الوحيدة التي كانت بحوزة إسرائيل لتستمرّ في الوجود كأمّة ديمقراطية، أي قيام دولة فلسطينية. ومن المفارقة التأكّد من أنّ الدين، على الرغم من الإدّعاء بتحسين مصير البشر وتشجيع السلام والانسجام في العالم، كان في أكثر من مرّة أداةً للعنف وأيّد العنصرية والدمار.

* * *

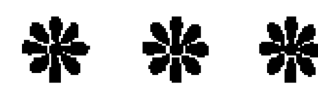
عند منعطف القرن، أصبحت الطائفة الإنجيلية منظّمة على نحو متزايد وتمسّكت بتحويل إيديولجيتها إلى حركة سياسية قويّة، قابلة لأن تؤثّر باختصار على نتيجة انتخابات رئاسية. لنقول الأمور بصلفٍ، لم يكن ينقصهم لتفعيل تلك الديناميكية سوى كارثة أخرى شبيهة باحتجاز الرهائن عام 1979، والتي يمكن أن تُفسّر كرسالة من اللّه ذاته.

بعد عامٍ على بداية الألفية الثالثة، في 11 أيلول 2001، وقع ما وقع، وتسبب الأصوليّون الولايات المتّحدة، في موت أكثر من ثلاثة آلاف شخص، مثيرين بذلك نهضة جهادية بدأت بالتسرّب رويداً رويداً إلى وعي الشعب

(*) المقصود إله المسلمين.

الأمريكي. كان أوان الحساب قد آن. بخلاف أسلافهم في السبعينات والثمانينات، كان الجيل الجديد من قيادات المسيحيين مهيأً لتعبئة لا أنصارهم فحسب بل علمانيي البلاد أيضاً. بين أعوام 1979 و2001، كان لديهم الوقت لإعادة تنظيم صفوفهم وإعادة تحديد مقاربتهم في سبيل إنقاذ أكبر عددٍ ممكن من الأرواح، وخاصة تلك التي لم تبلغ بعد مملكة السموات. لم يعد بإمكان الإنجيليين الجدد المفعمين بالثقة والمثقّفين والمتكلّفين والحاسمين أن يكونوا أسرى مبشّرين جشعين يجرجرون كتابهم المقدّس على الدروب. غالباً ما كان المقصود شخصيات محترمة لها مكانتها المرموقة في المجتمع وأكثر مهارة بكثير في الحصول على المساعدات، وسط طائفتهم الخاصّة وفي الأوساط اليهودية، للعمل معاً من أجل إنقاذ الديمقراطية، وفوق كلّ شيء، في الحفاظ على القيم اليهودية-المسيحية.

بينما كانت أعمدة الدخان تتصاعد من مركز التجارة العالمي والبنتاغون، كان اليمين المسيحي يُبعَث من رماده بغية الانطلاق إلى غزو السلطة السياسية.



بعد الحادي عشر من أيلول 2001، وبينما كان الانفعال في أوجّه وكانت الأمّة برمّتها في حالة صدمة وتتألّم نفسيّاً، حتى المواطن الأمريكي العادي العلماني انتهى إلى القبول بفكرة أنّ أمريكا كانت تجد نفسها منخرطة في حربٍ مقدّسة لم تكن تريدها. وإذا كانت سنة 1979 شكّلت بالنسبة للمسيحيين الإنجيليين بداية الحرب الصليبية الأخيرة، فقد جاء الحادي عشر من أيلول ليؤكّد أنّ آفة الإسلام لم تكن قد قُهِرَت بعد من قبل قوى الخير.

بعد الهجمات الإرهابية ضدّ الولايات المتّحدة عبّأ المسيحيون الإنجيليون قواهم من جديد للضغط على السياسة الأمريكية بغية إنقاذ العالم المسيحي من خطر المتشددين الإسلاميين. علاوة على ذلك، حرّف المسيحيون الإنجيليون معتقداتهم بتأكيدهم أن الوضع الناشئ في الشرق الأوسط من خلال الهجمات الإرهابية التي تستهدف الإسرائيليين والهجمات الإرهابية الأخرى ضدّ المنشآت والرعايا الأمريكيين في الخارج كان يستلزم إعادة النظر في العديد من المراجع

المستوحاة من الكتاب المقدّس من وجهة نظر جديدة وبتحديدٍ جديد. بالنسبة لليمين الديني، كان الوقت قد حان لجعل التحالف بين اللّه وإبراهيم بشأن إسرائيل والشعب اليهودي حقيقةً وواقعاً. فمن وجهة نظرهم، لن يكون بمقدور هذا الميثاق أن يُكتَب في لحظة أفضل من لحظة إعلان الإسلام الحرب على المسيحية والديمقراطية. وكذلك لم يكن من الممكن له أن يُكتَب لمجموعة تستحقّ شرفه غير المسيحيين الخلاصيين. فكان هؤلاء يعتبرون أنّ لهم الحقّ، من خلال الإرشاد ومن خلال المهمّة الشخصية، التصرّف باسم العالم اليهودي-المسيحي. الأخطر من ذلك، هو أنّ، علاوة على المسيحيين الإنجيليين، سكان الولايات المتّحدة بدؤوا يرون تماثلاً بين العمل الذي يقوم به الإسرائيليون ضدّ مرتكبي الهجمات الانتحارية الفلسطينيين وقتال الأمريكيين ضدّ تنظيم القاعدة.

إذا كانت سنة 1979 العاصفة قد دفعت الأمريكيين للانضواء تحت جناح الرّبّ، فإنّ سنة 2001 كانت الزلزال الأخلاقي الذي جعلهم يدركون بأنّ الربّ بنفسه كان مهدّداً من قبل التماميّين الإسلاميين. «لنعد إلى الكتاب المقدّس» كانت تلك هي الرسالة التي كانت تسري في صفوف المسيحيين الإنجيليين، ولم يكن هناك ما هو أكثر إلحاحاً من استحضار أهمية الميثاق الإبراهيمي بخصوص أرض إسرائيل. مثلما أكّد المحترم جيري فالويل ذلك: «بالنسبة للمسيحيين الإنجيليين، تُعتَبر القدس قُفل الباب الذي ينفذ على المستقبل، في حين أنّ إسرائيل هي علبة معجون الإرهاب، الأرض التجريبية للمناهج التي ستُصدّر فيما بعد إلى بقية العالم». عبّر كلارانس ڤاغنر، الذي يدير منظمة جسور السلام في القدس، عن نفس الفكرة بعبارات أكثر مجازية حينما صرّح: «إسرائيل مثل طائر الكناري في قفص. حينما يتوقف الكناري عن التغريد، هذا يعني أنّ هناك سمٌّ في الهواء. إسرائيل مركزٌ متقدّمٌ لحربنا ضدّ الإرهاب».

كان الاستثناء الوحيد عن هذا التيار الفكري، فلنذكر ذلك، الكنيسة البروتستانية التقليدية التي كانت عقيدتها تستند على لاهوت التحرير.

في نيسان 2002، تبنّت (The Council of Churches Communications Committee لجنة الاتّصال لمجلس الكنائس)، بالتعاون مع منظمتين مسيحيتين

بروتستانتيتين تقليديتين أخريين، ما أسمته «قانون السلوك الحسن» لتغطية النزاع الإسرائيلي-الفلسطيني. كانت رسالته واضحة: لا ينبغي أن تُقارن هجمات الإسلاميين التاميين ضدّ الولايات المتّحدة بالهجمات الانتحارية المرتكبة من قبل الفلسطينيين ضدّ الإسرائيليين، لأنّ هذه الهجمات كانت ردّ فعلٍ على الاحتلال وبالتالي يجب أن تُعتَبَر أعمالاً ثورية مشروعة. طالب مجلس الكنائس الصحافيين بأن يُظهروا «توازناً وموضوعيةً ووضوحاً» بخصوص الصور التي تُعرَض في التلفاز وفي الصحف، وحذّر الصحافيين من استخدام عبارات مميتة، في حديثهم على النزاع، من قبيل: «مُطلقو النار والإرهابيون ورُماة القنابل الإسلاميون، والمسلمون المتعصّبون».

غير أنّ المسيحيين الإنجيليين لم ينضمّوا إلى وجهة النظر تلك، الأمر الذي كان عزاءً كبيراً للطائفة اليهودية في الولايات المتّحدة كما في إسرائيل. أعلنوا أنّ الإرهابيين الإسلاميين الذين هاجموا أمريكا في الحادي عشر من أيلول 2002، كانوا من نفس طراز الجماعات الفلسطينية الراديكالية التي كانت تهاجم الإسرائيليين داخل حدودهم مثلما في الضفّة وغزّة. ومثلما كان من المنتظَر، لم يساهم الموقف المعتمَد من قبل الطائفة البروتستانتية التقليدية سوى في ترسيخ العلاقات بين المسيحيين الإنجيليين والسكان اليهود لأمريكا ولإسرائيل. كعقابٍ أليمٍ للحلفاء، شجّع اليهود الدعم السياسي والمالي للمسيحيين الإنجيليين بقدر ما كانَ اليمين المسيحي يعارض أيّ اتفاقٍ للسلام يقضي بإقامة دولة للفلسطينيين.

كان لابدّ للغضب والحداد اللذين تسبّبت بهما هجمات الحادي عشر من أيلول أن يسرعا الخطى نحو نزعة وطنية مستمدّة من الكتاب المقدّس استعادها اليمين الديني بنفس المهارة التي كان قد أبداها حينما كانت الشيوعية «الكافرة» تهدّد الحضارة المسيحية. كانت رسالته بسيطة ومترابطة: حبُّ الوطن من محبّة اللّه وكلّ الضرر الذي لحِق بالبشرية في الدنيا هو النتيجة المنطقية للنبوءات الواردة في الكتاب المقدّس. منذ الحادي عشر من أيلول 2001، تنظّم الكنائس والمنتديات الإنجيلية في البلاد برمّتها مؤتمرات وتبيع كتباً تنتقد الإسلام. علاوة على ذلك، وضعوا استراتيجيات لتنصير المسلمين. يعتبر المسيحيّون الإنجيليّون مثل جيري فالويل أنّ العالم المتمدّن ينحلّ أخلاقياً الآن، ويعزون الوضع، حيث يبدو أن

الإبليس «قد انتصَر»، إلى «الأخلاق الوضعية والتضليل الثقافي والتثاقف وغياب الخلاص الشامل».

ولشرعنة موقفه، أي أنّ الحادي عشر من أيلول كان ردّ فعلٍ غاضباً من الربّ على الإجهاض والمثلية الجنسية وغيرهما من موبقات المسيحيين الإنجيليين، رجع فالويل إلى الكتابات المقدّسة في خطابه إلى طلبة جامعة الحرية، التي أنشأها في نفس سنة تأسيس الأغلبية الأخلاقية. «في الأسبوع الماضي، قلتُ لطلبتنا الـ 6647 المسجّلين حالياً في جامعة الحرية بأنني أعتمد عليهم وعلى الـ 69500 طالباً سابقاً أو أكثر لكي يتصرّفوا على وجه الدنيا باسم المسيح وهم يتجاوزون أحلامهم الأكثر طيشاً».

حديثاً، أشار فالويل إلى أحداثٍ أخرى تدعم نظريته في الحرب بين الشيطان واللّه. «شرعنت المحاكم الاتحادية اللواط وصرّحت بأنّه من غير المشروع الإعلان عن الوصايا العشر في محكمة للقضاء الاتحادي». كما اشتكى بمرارة من الكشّافة لأنّهم يدافعون عن قيمٍ أخلاقية جليلة ومن أنّ يمين الولاء للعلم قد أُعلن لا دستورياً، ومن أنّ الكنيسةَ الأسقفية قد استغرقت في هاويات الرذيلة برفعها قسّاً لوطياً معلناً إلى مرتبة أُسقف. يقول: «كان يجب أن يُجرّد الرجلُ من ثوب الكهنوت حينما هجر امرأة وأطفالاً للعيش مع عشيقه. في الغرب، أُستُبدِل إله المسيحية بآلهة الحداثة والمال والجنس والشهرة والسلطة. يسمح هؤلاء الآلهة بتزيين الحياة ولكنها لن تُحسن تغذيتها. إذا ماتت المسيحية في أمّة غربية، فذلك يعني أنّ أمّة غربية رافضة للمسيحية تحتضر».

* * *

عام 1979، حينما احتجز التماميّون الإسلاميون أمريكيين رهائن في إيران، لم يلزم وقتٌ طويل لرونالد ريغان، الذي شاهد نفوذ المسيحيين الإنجيليين الذين كانوا يدعمونه، كي يُعلن للشعب الأمريكي بأنّ اللّه كان يشكّل بقوّة جزءاً من كامل القوّة العسكرية العظيمة المخصّصة لحماية البلاد. كذلك بعد الحادي عشر من أيلول 2001، احتاج جورج دبليو بوش إلى وقتٍ أقلّ ليقتنع أو يُقنع أصدقائه الإنجيليين بأنّ الروحانية والإيمان بالتفسير الحرفي للكتاب المقدّس وجيشاً قوياً

هي أفضل الأسلحة لإنقاذ الديمقراطية وللحفاظ على المسيحية وحمايتها. منذ أحداث الحادي عشر من أيلول، أحاط جورج دبليو بوش نفسه بأناسٍ، إن لم يكونوا بأكملهم مسيحيين خلاصيين بالمعنى الحصري، فإنّهم يظلّون مصمّمين على التدخل عسكرياً في كلّ مكانٍ يشكّل الإسلام فيه تهديداً للقيم الغربية. ليس جميع مستشاري السيد بوش وكل الذين يحيطون به مسيحيين إنجيليين، بيد أنّ فهمهم للعالم وللإسلام هو نفس فهمهم لهما. الخلاف الوحيد يكمن في الأولوية: الأمر يتعلّق بمعرفة ما الذي يأتي أوّلاً، الدين أم الأسلحة، في لحظة سحق هذا العدو العالمي الجديد. بعد الحادي عشر من أيلول بشكلٍ خاصّ، أيّد المبدأ الإنجيلي عن «الميثاق الخاص للّه مع الشعب الأمريكي» ظهور شكلٍ من القومية الدينية التي اكتسبت تقاليد دينية أخرى في البلاد كالكاثوليكية الرومانية واليهودية. ومثلما أعلن ذلك مؤخراً جوزيف ليبرمان، اليهودي والطامح السابق إلى ترشيح الحزب الديمقراطي أثناء الانتخابات الرئاسية لعام 2000: «من الآن فصاعداً، نحن جميعنا إنجيليّون».



نظراً للحيّز الذي يشغله الإرهاب اليوم في العالم، لا ريب في أنّ الإسلام الراديكالي بات المنظّمة الأولى المصرّة على تدمير القيم الغربية والديمقراطية. هجمات مدريد في الحادي عشر من آذار 2004 مثال ممتاز على قدرات هذه الشبكة وعزيمتها. مع ذلك، ربّما الأكثر بلاغةً هو خطأ الإدارة الأمريكية التي طالما حكمت بضعف أوروبا وهشاشتها مستندة حيال كلّ بلدٍ على موقفها الإيديولوجي وعلى نتيجة صناديق الاقتراع. إذا التزم المسيحيّون بالمعادلة التوراتية عدو عدويّ صديقي، إذاً تشكّل القاعدة من الآن فصاعداً بالنسبة لنا عبارة شاملة تستخدم في الإشارة إلى جميع الجماعات الإرهابية الإسلامية الراديكالية. من جهة أخرى، لدى كلّ بلد أوروبي، سواء كان يمينياً أو يسارياً، رأي مختلف حول فرصة الانضمام إلى أمريكا أو عدمه في حربها الصليبية على الإرهاب. فهكذا يتبيّن لنا أن «اليمينَيْن» الإسباني والإيطالي انضمّا إلى التحالف الأمريكي في حين امتنع اليمين الفرنسي عن ذلك. بسبب تشابك التحالفات وغياب مواقف سياسية

واضحة في أوروبا، لم يعد هناك خيار سياسي مؤكّد يمكن أن يتيح لبلدٍ أن يكون في مأمنٍ من إرهاب القاعدة. كان الأسبان معارضون على نطاقٍ واسع لأي تورطٍ لبلادهم في العراق، حتى وإن كان الاشتراكيون هم من اتّخذوا هذا الموقف في برنامج حزبهم. في فرنسا، كان ردّ فعل السكان هو ذاته، ولكن الاشتراكيون واليمين هم من عبّروا عن تلك المعارضة. في عموم أوروبا، كانت الشعوب بوضوح مطلق ضدّ أيّ تدخّلٍ في العراق، في حين أنّ نسبة الأشخاص المؤيدين لعمل كهذا مرتفعة للغاية في الولايات المتّحدة، على الأقلّ في البداية.

هل يعني هذا أن حكومة جاك شيراك ستتمكن من ضمان انعدام أيّ هجومٍ إرهابيٍّ على الأراضي الفرنسية؟ لا شيء مؤكّد أبداً. في المحصلة، أُبقيَ على القانون الذي يحظر ارتداء الحجاب وغيره من الرموز الدينية في المدارس العامّة، الأمر الذي أثار غضب الجالية المسلمة الجديدة في عموم البلاد.

لا يمكن لانفجار القنابل في مدريد قبل الانتخابات العامة ببضعة أيام بغية تأمين فوز الاشتراكيين والحصول على انسحاب القوات الاسبانية من العراق أن يكون بمثابة انتقامٍ من قبل القاعدة في أعقاب الإطاحة بصدام حسين من قبل التحالف. في بداية الحرب على العراق، لم تحمي القاعدة (بالمعنى العام) سيادة الحكومة العراقية في مواجهة غزو القوات الأمريكية، وإنّما كانت تغذّي رؤى على المدى الأطول، أي إقامة حكومة شيعية في بغداد لتحلّ محلّ حسين. هناك أسباب وجيهة للاعتقاد بأنّ الإرهابيين، وعوضاً عن السعي إلى منع سقوط صدام حسين، على العكس من ذلك، قد ابتهجوا للتدخّل الأمريكي. ولذلك وفّروا قواتهم الخاصّة، مدركين أن نظاماً ديمقراطياً على النموذج الأمريكي كان في كلّ الأحوال مستحيلاً. إذاً، راهنت القاعدة على مجيء حكومة إسلاميّة حليفةٍ، من المحتمل أن تقدّم لها القواعد لعملياتها في أفغانستان وإيران وكذلك الملاذ لزعمائها في المناطق الجبلية من البلاد.

كانت الهجمات الإرهابية في إسبانيا مأساوية بسبب عدد القتلى والجرحى بإصابات بليغة، لكن الانتصار الحقيقي للقاعدة كان حقيقة أنّها المرّة الأولى التي نجحت فيه هذه الشبكة في التأثير على نتائج انتخابات. علاوة على ذلك، نجحت في الحصول على وعدٍ من الحكومة الإسبانية بسحب قواتها، ونجحت على نحوٍ

خاص في إفساد متزايد للعلاقات بين الولايات المتّحدة وأوروبا وفي زعزعة استقرار حكومة توني بلير في المملكة المتّحدة على نحو جدّي.

هل ستقع أحداث مماثلة في بلدانٍ أخرى قبل الانتخابات العامّة؟ بالتأكيد. هل ستكسب القاعدة أنصاراً جدداً بعد انتصارها في إسبانيا؟ حتماً. هل ستتعمّق الهوّة بين الولايات المتّحدة وأوروبا؟ دون أدنى شكٍّ.

لم يعد من الممكن أن تُحلَّ المسائل السياسية ولا أن تُحسَم من قبل طرفي القضايا. جورج دبليو بوش ساذجٌ حينما يقول للعالم: «إمّا أن تكونوا معنا، وإمّا أن تكونوا ضدّنا في مكافحتنا للإرهاب». الحكم السياسي الواضح الوحيد المشروع اليوم في العالم هو ذلك الذي وُجِدَ في ملاحظة تركها الإرهابيون بعد الهجوم على مدريد: «أنتم تحبّون الحياة ونحن نحبّ الموت».

القبول بـ أو رفض يسوع-المسيح كمخلّصٍ لكلّ البشرية هو بديلٌ آخرُ من نفس الطراز، ولكن لم يعد من الممكن أن تحسَم ولا أن تُحلّ المشكلة بهذه الطريقة. سيخطئ مواطنو العالم المؤمنين بواقع أنّ ثمّة تماماً حربٌ عالمية، يهاجم فيها الإسلاميون المتشدّدون مدنيين أبرياء، باعتقادهم أنّ مجموعاتٍ هامشية أخرى من المجانين غير إسلامية ليست مستعدّة لأن تصطفّ إلى جانب هؤلاء المتعصّبين. كما أنّه سيكون خطأً جسيماً الاعتقاد بأنّ أفضل حصانة ضدّ الإرهاب الإسلامي الراديكالي هو الإيمان بيسوع-المسيح، إضافة إلى دائرة استخبارات فعّالة وتسليحٍ متكلّفٍ. في هذا الخصوص، كان تصريحٌ أدلى به جون آشكروفت غداة هجمات مدريد جارحاً وغير مهذّبٍ في آن. «أنا أتألّم من أجل العالم أكثر مما أتألّم لإسرائيل، لأنّ إسرائيل ستنهض من جديد وستنتهي الأمم في الظلمات». فإذا أُخذ الأمر حرفياً، فإنّه من الواضح أنّ الأمر يتعلّق هنا بمرجعٍ توراتيٍّ عن التحالف الخاصّ المعقود من قبل اللّه مع الشعب اليهودي. ولكنْ إذا ما وُضِع هذا الكلام في سياقٍ أوسع وأكثر إظهاراً، دون الأخذ بالحسبان الجانب التوراتي، فمن الجليّ أن إسرائيل أكثر إدراكاً لحجم التهديد الإرهابي من الكثير من الأمم الأخرى، بما فيها الولايات المتّحدة التي تمثّل الآن في العالم واجهة مقدّمة هذه المبادرة المؤسفة.

الحرب الصليبية الأخيرة...

حربٌ لا منتصرين فيها

في أوّج حملته الانتخابية لولاية ثانية، وعد الرئيس بوش الأمريكيين بسحق الإرهابيين، ولكنّه أيضاً وجّه تهديداتٍ إلى الدول التي تؤويهم، بحيث أنّ ساحة المعركة قد اتّسعت على نحوٍ كبيرٍ وخطير. منذ بعض الوقت، كان ينوي تقليص التزامات أمريكا خارج حدودها. الآن يطرح نفسه كزعيمٍ عالميٍّ أقسم على أن يعزل أسامة بن لادن وصدّام حسين وأيَّ طاغية عربيٍ آخر يهاجم الولايات المتّحدة. كذلك أظهر نفسه كزعيمٍ متديّن مصمّمٍ على فرض الديمقراطية والقيم المسيحية على العالم بأسره. هذا النمط من التحدّي أغرى المسيحيين الإنجيليين أكثر من سواهم، مما جعلهم دون شك، راغبين، في تشرين الثاني 2004، أن يُنتَخَب من جديد للبيت الأبيض.

بعد أن تحدّى العراق لزمنٍ طويلٍ الأمم المتّحدة برفضه السماح لمفتّشيها بالوصول إلى المخابئ المفترَضة لأسلحة الدمار الشامل، أصبح الهدف الأوّل للتهديدات التي أطلقها السيد بوش. في الواقع بعد هجمات الحادي عشر من أيلول 2001 الإرهابية مباشرةً، ألقى الرئيس خطاباً وردت فيه العبارة الأكثر جدارة بالذكر على مدار سنواته الأربع الأولى في البيت الأبيض. محدّداً العراق وكوريا الشمالية وإيران كـ «محورٍ للشرّ»، استخدم، لتحديد سياسته الخارجية، لهجة قاسية وصارمة، عدّلت، مضافَة إلى القوة العسكرية، سلوك القادة المعادين في العالم أجمع. في 20 كانون الثاني، وفي «خطابه حول حال الاتحاد» التقليدي، حيّا الرئيس الإرادة التي أبدتها ليبيا في المباشرة بتفكيك ترسانتها من الأسلحة غير التقليدية وحثّ بقية الأمم العربية على أن تحذو حذوها. وفي

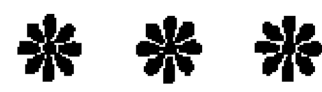
الحال، شَرِعَ في مقارنته برونالد ريغان الذي عبّر هو الآخر عن رأيه بصراحةٍ قاسية في عام 1980عندما طالب الاتّحاد السوڤيتي بتفكيك أسلحته للدمار الشامل ووبّخ زعيمه قائلاً : «اهدموا هذا الجدار، يا سيد غورباتشو؟». وقد صرّحت كوندوليزا رايس، مستشارة السيد بوش للأمن القومي، بهذا الخصوص: «إذا كان رونالد ريغان قد أنعش مَنْ في الداخل بإظهاره لهم بأنّه كان لهم أصدقاء في العالم وكان بإمكانهم أن يقولوا ما كانوا يعتقدون به...، فإنّ السيد بوش أيضاً قد غيّر المشهد بحديثه عن محور الشرّ».

في تصريحاتهم إلى الصحافة، اتّفق زعماء الدول الإسلامية في كلِّ العالم العربي على الإقرار بأنّ جورج دبليو بوش عدّل طبيعة العلاقات بين الإدارة الأمريكية والعالم الإسلامي. وحسب عبد الرحمن الراشد، كاتب الافتتاحيات السعودي ورئيس التحرير السابق ليومية الشرق الأوسط التي تصدر في لندن»، لقد غيّر [تصرّفُ بوش اتجاه العالم العربي] حالةَ الجمود statu quo في المنطقة للمرّة الأولى منذ الثورة الإسلامية في إيران عام 1979». ولكن علاوة على تغيير حالة الجمود في الشرق الأوسط، كذلك غيّر أسلوب بوش ذهنية الأمريكيين في بلدهم.

من المسلّم به عامّة، أنّ السياسيين الأمريكيين بمختلف مشاربهم يؤمنون بالحقيقة المطلقة وهم واثقون من معرفة ما ينتظر اللّه منهم لأنّ إرادة جلاله وليست إرادتهم هي التي ستنقذ المسيحية وستحمي الديمقراطية. ولذا بُرِّر ردُّ الفعل على الحادي عشر من أيلول بالدين بقدر ما بُرِّرَ بالحاجة إلى الانكباب على انتقامٍ عسكري. ودوى صوت رجال الدين قوياً بقوة صوت السياسيين. لمزيدٍ من حمايةِ أمريكا، استمر المسيحيّون الإنجيليون في التأكيد، بحماسة وطنية فائقة، أنّ أوج الخطيئة يكمن في أن ندع أجيال المستقبل تقبل بأن من الممكن للوطنية أن تكون دون المعتقدات الدينية العميقة.

ما هو الثمن النهائي لهذه الوطنية؟ هل تجازف الولايات المتّحدة، الأمّة الديمقراطية عن حقّ والقائمة على فصلٍ دستوريٍّ بين الكنيسة والدولة، بالتحوّل إلى بلدٍ تُفرضُ عليه العقيدة الجامدة لمجموعة نافذة كقانونٍ أخلاقي؟

في مقابلة حديثة أجريتها مع مستشارٍ مقرّبٍ من الرئيس بوش، أصرّ هذا المحاور، المسيحي الإنجيلي، على أن يسرد لي حكاية فارسية تعود إلى عام 1050. بالنسبة له، كان مغزى القصّة «واضحاً»، ولكنّه حرِص على أن يقدّم لي تفسيره، أي أنّ غريزة الموت قتلاً «موجودة في مورّثات كلِّ العرب منذ غابر الأزمان».



أقسم عمر الخيّام في شبابه واثنين من أصدقاء المقرّبين بأنّ أوّل من سينجح في حياته، من بين ثلاثتهم (نظام وحسان وعمر الخيّام)، سيستخدم قوته وماله لمساعدة الاثنين الآخرين. ولما نال نظام الثروة والمجد عندما أصبح وزيراً للسلطان الفارسي، وفى باليمين الذي كان قد قطعه على نفسه حيال زميليه وذلك بمنحهم منصبين في حكومة البلاد. قبل حسان بالمنصب، ولكنّ عمر طلب إلى صديقه أن يتكفّل بحاجاته بينما هو سينظم قصائد. سرعان ما أصبح حسان خطراً على صديقه ووليِّ نعمته، الذي كان قد حاول أن يقبله في بلاط السلطان. حينما شعر نظام بمؤامرة مدبّرة من قبل حسّان لتشويه سمعته، طرد من بلاط السلطان الخائن الذي فرّ إلى القاهرة التي أعدّ فيها انتقامه. هناك، اتّصل بطائفة إسلامية تدعى «الإسماعيليون». وكانت تلك طائفة سريّة كان أعضاؤها يدّعون بأنّهم يمتلكون معرفة باطنية متقدّمة جدّاً تضعهم فوق القوانين، وحتى فوق شريعة الإسلام. عام 1080، عاد حسان إلى بلاد فارس وعلّم ما كان يسمّى «الدعاية الجديدة». ولما بات مهدّداً من قبل رجال السلطان وصديقه القديم نظام، ذهب ولجأ إلى ألَموت في قصرٍ بعيدٍ حصينٍ للغاية مقامٍ على ألفي مترٍ فوق سهلٍ خصبٍ بطول خمسة وأربعين كيلو متراً. عاش هناك وانتهى إلى أن يُسمى «شيخ الجبل». في سرده لمغامراته، يتحدّث ماركو بولو عنه بالعبارات التالية: «كان الشيخ يأوي في ديوانه الصبيان البالغين اثنتي عشر سنة الذين كانوا في رأيه سيصبحون رجالاً شجعاناً. حينما كان يرسلهم إلى الحديقة في مجموعاتٍ تضمّ أربعة أو عشرة أو عشرين، كان يسمح لهم أوّلاً بشرب الحشيش، الأمر الذي كان يجعلهم ينامون لثلاثة أيام. ثم كان ينقلهم في الحديقة وهم نائمون وكان يأمر

بإيقاظهم. فكانوا يجدون أنفسهم محاطين بفتيات مستعدات لتلبية أدنى رغباتهم. كان الشباب يعتقدون بأنّهم في الفردوس وكان الوقت يمضي بالأغاني والرقصات. كان يقدّم لهم كل ما كانوا يريدون حتى لا يرغبوا قط في مغادرة الحديقة. وحينما كان الشيخ يريد قتل عدوٍّ، كان ينتحي بأحدهم جانباً ويقول له: «اذهب وافعل ذلك، اخترتك لهذه المهمّة لأنني أريدك أن تعود إلى الفردوس». وكان القتلة ينطلقون بملء إرادتهم لتنفيذ تلك المهمّة المشؤومة».



بعد عدّة أسابيع من تلك المقابلة، رددتُ على ذلك المستشار المقرّب من الرئيس بوش، بأن أرسلت له مسرحية روبرت بولت، رجلٌ إلى الأبد. في مشهدٍ وثيق الصلة بالموضوع والذي كنتُ قد أشرتُ إليه، يلوم روبر، الفتى العاشق لابنة توماس مور، الصادق الأمين، هذا الأخير لوضعه شريعة البشر فوق شريعة اللّه. يدافع مور عن نفسه، متحججاً بأنه يفضّل التمسّك بالشرعية الصارمة.

روبر: إذاً ستمنحون للإبليس نعمة القانون!

مور: تماماً. ماذا تقترح، أنت؟ فتح ثقبٍ كبيرٍ في القانون من أجل مطاردة الإبليس؟

روبر: سأسقط من أجل ذلك كلّ قوانين إنكلترا!

مور: حسناً. وحينما سيكون آخر قانونٍ على الأرض، وحينما سيطوف الإبليس من حولك- أين ستذهب لتختبئ، يا روبر، وقد غدت كلّ القوانين راقدة على جنبها؟ هذه البلاد مزروعة بالقوانين المضمومة إلى بعضها- بالقوانين الإنسانية وليست الإلهية- وإذا ما أسقطتها-، وهو ما أنت قادرٌ عليه-، هل تعتقد حقّاً بأنّك ستتمكّن من البقاء واقفاً أمام الريح التي ستهبّ؟ فإذن نعم، سأمنح للإبليس نعمة القانون، وهذا في سبيل سلامتي الخاصّة.

وجدت الولايات المتّحدة، القوة العظمى الوحيدة من الآن فصاعداً، نفسها في مواجهة مأزقٍ أخلاقيٍّ عويصٍ. هل نحن منخرطون في حربٍ صليبية أخيرة

لنشر القيم المسيحية في العالم أجمع أم أننا نشنّ حرباً ضدّ عدوٍ قاتلٍ دون لباسٍ مميّزٍ له ولا أيّة إشارة أخرى للتعرّف عليه، حربٌ خطوط جبهتها غير متوقّعة ومتحركة بلا توقّف؟

بالنسبة للذين يعتبرون بأنّ الإيمان شأنٌ خاص لا مكان له في السياسة أو في إدارة البلاد أو في البلاد، الحماية من شرور الإرهاب منوطة بالزعماء المنتَخَبين، الموجودين من حيث المبدأ للدفاع عن قوانين الأمّة. يجعل المسيحيون الإنجيليون من عرقٍ بأكمله تجسيداً للشيطان لأنّ ذلك هو السبيل الوحيد الذي يتصرّف به الرّب لكي يحمي الأبرياء من الشرّ ويضمن بقاء الديمقراطية والمسيحية. ولكن عقيدة كهذه تجازف بقوة بتقسيم المجتمع.

ليس الموضوع هو إعادة طرح موضوع وجود اللّه، وعلى أيٍّ حال ليس في إطار حملة كوكبية هادفة إلى تخليص العالم من أفرادٍ يسعون، لأيٍّ سببٍ كان، إلى إشاعة الرعب، وهم يتسبّبون على نحوٍ عابرٍ بآلامٍ وعذاباتٍ يعجز عنها الوصف أو يزهقون أرواحاً بشرية. إذا كان ينبغي اليوم محاربة الإرهاب الإسلامي، على كلٍّ واحدٍ منا أيضاً أن يخوض قتالاً داخلياً حتى يستجيب بطريقة تكون أخلاقياً سليمة ومتّزنة، وأن نعوّض بذلك الخسائر المرعبة المفروضة في هذه الحرب على جميع الأطراف. ومهما يكن، في الولايات المتّحدة كما في بقية العالم، ما أن يدخل الدينُ طرفاً في صراع حتى يصبح باستمرار عقبة في طريق إعداد حلٍّ عادلٍ ودائم. ما هو مؤكّدٌ أكثر، هو أنّه حينما يمسك المتطرفون الدينيون بزمام السلطة، يتحمّل الذين لا يؤمنون تماماً بمعتقداتهم العواقب الوخيمة. والأكثر مأساويةً أيضاً، هو أنّ هذه العواقب ستستند على أخلاقٍ معصومةٍ، تمليها إرادة اللّه. بالنسبة لكلٍّ من يعيش في هذا العالم المليء بالعنف والكراهية، هذه حربٌ لا منتصرين فيها.

الفهرس

باربرا ڤيكتور

الحرب الصليبية الأخيرة

يقول جورج بوش الإبن رئيس الولايات المتحدة الأميركية:

– إن الله شاء لي أن أصبح رئيساً للولايات المتحدة الأميركية.

– لا يمكن للمرء أن يكون رئيساً لهذه البلاد [الولايات المتحدة] من دون الايمان بالله، ومن دون قناعة بأننا الأمة الوحيدة الخاضعة لأوامر الله.

– من لا يؤمنون بيسوع المسيح، بمن فيهم اليهود، سيذهبون إلى الجحيم.

– أنا ملتزم كأي مسيحي خلاصي، وهذه طريق بلا نهاية.

– لقد أختارني الله للأميركيين جميعاً، ديمقراطيين أم جمهوريين، مسحيين أم يهود. في المحصّلة أنا في عهدة جلاله.

يتناول هذا الكتاب مسار سيطرة المسيحيين الخلاصيين، الذين يؤمنون بأن قيام دولة اسرائيل هو المقدّمة الضرورية، لقيامة المخلّص المسيح وسيطرة المسيحيّة الحقيقية في العالم.

وهم لهذا يدعمون اسرائيل بكل امكاناتهم، ويلعبون الدور الرئيسي في الضغط على رؤساء أميركا لدعم اسرائيل. باعتبارها آخر حرب صليبية ويعتبرون أن الرئيس الحالي جوج دبليو بوش يقود حرباً هي آخر الحروب الصليبية من أجل هذا الهدف. وينتمي إلى هذا التيار كل الذين يطلق عليهم تسمية " المحافظون الجدد".

يقول أحد أبرز زعمائهم، ديفيد بارسونز: "ما لم يفِ الله بوعوده لإسرائيل وللشعب اليهودي، كيف سيمكنني أن أنتظر منه أن يحترم ميثاقه معي كمسيحي"





المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 22 212+ فاكس: 305726 22 212+
بيروت: ص.ب: 113/5158
هاتف: 750507 1 961+ فاكس: 343701 1 961+
markaz@wanadoo.net.ma cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 9953-68-168-6

